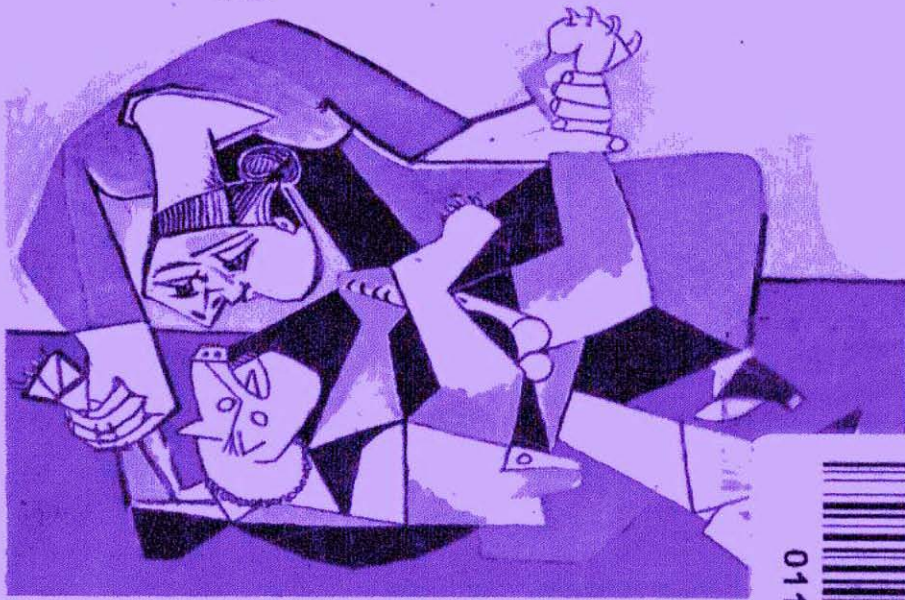


جوزيف كونراد

تحت أظفار خريبة



ترجمة: توفيق الأسدي

0117757



Bibliotheca Alexandrina

روايات عالية «٢٥»

الإشراق الفعيل: صيراحه

تحت إشراف وزارة التربية

سلسله وايات عالميه

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	823
رقم التسجيل	ك و ن ت

١٨٥١٧-١٩٩٠
مؤلف كوندراو

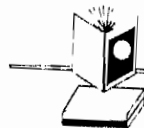
823.٩١٢
ك و ن
ت

تحت أنظار مغربية



Department of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliothèque de l'Université de l'Alexandrie

ترجمة: توفيق الأسدي



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٠

العنوان الأصلي للكتاب

UNDER
WESTERN EYES

JOSEPH CONRAD

تحت انظار غربية = Under western eyes : رواية /
تأليف جوزيف كونراد ؛ ترجمة توفيق الاسدي . ط ١ . -
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٠ . - ٥٠٣ ص . ؛ ٢٤ سم . -
(روايات عالمية ؛ ٢٥) .

١ - ٨٢٣ ن ك و ن ت ٢ - العنوان ٣ - كونراد
٤ - الاسدي ٥ - السلسلة

مكتبة الاسد

الايداع القانوني : ع - ١/١/١٩٩٠

جوزيف كونراد

ولد جوزيف كونراد في إحدى المقاطعات الأوكرانية من بولندا عام (١٨٥٧) والتي كانت دند طويل تحت حكم القيصرية الروس . كان الطفل الوحيد لـ « أبولوناليتش كورزينوفسكي » وزوجته « ايفيلينا بوبروفسكا » ، وكان اسمه الكامل هو « يوزيف تيودور كونراد ناليتش كورزينوفسكي » . كان والداه من طبقة ملاك الأرض ، وكان أبوه ذا نشاط في الحركة البولندية السرية الوطنية .

حين بلغ كونراد الثالثة من عمره أُلقي القبض على أبيه من قبل السلطات الروسية ونفي إلى منطقة في الشمال الروسي ، وقد سمح له باصطحاب زوجته وابنه تحت شروط النفي نفسها . هذا وقد تدهورت صحة ايفيلينا وتوفيت في المنفى عام (١٨٦٥) . وبعد عامين منح « أبولو » عفواً مشروطاً ، ولكن سبع سنوات قضاها في الحرمان تركت تأثيرها على صحته فمات في « كراكوف » عام (١٨٦٧) تاركاً كونراد اليتيم في رعاية خاله « تاديوش بابروفسكي » .

وحين بلغ كونراد الخامسة عشرة وحتى السابعة عشرة أدهش خاله ومعلمته بتعبيره عن تصميمه على الذهاب إلى البحر ، وهي حرفة غريبة على أناس هم من سكان الداخل ويهتمون تقليدياً بزراعة الأرض . ولكن

كونراد ألحّ على ذلك ، وفي عام (١٨٧٤) سافر إلى مرسيليا ليصبح بحاراً . كان يتحدث الفرنسية بطلاقة وتعرف على أشخاص يعملون في الميناء . وبعد خبرة اكتسبها على ظهر سفينتين ، أصبح واحداً من مجموعة من الناس للذين اشترى سفينة حمولتها واحد وستون طناً « تريولينو » ، وعملوا عليها في مجال التهريب حتى تم تدميرها على نحو متعمد كما وصف كونراد هذه الأحداث في فصل من كتابه « مرآة البحر » . كما يتحدث كونراد عن المزيد من هذه التجارب في كتابه « السهم الذهبي » .

كانت أول سفينة انكليزية عمل عليها كونراد هي « مافيس » التي التحق بها في مرسيليا عام (١٨٧٨) وعلى ظهر هذه السفينة وصل أول مرة إلى الشاطئ الانكليزي ورأى انكلترا للمرة الأولى في حياته . ثم أبحر على سفينة أخرى إلى أستراليا . بعدها عاد إلى انكلترا في عام (١٨٨٠) .

بعد ذلك خدم كضابط على عدد كبير من السفن وارتحل إلى أجزاء عديدة من العالم ، خاصة عبر المحيط الهندي والملايو وخليج سيام . ونرى ذلك في عدد من أشهر أعماله : « الشباب » ، « حماقة أولمبير » ، « طريد البحر » ، « زنجي نارميسوس » ، « الشريك السري » وغيرها . ثم أصبح قبطاناً ثم مواطناً انكليزياً عام (١٨٨٦) .

في عام (١٨٩٠) سافر إلى الكونغو البلجيكية ليصبح قبطان باخرة نهرية ، وبذلك فقد حقق أمنية طفولية حين أشار مرة بأصبعه وهو صغير إلى قلب أفريقيا وقال : « سأذهب إلى هناك » . ومن تجاربه في الكونغو أصيب كونراد بالضعف الجسماني وباليقظة النفسانية أيضاً ، كما أنه بدأ يكتب جدياً في تلك المرحلة . وقد عبر عن رحلة الكونغو في قصته الشهيرة « قلب الظلام » وذلك بعد اثني عشر عاماً من تلك التجربة .

كان أول عمل منشور له هو « حماقة أولمبير » . وقد شجّعه ناشره على الاستمرار في الكتابة فاستقر على اليابسة وتزوج من « جيسي جورج » وهي إنكليزية في عام (١٨٩٦) . ولكن كتبه لم تلاق نجاحاً جماهيرياً حتى نشر « الحظ » - (حكاية في جزئين) عام (١٩١٤) . ويعتقد أنه كتب أعظم رواياته مع مطلع القرن : « لورد جيم » و « نومسترومو » و « العميل السري » و « نحت أنظار غربية » . هذا وقد رزق كونراد بولدين .

توفي كونراد بعد مرض طويل من نوبة قلبية فجائية في الثالث من آب عام (١٩٢٤) ودفن في إنكلترا في كاتربري ، حيث تحمل شهادة قبره اسمه البولوني .

أعمال هوزيف كونراد

- ١ - حماقة أولماير - حكاية نهر شرقي : ١٨٩٥
- ٢ - طريد الجزر ، ١٨٩٦
- ٣ - زنجي «نارسيوس» - حكاية بحرية : ١٨٩٧
- ٤ - حكايات الاضطراب (ونحوى : «كاراين ، ذكري ،
«الحقى ، «مخفر أمامي للتقدم ، «العودة» و «البحيرة» .
- ٥ - لورد جيم - حكاية : ١٩٠٠ (مترجمة إلى العربية)
- ٦ - الوارثون - حكاية استثنائية . (بالاشتراك مع فورد
مادوكس هيوغر .) ١٩٠١
- ٧ - الشباب : حكاية ، وقصتان أخريان : (المحتويات :
« الشباب » (مترجمة إلى العربية) ، «قاب الظلمة» (مترجمة إلى العربية)
و «نهاية الطول» .) ١٩٠٢
- ٨ - الاعصار الاستوائي وحكايات أخرى . (المحتويات :
« الاعصار الاستوائي » ، «آمي فوستر» ، «فولك» و «غدا» .) ١٩٠٣
- ٩ - حكاية رومانسية - رواية : (بالاشتراك مع فورد مادوكس
هيوغر) ١٩٠٣

- ١٠ - نوسترومو - حكاية ساحلية : ١٩٠٤
- ١١ - مرآة البحر - ذكريات وانطباعات : ١٩٠٦
- ١٢ - العميل السري - حكاية بسيطة : ١٩٠٧
- ١٣ - مجموعة سداسية : (المحتويات : « غاسبار رويز » ،
« المخبر » ، « المتوحش » ، « فوضوى » ، « المبارزة » و « ايل كونداه »)
١٩٠٨
- ١٤ - تحت أنظار غربية : ١٩١١
- ١٥ - سجل شخصي : ١٩١٢
- ١٦ - بين البر والبحر - حكايات : (المحتويات : « ابتسامه
حظ » ، « المشارك السري » ، « فريا ذات الجزر السبع »)
١٩١٣
- ١٧ - الحظ - حكاية في جزئين : ١٩١٣
- ١٨ - نصر - حكاية عن جزيرة : ١٩١٥
- ١٩ - ضمن التيارات - حكايات . (المحتويات : « مزارع
مالاتا » ، « الشريك » ، « نزل الساحرتين » و « بسبب الدولارات »)
١٩١٥
- ٢٠ - خط الظل - اصتراف : ١٩١٧
- ٢١ - سهم الذهب - حكاية بين ماحوظتين : ١٩١٩
- ٢٢ - الانقاذ - حكاية رومانسية عن المياه الضحلة : ١٩٢٠
- ٢٣ - ملاحظات عن الحياة والأدب : ١٩٢١

- ٢٤ - المتجول (أو القرصان) : ١٩٢٣
- ٢٥ - العميل السري - دراما في أربعة فصول . (رواية) ١٩٢٣
- ٢٦ - «آن الضاحكة» و «يوم واحد آخر» (مسرحيتان من فصل واحد اعتماداً على القصتين : «بسبب الدولارات» و «غداً») : ١٩٢٤
- ٢٧ - تشويق - رواية نابوليونية : ١٩٢٥
- ٢٨ - حكايات الاشاعة : (المحتويات : «روح المحارب» ، «الأمير رومان» ، «الحكاية» و «الرفيق الأسود») : ١٩٢٥
- ١٩ - المقالات الأخيرة : ١٩٢٦

• • •

« سأخذ الحرية من أمانة يد
كما ينحطف الجائع كسرة من الخبز »

الآنسة هالدين
أحدى شخصيات الرواية

للإهداء

« إلى أغنيى توبين » التي جعلت
إلى بابنا عبقرية كما
في مجال الصدقات من
أقصى شواطئ الغرب .



ملامحة بقلم المؤلف

لابدّ من الاعتراف بأنه ، وبسبب من الظروف ، سبق أن أصبحت
« تحت أنظار غربية » نوعاً من الرواية التاريخية التي تتعامل مع الماضي .
هذا ويعتمد هذا الرأي اعتماداً مطلقاً على حوادث الحكاية ، ولكن
بما أنها ككل ، محاولة ليس لتقديم الحالة السياسية لروسيا بل لسيكولوجيتها
بالذات ، فاني أتجرأ فأمل أنها لم تفقد كل أهميتها . هذا ويشجني على
هذا الاعتقاد المداهن أني ألاحظ أن في كثير من المقالات المتعلقة بالشؤون
الروسية في وقتنا الحاضر اشارة إلى بعض الأقوال والآراء الواردة في
صفحات الرواية التي ستقرأونها فيما يلي ، وذلك بأساوب يشير إلى
وضوح رؤياي وصحة حكمي ، ولا حاجة إلى القول إنني في كتابتي لهذه
الرواية لم أضع نصب عيني سوى التعبير على نحو متخيّل عن الحقيقة العامة
التي تكمن وراء أحداثها ، مع قناعاتي الصادقة فيما يتعلّق بالتحديد
الأخلاقي لبعض الحقائق المعروفة للعالم كله تقريباً .

أما بالنسبة إلى الإبداع الفعلي فقد أقول إنني حين بدأت بالكتابة كانت
لديّ فكرة واضحة عن التسم الأول فحسب ، ولم يكن في ذهني من
الشخصيات ما هو محدد تماماً سوى « هالدين » و « رازوموف » و « المستشار

ميكولين » . ولم تتكشف لي القصة يكاملها في صنفاتها التراجمية وسير
حوادثها على نحو محتوم وناضج بما فيه الكفاية ، في المخطط العام لها ،
بحيث يمنح كامل الحرية لغريزتي الابداعية وللإمكانات الدرامية
للموضوع ، إلا بعد أن أنهيت كتابة القسم الأول منها :

لا حاجة إلى شرح سير الحدث . لقد فرض نفسه عليّ كمسألة شعور
أكثر منها مسألة تفكير . انه ليس نتيجة لتجربة خاصة بل معرفة عززها
التأمل الجاد . كان أعظم ما يقلقني هو تمكّني من القدرة على الوصول إلى
لهجة الحيادية الدقيقة والمحافظة حايها . إن الالتزام بالعدل المطلق أمر
فرض عليّ تاريخياً ووراثياً ، بسبب التجربة الخاصة بالعرق والأسرة ،
إضافة إلى قناعتي المبدئية أن الحقيقة وحدها هي مبرر أي عمل قصصي
بدعي كأقل ما يكون صفة الفن أو يأمل في أن يحتل مكانه في ثقافة رجال
ونساء عصره . لم يسبق لي أن تعرضت إلى بذل جهد أعظم من ذلك الذي
بذلته هنا في سبيل التجرد : التجرد من كل العواطف والتحييزات وحتى
الذكريات الشخصية . لم تلاقي « تحت أنظار غريبة » حين صدرت في
انكسار في طبعتها الأولى شعبية لدى القراء ، ربما بسبب ذلك التجرد نفسه ،
ولكنني نلت مكافأتي بعد ذلك بست سنوات حين سمعت لأول مرة
أن الكتاب قد لاقى نجاحاً هائلاً في روسيا وأنه أعيد طبعه هناك مرات
عديدة .

كما أن الشخصيات التي تلعب أدواراً في الحكاية تدين بوجودها ليس
إلى تجربة خاصة بل إلى معرفة عامة بأحوال روسيا وردود الفعل الأخلاقية
والعاطفية الخاصة بالمزاج الروسي على ضغوط انعدام القانون استبدادياً ،
والتي كان يمكنها - ضمن شروط إنسانية عامة - أن تتحول إلى صيغة

اليأس الأحق الذي استفزّه الاستبداد الأحق . ان ما كان موضع اهتمامي هو مظهر وصفة ومصير الأفراد كما بدوا تحت الأنظار الغربية لمعلم عجوز للغات . ولقد تم توجيه نقد كثير إليه هو بالذات ، ولكني لن أقوم الآن في هذا الوقت المتأخر بتبرير وجوده . لقد كان مفيداً لي ولذا أعتقد أنه لابدّ مفيد للقارئ كعماتي وكشخصية تلعب دوراً في تطوير الحكاية . وبسبب رغبتني في تحقيق تأثير واقعي بدا لي أنه غير ممكن الاستغناء عنه ، وذلك ليكون هناك شاهد عيان على ما يحدث في جنيف . كما كنت في حاجة إلى صديق يتعاطف مع الأنسة هالدين التي كان من شأنها أن تكون وحيدة جداً وعزلاء جداً بحيث لا يمكن أن تكون جديرة بالتصديق على نحو كامل دون ذلك الصديق ، ما كان سيكون لديها شخص تستطيع أن تمنحه لمحة من فكرها المثالي وقلبها الكبير وعواطفها البسيطة .

أما رازوموف فيعامل على نحو متعاطف . ولم لا ؟ انه شاب عادي لديه طاقة صحية على العمل وطموحات معقولة . لديه ضمير عادي . وان كان شاذاً إلى حد طفيف فذلك بسبب حساسيته لمركزه . فكونه لا يعرف أمّاً أو أباً يجعله يشعر على نحو أكثر حلة من غيره بأنه روسي : أو هو لا شيء . انه على حق تماماً في أن ينظر إلى روسيا كلها على أنها إرثه . إن العبثية اللسوية للجرائم والتضحيات المتأججة في تلك الكومة غير المنظمة تحيط به وتحطمه . ولكني لا أظن أنه وحش في خلافاته . ليس هناك من هو مصورٌ هنا كوحش : لا « تكلا » الساذجة ولا « صوفيا أنتونوفنا » العنيدة المشبهة برأيها . ان بيتر ايفانوفيتش « والمدمام دوس . . » عبارة عن لعبة مشروعة . انهما قردان من قرود الغابة الشريرة وهما يعاملان كما تستحق تكشيراتها . أما بالنسبة إلى « نيكيتا » الملقب « نيكاتور » ، فهو الزهرة الكاملة التي أنتجتها البرية الارهابية . أما ما

أزعجني أشد الأزعاج بالتعامل فلم تكن فظاعته بل ابتذاله . وقد تم عرض شخصيته على الملأ لسنوات في مقالات صحفية « فضائحية » وكتب سرية وروايات مثيرة .

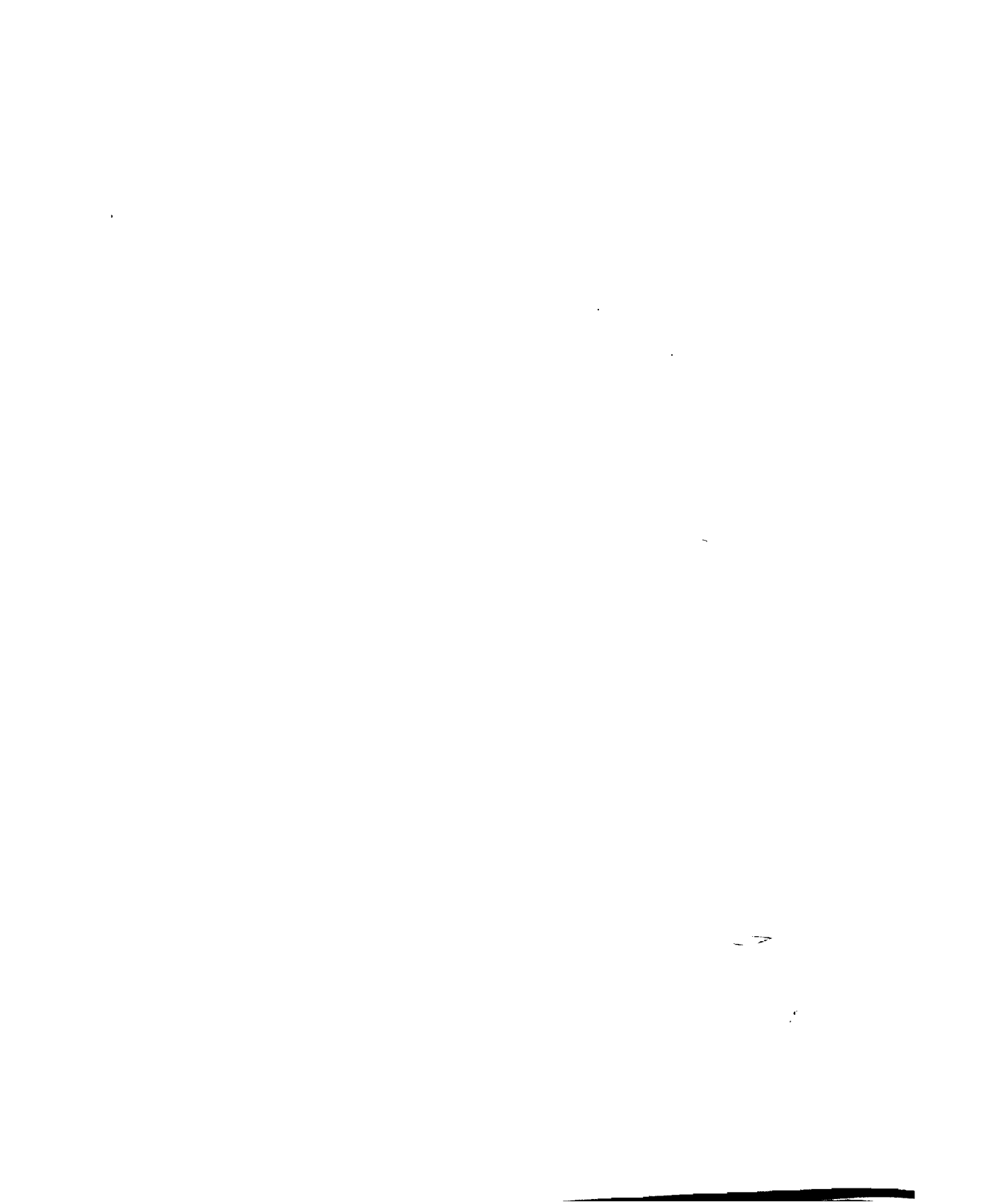
أما أشد الأفكار إثارة للربح (أتحدث الآن عن نفسي) فهو أن كل هؤلاء الناس ليسوا نتاج الاستثنائي بل العادي ، نتاج عادية مكانهم وزمانهم وعصرهم . إن شراسة وغباء نظام الحكم الفردي الذي يرفض كل المشروعية ويؤسس نفسه على الفوضوية الأخلاقية الكاملة يثير الجواب الغبي الذي لا يقلّ وحشية ، جواب الثورية الطوباوية المحضة التي تقوم بالتدمير بأول وسيلة تتوفر في يدها ، وذلك بالقناعة الغريبة بأنّ التغيير الجوهرى للتأوب يجب أن ياحق سقوط أية مؤسسات انسانية معينة . هؤلاء الناس غير قادرين على رؤية أن كل ما يستطيعون أنجازهم هو تغيير الأسماء . المضطهد والمضطهد كلاهما من الروس ، والعالم يواجه مرة أخرى حقيقة القول الذي يفيد بأن النمر لا يستطيع تغيير أقدام جاده كما لا يستطيع الفهد أن يغير رقطه .

١٩٢٠

جوزيف كونراد

• • •

الجزء الأول



تمهيد

كبداية أقول أنني أرغب في التنصّل من الادعاء بأنّي أمتلك تلك المواهب السامية الخاصة بالمخيّلة والتعبير والتي كان من شأنها أن تمكّن قلبي من أن يخلق للقارئ شخصية الرجل الذي كان يسمي نفسه وفق العادة الروسية « سيريل بن ايزيلدور » أو « كيريلو سيدوروفيتش - رازوموف » .

لو كنت أتمتع بتلك المواهب في أي من الأشكال الحية لكأنت ستمتحي من الوجود منذ أمد بعيد تحت عدد هائل من الكلمات ، الكلمات — كما هو معروف — هي العدو الأكبر للحقيقة . أنا معاًم للغات منذ سنوات عديدة ، وهي مهنة تصبح مع الزمن قاتلة لأي نخصة من الخيال أو قوة الملاحظة أو البصيرة التي قد يرثها أي شخص عادي . أما بالنسبة إلى معاًم للغات فقد يأتي وقت يتحرل فيه العالم إلى مكان لكلمات كثيرة ويظهر الانسان كأنه مجرد حيوان ناطق ليس أكثر روعة من ببغاء .

وبما أن الحال على ما هو عليه فما كان يمكنني أن أراقب السيد رازوموف أو أن أحمّن حقيقته بقوة البصيرة ، أو أن أنخيّله بالأحرى على حقيقته . بل حتى أن اخترع حقائق حياته المجردة ما كان شيئاً ضمن قدراتي على الاطلاق . ولكنني أعتقد أنه بدون هذا التصريح حتى ،

سيتمكن قارئو هذه الصفحات من أن يتبينوا في الحكاية آثار الدليل الوثائقي ، وهذا صحيح تماماً . انها مبنية على وثيقة : كل ما أضفته إليها هو معرفتي باللغة الروسية ، وهذا كاف لمحاولتي هذه . والوثيقة ، بالطبع ، شيء أشبه باليوميات ، بالمذكرات ، ولكنها ليست كذلك بالضبط في شكلها الفعلي . مثلاً ، معظمها لم يكن يومياً وان كانت كل فقراتها مؤرخة . بعض هذه الفقرات يغطي شهوراً بحالها ويمتد على عشرات من الصفحات . الجزء الأول منها كله عبارة عن استعادة لحوادث ماضية ، في شكل سردي يتعلق بحدث جرى قبل ذلك بعام واحد .

عليّ أن أذكر أنني أعيش منذ فترة طويلة في جنيف . وهناك حيّ كامل في هذه المدينة يسمى « روسيا الصغيرة » وذلك بسبب كثرة الروس المقيمين فيه . وقد كانت لي علاقات واسعة في « روسيا الصغيرة » في ذلك الحين . ومع ذلك فاني أعترف أنني لا أفهم أبداً الشخصية الروسية . لا يتوجب أن تطرح لا منطقية مواقفهم واعتباطية استنتاجاتهم وتكرار الاستثنائي ، لا يتوجب أن تطرح هذه أية صعوبات على دارس كثير من قواعد نحو اللغات ؛ ولكن لا شك أن هناك شيئاً ما يعترض الطريق ، نزعة بشرية ما : واحد من تلك الاختلافات الدقيقة التي هي أبعد من مرمى بصر شخص عادي . ان ما يجب أن يبقى مذهلاً بالنسبة إلى معلم لغات هو الحب الاستثنائي الذي يبديه الروس للكلمات . انهم يجمعونها ، يبدلون ، ولكنهم لا يبدخونها في صدورهم ؛ بل العكس هو الصحيح ، فهم مستعدون دائماً لصبتها ، في النهار أو في الليل ، بحماسة ، بكلمات هائلة ، وعلى نحو ملائم جداً أحياناً من حيث التطبيق حتى أن المرء - كما

هي الحال لدى البيغاوات الشديدة البراعة - لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الشك في أنهم يفهمون حقاً ما يقولونه . هناك كرم في حماستهم الكلامية تبعتها كأكثر ما يكون عن الثرثرة العادية ؛ كما أنها لا تتحلّى بالترابط وبالتالي لا يمكن تصنيفها على أنها بلاغة ولكن عليّ أن أعتذر عن هذا الاستطراد .

لن يكون هناك طائل في الاستفسار عن السبب الذي حدا السيد رازوموف على ترك سجله هذا . لا يمكن لأحد أن يصدق أنه كان يريد لأي عين بشرية أن تراه . وهنا يلعب دافع غامض يتعلق بالطبيعة البشرية دوراً ما . وإذا ما نحينا جانباً « سامويل بيبس » (١) الذي فتح باب الخلود لنفسه بهذه الوسيلة ، فإن عدداً لا يخصى من الناس ، المجرمون منهم والقديسون ، الفلاسفة والفتيات الصغيرات ، رجال دولة وحمقى سدّج ، قد دونوا مثل هذه اليوميات التي تكشف عن خبايا النفس ، وذلك من باب الخيلاء أو الفراغ دون شك ، وربما بسبب دوافع أخرى أكثر ابهاماً . لا شك أن هناك قوة ملطّفة رائعة كاهنة في الكلمات نفسها حتى أن أناساً كثيرين قد استعملوها لمطارحة الأفكار مع أنفسهم . وبما أنني شخصياً إنسان هادئ الطباع فاني أعتقد أن ما يسمى إليه الناس حقاً هو شكل ما أو ربما صيغة ما من صيغ الطمأنينة . لا شك أنهم سيكون بصوت مرتفع في سبيلها في أيامنا هذه . أي نوع من الطمأنينة كان كيريلوسيلدوروفيتش رازوموف يسعى إليه حين كتب سجله ذلك ؟ هذا ما لا يستطيع عقلي حتى أن يحاول أن يحزره .

(١) سامويل بيبس (١٦٣٣ - ١٧٠٣) كاتب يوميات إنكليزي شهير . (المترجم)

واكن تبقى لدينا حقيقة أنه كتبه بالفعل :

كان السيد رازوموف شاكاً طويلاً القامة متناسق الأعضاء، كما كان لون شعره أداكن بكثير، مما للروس القادمين من المقاطعات المركزية . كان من شأن وسامته أن تكون كاملة لولا أن ملاحظه لم تكن تتمتع بالرهافة : كان يبدو كوجه صبيغ بقوة من الشمع (مع نزعة إلى دقة كلاسيكية نمطية) ثم قرّب من النار حتى ذابت كل حدّة الخطوط مع فويان المادة . ولكن رغم ذلك كان وسيماً إلى حد كاف . كان حسن السالك أيضاً . وخلال النقاش كان من الممكن حملة على تغيير رأيه بالحجة والاقناع . مع مواطنيه الأصغر سناً كان يتخذ وضعية المستمع الغامض ، مستمع من النوع الذي يصغي إليك بذكاء حتى تنتهي من كلامك وعندها بالضبط يغير الموضوع .

مثل هذا النوع من الحيل الذي قد ينبع من عدم كفاية ذكرية أو من ثقة غير كاملة بالقناعات الذاتية ، أكسب السيد رازوموف شهرة على أنه عميق التفكير . فبين الكثير من المتكلمين المهذارين المعتادين على انهاك أنفسهم يومياً بالنقاش الحماسي ، فان شخصية تتصف بقلة الكلام نسبياً من شأنها أن تجعل الناس تعتقد أن لصاحبها قدرات احتياطية . وقد كان رفاقه في جامعة سانت بطرسبورغ ينظرون إليه ، هو كيرياو سيدورفيتش رازوموف ، الطالب في السنة الثالثة من قسم الفلسفة ، على أنه شخص ذو طبيعة تتميز بالقوة : رجل يوحى بالثقة تماماً . وهذا ، في بادئ نظر فيه إلى الرأي على أنه جريمة قانونية يستحق عليها الموت ، أو ما هو أسوأ من الموت أحياناً ، كان يعني أنه أهل للثقة بحيث يباح له بالأفكار المحرمة . كما كان محبوباً أيضاً بسبب حسن معشره واستعداده الهادئ لارضاء رفاقه حتى على حساب راحتة الشخصية

كان من المفترض أن يكون السيد رازوموف ابناً لكبير قساوسة وأنه
تحت حماية نبيل بارز . . . ربما ينتمي إلى مقاطعته البعيدة نفسها . ولكن
مظهره الخارجي كان لا يتفق مع مثل هذا المنشأ المتواضع . لم يكن مثل
هذا التحدر من سلالة كنتلك أمراً قابلاً للتصديق . بل كان البعض
يعتقد أن السيد رازوموف ابن لابنة جميلة لكبير قساوسة . . . مما كان
يضيف على المسألة لوناً مختلفاً بالطبع . ولكن هذه النظرية لم تكن توضح
مسألة حماية النبيل البارز له . ولكن كل هذا لم يتم البحث فيه على نحو
مسيء أو غير ذلك على أية حال . لم يكن هناك من يدري أو يهتم بمعرفة
من هو ذلك النبيل موضوع البحث . كان رازوموف يتلقى منحة متواضعة
انما كافية من قبل محام غير مشهور بدا وكأنه مكلف بالوصاية عليه
نوعاً ما . وكان يظهر أحياناً في حفلات استقبال بعض الأساتذة . وبمجرد
عن ذلك لم يكن يعرف أن لرازوموف أية علاقات اجتماعية في المدينة .
كان يتواجد في المحاضرات الاجبارية على نحو نظامي ويعتبر من قبل
السلطات طالباً واعدأ جداً . كان يجده في البيت بأسلوب رجل ينوي
التقدم ، ولكنه لم يكن منغلماً على نفسه بشدة لهذا الغرض . كان من
الممكن دائماً الوصول إليه ، ولم يكن في حياته ما هو سرّي أو متحفظ
عليه ،

* * *

والكن تبقى لدينا حقيقة أنه كتبه بالفعل :

كان السيد رازوموف شاباً طويلاً القامة متناسق الأعضاء، كما كان لون شعره أداكن بكثير، أما للروس القادمين من المقاطعات المركزية . كان من شأن وسامته أن تكون كاملة لولا أن ملاحظه لم تكن تتمتع بالرهافة . كان يبدو كوجه صبيغ بقوة من الشمع (مع نزعة إلى دقة كلاسيكية نمطية) ثم قرَّب من النار حتى ذابت كل حدوة الخطوط مع ذوبان المادة . ولكن رغم ذلك كان وسيماً إلى حد كاف . كان حسن السواك أيضاً . وخلال النقاش كان من الممكن حملة على تغيير رأيه بالحجة والاقناع . مع مواطنيه الأصغر سناً كان يتخذ وضعية المستمع الغامض ، مستمع من النوع الذي يصغي إليك بدكاء حتى تنتهي من كلامك وعندها بالضبط يغير الموضوع .

مثل هذا النوع من الحيل الذي قد ينبع من عدم كفاية ذكورية أو من ثقة غير كاملة بالقناعات الذاتية ، أكسب السيد رازوموف شهرة على أنه عميق التفكير . فبين الكثير من المتكلمين المهذارين المعتادين على انهاك أنفسهم يومياً بالنقاش الحماسي ، فان شخصية تتصف بقلة الكلام نسبياً من شأنها أن تجعل الناس تعتقد أن لصاحبها قدرات احتياطية . وقد كان رفاقه في جامعة سانت بطرسبورغ ينظرون إليه ، هو كيرياو سيدورفيتش رازوموف ، الطالب في السنة الثالثة من قسم الفلسفة ، على أنه شخص ذو طبيعة تتميز بالقوة : رجل يوحى بالثقة تماماً . وهذا ، في بالمد يُنظر فيه إلى الرأي على أنه جريمة قانونية يستحق عليها المرء الموت ، أو ما هو أسوأ من الموت أحياناً ، كان يعني أنه أهل للثقة بحيث يباح له بالأفكار المحرمة . كما كان محبوباً أيضاً بسبب حسن معشره واستعداده الهادىء لارضاء رفاقه حتى على حساب راحتة الشخصية

كان من المفترض أن يكون السيد رازوموف ابناً لكبير قساوسة وأنه
تحت حماية نبيل بارز . . . ربما ينتمي إلى مقاطعته البعيدة نفسها . ولكن
مظهره الخارجي كان لا يتفق مع مثل هذا المنشأ المتواضع . لم يكن مثل
هذا المتحدث من سلالة كنتلك أمراً قابلاً للتصديق . بل كان البعض
يعتقد أن السيد رازوموف ابن لابنة جميلة لكبير قساوسة . . . مما كان
يضيف على المسألة لونا مختلفاً بالطبع . ولكن هذه النظرية لم تكن توضح
مسألة حماية النبيل البارز له . ولكن كل هذا لم يتم البحث فيه على نحو
مسيء أو غير ذلك على أية حال . لم يكن هناك من يدري أو يهتم بمعرفة
من هو ذلك النبيل موضوع البحث . كان رازوموف يتلقى منحة متواضعة
انما كافية من قبل محام غير مشهور بدا وكأنه مكلف بالوصاية عليه
نوعاً ما . وكان يظهر أحياناً في حفلات استقبال بعض الأساتذة . وبمعدل
عن ذلك لم يكن يعرف أن لرازوموف أية علاقات اجتماعية في المدينة ؛
كان يتواجد في المحاضرات الاجبارية على نحو نظامي ويعتبر من قبل
السلطات طالباً واعدأ جداً ؛ كان يهد في البيت بأسلوب رجل ينوي
التقدم ، ولكنه لم يكن منغلماً على نفسه بشدة لهذا الغرض . كان من
الممكن دائماً الوصول إليه ، ولم يكن في حياته ما هو سري أو متحفظ
عليه .

* * *

- اولا -

يتعاقب أصل سجل السيد رازوموف بحادثة واقعية جرت في روسيا المعاصرة ، ألا وهي حادثة اغتيال رجل دولة بارز ، كما أنها من مميزات الفساد الأخلاقي لمجتمع مقموع حيث تُعهر أكثر طموحات الانسانية نبلا والرغبة في الحرية والوطنية المتقدمة وحب العدالة والاحساس بالشفقة وحتى اخلاص العقول البسيطة ، وذلك لصالح شهوات الحقد والخوف ، وهما الرفيقان المتلازمان للحكم الاستبدادي غير المستقر :

الواقعة المشار إليها أعلاه هي المحاولة الناجحة لاغتيال « السيد دو بونت » رئيس « اللجنة القمعية » رديئة السمعة ، وذلك قبل بضع سنوات ، وكان أيضاً وزير دولة منحت له سلطات استثنائية . كانت انه يحف قد جمعجت كثيراً حول تلك الشخصية المتعصبة ذات الصلبر الضيق المرتدية للبزة المزينة بشرائط ذهبية ، وذات الوجه الأشبه بالرق المتفخض ، والعينين التافهتين المغطاتين بالنظارات ، وصمايب وسام القديس بروكوبيوس المعلق تحت الحنجرة النحيلة . لقد مرت فترة من الزمن ، وهذا أمر للذكرى - ما كان يمضي فيها شهر واحد دون ظهور صورته في احدى صحف أوروبا المصوّرة . كان يخدم الملكية بسجن ونفي وارسال الرجال والنساء ، الشباب منهم والعجائز ، إلى المشنقة ، وذلك بكدة مضطرد لا يكفل . في قبوله المبهم لمبدأ حكم الفرد المطلق كان مصمماً على أن يقتلع من الأرض كل أثر لأي شيء يشابه الحرية في

المؤسسات العامة ؛ كما كان في ملاحظته التي لا هوادة فيها للجيل الطالع يهدف على ما يبدو إلى تدمير أي أمل في الحرية نفسها .

ويقال إن هذه الشخصية اللعينة لم تكن تحمل ما يكفي من المخيالة لتترك مدى الحقد الذي كانت تخفقه . من الصعب أن نصدق ولكنه لم يكن في الحقيقة يتخذ سوى اجراءات احتياطية قايمة لضمان سلامته . في افتتاحية احدى الصحف الحكومية الشهيرة صرح مرة أن « فكرة الحرية لم توجد أبداً في قانون الخالق . ومن العمد الوافر من نصائح البشر لم يخرج أي شيء عدا التمرد والفوضى ؛ والتمرد والفوضى في عالم خُلِقَ للطاعة والاستقرار ، عبارة عن أثم . لم يكن العقل إنما الساطة هي المعبر عن القصد الرباني . الرب هو الحاكم الفرد للكون . . . » قد يكون الشخص الذي أدلى بهذا التصريح يؤمن بأن السماء نفسها مازمة بحمايته في دفاعه الذي لا يستكين عن ساطة الحكم الفرد على هذه الأرض ،

لا شك أن بقظة الشرطة قد أنقذته مرات عديدة ، ولكنه حين لاقى مصيره المحتوم فان الساطات المختصة لم تكن قادرة على اعطائه أي تحذير . لم تكن على معرفة بوجود أية مؤامرة ضد حياة الوزير ، وليس لديها أي تلميح إلى وجود أية نطة عبر قنواتها العادية للمعاومات ، ولم تر أية اشارات ، ولا هي لاحظت وجود أي حركات تدعو إلى الشك يقوم بها أشخاص خطرون .

كان « السيد دو ب . . . » متجهاً إلى محطة سكك الحديد في قرية جايد دون غطاء ومعه خادم وحوذي جالسان على الصندوق . كان الحاج قد هطل طوال الليل مما جعل الطريق غير واضحة بعد في مثل هذه الساعة المبكرة ، وثقياة جداً على الحصانين . كان الحاج لا يزال يهطل بكثافة .

ولكن لا بدّ وأن العربية روقبت ونجرت تعاليمها : وحين سارت نحو اليسار قبل أن تقوم بال دوران حول أحد المنعطفات لاحظ الخادم فلتاحاً يسير يبطء على حافة الرصيف ويداه في جيبي معطفه المصنوع من جلد الخروف وكتفاه مرفوعتان حتى أذنيه تحت الثلج المنهمر . ولدى اللحاق بهذا الفلاح وإدراكه ، واجههم هذا فجأة ولوح بلذراعه . وخلال لحظة كانت هناك صدمة رهيبية ، وسمع انفجار مكتوم ضمن كميات الثلج الهائلة ، وقد تمدّد كلا الحصانين على الأرض ميتين مقطعي الأوصال بينما كان الخوذي قد سقط بصرخة حادة من على الصندوق وقد أصيب بجراح مميتة . أما الخادم (الذي نجى) فلم يتح له الوقت الكافي لرؤية وجه الرجل المرتدي معطف جلد الخروف . بعد القاء القنبلة ابتعد هذا الأخير عن المكان ، ولكن يعتقد أنه حين رأى الناس يندفعون بكثرة من كل الجوانب باتجاهه ، تحت الثلج المنهمر ، والكل يعلو نحو مشهد الانفجار ، ظنّ أنه من الأسلم له أن يعود معهم .

وخلال وقت قصير جداً إلى حد لا يصدق تجمّعت جمهرة مستتارة من الناس حول العربية : خرج الوزير - الرئيس دون أن يصاب بأذى إلى الثلج العميق ، وقف فوق الخوذي الآخذ بالأين ونخاطب الناس مرات عديدة بصوته الضعيف الذي لا طابع له : « أرجوكم أن تباعدوا . حباً بالله ، أرجوكم أيها الناس الطيبون أن تباعدوا . »

عندها تقدم شاب طويل كان قد بقي واقفاً داخل مدخل العربات واقع على بعد بنايتين ، تقدم إلى الشارع بسرعة ورمى قنبلة أخرى من فوق رؤوس الجمهرة . وقد أصابت بالفعل الوزير - الرئيس على كتفه وهو ينحني فوق نخادمه المحتضر ، ثم سقطت بين قدميه وانفجرت بقوة مركزة هائلة ورمته ميتاً على الأرض وأجهزت على الرجل المحتضر

ودمرت العرية الفارغة في لمحة عين . وبصرخة رعب تفرق الناس وهربوا في كل الاتجاهات باستثناء أولئك الذين سقطوا ميثين أو محنضين في المكان الذي كانوا يقفون فيه كأقرب ما يكون إلى الوزير - الرئيس ، وواحد أو اثنان آخران لم يسقطا إلا بعد أن ركضا قايلاً .

كان الانفجار الأول قد جمع حشداً كأنما بفعل السحر ، ولكن الثاني خلق عزلة في الشوارع لمسافة مئات الأمتار في كل اتجاه . وخلال الثلج المنهمر كان الناس ينظرون من بعيد إلى الكومة الصغيرة من الأجساد الميتة الممددة واحدها فوق الآخر قرب جثتي الحصانين الميتين . لم يتجرأ أحد على الاقتراب حتى أسرع بعض القوزاق من دورية أحد الشوارع ، ونزلوا عن جيادهم وبدأوا يقاسبون الموتى . كان بين الضحايا الأبرياء للانفجار الثاني ، والذين كانت جثثهم ممددة على الرصيف ، جثة ذلك المرتدي لمعطف جلد الخروف الفلاحي ؛ ولكن وجهه كان غير ممكن تمييزه ، كما لم يجدوا أي شيء في جيوبه ملبسه البسيطة . كان الشخص الوحيد الذي لم يتم التعرف على شخصيته .

في ذلك اليوم نهض السيد رازوموف في الساعة المعتادة وأهضى الصباح داخل أبنية الجامعة وهو يستمع إلى المحاضرات ويعمل لبعض الوقت في المكتبة . وقد سمع أول اشاعة غامضة عن شيء حدث يتعاقب بالقاء قبيلة ، وهو جالس إلى طاولة مطعم الطابئة حيث اعتاد أن يتناول وجبة الساعة الثانية . ولكن هذه الاشاعة كانت مؤلفة من همسات مجردة ، وهكلها هي روسيا ، حيث لم يكن دائماً أمراً مأموناً ، وخاصة بالنسبة إلى طالب ، أن يظهر الكثير من الاهتمام في أنواع معينة من الهمسات . كان رازوموف واحداً من أولئك الرجال الذين - اذ كانوا

يعيشون فترة عدم استقرار عقلي وسياسي - يواظبون على ممارسة حياة عادية عملية . كان مدركاً للتوتر العاطفي السائد في زمانه ؛ بل أنه استجاب له بأسلوب غير محدد . ولكن اهتمامه الأساسي كان عمله ودراسته ومستقبله .

كان رسمياً وفي الواقع بلا أسرة (فابنة كبير القساوسة كانت قد ماتت منذ زمن بعيد) ، ولم تكن هناك أية تأثيرات بيتية شكّلت أفكاره أو مشاعره . كان وحيداً في هذا العالم كشخص يسبح في بحر عميق . كانت كلمة (رازوموف) مجرد بطاقة تعريف للفرد الوحيد . لم يكن هناك أي أقرباء من عائلة رازوموف في أي مكان . كان أقرب نسب إليه محدد في البيان هو أنه روسي . وأي غير كان سيتوقعه من الحياة كان سيعزز آماله أو يبطئها من خلال تلك العلاقة فحسب . هذا النسب الضخم كان يعاني من آلام الخلاقات الداخية ، وقد كان ينفر ذهنياً من هذا النزاع كما قد ينفر رجل دمث من الانحياز إلى هذا الجانب أو الآخر في نزاع عائلي عنيف .

بينما كان رازوموف في طريقه إلى البيت راح يفكر في أنه طالما جهّز كل المسائل الخاصة بالامتحان القادم ، فانه يستطيع الآن أن يكرّس وقته لموضوع المقالة ذات الجائزة . كان يتوق إلى الميدالية الفضية . وهذه الجائزة كانت مطروحة من قبل وزارة التعليم ؛ وكانت أسماء المتنافسين ستقدم إلى الوزير نفسه . ان حقيقة المحاولة بجد ذاتها ستعتبر أمراً جليداً بالتقدير في الأوساط العليا ؛ وكان رابع الجائزة سينال حتى التعيين الإداري في وظيفة من النوع الأفضل وذلك بعد أن ينال درجته الجامعية . لقد نسي الطالب رازوموف في نوبة من الابتهاج المخاطر التي

تهدد استقرار المؤسسات التي تمنح الجوائز والوظائف . ولكنه اذ تذكر حامل الوسام في العام السابق ، وهو الشاب الذي لا نسب له ، صحا فجأة . لقد حدث أن اجتمع هو وآخرون في غرفة أحد الرفاق في ذلك الوقت بالذات حين استلم هذا الاشعار الرسمي بنجاحه . كان شاباً هادئاً متواضعاً : قال بابتسامة اعتدالية وهو يتناول قبعته : «اعلموني سأخرج لأطلب بعض النبيل . ولكن عليّ أولاً أن أرسل برقية إلى ذويّ في البيت . ما رأيكم ؟ ألن يحتفل والدادي العجوزان ويولمان للجيران مسافة عشرين ميلاً من منزلنا ؟ »

فكّر رازوموف في أنه لن يكون له مثل هذا النوع من الاحتفال في أي مكان في العالم . سيكون نجاحه أمراً لا يهمّ أحداً . ولكنه لم يشعر بأية مرارة ضد النبيل حاميّه الذي لم يكن قطباً محلياً كما كان مفترضاً عموماً ، بل كان في الواقع شخصاً لا يقل منزلة عن « الأمير ك... » ، الذي سبق له وكان شخصية عظيمة ورائعة في هذا العالم ، أما الآن ، وقد انقضى عصره الذهبي ، فهو- عضو مجلس شيوخ ومريض مصاب بالقرس ، يعيش بأماوب لا يزال فخماً وان كان أكثر التصاقاً بالحياة المنزلية . كان لديه بعض الأولاد صغيري السنّ وزوجة شديدة الأرستقراطية والاعتداد بالنفس بقدر ما كان هو بالضبط .

خلال حياته كلها لم يسمح لرازوموف أن يحتكّ شخصياً بالأمير سوى مرة واحدة .

وكان لذلك اللقاء جوّ الاجتماع بالصدفة ، وذلك في مكتب المحامي الضئيل الحجم . ففي أحد الأيام جاء رازوموف بناء على موعد إلى مكتب المحامي ليجد رجلاً غريباً واقفاً هناك : شخصية طويلة القامة ،

أرستقراطية الهيئة ، لها شاربان خديتان شابان أزغبان . قال المحامي ،
وهو الرجل الضئيل البارح أصنع : « ادخل ، ادخل يا سيد رازوموف »
وذلك بنوع من الحماسة الساخرة . ثم التفت إلى الشخص الغريب ذي
الهيئة المهيبه باحترام وقال : « شاب موضوع تحت وصايتي يا صاحب
السعادة ، واحد من أفضل الطلاب الواعدين في كليته في جامعة
سانت بطرسبورغ . »

وأمام دهشة رازوموف العظيمة رأى بدأ بيضاء جميلة تمدّ نحوه.
أخذها وهو في حالة من الاضطراب العظيم (كانت اليد طرية وسلبية)
وسمع في الوقت نفسه مهمة متعطّفة استطاع أن ياتقط منها كامتين
فحسب : « جيد » و « واضب » . ولكن أكثر الأمور إدهاشاً كان
احساسه فجأة بضغطة واضح من اليد البيضاء بالحماية قبل أن تسحب :
ضغطة خفيف كإشارة سرية . كان رد فعل رازوموف على هذا رهيباً ،
فقا بدا قلبه وكأنه سيقفز إلى حلقه . وحين رفع عينيه كانت الشخصية
الارستقراطية تشير جانباً إلى المحامي الضئيل الحجم وتفتح الباب وتخرج :
نقّب المحامي في الأوراق التي على مكتبه لبعض الوقت . ثم سأل
فجأة : « هل تعرف من هو هذا ؟ »

هز رازوموف رأسه في صمت بينما راح قابه يخفق بقوة .

— انه « الأمير ك . . . » . لا شك أنك تتساءل عن سبب وجوده
أي جحر جرذ قانوني فقير مثلي ، أليس كذلك ؟ هؤلاء الناس العظام جداً
لهم أطوار عاطفية غريبة شأنهم شأن الخاطئين العاديين .

ثم استأنف وهو ينظر نظره خبيثة ويشدّد على اسم الأب :

— ولكني لو كنت مكانك يا كيريلو سيدوروفيتش لما كنت

سأتفاخر علناً بهذا اللقاء . لن يكون في ذلك أي حكمة يا كيريلو سيدوروفيتش . كلا يا عزيزي كلا ! سيكون في ذلك خطر على مستقبلك في الواقع .

احمرت أذنا الشاب أشد الاحمرار وأصابت نظره غشاوة . كان رازوموف يقول لنفسه : « ذلك الرجل اذن ! هو ! »

ومنذ ذلك الحين أصبح السيد رازوموف يشير بينه وبين نفسه إلى ذلك الرجل ذي الشاربين الخديين الأشيبين بذلك المقطع الأحادي : « هو » . ومنذ ذلك الحين أيضاً أصبح حين يمشي في الأحياء الأكثر رقبياً يلاحظ باهتمام الجياد والعربات العظيمة التي نقش على صندوقها شعار « الأمير ك . . . » . ومرة رأى الأميرة خارجة - كانت تتسوق - وتتبعها فتاتان احدهما أطول بكثير من الأخرى . كان شعرهما الأشقر مدلتى بحرية فوق ظهريهما وفق الأسلوب الانكليزي ، وكانت لهما عيون مرحة . كان معطفاهما وغطاءا أيديهما المصنوعان من الفرو وقبعتهما المصنوعتان أيضاً من الفرو متشابهة تماماً ، وكانت خدودهما وأنفاهما قد قرصها البرد فاكسب باللون الوردى البهيج . عبرن الرصيف أمامه بينما امتأنف رازوموف طريقه وهو يتسم بخجل في نفسه . انهما ابتناه « هو » ، انهما تشبهانه « هو » . أحسن الشاب بوهج المودة تجاه هاتين الفتاتين اللتين لن تعلما بوجوده أبداً . لا شك أنهما ستزوجان من جزالين أو شخصين من آل « كامرهر » وتنجان بنات وأولاداً ربما سيكونون على علم به كبروفسور عجوز شهير ، حامل للأوسمة ، وربما كعضو في المجلس الاستشاري ، أحد أمجاد روسيا . . . لا شيء أكثر من ذلك !

ولكن البروفسور الشهير شخص ذو اعتبار. ستحوّل شهرته اسم رازوموف إلى اسم محترم . لم يكن هناك ما هو غريب في رغبة الطالب رازوموف في أن يكون متميزاً ذا اعتبار . ان حياة الانسان الحقيقية هي تلك التي تصنفي عليه في أذهان الناس الآخرين بسبب الاحترام أو الحب الطبيعي . خلال العودة إلى البيت في ذلك اليوم الذي جرى فيه اغتيال « السيد دو . . . » قرر رازوموف أن يبذل جهده لنيل الوسام الفضي .

وبينما كان يصعد المجموعات الأربع من الدرج المعتم القلدر في المبنى الذي كان يسكن فيه ، أحس بثقة النجاح . سينشر اسم الرابع في صحف يوم رأس السنة الجديدة . وقد توقّف رازوموف للحظة حين فكّر أن « هو » سيقراً على الأرجح اسمه فيها ، ثم استأنف الصعود وهو يبتسم لانفعاله . قال لنفسه : « هذا مجرد خيال ولكن الوسام سيكون بداية راسخة . »

وبتلك الأفكار المتعلقة بالمثابرة في رأسه كان دفء غرفته مقبولاً ومشجعاً . فكّر : « سأعمل أربع ساعات بجد . » ولكنه ما أن أغلق الباب حتى أجفل على نحو مروّع . فقد كان هناك شخص غريب يقف أسود تماماً أمام المدفأة العالية المألوفة المبنية من البلاط الأبيض المتوهجة في نور الغسق ، وكان هذا الشخص يرتدي معطفاً ضيقاً من القماش البني اللون وله حاشية من الوسط إلى الأسفل ، كما كان مزترأ حول الحصر ، ويرتدي جزمة طويلة وقبعة صغيرة من فرو الأستراخان على رأسه . لاح رشيقاً وذاكبان مادي . كان رازوموف مذهولاً تماماً . ولم يستعد قدرته على النطق إلا حين تقدّم الشخص بخطوتين وسأل بصوت جدي لا أثر للاضطراب فيه ان كان الباب الخارجي موصداً .

— هالدين ! . . . فيكتور فيكتوروفيتش ! . . . هل هو أنت ؟ . . .
أجل الباب الخارجي موصل ، ولكن هذا غير متوقع بالفعل .
لم يكن فيكتور هالدين ، وهو طالب أكبر سناً من كل زملائه في
الجامعة ، واحداً من الطلاب المجددين . ما كان يُرى في المحاضرات
إلا ما ندر ، وكانت السلطات قد وسمته بصفتين : « القلق » و « الفساد » ،
وهما صفتان سيئتان جداً . ولكن كان له احترام شخصي كبير لدى
رفاقه وكان له تأثير على أفكارهم . لم يكن رازوموف على صلة حميمة
به أبداً . كانا يتقابلان بين الحين والآخر في التجمعات التي تجري في
منازل الطلاب الآخرين . بل تناقشا مرةً معاً نقاشاً حول المبادئ الأولى
العزيزة على عقول الشباب المتفائل .

تمنى رازوموف لو أن الرجل قد اختار وقتاً آخر للمحادثة . كان
يشعر بنفسه مهيناً لمعالجة المقالة ذات الجائزة . ولكن بما أن هالدين لم
يكن شخصاً يمكنه صرفه بسهولة فقد اتخذ رازوموف لهجة الضيافة وطلب
منه أن يجاس ويدخن .

قال الآخر وهو يرمي بقبعته بقوة :

— يا كيريلوسيدوروفيتش ، لسنا على الأرجح في معسكر واحد .
ان حكمتك على الأمور أكثر فلسفية . أنت رجل قليل الكلام ولكني لم
أقابل شخصاً تجرأ على الشك في كرم مشاعرك . هناك متانة في شخصيتك
لا يمكن أن توجد دون شجاعة .

أحس رازوموف بالاطراء وبدأ يهمهم بنجل بشيء ما حول سعادته
في أن يكون له هذا الرأي الجيد به ، حين رفع هالدين يده .
استأنف قائلاً :

— هذا ما كنت أقوله في نفسي وأنا أسير جيئةً وذهاباً في فناء
مخزن الخشب قرب النهر : « هذا الشاب يتمتع بشخصية قوية . » هذا
ما كنت أقوله في نفسي . « انه لا يرمي بروحه إلى الرياح . » لقد فتنتني
تحفظك دائماً يا كيريلو سيدوروفيتش . لذلك حاولت أن أتذكر
عنوانك . ولكن انتبه إليّ : كان ذلك مجرد حظ . كان بواب بنايتك
بعيداً عن البوابة يحادث سائق عربة جليد على الطرف الآخر من الشارع .
لم أقابل أي شخص على الدرج ، ولا شخصاً واحداً . وحين صعدت
إلى طابقك شاهدت صاحبة المنزل تخرج من غرفتك . ولكنها لم ترني .
لقد عبرت من بابك إلى بابها وعندها تسَلَّت داخلاً . أنا أنتظرك هنا
منذ ساعتين على أمل أن تصل في أية لحظة .

كان رازوموف يصفي مندهشاً ، ولكنه قبل أن يفتح فمه أضاف
هالدين بتعمد :

— أنا من قتل « دو . . . » هذا الصباح .

كتم رازوموف صرخة رعب . لقد عبرت فكرة أن حياته قد
دُمِّرت تماماً بسبب هذه الصلاة مع مثل هذه الجريمة ، عبرت عن نفسها
بغرابة : بنوع من الصرخة الذهنية نصف الساخرة : « ها قد ولّيتي وسامي
الفضي ! »

استأذف هالدين بعد أن انتظر قليلاً فقال :

— أنت لا تقول شيئاً يا كيريلو سيدوروفيتش . والواقع أنني لا
أستطيع أن أتوقع منك بأسلوبك الانكليزي البارد أن تعانقني . ولكن
لا بأس الآن بأسلوبك . لديك قلب كبير بحيث أنك لا شك سمعت
صوت البكاء وصرير الأسنان اللذين أثارهما هذا الشخص في البلاد .

في هذا ما يكفي لتجاوز أية آمال فلسفية . كان يقتلع النبتة الطرية من جذورها . كان لا يبدء من إيقافه عند حده . كان رجلاً خطراً . . . رجلاً ذا قناعة . كان من شأن ثلاثة أعوام أخرى من الجهد الذي يبذله أن تعيدنا خمسين عاماً إلى عالم الرق . . . وانظر إلى كل تلك الحيوانات التي ستضيع وكل تلك الأرواح التي ستُنقذ خلال تلك الفترة .

وفجأة فقد صوته الأَجَش الوائق من نفسه رنته وأضاف بلهجة هاترة :

— أجل يا أخي ، قتلته . انه لعمل مضمّن .

كان رازوموف قد غرق في احد الكراسي ، وكان يتوقع في كل لحظة أن تقتحم جمهرة من الشرطة المكان . لا شك أن هناك آلافاً منهم في الخارج يبحثون عن ذلك الرجل الذي يلدع غرفته جيئة وذهاباً الآن . كان هالدين قد عاد ليتحدث مرة أخرى بصوت منضبط وثابت . بين الحين والآخر كان يلوح بذراعه ببطء ودون استشارة .

حكى لرازوموف كيف فكّر لمدة عام كامل وكيف أنه لم يتم كما يجب منذ أسابيع . كان لديه ولدى « آخر » معلومات عن تحركات الوزير من « شخص معين » في الليلة الماضية . وقد قام هو و « الآخر » بتحضير « آلتيهما » وقررا ألاّ يناما حتى يتم « العمل » . لقد سارا في الشوارع تحت الثلج المنهمر ومعهما « الآلتان » . ولم يتبادلا كلمة واحدة طوال الليل كله . وحين كان يصدف أن يريا دورية شرطة كان كل منهما يأخذ الآخر من ذراعه ويتظاهران بأنهما فلاّحان ثملان ثم يرتحان ويتحدثان بصوت أجش سكير . وباستثناء تلك الانفجارات الغريبة حافظا على الصمت ، وهما يتحركان دون توقف . كان قد تمّ اعداد

خطتهما مسبقاً . وعند الفجر سارا نحو البقعة التي كانا يعرفان أن العرب
ستمر بها . وحين ظهرت تبادلوا الوداع بغمغمة ثم انفصلا . بقي « الآخر »
عند الزاوية ، بينما اتخذ هالدين موقعاً أبعد بقليل على امتداد الشارع .

بعد أن رمى بـ « آله » أسرع يتعد ولكن سرعان ما كانت جمهرة من
الناس المدعورين الذين راحوا يهربون من المنطقة بعد الانفجار الثاني قد
أدركته . كانوا مجازين من الذعر . لقد دفع بخشونة مرة أو مرتين . ثم
أبطأ قليلاً حتى تتجاوزه الجمهرة المندفعة وانعطف نحو اليسار في شارع
ضيق . وهناك وجد نفسه وحيداً .

كان يتعجب من هذا الهرب المباشر . لقد أنجز العمل . ما كان قادراً
على تصديق ذلك . ثم راح يصارع رغبة لا تقاوم في التمدد على الرصيف
والاستغراق في النوم . ولكن مثل هذا الشعور بالاعياء - الاعياء
الوسنان - سرعان ما غادره . مشى بسرعة أكبر وهو يتجه نحو واحد من
الأحياء الفقيرة من المدينة لكي يبحث عن زيميائيتش .

وقد فهم رازوموف أن زيميائيتش هذا كان فلاحاً من سكان
المدينة أحرز بعض النجاح . كان يملك عدداً صغيراً من عربات الحديد
والجياذ المخصصة للاستئجار . توقف هالدين عن سرد حكايته ليصبح :

- روح نيرة ! روح جريئة ! أفضل سائق في سانت بطرسبورغ .
لديه طقم من ثلاثة جياذ هناك . . . آه ! يا له من رجل !

لقد أبدى هذا الرجل استعداده لأخذ شخص أو شخصين إلى المحطة
الثانية أو الثالثة للسكة الحديدية على أحد الخطوط الجنوبية ، وذلك في أي
وقت من الأوقات ، على أن يوصلهما بأمان إلى هناك . ولكن لم تتح له
الفرصة لابلاغه بذلك في الليلة السابقة . كان يتردد عادة على مطعم رخيص

يقع في ضواحي المدينة . حين وصل هالدين إلى هناك لم يكن الشخص موجوداً ، وما كان متوقفاً وصوله قبل المساء . وهكذا راح هالدين يتجول على غير هدى .

ثم رأى باب فناء مخزن الخشب مفتوحاً ودخل ليحتمي من الريح التي كانت تجتاح الشارع العريض المكشوف . كانت الأكوام الضخمة المستطيلة من الخشب المقطوع المغطاة بالثلج الكثيف تماثل أكواخ القرية . في البداية تحدث إليه الحارس الذي وجدته مقرفاً بينها بأسلوب ودّي . كان رجلاً عجوزاً أعرجاً يرتدي معطفين عسكريين مهترئين الواحد منهما فوق الآخر ، وكان وجهه الداوي الصغير مربوطاً تحت الفكّ وفوق الأذنين بمندبل أحمر قلدر يبدو مضحكاً . ثم تجمّم فجأة وراح يصيح يحنون دون نظام أو منطق :

— ألن تخرج من هنا أبداً أيها المتسكّع ؟ نعرف كلّ شيء عنكم يا عمّال المصانع . شاب ضخم قويّ ا لست ثملاً حتى . ما الذي تريده هنا ؟ أنت لا تخيفنا . هيا خذ نفسك وعينيك القبيحتين وارحل عنّا .

توقف هالدين أمام رازوموف الجالس . كان جسده الرقيق والجبين الأبيض الذي كان الشعر الأشقر ينتصب فوقه مباشرة يتمتعان بمظهر المرأة الشاحنة .

قال :

— لم تعجبه عيناى . وهكذا . . . تراني هنا .

بذل رازوموف جهداً ليتكلّم بلهجة هادئة :

— اعدلني يا فيكتور فيكتوروفيتش . نحن لا نعرف بعضنا الا

قليلاً جداً . . . لا أعرف لماذا . . .

قال هالدين :

— انها الثقة .

هذه الكلمة ختمت شفقي رازوموف كأنما صفع على فمه . كان عقله يتأجج بالجدالات .

مهم من بين أسنانه :

— وهكذا . . . أراك هنا .

لم يلحظ الآخر لهجة الغضب . لم يشك بوجودها حتى .

— نعم . ولا أحد يعرف بوجودي هنا . أنت آخر شخص يمكن أن يكون موضع الريبة . . . هذا اذا ما قبض عليّ . وهذه ميزة كما ترى . كما أنني اذ أخاطب عقلاً متفوقاً مثل عقلك أستطيع أن أقول كل الحقيقة . لقد خطر لي أنك . . . أنه ليس لك أي شخص ينتمي إليك . . . لا روابط ، لا أحد يعاني لو حدث وانكشف هذا الأمر بوسيلة ما أو بأخرى . هناك ما يكفي من البيوت الروسية المهدامة . ولكنني لا أعرف كيف يمكن لتسللي إلى غرفتك أن يعرف . ولو ألقى القبض عليّ فسأعرف كيف أبقى صامتاً . . . مهما فعلوا بي .

وقد أضاف هذه الجملة الأخيرة متجهماً .

بدأ يمشي من جديد بينما جلس رازوموف ساكناً مروّعاً .

قال متلعثماً وهو يشعر بالغثيان من شدة السخط :

— ظننت أن . . .

— أجل رازوموف . أجل يا أخي . يوماً ما ستساهم في البناء .
تفترض أنني ارهابي الآن . . . مدمر لما هو كائن . ولكن عليك أن

تعتبر أن المخربين الحقيقيين هم أولئك الذين يخربون روح التقدم والحقيقة ، وليس المنتقمين الذين يقومون بمجرد قتل أجساد مضطهدي (بكسر الهاء) الكرامة الانسانية . الأشخاص من أمثالي ضروريون لافساح المجال أمام أشخاص مفكرين يتمتعون بضبط النفس من أمثالك . حسناً ، لقد ضحينا بأرواحنا ولكني أود أيضاً أن أنجو لو أتيت لي ذلك . اني لا أريد انقاذ حياتي بالذات ، ولكن قدرتي على الفعل . لا ترتكب أي خطأ يا رازوموف . الرجال من أمثالي نادرون . وعلاوة على ذلك فان مثلاً كهذا أكثر اثاره لرعب الظالمين حين يختفي مرتكب الفعل دون أي أثر . انهم يجلسون في مكاتبهم وقصورهم ويرتعدون . كل ما أريده منك هو أن تساعدني على الاختفاء . وهذه ليست مسألة صعبة . كل ما عليك أن تقوم به هو أن تذهب لترى زيميا نيتش في ذلك المكان الذي ذهبت إليه في الصباح وتقول له : « ذاك الذي تعرفه يريد عربة جليد جيدة الأحصنة تتوقف بعد منتصف الليل بنصف ساعة عند عمود الانارة السابع على اليسار انطلاقاً من النهاية العلوية من شارع كارايبيلنايا . واذا لم يدخل أحد إلى العربة فان عليها أن تدور حول المكان قليلاً ثم تعود إلى البقعة نفسها بعد عشر دقائق . »

تعجب رازوموف من عدم مقاطعته لذلك الحديث وأنه لم يقل لهذا الرجل أن ينصرف منذ مدة طويلة . أهو ضعف أم ماذا ؟

وقد استنتج أن غريزته كانت على صواب . لا بد وأن أحداً ما رأى هالدين : من المستحيل ألا يكون بعض الناس قد لاحظوا وجه ومظهر الرجل الذي ألقى القنبلة الثانية . كان هالدين شخصاً لافتاً للنظر . لا بد وأن لدى الآلاف من رجال الشرطة أوصافه الآن . ومع مرور كل لحظة

كان الخطر يتعاضم . وبما أنه سيخرج ليتجول في الشوارع فإن يستطيع الافلات في النهاية .

سرعان ما ستعرف الشرطة كل شيء عنه . ثم ستتشر اشاعة عن اكتشافها لمؤامرة . كل من سبق لهالدين أن عرفه على الاطلاق سيكون في خطر عظيم . التعابير غير الحلوة ، الحقائق الصغيرة البرينة بحذ ذاتها ، ستعتبر بجرائم . تذكر رازوموف كلمات معينة سبق له أن قالها والخطابات التي استمع إليها والاجتماعات البرينة التي حضرها . . . كان مستحيلاً على أي طالب أن يتعد عن ذلك النوع من الأمور دون أن يصبح مشكوكاً فيه من قبل زملائه .

رأى رازوموف نفسه سجيناً في قاعة ، قلقاً ، مضايقاً على نحو متواصل ، وربما في حالة من سوء المعاملة . رأى نفسه منفياً بأمر اداري ، حياته محطمة ، مدمرة ودون أي أمل . رأى نفسه - في أفضل الحالات - يعيش حياة بائسة تحت مراقبة الشرطة ، في بلدة صغيرة بعيدة في المقاطعات ، دون أصدقاء يساعدونه في حاجاته الأساسية أو يمدون له يد العون حتى ، وذلك لمواساته في مصيره البائس . . . كما يحدث للآخرين . للآخرين أمهات وآباء وأقرباء وعلاقات ، وفي وسع هؤلاء أن يقيموا السماء والأرض ويقعدونهما من أجاهم . . . أما هو فليس له أحد . والموظفون الذين سيحكمون عايمه في الصباح سينسون أنه موجود قبل غروب الشمس .

رأى شبابه يهرب منه في بؤس وجوع . . . وقوته تنهار ، وعقله وقد أصبح فارغاً . رأى نفسه يزحف ، محطماً رثّ الملابس ، في الشوارع ، محتضراً ، وحيداً في جحر قدر هو غرفته ، أو على سرير وسخ في مستشفى حكومي .

ارتعد : ثم حلّ عليه سلام الهدوء المرّ . الأفضل أن يبقي هذا الرجل بعيداً عن الشوارع حتى يستطيع التخلّص منه بفرصة من فرص النجاة . كان ذلك أفضل شيء يمكنه فعله . أحسّ رازوموف طبعاً بأنّ أمان حياته الوحداية سيكون في موضع الخطر الدائم . يمكن لحوادث هذا المساء أن تنقلب ضده في أيّ وقت طالما كان هذا الرجل على قيد الحياة والمؤسسات الحالية قائمة . بدت له كلها عقلانية وغير قابلة للتدمير في تلك اللحظة . بدت وكأنّ لها قوة الايقاع . . . بالتعارض مع الانسجام الرهيب الذي يتصف به حضور هذا الرجل . لقد كره ذلك الرجل . قال بهدوء :

— أجل ، بالطبع سأذهب . عليك أن تعطيني توجيهات دقيقة ،
أما بالنسبة للبقية فاعتمد عليّ .

— آه ! أنت شخص رائع ! رابط الجأش . . . بارد كمخيارة .
انكليزي تماماً : من أين جئت بروحك هذه ؟ ليس هناك كثيرون من
أمثالك . انتبه اليّ يا أخي ! الرجال من أمثالي لا يخافون أية ذرية ،
ولكن أرواحهم لا تضيع . ليست هناك روح بشرية تضيع . انها تعمل
من أجل ذاتها . . . والاّ فأين معنى التضحية بالنفس ، الشهادة ، القناعة ،
الايمان . . . مخاضات الروح ؟ ما الذي سيحدث لروحي حين أموت
بالطريقة التي عليّ أن أموت بها . . . عاجلاً . . . وربما عاجلاً جداً ؟
لأنها لن تفنى . لا ترتكب غلطة يا رازوموف . هذه ليست جريمة قتل . . .
انها حرب ، حرب : ستبقى روحي تقاثل في جسد روسي آخر حتى يتم
اجتياح كل البيهتان من هذا العالم . الحضارة المعاصرة مزيفة ، ولكن
ستخرج من روسيا رؤيا جديدة . ها ! أنت لا تقول شيئاً . أنت متشكك .
أحترم تشككك الفلاسفي يا رازوموف ، ولكن لا تقرب الروح . الروح

الروسية التي تعيش فينا جميعاً . ان لها مستقبلاً . لها مهمة وأؤكد لك ذلك ، والآ لماذا اندفعت لأفعل ما فعلته . . . بطيش . . . كالجزار . . . في وسط كل أولئك الناس الأبرياء . . . نائراً الموت . . . أنا ! أنا ! . . . أنا الذي لا يؤدي ذبابة !

حذره رازوموف بشدة :

— لا ترفع صوتك إلى هذا الحد !

جالس هالدين على نحو مفاجيء ، ثم مال برأسه على ذراعيه المطويتين وانفجر بالبكاء . بكى لفترة طويلة . كان الغسق قد تعمق في الغرفة . وقد راح رازوموف يصني إلى نشيج الآخر دون حراك وفي حالة من العجب المزوج بالكآبة .

رفع الآخر رأسه ، ونهض ، وسيطر على صوته بعد جهد . ثم كرر بلهجة ملطّقة :

— أجل ، الرجال من أمثالي لا يخلفون أية ذرية . ولكن لديّ أنحت على أية حال . انها مع أمي العجوز . لقد أقنعتهما بالرحيل إلى خارج البلاد هذا العام والحمد لله . ليست فتاة صغيرة شريرة أخوتي تلك . ان لها عينان هما أكثر عينين تحملان الثقة في هذا العالم كلّه قديماً وحديثاً . وآمل أنها ستزوج زيجة جيدة . وقد تنجب أولاداً . . . ذكوراً ربما . انظر اليّ . كان أبي موظفاً حكومياً في المقاطعات . كانت لديه قطعة أرض صغيرة أيضاً . خادم بسيط من خدم الرب . . . كان روسياً حقيقياً . كانت روحه هي روح الطاعة . ولكنني لست مثله . يقولون اني أشبه خالي الأكبر ، وكان هذا ضابطاً . وقد قتلوه بالرصاص عام (١٨٢٨) ابّان حكم

نيكولاس كما تعرف (١) . أو لم أقل ذلك إنها حرب ، حرب . . . ؟
ولكن الرب عادل ! هذا عمل مضمّن .

قال رازوموف وهو يتكىء برأسه على يده ، وكأله يتحدث من
قعر هوة :

— أتؤمن بالله يا هالدين ؟

— ها أنت تحاول اصطياد الكلمات التي تنتزع مني عنوة . وما
يهمّ ذلك ؟ ما الذي قاله الانكليزي : « هناك روح مقدّسة في الأشياء . . . »
ليأخذه الشيطان . . . لا أتذكر ذلك جيداً الآن . ولكنه نطق بالحقيقة .
حين يأتي يومكم أيها المفكرون لا تنسوا ما هو مقدّس في الروح
الروسية . . . ألا وهو الإذعان . احترموا ذلك في قلقكم الفكري ولا
تدعوا حكمتكم الوقحة تفسد رسالتها إلى العالم . أخاطبكم الآن كرجل
محاط عنقه بحبل : من تصوّرني ؟ كائنا متمرداً ؟ لا . أنتم أيها المفكرون هم
المتوردون على نحو أبدي . أنا واحد من الداعنين . حين وصامت ضرورة
هذا العمل المضني اليّ وفهمت أنه لا بدّ من فعله . . . ما الذي فعلته ؟
هل ابتهجت ؟ هل افتخرت بمقصدي ؟ هل حاولت أن أزن قيمته
ونتاجه ؟ لا ! لقد كنت مدعنا . لقد فكّرت قائلاً : « انها ارادة الله
ولا بد من إنجازها . »

ألقي بنفسه بكامل طوله على سرير رازوموف ثم وضع ظهري يديه
فوق عينيه وبقي دون حراك وصامتاً تماماً . ولا حتى صوت تنفسه كان

(١) يعني هنا نيكولاس الأول قيصر روسيا بين عامي (١٨٢٥ - ١٨٥٥)
الذي سحق انتفاضة الديسمبريين وحكم بالحديد والنار . أما نيكولاس الثاني فهو آخر
القاهرة الروس .
(المترجم)

مسموعاً . وهكذا بقي سكون الغرفة الميت دون أي تعكير حتى قال رازوموف في الظلمة بصوت كئيب :

— يا هالدين .

— نعم .

هكذا أجاب الآخر فوراً ، وقد أصبح الآن غير مرئي في السرير ، ودون أن يتحرك .

— ألم يحن وقت ذهابي ؟

— أجل يا أخي .

هنا ما سمع الآخر يقوله وهو متمدد هناك في صمت الظلمة . وكأنه يتحدث في نومه .

— لقد حان وقت اختبار القدر .

صمت : ثم قدّم توجيهات قليلة واضحة بالصوت الهاديء المجرد لشخص في غشية . جهّز رازوموف نفسه للخروج دون أن يتأقظ بكلمة واحدة كجواب . وبينما كان يغادر الغرفة قال له الصوت من السرير :

— اذهب وليكن الله معك أيتها الروح الصامتة .

وفي الفسحة أمام الباب أقفل رازوموف الباب . وهو يتحرك بخفّة ، ووضع المفتاح في جيبه .

* * *

- ثانياً -

لا بد أن كلمات وحوادث ذلك المساء قد انحفرت كأنما بأداة فولاذية في ذهن السيد رازوموف حيث أنه كان قادراً على كتابة حكاياته بكل تلك التفاصيل والدقة بعد حدوثها بأشهر عديدة .

أما سجل الأفكار التي هاجمته في الشارع فهو أكثر دقة ووفرة حتى :
ويبدو أنها اندفعت نحوه بحرية أكبر لأن قدراته على التفكير لم تعد مسحوقة بحضور هالدين الحضور المرعب لجريمة عظمى والقوة المذهلة لتمصّب هائل . ولدى النظر إلى صفحات مذكرات السيد رازوموف فاني اعترف أن عبارة « اندفاع الأفكار » ليست بالصورة الملائمة .

سيكون أكثر الأوصاف ملاءمة هو أن نصفها بـ « جابة الأفكار » :
الانعكاس الصحيح لحالة مشاعره . تلك الأفكار في حد ذاتها لم تكن عديدة . . . كانت أشبه بأفكار معظم البشر ، أي قليلة وبسيطة . . . ولكن لا يمكن إعادة صياغتها هنا في كل تكراراتها التعجبية التي استمرت في احتياجها المتعب الذي لا نهاية له . . . فقد كان المشوار طويلاً .

واذ بدت للقارئ الغربي مثيرة للصلمة وغير ملائمة أو حتى غير لائقة : فلا بد أن نتذكر أنه فيما يخص الأولى فإن هذا قد يكون من تأثير بياني الفج . أما بالنسبة للبقية فسوف ألاحظ هنا فحسب أن هذه ليست حكاية عن غرب أوروبا .

ربما قامت الأمم بتشكيل حكوماتها ، ولكن الحكومات دفعت لها بالمقابل بالعملة نفسها . لا مجال للتفكير في أن يجد أي أنكليزي شاب نفسه في موضع رازوموف . وبما أن الحال هو على هو عليه فمسيكون من العبث أن نتصور ما يمكن أن يفكر به هذا الشاب الانكليزي . والظن المأمون الوحيد الذي يمكن القيام به هو أنه لا يمكن له أن يفكر كما فكر السيد رازوموف في هذه الأزمة التي كان مصيره يواجهها . لن تكون له أية معرفة موروثه وشخصية حول الوسائل التي تستعملها حكومة فردية مطامحة تاريخية بكبح الأفكار وحماية ساطتها والدفاع عن وجودها . وبواسطة مبالغة عقلية قد يتخيل نفسه وقد ألقى اعتبارياً في السجن ، ولكنه لن يخطر له ما لم يكن محموماً (وربما لن يخطر له ذلك ولو كان محموماً) أنه سيفضرب بالسياط كنوع من الممارسة العادية التي تجري خلال التحقيق أو كعقوبة .

هذا مجرد مثال بسيط وواضح على الشروط المختلفة للفكر الغربي . لا أعرف ان كان هذا الخطر قد مرّ بفكر السيد رازوموف خصوصاً . لا شك أنه دخل دون وعي إلى الخوف العام وحالة الترويع العام النابعين عن الأزمة . كان رازوموف ، كما رأينا ، مدركاً لبعض الوسائل الدقيقة التي تحطم معنويات وآمال وسمعة فرد ما عن طريق اجراءات حكومة استبدادية . طرد من الجامعة بكل بساطة (أقل ما يمكن أن يحدث له) ، مع استحالة اكماله للراسته في مكان آخر ، كان كافياً لتدمير حياة شاب ، يعتمد على نحو مطلق على تطوير قدراته الطبيعية ليكون له مكان في العالم ، تدميراً كاملاً . كان روسياً : وبالنسبة إليه فان تورطه يعني ببساطة أن يغرق في أدنى الأعماق الاجتماعية بين اليائسين والمعوزين : خفافيش المدينة .

كانت الظروف الغريبة المحيطة بأبوة رازوموف وأصله ونسبه ،
أو بالأحرى افتقاره إلى كل ذلك ، تلعب دوراً في افكاره . وقد تذكرها
أيضاً : لقد سبق تذكره بها مؤخراً بطريقة فظيعة على نحو خاص وذلك
من قبل « هالدين » المميت . « لأنني لا أملك ذلك ، هل يتوجب أن
يؤخذ كل شيء آخر مني ؟ » هذا ما فكر به .

شجّع نفسه لبذل مجهود آخر للاستمرار . على امتداد الطريق كانت
عربات الجليد تنزلق كالاشباح وتجلجل أجراسها عبر بياض مرفرف
فوق الوجه الأسود لتليل . كان يقول لنفسه : « انها جريمة . القتل هو
القتل . رغم أن نوعاً من المؤسسات الليبرالية بالطبع . . . »

طنخ عليه شعور بعثيان رهيب . حضّ نفسه عقلياً : « عليّ أن أكون
شجاعاً » . كانت قوته قد انهارت فجأة كأنها أخذت منه باليد . ثم
عمادت إليه بجهد ارادي هائل لأنه كان يخشى أن يغمى عليه في الشارع
ثم تمسك به الشرطة ومفتاح سكنه في جيبه . وهناك ستجد هالدين و
سيكون أمره قد انتهى بالفعل .

وبالغربة الأمر ، لقد جعله خوفه يسير حتى النهاية . كان المارة
نادرين . كانوا يظهرون له فجأة ، ويلوحون سوداً ضمن رقاقات الثلج
قريباً منه ، ثم يختفون مرة واحدة . . . دون وقع أقدام .

كان ذلك حياً للفقراء المدقعين . رأى رازوموف امرأة عجوزا
ملفوفة بشالات رثة . تحت نور مصباح الشارع كانت تبدو كشحادة في
عطلة اذ كانت تمشي ببطء في العاصفة الثلجية وكأنه ليس لها بيت تهرب
إليه ، وكانت تتأبط رغيفاً مدوراً من الخبز الأسود ولها هيئة من بحرس
غنيمة ذات ثمن لا يقدر ، وقد أشاح عنها رازوموف بنظرة وهو بحسدها
على طمأنينة فكرها ورضاها بقسمتها .

ان من يقرأ حكاية رازوموف كما رواها هو سيستغرب فعلاً كيف استطاع أن يستمر في السير في شارع لامتناه اثر آخر ، على أرصفة كانت تنسد تدريجياً بالشاح . كان التفكير في هالدين الذي أقفل عاياه باب غرفته والرغبة اليائسة في التخلص من وجوده هما اللذان يحثانه على التقدم . لم يكن لأي تصميم عقلاي أي دور في جهوده . وهكذا ، حين وصل إلى المطاعم الرخيص وسمع أن رجل الجياد زيميانيتش لم يكن هناك ، كان كل ما استطاع أن يفعله هو أن يحدق بغباء .

صاح النادل ، وهو شاب ذو شعر أشعث وجزمة مطاوعة بالقار وقميص قرنفلي ، كاشفاً عن لثة فاتحة اللون بابتسامة باهء أن زيميانيتش قد سكر فترة ما بعد الظهر وأنه خرج مع زجاجة تحت كل إبط وذلك ليواصل الشرب بين الجياد ، كما يعتقد .

كان مالك هذا الوكر الوضيع ، وهو رجل قصير نحيل في قفطان قماشي متسخ يصل حتى كاحليه ، يقف قريباً ويده مدسوستان تحت حزامه . وقد أوما هذا برأسه مصدقاً على كلام النادل . كانت رائحة الكحول الكريهة والبخار الزنخ الشمعي للطعام قد أمسكا برازوموف من خنثاقه . ضرب إحدى الطاوات بقبضة يده وصاح بعنف :

– أنت تكذب .

التفتت وجوه غائمة غير مغسولة باتجاهه . ابتعد متشرد في ملابس رثة وذو عينين رقيقتين ، وكان يتناول الشاي ، إلى طاولة أبعد . صعدت همهمة تعجب مع صوت خفيض معبر عن الخوف . كما سمعت ضحكة أيضاً وهتاف يقول « حسناً ! حسناً » بلهجة ساخرة ماطفة . نظر النادل فيما حوله وصاح معلنا للمكان :

— هذا السيد لا يصدق أن زيميانيتش ثمل .

ومن زاوية بعيدة سمع صوت خشن ينتمي إلى كائن رهيب فظ يصعب وصفه له وجه أسرد كخطم دب ، ينخر بغضب قائلاً :

— سائق اللصوص اللعين . ما الذي تريده من هذا السيد هنا ؟
نحن جميعاً أشخاص شرفاء في هذا المكان .

لحق رازوموف بمالك الوكر وهو يعرض على شفته حتى أدمها ليمنع نفسه من الانفجار منزلاً اللعنات . كان هذا قد همس له قائلاً :
« تعال معي قليلاً » . وها هو يقوده الآن إلى مكان هو عبارة عن جحر صخري خلف منضدة خشبية ، وحيث يغسل الكؤوس منحنيماً فوق حوض خشبي على نور شمعة مشحمية .

قال الرجل المرتدي للقنطان الطويل بلهجة كثيبة :

-- أجل يا أبي الصغير .

كان له وجه أسمر خبيث ولحية خنينة تميل إلى اللون الرمادي .
راح يحاول اشعال قنديل من الصنبيح كان يضمه إلى صدره ويهذر طوال الوقت .

سيقوم بجعل السيد يرى زيميانيتش ليثبت له أنه لم يكن هناك أي كذب وسيريه أيضاً أن هذا ثمل . يبادو أن زوجته قد هجرته وهربت في الليلة الماضية . « يا لها من ساحرة شمطاء ! نحيلة ! نفو ! » ثم بصق .
كلهني كن يهربن من سائق الشيطان هذا . . . وهو في الستين من عمره أيضاً ، ولم يستطع أن يتعود على ذلك . ولكن كل قلب يأسي بطريقته الخاصة ، وقد ولد زيميانيتش أحرق ولا زال . وبعدها سيلجأ إلى

الزجاجة . قال : « ومن يستطيع تحمل الحياة في أرضنا دون الزجاجة ؟ »
بأله من رجل روسي حقيقي . . . ذلك الخنزير الصغير . . . أرجو أن
تبعني . »

عبر رازوموف مساحة مربعة من الثلج العميق محاطة بجدران عالية
ذات نوافذ عديدة لا تحصى . هنا وهناك كان نور أصفر غائم قد علق
داخل الكتلة المربعة من الظلمة . كان المنزل عبارة عن بيت زري ضخم ،
خالية لحشرات بشرية ، مسكن تذكري للبؤس مشرف على حافة الجوع
والبأس .

عند زاوية كانت الأرض تنحدر بشدة إلى الأسفل ، ولحق رازوموف
نور القنديل عبر مدخل صغير إلى مكان كهفي متطاول كطريق فرعي
تحت أرضي مهمل . في عمق المكان كانت ثلاثة أحصنة شعناء صغيرة
مربوطة إلى حلقات ترفع رؤوسها معاً ، وكانت تبدو دون حراك
ومعتمة في نور القنديل الباهت . لا بد وأنه الطقم الشهير الخاص برحلة
فرار هالدين . حديق رازوموف بنحوف في الظلمة . نبش مرافقه القش
بقلمه .

— ها هو . آه ! يا للحماقة الصغيرة . رجل روسي حق . انه يقول :
« لا قلوب مثقلة عندي . أخرج الزجاجة وأبعد فمك القبيح عن ناظري . »
ها ! ها ! ها ! ها هو الرجل على حقيقته .

رفع القنديل فوق شكل منبسط لرجل يرتدي ملابس الخروج .
كان رأسه موضوعاً ضمن قبعة قماشية مدببة . على الجانب الآخر من
كومة برز زوج من الأقدام من جزمة سميكة هائلة .
علّق صاحب المطعم :

– دوماً مستعد للسياقة . سائق روسي حقيقي . قديساً كان أم شيطاناً ، ليلاً أم نهاراً ، الكل سيان لدى زيميانيتش حين يكون قلبه متحرراً من الحزن . يقول : « لا أسألك من أنت ، بل إلى أين ذاهب . » سيقود الشيطان نفسه إلى مسكنه ويعود مغتياً إلى أحصنته . لقد ساق الأديرين ممن يقععون بسلاسلهم الآن في مناجم نيرتشينسك .

ارتعد رازوموف . ثم قال متلعثماً :

– ناد عليه ، أيقظه .

وضع الآخر قنديله أرضاً ، وخطا نحو الخلف ثم رفس النائم المنبطح . اهتز الرجل بسبب تأثير الصدمة ولكنه لم يتحرك . وعند الرفسة الثالثة نخر ولكنه بقي ساكناً كما من قبل .

كف صاحب المطعم عن العمل وتنهّد بعمق .

– ها أنت ترى بنفسك كيف هي الحال . لقد فعلنا ما بوسعنا لأجلك .

التقط القنديل من على الأرض . كانت البرامق (١) السوداء الكثيفة للظل تتأرجح في دائرة النور . ثم تملكك رازوموف نوبة من الجنون الرهيب . . . انه الغضب الأعمى النابع من حفظ الذات .

صرخ بلهجة لا أرضية جعلت القنديل يقفز ويرتجف :

– آه ! يا للوحش الحقير ! سأوقظك ! أعطني . . . أعطني . . .

نظر فيما حوله بجنون ، ثم أمسك بمقبض شوكة الاصطبل واندفع إلى الأمام وضرب الجسد المنبطح وهو يصرخ صرخات غير مفهومة .

(١) البرامق : جمع برمق وهو شمع الدولاب . (المترجم)

وبعد فترة توقفت صرخاته وتوقف سيل الضربات في صمت وظلال الاصطبل الأشبه بالقبو . لقد كال رازوموف الضربات لزيمنيا نيتش بجنون لا يرتوي ، وأنهال عليه بوابل من الضربات الرنانة . وباستثناء الحركات العنيفة لرازوموف لم يتحرك أي شيء ، لا الرجل المضروب ولا الظلال الأشبه بالبرامق على الجدران . لم يكن يسمع سوى صوت الضربات . كان مشهداً غريباً .

وفجأة سمع صوت طقطقة . لقد انكسرت العصا وطار نصفها بعيداً في العتمة إلى ما وراء النور . وفي هذا الوقت نفسه جلس زيمنيانيتش . ولدى رؤيته لهذا أصبح رازوموف دون حراك كالرجل حامل القنديل ... ولكن صدره كان يعلو طالباً للهواء وكأنه يكاد ينفجر .

لا شك أن احساساً كليلاً بالألم قد اخترق أخيراً ليل الثمالة المواسمي المحيط بـ « الروح الروسية اللامعة » كما وصفه هالدين مطرباً عليه بحماسة . لم يكن زيمنيانيتش يرى أي شيء على الإطلاق . طرف محجر عينيه بلون أبيض شامل لمرة أو مرتين . . . ثم انطلقاً الشعاع . جلس للحظة في القش بعينين مغلقتين في حالة عجيبة من التأمل المرهق ، ثم سقط بيضاء على جنبه دون أن يحدث أي صوت . القش هو الذي خشخش قليلاً فحسب . حدّق رازوموف بجنون وهو يناضل ليسترجع أنفاسه . وبعد ثانية أو اثنتين سمع شخيراً خفيفاً .

رمى بعيداً قطعة العصا التي تبقت في قبضته ، ثم خرج بخطوات عريضة سريعة دون أن ينظر إلى الخلف مرة واحدة .

بعد أن سار دون وعي مسافة خمسين ياردة على امتداد الشارع وجد نفسه ضمن ثلج كثيف دفعته الريح . وقد وصل الثلج حتى ركبته قبل أن يتوقف .

كان من شأن هذا أن يعيده إلى نفسه ؛ ثم نظر فيما حوله فاكتشف أنه يسير في الاتجاه الخاطئ . عاد ليسير على آثار خطواته ، ولكنه يمشي الآن بسرعة أقل . وحين مرّ أمام البناء الذي غادره قبل قليل شهر قبضته مهدّداً المأوى الكئيب للبؤس والجريمة القائم على ذلك النحو الغريب فوق الأرض البيضاء . كانت للبناء هيئة التأمل . ترك ذراعه تسقط إلى جانبه وقد ثبطت همته .

رأربكه استسلام زيميانيتش الانفعالي للحزن والسلوان . هذا هو الشعب . رجل روسيّ عن حق ! كان رازوموف سعيداً لأنه ضرب ذلك الشخص المتوحش ... « تلك الروح اللامعة » للآخر . ها هما : الشعب والمتحمّس .

وبين الاثنين قضي عليه . بين ثمالة الفلاح غير القادر على الفعل والنشوة الحاملة للمثالي غير القادر على ادراك علّة الأشياء ، والخلق الحقيقي للبشر . كان ذلك نوعاً رهيباً من الطفولية . ولكن للأطفال معلّمهم . فكّر رازوموف وهو يتوق للقوة على الإيذاء والتدمير : « آه ! العصا ، العصا ، القبضة الصارمة ! »

أحسّ بالسعادة أنه ضرب ذلك الشخص المتوحش . لقد جعل الجهد الجسدي جسمه في حالة من التوهج المريح ، كما أن استثارته العقلية قد توهجت أيضاً وكان كل الحمى قد خرجت منه في نوبة من العنف الخارجي . ومع الاحساس الدائم بالخطر الرهيب كان مدركاً الآن لحقد هادىء لا يمكن انحماده .

سار ببطء فأبطأ . وبالفعل ، فأننا لو أخذنا في الاعتبار الضيف الذي كان في غرفته ، لا يكون مستغرباً أنه كان يتمهّل في سيره . كان

الأمر أشبه بمن يؤوي مرضاً وبائياً لن يودي بحياتك ربما ، ولكنه سيأخذ منك كل الذي جعل حياتك تستحق أن تعاش : وباء رقيق يحول الأرض إلى جحيم .

ما الذي كان يفعله الآن ! أهو ممدد على الفراش كالليت ، وظهر يديه فوق عينيه ؟ كانت رؤيا حية ومروعة تلك التي تصورها رازوموف هالدين على سريريه . . . الوسادة البيضاء نجوت من ثقل الرأس ، والساقان في جزمة طويلة ، والقدمان المقلوبتان إلى أعلى . وعبر اشمترازه قال لنفسه : « سأقتله حين أصل إلى البيت . » ولكنه كان يعرف جيداً أن لا فائدة من ذلك . ستكون الجثة المعلقة فوق رقبته مميتة كالرجل الحي نفسه . لا شيء أقل من الإبادة الكاملة سيكون فعالاً . وكان ذلك مستحيلاً . ماذا اذن ؟ هل على المرء أن يقتل نفسه حتى ينجو من هذا العقاب الالهي ؟

كان يأس رازوموف مشوباً على نحو عميق جداً بالحقد بحيث لم تكن مقبولة لديه هذه القضية .

ومع ذلك فقد كان اليأس - ولا شيء أقل - هو الكامن من وراء فكرة اضطرابه إلى أن يعيش مع هالدين لعدد غير محدود من الأيام في قلق قاتل لدى أي صوت . ولكن ، حين يعرف أن « الروح اللامعة » لزييميانيتش كانت تعاني من خسوف مخمور ، فقد يأخذ « اذعانه » الجهنمي إلى مكان آخر . ولم يكن ذلك محتملاً على ما يبدو من ظاهر الأمور .

فكّر رازوموف : « يجري الآن تحطيمي . . . ولا يمكنني الهرب حتى : » للناس الآخرين ركن في هذه الأرض . . . منزل صغير ما في المقاطعات يتمتعون بحق اصطحاب مشاكلهم إليه . مأوى مادّي . أما هو

فلا شيء لديه . ليس لديه حتى المأوى الأخلاقي . . . مأوى الثقة . إلى من سيذهب ليفضي له بهذه الحكاية . . . في كل هذه الأرض العظيمة العظيمة ؟

ضرب رازوموف الأرض بقدمه . . . وتحت البساط الطري من الثلج أحسن بأرض روسيا الصلبة ، غير الحية ، الباردة ، الساكنة ، كأم كنيية مفجوعة تخفي وجهها تحت كفن . . . تربة وطنه الأم ! . . . وطنه هو . . . وليس له فيه لا مدفأة ولا مصطلي !

رمى بعينه نحو الأعلى ووقف مذهولاً . كان الثلج قد توقف عن الهطول ، والآن ، وكأنما بمعجزة ، رأى فوق رأسه السماء السوداء الجليية للشتاء الشمالي ، مزينة بنيران النجوم السخية . كانت سقفاً مناسباً للقاء المتألق للثلوج .

تلقى رازوموف انطباعاً مادياً مباشراً من الفضاء اللامتناهي والملايين التي لا تحصى .

وقد استجاب لها بجاهزية روسي ولد لا رث من الفضاء والأرقام . تحت الاتساع السخي للسماء ، كان الثلج يغطي الغابات التي لا نهاية لها ، الأنهار المتجمدة ، سهوب بلد هائل المساحة ، ماسحة معالم الحدود وحوادث الأرض ، ومسوية كل شيء تحت بياضها المنسقة المتماثل ، كصفحة سوداء هائلة تنتظر سجل تاريخ لا يصدق . كانت تعطي الأرض بحيوات آلاف البشر من أمثال زيميانيتش وحفتها من المحرضين من أمثال هالدين . . . الذين يقتلون بحماقة .

كان نوعاً من الجمود المقدس . أحس رازوموف بالاحترام له . بدا وكأن هناك صوتاً يبكي في داخله . « لا تلمسه . » كانت ضمانته

للبقاء ، للأمان ، بينما يستمر عمل القدر الآخذ بالتضج . . . عمل ليس
للثورات بالطيش الانفعالي لفعالها ودوافعها المتقلّبة . . . بل للسلام .
ما كانت الحاجة تدعو إليه لم يكن الطموحات المتصارعة لشعب ، بل
ارادة قوية وواحدة : لم تكن تريد هذيان الأصوات الكثيرة ، بل تريد
رجلاً . . . قوياً وواحدًا !

وقف رازوموف عند نقطة نُحوّل . كان مفتوناً باقتراجه ، بمنطقه
الطاغبي (التحول). فسلسلة الأفكار لا تكون مزيفة أبداً، اذ يكمن الزيف
عميقاً في ضرورات الوجود ، في المخاوف السرية والطموحات نصف
المتشكلة ، في الثقة السرية المتحددة مع انعدام الثقة السري بأنفسنا ، في
حب الأمل والخوف من الأيام المتقلّبة .

في روسيا ، أرض الأفكار الشبحية والمطامح المتحرّرة من الجسد ،
كانت عقول جريئة كثيرة قد انصرفت أخيراً عن الصراع العبي الذي
لا نهاية له نحو حقيقة تاريخية واحدة وعظيمة هي الأرض . لقد التفتت إلى
سلطة الفرد المطلقة من أجل سلام ضميرها الأبوي ، كما يلتفت ملحد
مُنْهَك ، لَمَسَهُ العفوُ الالهي ، إلى دين آبائه من أجل أن ينال نعمة
الراحة الروحية . وها هو رازوموف ، شأنه شأن الروس الآخرين من
قبله ، يحسّ وهو في صراع مع نفسه ، بلمسة العفو الرباني على جبينه .

فكّر في نفسه وقد بدأ يمشي ثانية : « هالدين يعني التمزيق . ما
قيمته هو وسخطه وكل حديثه عن الرق وحديثه عن العدالة الربانية ؟
كل هذا يعني التمزيق . الأفضل أن يعاني الآلاف من أن يصبح شعب
كتلة متفسّخة ، لا حول له كما لا حول للغبار أمام الريح . الظلامية (١)

(١) الظلامية : نزعة إلى إعاقة التقدم وانتشار المعرفة . (المترجم)

خير من مشاعل الحريق المتعمد . البذرة تنبت في الليل . ومن التربة المعتمة تبرز النبتة الكاملة. ولكن الثوران البركاني عقيم، فيه دمار للأرض الخصبية . وهل عليّ أنا ، أنا الذي أحبّ بلدي . . . أنا الذي لا يملك شيئاً سوى ذلك الحب والذي أضع إيماني فيه . . . هل عليّ أن أترك مستقبلي ، وربما قدرتي على النفع ، يُخربان من قبل هذا المتعصب المتعطّش للدماء ؟

دخلت الرحمة الالهية إلى قلب رازوموف . انه يؤمن الآن بالرجل الذي سيأتي في الوقت المحدد .

ما هو العرش ؟ بضع قطع من الخشب منجّدة بالمخمل . ولكن العرش مركز للسلطة أيضاً . شكل الحكومة هو شكل أداة . . . وسيلة . ولكن عشرين ألف مئاة ممتلئة بأكثر العواطف نبلا والمحتكّة ببعضها البعض في الهواء تعيق الفضاء على نحو بانس ، وليس فيها أية سلطة ، ولا تملك أية ارادة ، وليس بقدرتها أن تمنح أي شيء .

وهكذا استمر يمشي مفكراً دون أن ينتبه إلى الطريق ، محاوراً نفسه بوفرة وسهولة استثنائيتين . في العادة كانت جملة ترده ببطء ، بعد سعي واع ومجهد . ولكن قوة ما أسمى كانت تلهمه الآن بسيل من المجادلة البارة كما يحدث حين يصبح الآثمون الثابون العائدون إلى الايمان ثرثارين إلى حد هائل .

أحسّ بجذبل قائم .

فكر في نفسه متسائلاً : « ما هي النتائج الفكرية الغامضة على نحو رهيب لذلك الشخص بالمقارنة مع الادراك والفهم الواضحين لذكائي ؟ أليست هذه بلدي ! أو ليس لي أربعون مليوناً من الاخوة ؟ » وإنه

لمنتصر حتماً ضمن الصمت الذي يلف قلبه . بدت له الضربات المخيفة التي كالمها لزيميانيثش فاقد الوعي علامة على الوحدة الصميمية ، ضرورة قاسية على نحو مثير للشفقة للحب الأخوي . « لا ! إن كان علي أن أعاني فلأعاني على الأقل في سبيل قناعاتي ، وليس في سبيل جريمة يرفضها عقلي . . . عقلي البارد السامي » .

توقف من التفكير لبرهة . كان الصمت في صدره كاملاً . أحس بقلق شكّاك ، كما قد نحس به حين ندخل مكاناً غريباً دون اضاءة . . . الاحساس الالعقلاني بأن شيئاً ما قد يقفز علينا في الظلام . . . الخوف العجيب من اللامرئي .

طبعاً هو بعيد عن أن يكون رجياً عتيق الطراز . لم يكن كل شيء يسير نحو الأفضل . هناك البيروقراطية الاستبدادية . . . اساءة استعمال السلطة . . . الفساد . . . وهلم جرا . . . الحاجة تدعو إلى رجال قادرين . إلى عقول متنوّرة . إلى قلوب مخلصة . ولكن لا بد من المحافظة على السلطة المطلقة - الأداة الجاهزة للانسان - لحاكم المستقبل المستبد . كان رازوموف على ايمان به . كان منطق التاريخ قد جعله أمراً يتعدى تجنبه . كانت حالة الناس تتطلب وجوده . سأل نفسه بحماسة : « ما هو الشيء الآخر الذي يمكنه أن يحرك كل تلك الكتلة باتجاه واحد ؟ لا شيء آخر . لا شيء سوى ارادة فرد واحد ؟ »

اقتنع بأنه كان يضحى بتطلعاته الشخصية إلى الحرية . . . رافضاً الخطأ الجذّاب لقاء الحقيقة الروسية الصارمة . قال لنفسه : « هذه هي الوطنية » ، ثم أضاف : « لا مجال للتوقف في منتصف هذا الطريق . » ثم لاحظ بينه وبين نفسه : « لست جباناً » .

ومن جديد كان هناك صمت شامل في صدر رازوموف . سار برأس مطاطة دون أن يفسح الطريق لأحد . سار ببطء وكانت أفكاره العائدة إليه تتحدث في داخله ببطء رزين .

« ما هو هالدين هذا ؟ وما أنا ؟ مجرد حبتين من الرمال . ولكن الجبل العظيم مؤلف من مثل هذه الحبات التافهة . وموت شخص واحد أو كثير من الأشخاص مسألة غير ذات أهمية . ومع ذلك نحارب وباء سارياً . هل أريد موته ؟ لا ! كنت سأنقذه لو استطعت . . . ولكن لا يمكن لأحد أن يفعل ذلك . . . انه العضو الداوي الذي لا بدّ من اجتنائه . وإذا كان عليّ أن أفنى من خلاله ، فدعني لا أفنى معه ، وأكون متضامناً ضد ارادتي مع حماقته الكئيبة التي لا تفهم شيئاً عن الناس أو الأشياء . لماذا أترك ذكري مزيفة ؟

ثم مرّ بخاطره أنه لا أحد هناك في هذا العالم يهتم بنوع الذكري التي سيتركها وراءه . صاح في نفسه على الفور : « أموت من أجل شيء مزيف ! . . . ياله من مصير بائس ! »

أصبح الآن في جزء أكثر حيوية من المدينة . لم يلاحظ حادث الاصطدام الذي وقع لعربتي جليد قرب المنحنى . كان سائق احدهما يصرخ باكياً بالآخر :

— أيها البائس الحسيس !

هذه الصرخة الجشاء التي أطلقت في أذنه تقريباً ، شوتشت رازوموف . هزّ رأسه برماً ومضى في طريقه وهو ينظر باستقامة نحو الأمام . وفجأة ، رأى هالدين ، ممدداً على ظهره فوق الثلج في طريق سيره ، رآه محسوساً ، واضحاً ، حقيقياً ، ويديه المقلوبتين فوق عينيه ، مرتدياً معطفاً ضيقاً بني

اللون وجزمة طويلة . كان ممدداً بعيداً عن الطريق قليلاً ، وكأنه قد اختار ذلك المكان عن عمد . كان الثلج من حوله غير مداس .

كان لهذه الهلوسة مظهر محسوس بحيث أن أول حركة لرازوموف كانت أنه مدّ يده إلى جيبه ليتأكد من أن مفتاح غرفته كان لا يزال هناك . ولكنه كبح هذا الدافع بأن قوّس شفّيته باشمتراز . لقد فهم . كان فكره المركز بكثافة على الجسم الذي تركه ممدداً فوق سريره ، قد انتهى إلى هذه الصورة الغريبة الحادة للبصره ، عالج الشبح بهدوء . بوجه صارم ، ودون توقف ، ومهدقاً بعيداً عن الطيف ، سار إلى الأمام وهو لا يحس بشيء سوى بضيق خفيف في الصدر . بعد المرور التفت برأسه لالقاء نظرة ، ولم ير سوى آثار أقدامه غير المنقطعة فوق المكان الذي كان صدر الشبح المتمدد .

استأنف رازوموف السير وبعد قليل همس باستغراب لنفسه :

« كما لو أنه حي ! بدا كأنه يتنفس ! وفي طريقي تماماً أيضاً ! لقد كانت تلك تجربة استثنائية . »

تقدم بضع خطوات ثم همهم من خلال أسنانه المطبقة :

« سأسلمه إلى السلطات . »

ثم كان هناك فراغ كامل أمامه مسافة عشرين ياردة أو تزيد . لفّ معطفه حول نفسه على نحو أوثق . ثم أنزل قبعته حتى غطت عينيه .

« الحياة . كلمة عظيمة . ما هي الحياة ؟ يتحدثون عن رجل يحنون

وطنه ، أصدقائه ، حبيبته . لا بد من وجود رابط أخلاقي أولاً . كل ما يمكن للمرء أن يخونه هو ضميره . وكيف يمكن لضميري أن يكون متورطاً هنا ، أي رابط من روابط الايمان المشترك أو العقيدة المشتركة

سيلزمني أن أترك هذا الأحمق المتعصب يجرّني إلى الدرك الأسفل معه ؟ على العكس ، ان كل التزام يتصف بالشجاعة الحقيقية أمر مخالف لهذا .
نظر رازوموف فيما حوله من تحت قبعته .

« ما الذي يمكن للتحامل المسبق للعالم أن يلومني عليه ؟ هل حرضته على منح ثقته فيّ ؟ لا ! هل أعطيته ولو بكلمة أو نظرة أو ايماءة واحدة سبباً يدعوه إلى الافتراض بأنني قبلت ثقته فيّ ؟ لا ! صحيح أنني وافقت على الذهاب لمقابلة زيميانيتش ذلك . حسناً ، لقد ذهبت لأراه . وقد كسرت عصا على ظهره أيضاً . . . ذلك المتوحش . »

بدا شيء ما وكأنه يتقلّب في رأسه جاعلاً إلى الأعلى واجهة قاسية واضحة على نحو استثنائي من دماغه .

قال بلهجة ذهنية مختلفة تماماً : « سيكون من الأفضل على أية حال أن احتفظ بهذه الحادثة بيني وبين نفسي . »

كان قد تجاوز المنعطف المؤدّي إلى مسكنه ، وقد وصل الآن إلى شارع عريض وعصري لا تزال بعض الدكاكين فيه مفتوحة وكذلك المطاعم كلها . كانت الأنوار تسقط فوق الرصيف حيث كان رجال في معاطف ثميّة من الفرو ، وامرأة أنيقة هنا أو هناك ، يمشون مشية الفراغ . نظر إليهم رازوموف باحتقار المؤمن المتزمت للجمهرة العابثة . كان ذلك هو العالم : أولئك الضباط وأصحاب المقامات والرجال العصريون والموظفون الرسميون وأعضاء « نادي اليخت » . كان حادث الصباح قد أثر فيهم كلهم . ما الذي سيقولونه لو عرفوا ما الذي سيقوم به هذا الطالب المرتدي معطفاً فضفاضاً ؟

« ولا واحد منهم يقدر على الاحساس والتفكير بالعمق الذي أستطيعه .
كم واحداً منهم يستطيع انجاز فعل من أفعال الضمير ؟ »

تمهل رازوموف في الشارع جيد الاضاءة . كان مصمماً تماماً .
ولكن من الصعب تسمية ذلك بالتصميم على قرار ما . لقد اكتشف ببساطة
ما الذي كان ينوي فعله . ومع ذلك شعر بالحاجة إلى مصادقة شخص آخر
على ما سيفعله .

قال لنفسه بما يشبه الألم :

« أريد أن أكون مفهوماً . »

كان الطموح الشامل بكل معناه العميق والسوداوي قد أثار على
رازوموف بشدة ، وهو الشخص الذي يعيش بين ثمانين مليوناً من بني
جلدته ، وليس لديه قلب واحد يستطيع أن يفتح له قلبه .

لم يكن المحامي الشخص المطلوب . كان يحترق كثيراً الوكيل الضئيل
الحجم صاحب الحيل الشرعية ذاك . لا يمكن للمرء أن يذهب ويفتح
قلبه أمام ذلك الشرطي الواقف عند الزاوية . ولا كان رازوموف راغباً
في الذهاب إلى رئيس مخفر الشرطة في حيته . . . وهو شخص عاديّ
المظهر كان يراه أحياناً في الشارع مرتدياً بزة متسخة ولفافة تبغ مشتعلة
ملتصقة بشفته السفلى . « سيداً بأن يحسني على الأرجح . وعلى أية حال ،
سيستار بالتأكيد وسيثير اضطراباً هائلاً . »

لابدّ من القيام بالفعل الذي يمليه الضمير باحترام ظاهري .

كان رازوموف يتوق بياس إلى كلمة نصح ، إلى دعم أخلاقي .
من الذي يعرف ما هي الوحدة الحقيقية . . . ليس الكلمة التقليدية ، إنما

الرب المجرد ؟ بالنسبة إلى الوحيدين بالذات ترتدي هذه الكلمة قنا-
ان اكثر المنبوذين بؤساً يعانق ذكرى ما أو وهماً ما. وبين الحين والآخر فان
دجماً قاتلاً للحوادث قد يرفع الستار للحظة . وللحظة فحسب . لا يمكن
لكائن بشري أن يتحمّل رؤية ثابتة لوحدة أخلاقية دون أن يجنّ .

كان رازوموف قد وصل إلى نقطة الرؤية تلك . وللهرب منها
عانق مدة دقيقة كاملة هديانا مؤداه أنه يندفع إلى مسكنه ويرمي بنفسه
على ركبتيه بالقرب من السرير والجسم المعتم عليه ، يقدم اعترافاً كاملاً
بكلمات انفعالية من شأنه أن يهزّ كيان ذلك الرجل كله حتى أعماقه ؛
وهذا من شأنه أن ينتهي بعناق ودموع ضمن صداقة روحية لاتصدق . . .
صداقة لم يشهد لها العالم مثيلاً . يا للسمو !

داخياً كان يبكي ويرتجف مسبقاً . ولكنه كان واعياً أن العيون
التي كانت تنزل إليه عرضاً كانت تراه طالباً هادئاً في معطف فضفاض ،
قد خرج ليمارس المشي في روية . كما لاحظ أيضاً النظرة البراقة
الجانبيهة لامرأة جميلة . . . ذات رأس دقيقة الملامح مغطاة بالجاود
الشعرانية لحيوانات برية . . . حتى قدميها ، كمتوحش ضعيف
وجميل . . . النظرة التي تلوم لبرهة بنوع من الرقة الساخرة من ذلك
الدهول العميق لشاب وسيم .

وفجأة وقف رازوموف ساكناً . كانت مشاهدته الحافظة لشاربين
شائبين ، رأهما وغابا عنه منذ لحظة ، قد أوحى إليه بصورة كاملة
« الأمير ك . . . » ، الرجل الذي ضغط على يده مرة كما لم يفعل أي
رجل آخر من قبل . . . ضغط خفيف إنما متمهل كإشارة سرية ، كربت
نصف متمنع .

م استغرب رازوموف من نفسه ، كيف لم يخطر له من قبل ؟ !
« عضو مجانس شيوخ ، صاحب مقام رفيع ، شخصية عظيمة ،
انه الشخص المطلوب . . . » « هو » !

طفى عليه انفعال ملطف غريب . . . مما جعل ركبتيه ترتجفان
قليلاً . وقد كبح ذلك بتسوة حديثه الولادة . كل ذلك الانفعال كته
عبارة عن هراء مميت . لم يكن قادراً على أن يكون سريعاً بما فيه الكفاية ؛
وحين صعد إلى إحدى عربات الجايد صرخ بالسائق :

— إلى قصر « الأمير ك . . . » هيا . طر :

أجاب الموجيك (الفلاح) المروع الملتحي حتى يياضي عينيه بخنوع :
أسمعك يا صاحب الفخامة :

من حسن حظ رازوموف أن « الأمير ك . . . » لم يكن رجلاً
جباناً ، ففي يوم اغتيال « السيد دو . . . » كان القاق والجزع سائدين
إلى حد كبير في أوساط الرسميين الكبار .

كان « الأمير ك . . . » جالساً بحزن وحيداً في مكتبه حين أبلغه أحد
الخدم وقد أصابه الذعر أن شاباً غامض الهيئة قد دخل عنوة إلى البهو ،
وزفص أن يباع عن اسمه وطبيعة الغرض الذي جاء من أجله ، وأنه لن
يتحرك من هناك حتى يرى صاحب السمو على انفراد . وبدلاً من أن
يقفل على نفسه الباب ويهتف إلى الشرطة ، كما كان تسع من كل عشر
من الشخصيات الهامة ستفعل في مثل ذلك المساء ، فان الأمير استسلم أمام
الفضول وخرج بهدوء إلى باب مكتبه .

في البهو ، كان الباب الأمامي مفتوحاً على آخره ، فميز رازوموف

على الفور ، وكان هنا شاحباً كالموت ، وعيناه متقدتان ، وع
بالخدم المرتبكين .

اغتاظ الأمير إلى أبعد حد ، بل شعر بالسخط أيضاً ، ولكن غرائز
الانسانية الميول واحساساً رقيقاً بالاحترام لنفسه لم يسمح له أن يترك
الشاب يُرمى به إلى الشارع من قبل خدم وضيعةين : تراجع إلى غرفته
دون أن يراه رازوموف ، وبعد هنيهة رنّ الجرس ، سمع رازوموف
في البهو صوتاً أجش عالياً منذراً بالشؤم يقول من مكان بعيد :
- أدخروا السيد إلى هنا .

دخل رازوموف دون رعشة واحدة . أحسّ بنفسه منيعاً . . . مرتفعاً
فوق سطحية الحكم السطحي . ورغم أنه رأى الأمير ينظر إليه بامتعاض
كثيب ، إلا أن وضح ذهنه ، وكان واعياً له تماماً ، منحه ثقة
استثنائية . لم يطأ منه الجاوس .

بعد نصف ساعة ظهرا في البهو مرة أخرى . وقف لهما الخدم ، وقد
تمت مساعدة الأمير ، الذي كان يتحرك بصعوبة على قدميه المصابتين
بالنقرس ، على ارتداء فرائه . كان قد طاب احضار العربية مسبقاً .
وحين فتحت البوابة المزدوجة بضجيج كبير ، سمع رازوموف ، الذي
كان يقف صامتاً وتحديقه تدلّ على الضياع في عينيه ، وان كانت كل
قدرة من قدراته في أقصى حالات الانتباه ، صوت الأمير يقول :

- ذراعك أيها الشاب .

كان الذهن السطحي سريع الحركة لضابط الحرس السابق ، رجل
المهمات المبهرجة ، الذي لا خبرة له إلا في فنون الخداع الغزلي والنجاح

الدينوي ، قد تأثر تماماً بالصعوبات الأشدّ وضوحاً لمثل هذه المواقف
وبوقار رازوموف الهادىء وهو يدلّ بها .

كان قد قال :

— لا ، اجمالاً لا أستطيع إدانة الخطوة التي أقدمت عليها بأن
أتيت إليّ بحكايتك . انها ليست قضية من مستوى رجال الشرطة الصغار ،
والأهم في المسألة متعلق ب . . . لا تقلق . سأخرجك من هذا الموقف
شديد الغرابة والصعوبة .

ثم نهض الأمير عند ذلك ليرن الجرس ، وكان رازوموف الذي
انحنى له انحناءة قصيرة ، قد قال باحترام :

— لقد وضعت ثقفي في حدسي . شاب لا حق له يطالب به أي
شخص في هذا العالم استجار في ساعة امتحان تتضمن أصمق قناعاته
السياسية بروسي لامع . . : هذا كل ما في المسألة .

وكان الأمير قد صاح على الفور :

— لقد فعلت ما هو صواب .

في العربة — وكانت هذه عبارة عن مركبة خفيفة مقلّاة على زلاجة —
حطّم رازوموف الصمت بصوت كان يرتجف قليلاً :

— ان امتناني يتجاوز عظمة جرّاتي .

لهث ، وهو يشعر دون توقّع ، في الظلام ، بضغظ مخاطف على
ذراعه :

كرّر الأمير :

— لقد فعلت ما هو صواب .

وحين توقفت العربية همهم الأمير لرازوموف الذي لم يتجرأ فيسأل
ولو سؤالاً واحداً :

— منزل الجنرال

في وسط الطريق المغطى بالثلج كانت نار كبيرة قد أضمت في
الهواء الطلق ؛ وكان بعض فرسان القوزاق وألجمة جيادهم فوق أذرعهم
يدفثون أنفسهم من حولها . كان هناك خفيران واقفان عند الباب ، وعدد
من دجال الدرك يتسكعون تحت بوابة مدخل العربات ، وفي منبسط
الدرج الخاص بالطابق الأول نهض حاجبان ووقفنا باستعداد . كان
رازوموف يسير بمحاذاة الأمير .

كان عدد كبير إلى حد الانهاش من أصص نباتات الدفيئة تثقل
أرضية حجرة الانتظار . تقدم بعض الخدم . وصل شاب في ملابس
مدنية مسرعاً، وقد هُمس له، ثم انحنى انحناء عميقة، وصاح بحماسة :

— بكل تأكيد في هذه اللحظة .

ثم دخل إلى مكان ما . أشار الأمير إلى رازوموف .

مرّاً عبر جناح من غرف الاستقبال ، كلها مضاعة على نحو هزيل،
واحداها قد جهزت للرقص . كانت زوجة الجنرال قد أرجأت حفلتها
وجوّ من الذعر يسود المكان . ولكن أنوار غرفة الجنرال الشخصية ،
ذات الستائر الثمينة الداكنة والمكتبين الضخمين والكنيات المعميقة ،
كانت مضاعة كلها . أغلق الحاجب الباب خلفهما وراحا ينتظران .

كانت هناك نار فحم في موقد انكليزي . لم يكن قد سبق لرازوموف
أن رأى مثل هذا النار ؛ وكان صممت الغرفة مثل صممت القبور ؛ كاملاً ،

لا قياس له ، بل حتى الساعة فوق الموقد كانت صامتة . كان يملأ إحدى الزوايا على قاعدة سوداء تمثل لمراحتي ذى أعضاء ملساء له ربع الحجم الحقيقي ، وهو في حالة الجري . قال الأمير بلهجة خفيفة :

— انه من أعمال « سبونتي » ويدعى « فرار الشباب » . جميل !
وافقه رازوموف بصوت ضعيف :

— مشير للاعجاب .

ولم يقل أي شيء بعد هذا ، بل بقي الأمير صامتاً بكل وقاره ، بينما راح رازوموف يتحدث بالتمثال . كان هناك احساس يزعجه أشبه بعضات الجوع .

لم ياتفت حين سمع باباً داخلياً يفتح ووقع قدمين سريعتين تخمد السجادة .

صاح صوت الأمير فوراً ، أجش من الاستشارة :

— لقد أمسكنا به . . . ذلك البائس (•) . لقد حضر إلي شاب

محترم . . . لا ! هنا لا يصدق . . .

أمسك رازوموف بأنفاسه أمام البرونز وكأنه يتوقع صوت تحطم .

سمع من وراء ظهره صوتاً لم يسبق له أن سمعه من قبل يلح بلطف :

— تفضاوا بالجلوس (•) .

صاح الأمير بصوت يكاد يكون زاعقاً :

— ولكن أتفهمني يا عزيزي ؟ انه القاتل (•) المجرم . . . لقد

أمسكنا به . . .

(•) وردت هذه العبارة بالفرنسية وستراد عبارات أخرى في هذا الفصل بالفرنسية

وقد أشرت إليها بالأشارة التالية (•) . (المترجم)

دار رازوموف حول نفسه . كانت وجنتا الجنرال الكبيرتان الناعمتان قد ارتاحتا فوق القبة القاسية لبرّته . لا بدّ وأنه كان سبق له وراح ينظر الى رازوموف لان هذا الأخير رأى العينين الزرقاوين فاتحتي الزرقة مثبتتين عليه ببرود .

لوّح الأمير من كرسيه بيد مؤثرة .

— هذا شاب شريف جداً أرسلته العناية الالهية نفسها . . . السيد رازوموف .

كان ردّ فعل الجنرال على تقديم رازوموف إليه أن عبس وهو ينظر إليه ، ولكن هذا لم يقم بأية حركة .

ثم أصغى الجنرال بشفتين مزموّتين وهو جالس إلى مكتبه . كان من المستحيل ملاحظة أية اشارة تدلّ على الانفعال في وجهه .

راقب رازوموف سكونية الصورة الجانبية البدينة لوجه الجنرال . ولكن ذلك استمر للحظة واحدة ، حتى أنهى الأمير كلامه ؛ وحين التفت الجنرال إلى الشاب الذي أرسلته العناية الالهية ، فان بشرته المتوردة ، وعينيّه غير المصدقتين ، واللمعة البيضاء السريعة لابتسامه آلية ، كان لكلّ هذا جو القسوة المرحة الا مكثّرة . لم يعبّر عن أي استغراب من هذه القصة العجيبة— لا عن سرور ولا عن استشارة—ولاعن عدم التصديق أيضاً . لم يبد انفعال يذكر . ولكنه اقترح بأدب كاد يكون مراعيّاً لرغبات الآخرين : « ربما يكون الطائر قد أفلت بينما السيد . . . السيد رازوموف يجري في الشوارع : »

نقدم رازوموف إلى وسط الغرفة وقال :

– الباب متفل والمفتاح في جيبي .

كان كرهه لارجل شديداً . لقد خطر له على حين غرة أنه أحسن أنه
قال . كشف عن ذلك بصوته . نظر إليه مفكراً وابتسم رازوموف .

كل هذا مرّ من فوق رأس « الأمير ك . . . » الجالس في كنية
عميقة ، متعباً وناقد الصبر جداً .

قال الجنرال مفكراً :

– طالب يدعى هالدين .

توقف رازوموف عن الابتسام .

قال بصوت عال دون ضرورة :

– هذا هو اسمه . فيكتور فيكتوروفيتش هالدين . . . طالب .

عدّل الجنرال من جلسته .

– ما الذي يرتديه ؟ هل لك أن تتلطّف فتصف لي ذلك ؟

وصف رازوموف بغضب ملابس هالدين بكلمات قايّة متشنجة .

كان الجنرال يحدق طوال الوقت ثم قال مخاطباً الأمير بالفرنسية :

– لم تكن دون بعض العلامات . هناك امرأة طيبة كانت في الشارع

وصفت لنا شخصاً يرتدي ملابس من النوع نفسه ألقى بالقنينة الثانية .

لقد حجزناها في السكرتاريا وكل من ناقي القبيض عايه وهو يرتدي

معطفاً شركسياً نجايه لها لتنظر إليه . لقد ظلت ترسم اشارة الصليب على

نفسها وتهمز رأسها كلما رأت أحدهم . كان ذلك أمراً يدعو إلى السخط ..

الفت إلى رازوموف وقال بالروسية وبمعاينة ودية :

– تفضل واجلس يا سيدي رازوموف . . . تفضل . لماذا أنت واقف ؟

جاس رازوموف بلا مبالاة ونظر إلى الجنرال .

فكّر في نفسه : « هذا الأحمق جاحظ العينين لا يفقه شيئاً . »

بدأ الأمير يتكلم بشموخ :

– السيد رازوموف شاب ذو قدرات رائعة . وآمل ألاّ يكون مستقبله عرضة . . . :

قاطع الجنرال بحركة من يده وهو يقول :

– بكل تأكيد ، هل معه أي سلاح يا سيد رازوموف ؟

استخدم الجنرال صوتاً موسيقياً لطيفاً . أجاب رازوموف بسخط مكبوت :

– لا ، ولدن أمواس حلاقتي في أنحاء المكان . . . أنت تعرف ما أعني ،

أوما الجنرال برأسه علامة الموافقة .

– بالضبط :

ثم قال الأمير وهو يشرح بلطف :

– نريد ذلك الطائر حياً . سيكون من المؤسف جداً ألاّ نجعله ينزى قليلاً قبل أن تنتهي من أمره .

سقط صمت الغرفة الأشبه بصمت القبور مع صمت الساعة البكماء على التضمين المهذب لجماته الرهيبة . لم يصدر الأمير ، المختبئ في كنيته ، أي صوت .

طوّر الجنرال فكرة جديدة على غير متوقع .

– الانخلاق لمؤسسات مهدّدة تعتمد عايتها سلامة عرش ابيس
لعب اطفال . نحن نعرف ذلك يا اميري ، وتفضل (٥) . . .

ثم قال بنوع من القسوة المداهنة :

– لقد بدأ السيد رازوموف يفهم ذلك أيضاً .

بدت عيناه اللتان وجههما نحو رازوموف كأنهما تخرجان من رأسه .
هذه الغرابة في المظهر لم تعد تصدم رازوموف . قال بقناعة حزينة :

– لن يتكلم هالدين أبداً .

همهم الجنرال :

– سنرى ذلك .

ألحّ رازوموف :

– أنا واثق من ذلك . رجل كهذا لا يتكلم أبداً . . هل تتخيّل
أني هنا بسبب الخوف ؟

هذا ما أضافه بعنف . أحس أنه مستعد للدفاع عن رأيه في هالدين
حتى آخر حد .

اعترض الجنرال قائلاً ببساطة كبيرة :

– طبعاً لا . ولا يسعني سوى أن أقول لك يا سيد رازوموف انه لو لم
يأت بحكايته إلى روسي مخلص ووفّي مثلك ، لكان قد اختفى كالحجر في
الماء . . .

ثم أضاف بابتسامة لامعة قاسية من تحت تحديقته الحجرية :

— ومن شأن ذلك أن يكون له تأثير كرهه . وكما ترى ، فليس هناك من شك بوجود أي خوف هنا .

تدخل الأمير وهو ينظر إلى رازوموف من وراء ظهر الكرسي :

— لا أحد يشكّ بأخلاقية تصرفك . كن مرتاح البال في هذا الخصوص ، أرجوك .

التنمت إلى الجنرال بقلق :

— لهذا أنا هنا . قد تدهش عندما تعرف أنني . . .

أسرع الجنرال يقاطعه :

— لا اطلاقاً . طبيعي جداً . لقد رأيت أهمية . . .

قاطعه الأمير :

— نعم ، وأجازف بأن أطالب بالراح ألاّ يشيع أمر تدخلني وتدخل رازوموف في هذه المسألة . انه شاب واعد ذو جدارة .

همهم الجنرال :

— لا شكّ عندي في ذلك . انه يوحى بالثقة .

— كلّ أنواع الآراء الضارة منتشرة في هذه الأيام . . . انها تلوث أحياء غير متوقع حدوث ذلك فيها . . . ورغم أن ذلك قد يبدو شديداً البشاعة ، إلاّ أنه قد يعاني . . . دراسته . . . و . . .

وضع الجنرال رأسه بين يديه ومرفقاً ، فوق المكتب .

— أجل ، أجل . أنا أفكّر في حلّ للموضوع . . . منذ متى تركته في مسكنك باسيدرازوموف ؟

ذكر رازوموف الساعة التي غادر بها البناء الكبير فقير الحال بسرعة وشروء . كان قد قرّر أن يبقى زيميانيتش خارج المسألة تماماً . ان مجرد ذكره سيعني السجن لـ « الروح الالامعة » ، وربما الضرب المبرح الشديد ، وفي النهاية رحلة إلى سيبيريا بالقيود الحديدية . كان رازوموف ، الذي ضرب زيميانيتش ، يحسّ الآن برقة غامضة متسعة بالنفم .
صاح الجنرال باحتقار وهو يفسح المجال لأول مرة للتعبير عن عواطفه الخبيثة :

— وتقول انه جاء هكذا ليسرّ إليك بالمسألة . . . هكذا . . . لقاء لا شيء . . . لقاء لا شيء ! (•)

أحسّ رازوموف بخطور في الجوّ . كان ارتياب السلطة المطلقة عديمة الرحمة قد نطق بصراحة أخيراً . ختم خوف مفاجيء شفتي رازوموف . كان صمت الغرفة أشبه الآن بصمت زنزانة عميقة ، حيث لا قيمة للزمن ، والشخص موضع الشكّ ينسى إلى الأبد . ولكن الأمير سارع إلى النجدة .

— لقد دفعت العناية الالهية ذلك البائس في لحظة من الاضطراب العقلي إلى أن يلتجئ إلى السيد رازوموف على أساس أنهما تبادلا مرة الأفكار ، وان كل ذلك قد حدث منذ زمن بعيد وأسيء فهمه . . . كان ذلك حواراً عديم الحدودى وتأملياً . . . جرى منذ أشهر . . . كما قيل لي . . . وكان السيد رازوموف قد نسيه تماماً حتى الآن .

تساءل الجنرال بتأمل بعد صمت قصير :

— يا سيد رازوموف هل تنغمس دائماً في حوارات تأملية ؟

أجاب رازوموف ببرود ، وبثقة مفاجئة بالنفس :

— لا ، أنا رجل قناعات عميقة . هناك آراء فجأة في الجو . انها لا تستحق دائماً القتال . ولكن حتى الاحتقار الصامت لعقل جدتي قد يساء فهمه من قبل الطوباويين الطائشين .

حدثت الجنرال من بين يديه . مهمم « الأمير ك . . . » :

— شاب جدتي . « روح متفوقة » (٥) .

قال الجنرال :

— أرى ذلك يا « عزيزي الأمير » (٥) . السيد رازوموف في مأمن معي . أنا مهتم بأمره . لديه ، على ما يبدو ، مزية مفيدة ، انه يوحى بالثقة . ان ما كنت أتساءل عنه هو لماذا يتذكر ذلك الآخر أي شيء ؟ أعنى أنه حتى هذه الحقيقة العارية وحدها . . . إن كان هدفه الحصول على ملجأ مؤقت لعدد من الساعات . فعلى أية حال ، لا شيء أسهل من أن تقول شيئاً ما حول ذلك ما لم يكن يحاول ، بسبب سوء فهم مجنون لحواطنك الحقيقية ، أن يطلب مساعدتك . . . أليس كذلك يا سيد رازوموف ؟

بدا لرازوموف أن الأرض كانت تتحرك قليلاً . هذا الرجل غريب المظهر في البزة الضيقة كان رهيباً . من الضروري أن يكون رهيباً .

— أفهم ما في ذهنك يا صاحب السعادة . ولكن جوابي هو أنني لا أدري لماذا .

مهمم الجنرال بدهشة لطيفة :

— لا شيء في ذهني .

فكر رازوموف : « أنا طريدته . . . طريدته التي لا حول لها . »

كان التعب والاشمئزاز مما حدث في عصر ومساء اليوم والحاجة إلى أن ينسى الخوف الذي لم يستطع إبعاده عنه ، قد أيقظا كرهه لهالدين .

— اذن لا أستطيع مساعدتكم يا صاحب السعادة . لا أعرف ما كان يعنيه من ذلك . أعرف فحسب أني مررت بلحظة تمنيت معها أن أقتله . كما كانت هناك لحظة تمنيت فيها أن أموت . لم أقل شيئاً . كنت مغلوباً على أمري . لم أجعله يثق بي . . . لم أطلب منه أية تفسيرات . . .

بدا على رازوموف أنه قد خرج عن طوره ، ولكن ذهنه كان صافياً . كان ذلك انتمجاراً محسوباً في الواقع .

قال الجنرال :

— انه بالأحرى لأمر مؤسف أنك لم تفعل ذلك. ألا تعرف اطلاقاً ما الذي ينوي أن يفعله ؟

هدأ روع رازوموف ورأى انه جاراً في الجو .

— قال لي إنه يأمل أن تقابله عربة جليد بعد حوالي نصف ساعة من منتصف الليل عند عمود النور السابع على اليسار من الجهة العليا من نهاية شارع كارابيلنايا . وعلى أية حال فانه ينوي الذهاب إلى هناك في هذا الموعد . هو لم يطلب مني حتى أن أعيره بعضاً من ملابسني .

قال الجنرال وهو يلتفت إلى « الأمير ك . . . » بلهجة تدل على الرضا :

— حسناً ! (•) هناك طريقة لجعل « محميتك » (•) ، السيد رازوموف ، دون أية علاقة بالاعتقال الفعلي . سنكون مستعدين لذلك السيد في كارابيلنايا .

عبّر الأمير عن امتنانه . كان هناك انفعال حقيقي في صوته . أما رازوموف ، الساكن ، الصامت ، فقد جلس محمداً إلى السجادة . التفت الجنرال إليه .

— نصف ساعة بعد منتصف الليل . حتى ذلك الحين سيكون علينا أن نعلم عليك يا سيد رازوموف . ألا تعتقد أنه قد يغير خطته ؟
قال رازوموف :

— وكيف لي أن أعرف ؟ مثل هؤلاء الرجال ليسوا من النوع الذي يغير خطته .
— أي رجال تعني ؟

— محبّو الحرية المتعصبون عموماً . الحرية المطلقة يا صاحب السعادة . الحرية التي لا تعني شيئاً محمداً . الحرية التي تُرتكب الجرائم باسمها .
مهمم الجنرال :

— أكره المتمردين من كل نوع . لا أستطيع مغالبة ذلك . انها طبيعي !

أطبق قبضته وهزّها ، وهو يجرّ ذراعه نحو الخلف .

— سيدمترتون اذن .

قال رازوموف بسرور خبيث وهو ينظر إلى الجنرال في وجهه مباشرة :

— لقد ضحكوا بحياتهم سلفاً . واذا ما غيّر هالدين خطته الليلة ، يمكنك أن تطمئن إلى أنه لن يفعل ذلك لينقذ حياته بالهروب بطريقة أخرى . سيكون قد فكّر في محاولة شيء آخر . ولكن هذا غير محتمل .

كرّر الجنرال كأنما لنفسه :

— سيّدسرون .

اتخذ رازوموف تعبيراً لا سبيل إلى فهمه .

صاح الأمير :

— يا لها من ضرورة رهيبه !

أنزل الجنرال ذراعه ببطء :

— هناك عزاء واحد. ذلك الجنس لا يخاف ذرية ، كنت أقولها دائماً :

جهد واحد، لا هوادة فيه، متواصل وثابت . . . وننتهي منهم إلى الأبد .

فكّر رازوموف في أن هذا الرجل الذي أوكل إليه الكثير من السلطة الاستبدادية قد صدق دون شك ما قاله له والآن لما كان سيستمر في تحمل المسؤولية .

كرّر الجنرال مرة أخرى بحقد مفرط :

— أكره المتمردين . هذه العقول المدمّرة ! هؤلاء « الفاسقون » (•)

المثقفون ! لقد بُني وجودي على الاخلاص . انه شعور . وللدفاع عنه أنا مستعد للتخلي عن حياتي — بل وشرفي — اذا ما تطلّب الأمر ذلك . ولكن أرجو أن تقول لي أي شرف يمكن أن يكون هناك ضد المتمردين . . . ضد أناس ينكرون الرب نفسه . . . ملحدون مئة بالمئة ! وحوش ! انه لرهيب حتى مجرد التفكير في الأمر نفسه .

خلال هذه الخطبة العنيفة كان رازوموف — المواجه للجنرال — قد طأطأ برأسه بخفة مرتين . همهم الأمير الواقف جانباً بهيئته الوقورة وهو يرفع عينيه :

— « يا للأسيء اء » (٥)

ثم أنخفض من بصره وصرح بتصميم كبير :

— هذا الشاب ، يا جنرال ، قادر تماماً على أن يفهم مغزى كلماتك

الجديرة بالذكر .

تغيرت تعبير الجنرال كله من الامتعاض المضجر إلى الدمائة الكاملة .

قال :

— أودّ أن أطلب الآن من السيد رازوموف أن يعود إلى بيته .

لاحظ أني لم أسأل السيد رازوموف ان كان قد برّر غيابه أمام ضيفه .

لا شكّ أنه فعل ذلك على نحو مرضٍ . ولكنني لا أسأل ، فالسيد

رازوموف يوحى بالثقة . وهذه هبة عظيمة . ولكنني أودّ أن أقترح وحسب

أن غياباً أطول قد يوقظ شكوك المجرم ويدفعه بالتالي إلى تغيير خططه ربما .

نهض بكياسة واضحة ليرافق زائريه إلى غرفة الانتظار الممتلئة

بأصص النباتات .

افترق رازوموف عن الأمير عند زاوية أحد الشوارع . في العربة كان

قد أصغى إلى أحاديث كانت تختلط فيها العاطفة بالحذر . من الواضح

أن الأمير كان يخشى من تشجيع أية آمال في إجراء أية اتصالات أخرى

في المستقبل . ولكن كانت هناك لمسة من الرقة في صوته الناطق في الظلام

بعبارات التشجيع والودّ . وقد قال الأمير :

— لديّ ثقة كاملة بك يا سيد رازوموف .

فكّر رازوموف بملل : « للكُلّ مثل هذه الثقة على ما يبدو . »

كان يشعر باحتقار مشوب بالتساهل تجاه الرجل الجالس إلى جانبه كفضاً

إلى كتف في ذلك المكان المغلق . ربما كان يخشى من شجار مع زوجته .
لقد سمع عنها أنها متكبرة وعنيدة .

بدا له غريباً أن تلعب السرية مثل هذا الدور الكبير في راحة وأمان
الحياة . ولكنه أراد أن يترك الأمير مرتاح البال فقال بتشديد مناسب
انه طالما كان واعياً ببعض امكانياته الصغيرة وواثقاً من قدرته على العمل ،
فانه سيرك مستقبله بجهوده الخاصة . كما عبّر عن امتنانه لمدة يد
المساعدة إليه . ثم أضاف أن مثل هذه المواقف الخطرة لا تحدث مرتين
خلال مجرى حياة واحدة .

قال الأمير بجلال :

— وقد واجهت هذا الموقف بثبات في الذهن ودقة في المشاعر جعلاني
أعرف قدرك السامي . وعليك الآن أن تواظب . . . أن تواظب .
لدى نزوله إلى الرصيف رأى رازوموف يبدأ دون قفاز تمتدّ إليه عبر
النافذة المنتوحة . أخّرت هذه اليد للحظة ، بينما كان نور مصباح
الشارع يسقط فوق وجه الأمير الطويل وشاربيه الخديين الشائبين التقليديين .
— أأمل أن تكون على ثقة تامة الآن فيما يخص العواقب . . .
— بعد الذي تنازلات سموك وفعلته من أجلي لا يمكنني سوى أن
أعتمد على ضميري .

ثم ودّعه الرأس ذو الشارين الخديين بالفرنسية ريمودّة .
انحنى رازوموف . ابتعدت العربية مع صوت خفيف في الثلج . . .
كان وحيداً على حافة الرصيف .
قال لنفسه انه لا يوجد ما يفكّر فيه ، ثم بدأ يمشي نحو البيت .

سار بهدوء . كانت تلك تجربة عادية بالنسبة إليه أن يسير إلى البيت لينام بعد أمسية ينتقها في مكان ما مع زملائه في مقعد رخيص من مقاعد المسرح . وبعد أن سار قليلاً أمسكت به بألوفية الأشياء . لا شيء قد تغير . كانت هناك الزاوية المعهودة التي ما أن التفّ من حولها حتى رأى النور الشاحب لدكان المؤن الذي تملكه امرأة ألمانية . كانت هناك أرغفة من الخبز « الباث » وباقات من البصل ، وخيوط المقائق خلف زجاج الواجهة . كانوا على وشك اغلاق الدكان . تعثر الرجل المريض الأعرج الذي يعرفه جيداً بالثلج وهو يعانق مصراعاً كبيراً .

لا شيء سيتغيّر . كانت هناك البوابة المألوفة المثابتة ، سوداء مع أشعة من الوميض الضعيف كانت تدلّ على أقواس الأدراج المختلفة . كان الاحساس باستمرارية الحياة يعتمد على انطباعات مادية تافهة . كانت تفاهات الوجود اليومي درعاً لروح . وقد قوّت هذه الفكرة من الهدوء الداخلي لرازوموف حين بدأ يصعد الدرج المألوف . لم يكن ممكناً للاستثنائي أن يغلب على العلاقات المادية التي تجعل أي يوم مشابهاً ليوم آخر . سيكون الغد كالبارحة .

على المسرح فحسب يمكن الاقرار خارجياً بما هو غير اعتيادي . فكّر رازوموف : « أعتقد أنني لو صممت على أن أنسف دماغني على منبسط الدرج لكنت سأصعد هذه الدرجات بالهدوء نفسه الذي أصعدتها به الآن . ما الذي على المرء أن يفعله ؟ المحتوم محتوم . الأمور الاستثنائية تحدث هي أيضاً . ولكنها اذ تحدث تنتهي . وكذلك الأمر حين يكون العقل قد صمّم على شيء . تلك القضية تنتهي . والهموم اليومية ، مألوفيات فكرنا تلتهمه . . . وتستمر الحياة كما في السابق بجوانبها

الغامضة والسرية وقد غابت عن الأنظار ، كما يتوجب عليها . الحياة
أمر عمومي . »

فتح رازوموف الباب بعد أن أدار القفل ثم أخرج المفتاح من القفل ،
ودخل بكثير من الهدوء ثم أرتجه وراءه بجذر .

فكّر في نفسه : « انه يسمعي » ، وبعد أن أرتج الباب وقف ساكناً
ممسكاً بأنفاسه . لم يكن هناك صوت واحد . عبر الغرفة الخارجية العارية
وسار بتعمّد في الظلام . وحين دخل الغرفة الأخرى ، تلمّس طاولته
كأنها بحثاً عن علبة الثقاب . كان الصمت عميقاً باستثناء صوت تلمّس
علبة الثقاب . هل ذلك الشخص نائم بهذا العمق ؟

أشعل عوداً ونظر إلى السرير . كان هالدين ممدداً على ظهره
كالسابق ، ولكن يديه كانتا تحت رأسه وقد فتح عينيه وراح يحدّق إلى
السقف .

رفع رازوموف العود عالياً . رأى الملامح الحادة والذقن القوية ،
الجبين الأبيض والشعر الأشقر الذي يكسو قمة الرأس فوق الوسادة
البيضاء . ها هو هناك ، يتمدّد على ظهره . . . فكّر رازوموف فجأة :
« لقد دست على صدره . »

استمرّ في التحديق حتى انطفأ العود . ثم أضرم عوداً آخر وأشعل
المصباح في صمت دون أن ينظر باتجاه السرير بعد ذلك . كان قد التفت
بظهره إليه وعلى وشك أن يعلّق مغطفه على المشجب حين سمع هالدين
يتنهّد بعمق ثم يسأله بصوت منهك :

— حسناً ، ما الذي فعلته ؟

كان الانفعال كبيراً إلى حد أن رازوموف كان سعيداً في أن يضع يديه على الجدار . اعتراه دافع شيطاني فكاد يقول : « لقد وشيت بك إلى الشرطة » ، وقد أخافه ذلك إلى حد هائل . ولكنه لم يقل ذلك . قال دون أن يلتفت وبصوت كظيم :

— لقد تمّ الأمر .

وقد سمع هالدين يتنهّد من جديد . سار نحو الطاولة ، ثم جلس والمصباح أمامه ، وعندها فحسب نظر باتجاه السرير .

في الزاوية البعيدة من الغرفة الكبيرة ، بعيداً عن المصباح الذي كان صغيراً وله كمّة من البورسلان ، بدا هالدين كشكل معتم ممحوط . . . قاسياً مع سكنوية كسكونية الموت . بدا الجسم وكأنه ذا مادة أقل من مادة شبحه الذي عبر فوقه رازوموف في الشارع الأبيض الشاجي . كان ذلك أكثر ازعاجاً في واقعه المعتم المالحاح من الشبح الجليّ إنما المتلاشي .

سمع هالدين يتكلم من جديد :

— لا شك أنك قد سرت فترة طويلة . . . يا له من مشوار طويل . . .
ثم همهم مستكراً :

— في مثل هذا الطقس . . .

أجاب رازوموف بحموية :

— مشوار رهيب . . . كابوس !

ارتجف بصوت مسموع . تنهّد هالدين مرة أخرى ، ثم قال :

— اذن رأيت زيمميانيتش . . . يا أخي ؟

— لقد رأيتته .

ثم تذكر رازوموف الوقت الذي أمضاه مع الأمير ورأى أنه من الحكمة أن يضيف :

— كان عليّ أن أنتظر بعض الوقت .

— يا له من شخصية . . . أليس كذلك ؟ انه لغريب ذلك الكمّ من الحسّ بضرورة الحرية المتواجد في ذلك الرجل . وله أقواله الماثورة أيضاً . . . وهي بسيطة ، في صميم الموضوع ، كما لا يمكن سوى للناس البسطاء أن يخترعوه بمصافتهم غير المصقولة . شخصية . . .

همهم رازوموف من خلال أسنانه :

— لم تتح لي فرصة كبيرة كما ترى . . .

استمر هالدين يحدّق في السقف .

— أنت ترى يا أخي أنني كنت كثيراً ما أرتاد ذلك المكان مؤخراً . اعتدت أن آخذ معي كتباً إلى هناك . . . كرّاسات . القادرون على القراءة من الفقراء سكّان ذلك المبنى ليسوا قلة . وكما ترى فإنه يتوجّب البحث عن ضيوف وليمة الحرية في الطرقات الفرعية والأسبيجة . والحقيقة هي أنني كدت أكون من سكان ذلك المبنى مؤخراً . كنت أنام أحياناً في الاضطيل . هناك اضطيل . . .

قاطعهم رازوموف باطف :

— هناك أجريت مقابلي مع زيبميانيش .

ثم انتابته روح ساخرة فأضاف :

— كانت مرضية بمعنى من المعاني . لقد عدت منها مرتاحاً جداً .

استأنف هالدين وهو يخاطب السقف ببطء :

— آه ! يا له من شخص مثير للاعجاب . لقد تعرّفت عليه . بتاك الطريقة ، كما ترى . ومنذ أسابيع نجات ، ومنذ أن صمّمت على أن أفعل ما كان يتوجّب فعله ، حاوات أن أعزل نفسي . لقد تخيّبت عن مسكني الذي كنت قد استأجرته . ما الفائدة من تعريض امرأة أربل شريفة إلى خطر القنق حتى الجنون من ملاحقة الشرطة لها ؟ كما توقفت عن مشاهدة معظم الرفاق . . .

سحب رازوموف نصف لوح من الورق وراح يرسم خطوطاً بquam الرصاص .

فكّر في نفسه غاضباً :

— يا الهي ! يبدو أنه فكّر بسلامة كل شخص عداي !

كان هالدين لا يزال يتكلم .

— هذا الصباح . . . آه ! هذ الصباح . . . كان ذلك مختلفاً . كيف أشرح لك ذلك ؟ قبل القيام بالمهمة كنت أتجوّل ليلاً وأختبئ نهاراً ، مفكراً ، وكنت أحسّ بالاطمئنان . ما الذي كان لديّ لأعدّ نفسي به ؟ ولكن في الصباح . . . بعد أن تمّ ما تمّ ! ثم أصبحت قلقاً . ما كان يمكنني أن أمكث في ذلك المبنى الكبير المليء بالبؤس . لا يستطيع بؤساء هذا العالم أن يمنحوك السلام . وحين بدأ ذلك الوكيل الأحمق يصرخ ، قلت في نفسي : « هناك شاب في هذه المدينة يسمو فوق كل التحيزات العادية . »

سأل رازوموف نفسه وهو لا يزال يرسم دون هدف مثلثات ومربعات : « هل يضحك عليّ » ثم فكّر فجأة : « لا شك أن ساوكي

يبدو له غريباً . لو أصيب بالذعر من سلوكي وانلغع هارباً إلى مكان
ما لقتضي عليّ تماماً . ذلك الجنرال الجهنمي . . . »

أسقط قلم الرصاص والتفت بجدّة تجاه السرير والجسم الشبحي
ممدّد بكامل طوله فوقه . . . أقل وضوحاً بكثير من ذلك الذي سار
فوق صدره دون تعثر في الشارع . هل يكون هذا أيضاً شبحاً ؟

كان الصمت قد دام فترة طويلة . « لم يعد هنا » كانت تلك هي
الفكرة التي راح رازوموف يناضل ضدها بياس ، خائفاً تماماً من
غرابتها . « لقد سبق له ورحل وهذا . . . مجرد . . . » .

لم يعد قادراً على المقاومة . قفز واقفاً وهو يقول بصوت مرتفع :
« أنا قاتق إلى حد لا يحتمل . » وسار خطوات قليلة غير مترددة ليقف
قرب السرير . سقطت يده بخفة على كتف هالدين ، فأحس مباشرة
بوجودها الفعليّ وقد تملكته رغبة مجنونة في أن يقبض على تلك الخنجرية
العارية ويخنق أنفاس ذلك الجسد حتى لا يهرب من رعايته فلا يترك
وراءه سوى شبحه .

لم يحرك هالدين عضواً واحداً ، ولكن عينيه المحجوبتين بالظلال
تحركتا قليلاً وحدّقتا إلى الأعلى باتجاه رازوموف بامتنان حزين لهذا التعبير
عن الشعور .

أشاح رازوموف بوجهه يترع الغرفة جيئة وذهاباً . همهم لنفسه :
« ربما كان ذلك لطفاً » ، وقد فزع لطبيعة ذلك الاعتذار عن نيّة مهاكة
والذي يبدو أن ذهنه قد وجده في مكان ما من دأباه . ومع ذلك لم
يستسلم . أصبح صافي التفكير فيما يخصّ هذه المسألة . فكّر في نفسه :
« ما الذي يستطیع هو توقعه ؟ حيل المشتقة . . . في النهاية . . . وأنا . . . »

قاطع صوت هالدين هذه المجادلة :

– لم تشعر بالقلق عليّ؟ يستطيعون قتل جسدي ولكنهم لا يستطيعون نفي روحي بعيداً عن هذا العالم . سأقول لك رأيي . . . أو من بهذا العالم كثيراً جداً بحيث لا أستطيع أن أتصور الأبدية سوى كحياة طويلة جداً . ولهذا السبب أنا مستعد جداً للموت .

تنحنح رازوموف ، واستمر يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وقد عضّ على شفته ، كما استمرت المجادلة الغريبة في ذهنه .

أجل ، بالنسبة إلى رجل في مثل هذا الموقف . . . سيكون بالطبع نوعاً من اللطف ؛ والمسألة ، على أية حال ، لم تكن مسألة كيف يكون لطيفاً بل حازماً . كان زبوناً مراوفاً . . .
قال بقوة :

– وأنا أيضاً يا فيكتور فيكتوروفيتش أو من بهذا العالم ، عالمنا ، أنا أيضاً طالما أنا حيّ . . . ولكنك تبدو مصمماً على أن تسكنه كشبح . لا يمكنك أن تعني جدياً أن . . .
انطاق صوت هالدين الهاديء :

– أسكنه كشبح ! حقاً ان قامعي الفمكر الذي يحرك العالم ، مدمّري الأرواح التي تطمح إلى كمال الكرامة الانسانية ، هؤلاء ستسكنهم الأشباح . أما بالنسبة إلى مدمّري جسدي فقط ، مجرد جسدي فقط ، فقد غفرت لهم مقدماً .

كان رازوموف قد توقف ليصغي ، ولكنه كان في الوقت نفسه يراقب أحاسيسه الخاصة . كان حانقاً على نفسه لأنه يعلّق أهمية كبيرة على ما يقوله هالدين .

فكّر بحزم : « الشخص مجنون » ، ولكن رأيه لم يخفّف من حدّة كرهه لهالدين . كان ذلك نوعاً من الجنون الوقح على نحو خاص
وحين ينطلق حرّاً في مجال الحياة العامة لبلد ما ، فقد كان من الواضح أن من واجب كل مواطن صالح

انقطعت سلسلة الأفكار هذه وتبعتها نوبة من الكره الصامت لهالدين ، نوبة شديدة إلى حد أن رازوموف سارع إلى التكتّم كبقية اتفق :

— أجل ، الأبدية طبعاً . وأنا أيضاً لا أستطيع تخيّلها بنفسى
أنا أتصوّرّها على أية حال كشيء هادىء ومملّ . ان يكون هناك شيء غير متوقع . . . ألا ترى معى ذلك ؟ أما عنصر الزمن فسيكون مفقوداً .

أخرج ساعته ونظر إليها . انقلب هالدين على جنبه وراح يحدق بنصميم .

خاف رازوموف من هذه الحركة . كان زبوناً زلقاً هذا الشخص فو الشبح . لم يكن منتصف الليل قد حان بعد . أسرع يقول :

— وأسرار غامضة لا قعر لها . هل يمكنك أن تتصوّر أماكن سرية في الأبدية ؟ مستحيل . بينما الحياة مائة بها . هناك أسرار الولادة مثلاً : يحملها المرء معه إلى القبر . هناك شيء مضحك ولكن لا بأس . وهناك دوافع السلوك السرية . ان لأكثر أفعال المرء انفتاحاً جانبها السري . هذا هام ولا يمكن الوصول إلى قراره ! مثلاً ، يخرج الرجل من غرفته ليتمشى . لا شيء يبدو أكثر تفاهة من حيث المظهر . ومع ذلك فقد يكون ذلك هاماً جداً . انه يعود . . . ربما يكون شخصاً متوحشاً سكيراً نظر باهتمام إلى الثاج على الأرض وها هو لم يعد الشخص

نفسه الآن . للأشياء غير المحتملة اطلافاً قدرة سرية على افكار المرء . . .
الشاربان الخديان الأشيبان لشخص ماين . . . العينان الجاحظتان لآخر .
كان جيبين رازوموف مندّى . دار دورة أو اثنتين في الغرفة برأس
مطاطية وهو يتسّم لنفسه على نحو شرير .

— هل سبق لك وفكرت في قدرة العينين الجاحظتين والشاربين
الخديين الشائبين ؟ اعذرني . تبدو وكأنك تفكر في أي مجنون حتى أتحدث
بهذه اللهجة في مثل هذا الوقت . ولكني لا أتحدث باستخفاف . لقد
رأيت أمثلة . لقد حدث لي مرة أن كنت أتحدث إلى رجل كان مصيره
متأثراً بحقائق مادية من ذلك النوع . ولم يكن الرجل على عام بذلك .
وبالطبع ، كانت تلك حالة ضمير ، ولكن الحقائق المادية مثل هذه هي
التي صنعت الحل . . . وأنت تقول لي يا فيكتور فيكتوروفيتش ألا
أكون قلقاً ! عجباً ! أنا مسؤول عنك .

وهنا كان رازوموف على وشك أن يزعم .

تجنب بصعوبة انفجار ضحكة شيطانية (١) . أما هالدين فقد رفع
نفسه مستنداً على مرفقيه ، شاحب الوجه جداً .

استمر رازوموف بعد أن رمق الآخر بقلق :

— أما مفاجآت الحياة ، فما عليك سوى أن تدرس طبيعتها المدهشة .
ان دافعاً غامضاً يحفزك على القجوم إلى هنا . لا أقول إنك أخطأت . فأنت
من وجهة نظر معينة ، ما كان يمكنك أن تفعل ما هو أفضل من ذلك .

(١) في الاصل : مينيستوفيليس أحد الشياطين السبعة في أساطير القرون الوسطى ،
وهو الشيطان الذي يبيع له روحه الدكتور فاورست في الحكاية الشهيرة . (المترجم)

ربما كنت ستذهب إلى شخص ذي عواطف وروابط عائلية . أنت شخصياً
لديك مثل هذه الروابط . أما بالنسبة اليّ فأنت تعرف أنّي تعرّعت في
مؤسسة تعاليمية ما كانوا يقدمون لنا فيها حتى الطعام الكافي . ان الحديث
عن الغائفة فيما يخص مثل هذه العلاقة . . . أنت تدرك بنفسك . . . أما
الروابط ، إن الروابط الوحيدة التي لديّ في هذا العالم هي روابط اجتماعية .
عليّ أن أحظى ببعض الاعتراف بطريقة ما قبل أن أستطيع أن أفعل أي
شيء . أجاس هنا وأعمل . . ألا تظن أنّي أعمل من أجل التقدم أيضاً ؟
عليّ أن أجد أفكارني الخاصة بالطريقة الصحيحة . . . اعلمني .
ثم أردف رازوموف بعد أن أخذ نفساً للراحة وبضحكة قصيرة
حلقية :

- ولكنني لم أرث إلهاماً ثورياً مع شبته لأحد أحوالي .

ثم نظر مرة أخرى إلى ساعته ولاحظ باشمتراز مثير للغثيان أنه قد
تبقت دقائق كثيرة قبل حلول منتصف الليل . انتزع الساعة والسلسلة من
صدرته ووضعها على الطاولة تحت دائرة نور المصباح اللامع تماماً .
لم يتحرك هالدين المتكئ على مرفقه . أحس رازوموف بالقلق من
موقفه : « ما الحركة التي يفكر فيها بكل هذا الهدوء ؟ لا بد من منعه . عليّ
أن أستمر في محادثته . »

رفع صوته :

« أنت ابن ، أخ ، ابن أخت ، ابن عم . . . لا أعرف ماذا أيضاً . . .
أنت قريب لأناس كثيرين . أما أنا فمجرد رجل . ها أنذا أفق هنا
أمامك . رجل ذو عقل . هل خطر لك أبداً كيف يمكن لشخص لم
يسمع في حياته كلمة دافئة أو مديحاً أن يفكر في قضايا ستفكر أنت

بها أولاً على أساس أنها مع أوضد طبقتك ، وتراثك البيتي . . . الأحكام
المسبقة المعهودة التي يجري الحديث عنها قرب المدفأة ؟ . . . هل سبق لك
أن فكّرت أبداً كيف يشعر شخص كهذا ؟ ليس لديّ تراث بيتي .
لا شيء لديّ أفكّر في محاربهه . تراثي تاريخي . مالذي لديّ حتى أتطلع
إليه كجزء من الماضي سوى ذلك الماضي القومي الذي تريدون أن
تنتزعوا منه أيها السادة مستقبلكم ؟ هل عليّ أن أترك ذكائي ، طموحاتي
إلى مصير أفضل ، هل أتركها ليُسلب منها الشيء الوحيد الذي تعمل
وفقه وذلك بسبب رغبة بعض المتحمسين العنيفين ؟ أنت تنتمي إلى
مقاطعتك ، ولكن كل هذه الأرض لي . . . أو لا شيء . لا شك أنك
ستُعتبر شهيداً في أحد الأيام - بطلاً من نوع ما - قديساً سياسياً .
ولكن أرجو أن تعذرني . أنا قانع بتحضير نفسي لأصبح عاملاً . وما
الذي تستطيعونه أنتم أيها الناس باراقة بضع نقاط من الدم على الثلج ؟
فوق هذا الاتساع كله ! فوق هذا الاتساع البائس ! أقول لكم . . .
وهنا صرخ بصوت متردد مكتوم وهو يتقدم خطوة واحدة نحو
السريـر :

— ان الحاجة لا تدعو إلى الكثير من الأشباح المنتابة التي أستطيع أن
أمشي خلالها . . . ولكن إلى رجل !
رمى هالدين بذراعيه نحو الأمام وكانما يريد أن يبعد عنه شيئاً مرعباً .
صاح بفرع مروّع :

— أفهم كل شيء الآن . أفهمه . . . أخيراً .
ترنّح رازوموف متراجماً نحو الطاولة . تعرق جبينه بينما سرت
رعيشة باردة حتى أسفل عموده الفقري .

سأل نفسه : « ما الذي كنت أقوله ؟ هل تركته يتزلق من بين أصابعي
أخيراً ؟ »

أحسّ بشفتيه تجفّان كالجلد الخاص بتجليد الكتب ، وبدلاً عن أن
يتسم ابتسامة توشي بالثقة استطاع أن يكشّر على نحو غير أكيد .

ثم بدأ بصوت استرضائي أصبح ثابتاً بعد الكلمات الأولى المترجفة :

— ما الذي سنناله ؟ ما الذي سنناله ؟ تأمل في قضية رجل ذي
عادات هادئة ومولع بالدراسة . . . وفجأة يصبح هكذا . . . لست
متمرساً في المحادثات اللطيفة . . . ولكن . . .

أحسّ بغضب شرير يملكه .

— ما الذي كنّا سنفعله معاً حتى منتصف الليل ؟ هل نجلس هنا
واحداً مقابل الآخر ونفكر في . . . في . . . أرضك المخضبة بدماء
القتلى ؟

كان لهادين موقف الخاضع المفجوع . أخفض رأسه ويداه معلقتان
بين ركبتيه . كان صوته خفيضاً متألماً انما هادئاً .

— أرى الآن ما هيبة الأمر يا رازوموف . . . يا أخي . أنت روح
شهمة ، ولكن ما فعلته يثير اشمزازك . . . يا للأسف . . .

حدّق رازوموف إلى الفراغ . كان قد صرّ على أسنانه بقوة إلى حدّ
أن وجهه كله كان يؤلمه . كان مستحيلاً أن يصدر عنه صوت واحد .

أضاف هالدين بكآبة ، بعد توقف قصير ، وهو ينظر إلى الأعلى
للحظة ثم يثبت نظره إلى الأرض :

— وحتى شخصي أيضاً يثير كرهك أيضاً ربما . وبالفعل ، فما لم

يكن المرء . . .

قطع كلامه ، اذ كان يبدو عليه أنه ينتظر كلمة ما ، ولكن رازوموف بقي صامتاً . أوما هالدين برأسه مرتين بجزن .

همهم :

— طبعاً ، طبعاً . آه ! عمل مضمّن !

بقي ساكناً تماماً للحظة ، ثم جعل قلب رازوموف المثقل يخفق خفقة ثقيلة بأن نهض برشاقة .

صرح بجزن وبصوت خفيض واضح :

— وداعاً إذن .

حدّق رازوموف إلى الأمام ، ولكن مشاهدته ليد هالدين المرفوعة صدّته قبل أن يستطيع الابتعاد عن الطاولة . استند إليها بثقل وهو يصغي إلى الصوت الضعيف لاحدى ساعات المدينة تدق معلنة منتصف الليل . ها هو هالدين قد سبق له ووقف عند الباب ، طويلاً ومستقيماً كسهم ، بوجهه الشاحب ويده المرفوعة باحتراس . انه يصلح لأن يكون مودباً لتمثال لشاب جريء يصغي إلى صوت داخلي . نظر رازوموف آلياً إلى ساعته . وحين نظر إلى الباب مرة أخرى كان هالدين قد اختفى . كان هناك صوت خفيف في الغرفة الخارجية ، وصوت طقطقة ضعيفة لمزلاج يرفع بخفة . لقد رحل . . . دون ضجة تقريباً ، كالأشباح .

ركض رازوموف نحو الأمام مترنحاً ، بشفتين منفرجتين صامتتين . كان الباب الخارجي مفتوحاً : مخرج مترنحاً إلى منبسط الدرج ، ثم اتكأ على الدرابزون . حدّق في بئر الدرج العميقة التي كان في آخرها شعلة ضئيلة واهية ، ثم تابع بأذنه الهبوط اللولبي السريع لشخص ما ينزل

الدرج على رؤوس قدميه . كان صوتاً خفيفاً سريعاً مطلقاً قد غرق مبتعداً عنه في الأعماق . ظلّ متلاش مرّ عبر النور الواهي : غمزة الشعلة الضئيلة . ثمّ سكون .

ظلّ رازوموف معالقاً هناك ، يتنفس الهواء البارد الرطب المزوج بالروائح الخبيثة للدرج غير النظيف . هدوء تام .

عاد إلى غرفته ببطء وهو يغلق الأبواب من خلفه . كان النور المسالم الثابت لمصباح المطاعة يلتصق فوق الساعة . وقف رازوموف وهو ينظر إلى القرص الأبيض . كانت تشير إلى ثلاث دقائق قبل منتصف الليل . أمسك الساعة بيده وهو يتحسّسها .

همهم : « متأخرة » ، ثمّ اعترته نوبة غريبة من الوهن . ارتجفت ركبته ، وانزلت الساعة والسلسلة من بين أصابعه في لحظة وسقطتا على الأرض . جفل حتى كاد يسقط هو نفسه . وحين استعاد أخيراً ثقة كافية بأعضائه بحيث ينحني ليلتقطها ، رفعها إلى أذنه فوراً . وبعد برهة هدر قائلاً : « لقد توقفت » . ثمّ تردّد فترة طويلة قبل أن يهمهم لنفسه بغضب : « لقد تمّ الأمر . . . والآن هيا إلى العمل . »

جلس ومدّ يده كما اتفق إلى كتاب وفتح في المنتصف وبدأ يقرأ ، ولكن بعد أن قرأ بوعي حوالي السطرين فقد سيطرته على ما هو مكتوب أمامه ولم يحاول استعادتها . فكّر : « كان هناك بالتأكيد عميل للشرطة من نوع ما يراقب المنزل عبر الشارع . »

تخيّل نفسه متوارياً في مدخل معتم ، جاحظ العينين ، متلفحاً بعباءة حتى أنفه وعلى رأسه قبعة جنرال ذات ريش ومن النوع المرتدّ . هذا الخاطر الغريب جعله يجفل في كرسيه متشنجاً . كان عليه أن يهزّ

رأسه بعنف ليتخلص منه . ربما يكون الرجل متنكراً كفلاح . . .
كشحاذا . . . وربما يكون مرتدياً لمعطف داكن ويحمل بندقية محشوة . . .
ربما يكون وغداً ذا عينين خادعتين تفوح منه روائح البصل والكحول
الحامضة .

هذه الفكرة المستحضرة جعلته يشعر بغثيان حقيقي . « لماذا أريد
ازعاج نفسي بذلك ؟ » هذا ما فكّر به رازوموف باشمئزاز . « هل أنا
دركيّ ؟ علاوة على ذلك فالأمر قد تم . »

نهض في حالة استثارة شديدة . لم يكن الأمر قد تم . ليس بعد . ليس
قبل حلول الساعة الثانية عشرة والنصف . وساعته قد توقفت . جعله هذا
يصل إلى حالة من اليأس . من المستحيل أن يعرف الساعة ! كانت صاحبة
المنزل وكل الجيران نائمين الآن . كيف يمكنه أن يذهب و . . . الله وحده
يعلم ما يمكن أن يتصوروه ، أو كم سيتصورون . لم يجرؤ على الخروج
إلى الشارع ليعرف كم هي الساعة . قال بمرارة : « أنا مشبوه الآن .
لا فائدة من التهرب من هذه الحقيقة . » ولو استطاع هالدين لسبب ما أو
لآخر أن يهرب فلا يظهر في شارع كاريلينايا فان الشرطة ستغزو مكان
سكنه . وإذا لم يكن في المنزل فلن يستطيع أن يبريء ساحة نفسه . اطلاقاً .
نظر رازوموف بجنون في أرجاء الغرفة وكأنه يبحث عن وسيلة للتنبض على
الزمن الذي بدا وكأنه قد هرب منه تماماً . لم يسمع اطلاقاً ، كما يتذكر ،
ضربات ساعة المدينة في غرفته قبل هذه الليلة . ولم يكن واثقاً حتى فيما
إذا كان قد سمعها فعلاً في هذه الليلة .

ذهب إلى النافذة ووقف هناك برأس محنيّة قليلاً على الساعة علّه
يسمع منها ولو صوتاً ضعيفاً . قال لنفسه : « سأبقى هنا حتى أسمع شيئاً

ما . وقف ساكناً ، وأذنه مصوبة نحو ألواح النافذة الزجاجية . اعتراه
خدر مؤلم ضار راح يرسل ومضات الألم إلى ظهره بينما راحت ساقاه
تعذبانه . لم يتزحزح . كان ذهنه يحوم عند حدود هذيان الحمى . سمع
نفسه يقول فجأة : « أنا أعترف » ، وكأنه شخص ممدّد على آلة تعذيب .
فكّر : « أنا فوق آلة تعذيب . » أحسّ أنه يكاد يغمى عليه . ولكنّ الدويّ
الخفيف العميق لساعة بعيدة بدا وكأنه ينفجر في رأسه . . . سمعها بوضوح
كبير . . . انها الواحدة !

لو لم يظهر في الموعد والمكان المحددين لكانت الشرطة تفتش الآن
المنزل . لم يصله أي صوت . لقد تم الأمر اذن هذه المرة .

جرّ نفسه بألم إلى الطاولة وسقط في الكرسي . رمى بالكتاب بعيداً
وتناول قطعة مربعة من الورق . كانت تشبه تلك الكومة من الأوراق
المغطاه بكتابته الدقيقة ، ولكنها فارغة . ثم أخذ قلماً بفضاظة وغمسه في
الدواة مع فكرة غامضة تدور في ذهنه حول الاستمرار في كتابة مقالته ...
ولكن قلمه بقي ثابتاً فوق الورقة . ظلّ معلقاً هناك بعض الوقت قبل أن
يتزل ويشكّل حروفاً طويلة أشبه بالخربشة .

بوجه ساكن وبشفتين مزومتين بقوة بدأ رازوموف يكتب . وحين
كتب بخط كبير فقدت يده خطها الدقيق الأثيق . . . أضحت يده غير
ثابتة ، طفولية تقريباً . كتب خمسة أسطر الواحد تحت الآخر :

« التاريخ وليس النظرية .

الوطنية وليس الأممية .

الارتقاء وليس الثورة .

التوجيه وليس التدمير .

الوحدة وليس التمزيق . »

حدّق إليها بكلال . ثم التفتت عيناه إلى السرير وبقينا مثبتتين هناك دقائق كثيرة ، بينما كانت يده اليمنى تتلمّس فوق الطاولة كلها الموسيقى . نهض أخيراً ، وسار بخطوات مقيسة ثم طعن الورقة بالموسى على الجدار الخشبي المخصص فوق رأس السرير . وبعد أن فعل ذلك خطا نحو الخلف خطوة واحدة ولوّح بيده وهو يدور بنظره في أرجاء الغرفة .

بعد ذلك لم ينظر ثانية إلى السرير . أنزل عباءته الكبيرة عن المشجب ولفّ نفسه جيداً وتمدّد على الأريكة القاسية المغطاة بغطاء من شعر الحصان في الطرف الآخر من الغرفة . ثم أغلق نوم رصاصي ثقيل عينيه فوراً . استيقظ عدة مرات في تلك الليلة وهو يرتجف من رؤيته لحلم يرى نفسه فيه يسير ضمن عواصف ثلجية في بلد اسمه روسيا حيث كان وحيداً تماماً كأبي حاكم فرد استبدادي تمت خيائته ؛ روسيا هائلة الاتساع ، شتائية ، يستطيع بصرد بطريقة ما أن يعانقها كلها في اتساعها الهائل وكأنها خريطة . ولكن بعد كل مرة يجنل فيها وتهويه الرجفة كان جنونه الثقيلان يسقطان فوق عينيه المغشّاتين فينام ثانية .

* * *

- ثلثاً -

مع اقترابنا من هذا الجزء من حكاية رازوموف ، فان ذهني ،
الذهن المحتشم لمعلم عجوز للغات ، يشعر أكثر فأكثر بصعوبة المهمة .

والمهمة ليست في الحقيقة كتابة « تلخيص » بشكل سردي لوثيقة
انسانية غريبة ، بل وصف - وأرى ذلك الآن بوضوح - الشروط
الأخلاقية السائدة فوق جزء كبير من وجه هذه الأرض ؛ شروط لا
يسهل فهمها بله اكتشافها في حدود حكاية ، حتى يتم إيجاد الكلمة
المفتاح لها ؛ الكلمة التي يمكن أن تقف خلف كل الكلمات التي تغطي
الصفحات ، الكلمة التي ، إن لم تكن هي الحقيقة نفسها ، فقد تحمل ،
صدفة ، من الحقيقة ما يكفي لتساعد على الاكتشاف الأخلاقي الذي
يتوجب أن يكون هدف كل حكاية .

ها أنذا أقلب للمرة المئة أوراق سجل السيد رازوموف ، ثم أضعه
جانبا ، أتناول القلم . . . فالقلم مستعد لمهمته ، مهمة التسجيل بالأسود
على الأبيض ، ولكني متردد . فالكلمة التي تلحّ على الزحف تحت رأسه
ليست سوى عبارة « السخرية . »

اذ أن هذه هي علامة الحكم الفردي الاستبدادي الروسي والثورة
الروسية . ففي افتخارها بالكثرة ، في ادعائها الغربية بالقداسة ، وفي
استعدادها السري لتحقير نفسها من خلال المعاناة ، فان روح روسيا هي
روح السخرية . انها تتكوّن من تصريحات السياسيين ، نظريات الثوار ،

والتنبؤات السرية للأنبياء إلى حد جعل الحرية تبدو شكلاً من الفسوق ،
والفضائل المسيحية تبدو هي نفسها بذيئة... ولكن عليّ أن أعتذر عن هذا
الاستطراد . انه ينطلق من دراسة المجري الذي اتخذته حكاية السيد
رازوموف بعد أن أصبحت قناعاته المحافظة ، المشوبة بليبرالية تناسب
طبيعة حماسة سنّه ، متبلورة بسبب الصدمة المتأتية عن احتكاكه بهالدين .
استيقظ رازوموف للمرة العاشرة ربما وهو يرتجف بشدة . وما أن
رأى ضوء النهار في نافذته ، حتى قاوم الرغبة في التمدّد من جديد .
لم يتذكر أي شيء ، ولكنه لم يحس بالغرابة أن يجد نفسه ممدداً على الأريكة
بعاءته وقد وصل البرد حتى عظامه . بدا النور الداخلى من النافذة كئيباً
على نحو غريب ، لا يحوي أي وعد كما هو شأن نور كل يوم جديد
بالنسبة إلى شاب . كان استيقاظ رجل مصاب بمرض عضال ، أو رجل
في التسعين من عمره . نظر إلى المصباح الذي كان اشتعل حتى نفذ وقوده .
كان منتصباً هناك ، المنارة المطفأة بجهدده ، شيء بارد من النحاس
والبورسلان ، بين الصفحات المتناثرة من مذكراته الدراسية وأكوام
صغيرة من الكتب . . . مجرد ركام من الورق المسودّ . . . مادة ميتة . . .
دون أهمية أو فائدة .

نهض على قدميه ، ثم خلع عنه عباءته وعلقها على المشجب ، وقد
قام بكل هذه الحركات آلياً . كان هناك ملل لا يصدق ، أحس بركوند
كركوند مياه حفرة وكأن الحياة قد انسحبت من كل الأشياء بل وحتى من
أفكاره . لم يكن هناك صوت واحد في المبنى .

فكر وهو يلتفت مبتعداً عن المشجب بذلك الأسلوب نفسه الفاقد
للحياة. أنه لا بد وأن الوقت لا يزال باكراً ؛ ولكنه حين نظر إلى الساعة
فوق الطاولة رأى كلا العقربين واقفين عند الثانية عشرة .

همهم لنفسه : « آه ! نعم ! » وألقى ، كأنما بدأ يستيقظ قليلاً ،
نظرة فاحصة على غرفته . لفتت نظره الورقة المعلقة على الحائط وقد
طعنت بالموسى . نظر إليها من بعد دون موافقة أو ارتباك ، ولكنه حين
سمع الخادم وقد بدأت تعمل بنشاط في الغرفة الخارجية وتسخن
« الساموفار » لتصنع له شاي الصباح ، سار نحو الورقة وأنزلها دون أي
اكتراث .

وبينما كان يفعل ذلك نظر نحو السرير الذي لم ينم عليه الليلة الفائتة .
كان التجويف في الوسادة والذي تركه وزن رأس هالدين واضحاً جداً .

حتى غضبه على هذه العلامة التي تدل على مرور الرجل بمسكنه كان
قليلاً . لم يحاول أن يغذّيه ليحييه . لم يفعل شيئاً طوال ذلك اليوم ، بل
حتى أنه لم يمشط شعره . لم تخطر له أبداً فكرة الخروج من غرفته . .
وإذا لم يكن قد بدأ بسلسلة مترابطة من الأفكار فلم يكن ذلك لأنه غير
قادر على التفكير . بل كان السبب هو أنه لم يكن مهتماً بما فيه الكفاية .

تثاءب مراراً . شرب كميات كبيرة من الشاي ، تجول دون هدف ،
وحين جلس لم يتزحزح فترة طويلة . أمضى بعض الوقت وهو ينقر على
النافذة بينما بهدوء . وخلال تجوله القلق حول الطاولة رأى انعكاس وجهه
في المرأة وقد أوقفه ذلك عن التجول . كانت العينان اللتان ردتا تحديقته
أتعس عينين رأهما في حياته . وكان ذلك أول شيء حرك الركود الذهني
لذلك اليوم .

لم يتأثر شخصياً ، بل فكر فحسب في أن الحياة دون سعادة أمر
مستحيل . ما هي السعادة ؟ تثاءب واستأنف التجول بين جدران غرفته .
التشوق كان سعادة . . . هذا كل ما في الأمر . . . ولا شيء آخر . ان

التشوّف إلى اشباع رغبة ما ، اشباع عاطفة ما ، الحب ، الطموح الكراهية . . . الكراهية على نحو لا سبيل إلى الشك فيه . الحب والكراهية . والنجاة من أخطار الوجود ، أن تعيش دون خوف ، هي سعادة أيضاً . لم يكن هناك شيء آخر . غياب الخوف . . . التشوّف . « أوه ! بالمصير البشرية التمس ! » هذا ما صاح به ذهنياً ، ثم أضاف في ذهنه : « يجب أن أكون سعيداً بما فيه الكفاية فيما يخص هذه المسألة . » ولكنه لم يشعر بالاثارة بسبب تلك الثقة . بل حدث العكس ، اذ تئاب ثانية كما كان يتئاب طوال النهار . وقد دهش قليلاً اذ اكتشف ان الليل قد حل دون أن يدري . سادت العتمة الغرفة بسرعة رغم أن الزمن بدا وكأنه ساكن . كيف حدث أنه لم يلاحظ مرور ذلك اليوم ؛ طبعاً لأن الساعة قد تعطلت . . . لم يشعل مصباحه ، بل ذهب إلى السرير ورمى بنفسه فوقه دون تردّد . وبينما كان ممتدداً على ظهره ، وضع يديه تحت رأسه وخدق نحو الأعلى . بعد لحظة فكر قائلاً : « أنا أتمدّد هنا كما كان يفعل ذلك الرجل . وأتساءل ان لم يكن قد نام يا ترى بينما كنت أصارع العاصفة الثلجية في الشوارع . لا ، لم يم . ولكن لم لأنام أنا ؟ » ثم أحس بصمت الليل يضغظ على أعضائه كافة بثقل .

في هدوء الجليد الرهيب في الخارج اخترقت ضربات ساعة المدينة التي أشارت إلى منتصف الليل هدوء حياته المعلّقة .

ومن جديد بدأ يفكر . لقد مرّت أربع وعشرون ساعة منذ أن غادر ذلك الرجل غرفته . كان لدى رازوموف احساس واضح بأن هالدين كان ينام في القلعة في تلك الليلة . هذا اليقين أغضبه لأن لم يكن يريد التفكير بهالدين ، ولكنه برّر ذلك لنفسه بأسباب فيزيولوجية

وسيكولوجية . لم يكن ذلك الشخص قد نام إلا بالكاد منذ اسابيع بحالها
كما أقرّ هو بنفسه ، والآن فان كل انعدام لليقين هدف له . لا شك
أنه كان يتشوف إلى اكتمال استشهاده . الشخص الذي يصمم على القتل
ليس عليه أن يفعل الكثير حتى يصل إلى التصميم على الموت . ربما كان
هالدين ينام بعمق أكثر من « الجنرال ت . . . » الذي كانت مهمته
— وهي مهمة متعبة — لم تنته بعد ، وعلى رأسه كان معلقاً سيف الانتقام
الثوري .

عندما تذكر رازوموف الرجل الضخم ذا الوجنتين الثقيلتين
المستريحتين فوق قبة بزّته ، بطل الحكم الاستبدادي ، الذي لم يترك
أمانة دهشة أو عدم تصديق أو مرح تفلت منه ، والذي كانت عيناه
الجاحظتان قادرتين على التعبير عن حقد قاتل لكل ما هو ثورة . . .
تقلب رازوموف في فراشه بقلق .

فكّر : « لقد كان بشكّ بي . أعتقد أن عليه أن يشكّ بكل شخص .
سيكون قادراً على الشكّ بزوجه ، هذا لو دخل إلى مخدعها باعترافه ذاك . »
نجلس منتصباً في فراشه وقد أصابه الكرب . هل سيبقى مشبوهاً
سياسياً طوال عمره ؟ هل سيقضي حياته كرجل غير ممكن الوثوق به
تماماً . . . مع ملاحظة غير نظيفة وسرية من الشرطة ملصقة بملفّه ؟
ما نوع المستقبل الذي يستطيع أن يتشوّف إليه ؟

فكّر مرّة أخرى : « أنا الآن مشبوه . » ولكن عادة التأمل والرغبة
في السلامة ، في حياة طبيعية ، واللذان كانتا قويتان جداً لديه حضرتتا
لنجدته مع انقضاء ساعات الليل . كان وجوده الهاديء ، الثابت ،
المجدّ ، سيرهن في النهاية على اخلاصه . هناك طرق عديدة مسموح بها

يستطيع المرء من خلالها خدمة بلده . هناك نشاط يخدم التقدم دون أن يكون ثورياً . حقل التأثير عظيم ومتنوع إلى حد غير محدود . . . ما أن يحقق المرء شهرة لنفسه .

كان تفكيره يعود كطائر محوم بعد أربع وعشرين ساعة إلى الميدالية الفضية ، وحدث أن رفر ف هناك .

حين بزغ الفجر لم يكن قد نام ، ولا للحظة واحدة ، ولكنه نهض فلم يشعر بالكثير من التعب بل أحس أنه متمالك نفسه إلى حد كاف لممارسة الأمور العملية كلها .

خرج وحضر ثلاث محاضرات في الصباح . ولكن العمل في المكتبة كان مجرد ادعاء غبي بالقيام بالبحث . جلس والكثير من الكتب مفتوح أمامه محاولاً كتابة الملاحظات والاقتباسات . كان هدوؤه الحديد أشبه بثوب رقيق ، وبدا كأنه سيظهر تحت رحمة أية كلمة عرضية . الحياة ! عجباً ! لقد فعل ذلك الشخص كل ما هو ضروري للحياة نفسه . ما كانت الحاجة تدعو إلا إلى القليل القليل لخداعه . جادل نفسه قائلاً :

« لم أقل له أية كلمة غير صادقة . ولا كلمة واحدة . »

وما أن يبدأ بالتفكير على هذا المنوال حتى لا تعود مسألة العمل المفيد قائمة . تتمر الأفكار نفسها عبر ذهنه ، ويلفظ ذهنياً الكلمات نفسها مكرراً أياها المرة تلو الأخرى . أغلق الكتب كلها ثم دس أوراقه كلها في جيبه بحركات تشنجية وهو حائق داخلياً على هالدين .

وبينما كان يغادر المكتبة انضم إليه طالب نحيل بارز العظام يرتدي معطفاً بالياً وسار إلى جانبه بكآبة . ردّ رازوموف على تحيته المهمة دون أن ينظر إليه إطلاقاً .

فكّر بخوف غريب من اللامتوقع : « ما الذي يريد مني ؟ » وقه
حاول أن يطرح هذا الخوف جانباً حتى لا يهيمن على حياته إلى الأبد .
ولكن الآخر همهم بخطر وبعينين مسبلتين ، مفترضاً أن زميله قد عرف
بأخبار « جلاّ د دو ب . . . » (هذا هو التعبير الذي استعمله) ، وأنه قد
قبض عليه في الليلة قبل الماضية .

همهم رازوموف من خلال أسنانه :

- كنت مريضاً . . . لم أخرج من غرفتي .

دفع الطالب الطويل ، وهو يرفع كتفيه ، بيديه عميقاً في جيبه .
كانت له ذقن خالية من الشعر ، مربعة الشكل وشحمية ، ترتجف قليلاً
عندما يتكلم ؛ أما أنفه الذي قرصه الهواء البارد حتى احمرّ تماماً فبدا
كأنف مزيّف مصنوع من الورق المقوّى الملون وذلك بين وجنتيه
الغازيتين . كان مظهره بأكمله موسوماً بطابع البرد والجوع . سار ببطء
وتعمّد قرب رازوموف وعيناه على الأرض .

استأنف بالمهمة الحذرة نفسها :

- انه بيان رسمي . قد تكون تلك كذبة . ولكن تمّ القبض على
شخص ما بين منتصف الليل والواحدة من صباح يوم الثلاثاء . هذا أمر
مؤكد .

كان يتحدث بسرعة تحت ستار عينيه الناظرتين إلى الأرض ،
فأخبر رازوموف أن هذا الأمر تمت معرفته من خلال كاتب حكومي
صغير يعمل في السكرتاريا المركزية . كان هذا الرجل ينتمي إلى
احدى الحلقات الثورية . قال الطالب :

- الحلقة نفسها التي انتمى إليها .

كانا يعبران ساحة رباعية محاطة بالأبنية . حلّ قنوط لا حدود له على روح رازوموف ، فأحبط طاقته وبدا له كل شيء مشوشاً بل متلاشياً . لم يتجرأ على وداع ذلك الشخص هناك . كانت الفكرة التي مرّت في ذهنه هي : « قد يكون منتمياً إلى الشرطة . من يدري ؟ » ولكنه اذ راح ينظر إلى الشخص البائس الذي كان يرافقه وقد عضه الجوع والبرد ، أحس بغرابة شكوكه .

— ولكني — كما تعرف — لا أنتمي إلى أية حلقة . . . أنا . . .

لم يجرؤ على قول المزيد . ولا حتى أن يعدّل من سرعة خطواته . راح الآخر ، الذي كان يرفع قدمه ذات الحذاء المثير الشفقة ثم ينزلها بتروٍ دقيق ، يحتجّ بلهجة خفيفة أنه لم يكن من الضروري أن ينتمي كل شخص إلى أحد التنظيمات . ان أكثر الشخصيات قيمة قد بقيت خارجها . إن بعضاً من أفضل الأعمال أنجزت خارج التنظيمات . ثم قال بسرعة كبيرة وهو يهمس بشئتين محمومتين :

— الشخص الذي اعتقل في الشارع كان هالدين .

وقد ظنّ هذا صمت رازوموف المروع على أنه رد فعل طبيعي فأكد لنفسه أنه لم يكن مخطئاً . كان لدى ذلك الكاتب الحكومي مناوئة ليلية في تلك الليلة في السكرتارية . لقد سمع ضجّة هائلة في القاعة من كثرة وقع الإقدام ، وبما أنه يعرف أن السجناء السياسيين كان يؤتى بهم أحياناً في الليل من القلعة ، فقد فتح باب الغرفة التي كان يعدل فيها فجأة . وقبل أن يستطيع الدركي المناوب أن يدفعه إلى الخلف ويغلق الباب في وجهه بقوة ، رأى سجيناً يُحمل جزئياً ويسجّر جزئياً على امتداد القاعة من قبل عماد كبير من رجال الشرطة . كان قد ضرب بوحشية . وقد

استطاع هذا الكاتب أن يميز السجين تماماً على أنه هالدين . وبعد أقل من نصف ساعة وصل « الجنرال ت . . . » إلى السكرتارية ليستجوب السجين شخصياً .

اختتم الطالب التحليل كلامه قائلاً :

— أأست مندهشاً ؟

أجاب رازوموف بخشونة بالنفي ولكن سرعان ما ندم على هذا الجواب .

— الكل كانوا يظنون أن هالدين في المقاطعات . . . مع ذويه .
لم تكن تظن ذلك أيضاً ؟

ركز الطالب عينيه الكبيرتين الغائرتين على رازوموف الذي قال دون احتباس :

— ذووه خارج البلاد .

كان قادراً على عضّ لسانه حتى يقطعه من شدة حنقه . أجاب الطالب بلهجة توحى بالمعنى التميميق .

— هكذا اذن ! كنت الوحيد الذي يدري . . .

ثم توقف عن الكلام .

فكر رازوموف في نفسه : « لقد اقسموا على دماري . »

ثم سأل الطالب بفضول رير :

— هل تحدثت عن هذا الموضوع إلى أي شخص آخر ؟
هزّ الآخر رأسه .

— لا ، إليك فحسب . كانت حلقتنا تظن أنه بما أن هالدين قد سمع وهو يعبر مراراً عن تقديره الودي لشخصك . . .

لم يستطع رازوموف أن يكبح إيماءة تعبير عن يأسه الغاضب ،
ولكن الآخر أساء فهمها على ما يبدو ، لأنه توقف عن الكلام وأشاح
بعيداً بعينيه السوداوين الخائيتين .

تحركا وهما يسيران جنباً إلى جنب في صمت . ثم بدأ الطالب النحيل
يهمس مرة أخرى دون أن ينظر إلى رازوموف :

— بما أنه ليس لدينا في داخل القلعة شخص من حلقتنا حتى
نستطيع تزويده بالسم ، فقد سبق ودرسنا مسألة القيام بعمل انتقامي
سيأتي سريعاً جداً . . .

قاطع رازوموف وهو يمشي مجهداً :

— هل كنت على معرفة بهالدين ؟ هل كان يعرف مكان سكنك ؟
أجاب رفيقه بهمس محموم يتباين مع الفتور الكثيب لوجهه
ومظهره :

— سعدت بالاستماع إليه مرتين . لم يكن يعرف مكان سكنناي . . .
مسكني بائس جداً . . . اذ أسكن مع عائلة حرفي . . . لدي زاوية من
غرفة فحسب . ليس بالأمر العملي زيارتي هناك ، ولكن إن كنت في
حاجة إلى أي شيء فأنا جاهز . . .

ارتجف رازوموف من الغضب والخوف : فقد سيطرته على نفسه
ولكنه أبقى صوته خفياً .

— ايتاك أن تقرب مني . اياك أن تكلمني . لا تخاطبني ولا بكاسة
واحدة . أحظّر اياك ذلك .

قال الآخر بنخوع دون إبداء أية دهشة تذكر على هذا الحظر
المفاجيء :

.. حسناً ، أنت لا ترغب في ذلك لأسباب سرية . . . تماماً . . .
أفهمك .

ابتعد على الفور ، دون أن يرفع عينيه حتى ؛ ورأى رازوموف
شخصه النحيل ، الرث ، الذي عضه الجوع ، يقطع الشارع على نحو
مائل برأس مطأطئة وتلك الحركة الغريبة التي لقدميه .

راقبه كما يراقب المرء شبحاً خارجاً من كابوس ، ثم استمر في
طريقه محاولاً ألا يفكر . عند منبسط الدرج قرب غرفته بدت صاحبة
المنزل وكأنها في انتظاره . كانت امرأة قصيرة بدينة ، لا شكل لها ،
ذات وجه أصفر كبير محاط أبدياً بشال صوفي أسود . وحين رآته يصعد
مجموعة الدرجات الأخيرة رفعت ذراعيها معاً إلى الأعلى منفصلة ثم شبكت
يديها أمام وجهها .

— كيريلو سيدوروفيتش — يا أبي الصغير — ما الذي كنت تفعله ؟
وأنت ذلك الشاب الصغير أيضاً ! لقد رحلت الشرطة للتو بعد أن فتشت
غرفك .

حان إليها رازوموف باهتمام صامت مدقق فحسب . كان وجهها
الأصفر البدين يتحرك بانفعال . أغمضت عينها نصف اغماضة متوسلة .

— مثل هذا الشاب العاقل ! يمكن لأي شخص أن يرى أنك شخص
عاقل . والآن — هكذا — دفعة واحدة . . . ما الفائدة من اختلاطك
بهؤلاء « العدميين » ؟ تخلّ عن ذلك يا أبي الصغير ، انهم أشخاص بؤساء .
هزّ رازوموف كتفيه قليلاً .

— أم هل هو عدو لا تعرفه افترى عليك يا كيريلو سيدوروفيتش ؟

العالم مليء بانقلاب السودان والاتهامات المزيّفة في هذه الأيام . هناك خوف شديد في كل مكان .

— هل سمعت أن شخصاً ما قد وثى بي ؟

هذا ، قاله لها رازوف دون أن يرفع عينيه عن وجهها المرتجف . ولكنها لم تكن قد سمعت شيئاً . لقد حاولت أن تعرف عن طريق توجيه السؤال إلى نقيب الشرطة بينما كان رجاله يقلبون الغرفة عاليها سافلها . كان نقيب شرطة المنطقة يعرفها منذ أحد عشر عاماً وهو شخص انساني النزعة . ولكنه قال لها على منبسط الدرج وهو يبأو شديد التشاؤم والغضب :

— أيتها المرأة الطيبة . لا تطرحي أية أسئلة . أنا شخصياً لا أعرف أي شيء . الأمر أتى من ساطات أعلى .

وقد ظهر بالفعل ، بعد وصول شرطة المنطقة بقليل ، رجل عالي المقام جئاً يرتدي معطناً من النرو وقبعة لامعة ، وقد جلس في الغرفة ونقّب في كل الأوراق بنفسه . لقد أتى وحيداً وخارج وحيداً دون أن يأخذ معه شيئاً . كانت تحاول إعادة الغرفة إلى وضعها السابق منذ أن رحلوا .

انصرف عنها رازوف بنظاظة ودخل إلى غرفته .

لاحظ أن كتبه كلها قد تمّ نفضها ثم رميها إلى الأرض . لحقت به صاحبة المنزل وانحنت متألّمة وراحت تلتقط الكتب الواحد في إثر الآخر وتضعها في مريبتها . كانت أوراقه ومدكراته التي يبقّيها دائماً مصنّفة على نحو أنيق (كلها متعلقة بدراسته) قد خلطت دون نظام وكوّمت معاً في كومة غير مرتّبة في منتصف الطاولة .

أثرت فيه هذه الفوضى إلى حد عميق دوتما سبب عقلائي . جلس وراح يحدق . كان لديه احساس مميز بأن وجوده بالذات قد تمّ تقويضه بأسلوب غامض ما ، وبأنّ دعائمه الأخلاقية تتهاوى بعيداً عنه الواحدة إثر الأخرى . بل أحسّ أيضاً بدوار خفيف وتحرك كأنما يريد الوصول إلى شيء ما ليثبت نفسه به .

نهضت المرأة على قدميها وهي تئنّ ، ثم رمت بالكتب التي جمعتها في مريبتها على الأريكة وغادرت الغرفة وهي تهمهم وتمهّده .
عندها فحسب لاحظ أن قطعة الورق التي بقيت ليلة واحدة مطعونة على الجدار فوق سريره الفارغ كانت موضوعة فوق أعلى الكومة .

حين أنزلها من مكانها في اليوم السابق طواها أربع طيات ، بشرود ، وذلك قبل أن يسقطها على الطاولة . وها هو يراها الآن فوق أعلى الكرمة ، دون طي ، ممهّدة حتى وتغطي كومة الصنمحات الملمخضة كلها ، سجل حياته الفكرية في السنوات الثلاث الماضية . لم تكن قد رميت هناك ، بل وضعت هناك . . . ممهّدة أيضاً ! لقد أحس بوجود مقصد ذي مغزى عميق في ذلك . . . أو ربما سخرية غامضة المعنى .

جلس مجدداً إلى قطعة الورق حتى بدأت عيناه تؤلمانه . لم يحاول أن يعيد تنظيم أوراقه لا في ذلك المساء ولا اليوم التالي . . . الذي أنفقه في البيت في حالة من التردد الغريب . هذا التردد كان مردّه إلى مسألة ما إذا كان عليه أن يستمر في العيش . . . لا أكثر ولا أقلّ . ولكن طبيعته كانت بعيدة عن تردّد رجل يفكر في الانتحار . ان فكرة معاملة جسده بعنف مسألة لم تخطر ارازوموف . لم تكن العضوية غير ذات العلاقة والتي تحمل الصفة ، المشي ، التنفّس ، ارتداء هذه الملابس ، همّ أي شخص ،

سوى صاحبة المنزل ربما . كان كيان رازوموف الحقيقي في المستقبل المرغوب المقرر . . . في ذلك المستقبل المهدّد من قبل لا قانونية الحكم الفردي - فالحكم الفردي لا يعرف أي قانون - ولا قانونية الثورة . ان الشعور بأن شخصيته الأخلاقية كانت تحت رحمة هذه القوى اللاقانونية، كان قوياً إلى حد أنه سأل نفسه بجدية إن كان الأمر يستحق أن يستمر في انجاز الوظائف العقلية لذلك الوجود الذي لم يعد يبدو له وكأنه يخصه هو .

سأل نفسه : « ما الفائدة من ممارسة ذكائي ومتابعة التطوير المنظم لقدراتي وخطط عملي كلها ؟ أريد أن أوجه سلوكي بقناعات معقولة ، ولكن ما الضمانة التي لديّ ضد شيء ما . . . ضد رعب مدمر . . . يداهمني بينما أنا جالس هنا ؟ . . . »

نظر رازوموف بخوف نحو باب الغرفة الخارجية وكأنه يتوقع أن يقوم شكل من أشكال الشرّ بإدارة القبضه والظهور بصمت أمامه .

قال لنفسه : « ان اللص العادي ليجد ضمانات أكثر في القافون الذي يخرج عليه ، وحتى شخص متوحش مثل زيميانيتش له ما يعزّيه . » حسد رازوموف مادية اللص وعاطفة العاشق العنيد . إن عواقب أعمالهما واضحة دائماً كما تبقى حياتهما ملكاً لهما .

ولكنه نام بعمق في تلك الليلة وكأنه كان يعزّي نفسه بأسلوب زيميانيتش . لقد سقط فجأة على السرير وتمدّد كجذع ساقط ، ولم يتذكر أي حلم حين استيقظ . ولكن بدا له وكأن روحه قد خرجت في الليل لتجتمع زهور الحكمة الغاضبة . نهض من الفراش في مزاج من التصميم الكئيب وكأنما لديه معرفة جديدة بطبيعته . نظر بسخرية إلى كومة الأوراق على طاولته ؛ ثم خرج من غرفته ليذهب للاستماع إلى المحاضرات وهو يهمهم لنفسه : « سري » .

لم يكن في أي مزاج للتكلم مع أي شخص أو أن يسمع نفسه يجب عن سبب غيابه عن المحاضرات في اليوم السابق . ولكن كان من الصعب أن يصدّ بفظاظة زميلاً طيباً ذا وجه قرنفلي ناعم وشعر أشقر ، ويحمل لقباً بين زملائه الطلاب هو : « كوستيا الطائش » . كان هذا هو الابن الوحيد المعبود لمتعهد حكومي شديد الثراء وأمّي ، وكان لا يذهب إلى المحاضرات إلاّ خلال النوبات الدورية من الندم التي تنتابه بعد احتجاجات أبوية باكية . كان يتخبّط في كلامه مصدراً ضجيجاً كما يفعل جرو مستعاد ، فيملاً صوته التيهان بنفسه وإيماءاته العظيمة ممرات الأكاديمية الفارغة بمرح الحياة الشهوانية الخالية من التفكير ، مما يثير ابتسامات متسامحة من مسافة كبيرة . كانت حواراته تتركز عادة على جياذ النزهة وحفلات النييد في المطاعم الفاخرة ، ومحاسن أشخاص ذوى فضيلة رخوة ؛ وكانت له وجهة نظر ساذجة ملطفة . وقد انقضّ على رازوموف في حوالي الظهر ، بصخب أقلّ من المعتاد ثم اقتاده جانباً .

— لحظة واحدة يا كيريلو سيدوروفيتش . بضع كلمات في هذه الزاوية الهادئة .

أحسنّ بتردد رازوموف فدرسّ يده تحت ذراعه ملاطفاً :

— لا ، أرجوك أن تأتي معي . لا أريد أن أحدثك عن أي من ورطاتي الحمقاء . وما هي ورطاتي ؟ لا شيء اطلاقاً . مجرد أفعال طفولية . في ليلة مضت رميت بشخص خارج مكان معين كنت أفضي فيه وقتاً طيباً جداً . كان وحشاً استبدادياً صغيراً ، مجرد كاتب في دائرة الخزينة . . . كان يزعج أصحاب الدار . لقد عتقته : « أنت لا تتصرف بانسانية مع مخلوقات الرب اللواتي هن أعظم منك فضلاً » .

لا أستطيع أن أتحمل مشاهدة أي استبداد يا كيريلو سيدوروفيتش .
أقسم لك أنني لا أستطيع . ولم يحمل كلامي محمل الجلد . بدأ يصرخ
قائلاً : « من هذا الجرو الوقح ؟ » كنت في حالة بدنية ممتازة وقتها وقد
خرج من النافذة المغلقة على نحو مفاجيء تماماً . طار مسافة بعيدة عبر
الفناء أيضاً . كنت نائراً مثل . . . مثل . . . مينوطور (١) . تشبّثت
النساء بي ورحن يزعقن ، واختبأ عازفو الكمان تحت الطاولة . . .
يا لها من متعة ! لقد اضطرر والدي إلى دفع مبلغ كبير من المال .
ضحك بينه وبين نفسه .

— والدي رجل مفيد جداً . وهذا أمر مناسب جداً لي . اني أتورط
فعالاً في أزمات فظيعة .

خفت حدّة تعاليه . هذا كل ما في الأمر . ما هي حياته ؟ لا شيء ،
لا فائدة فيها لأي شخص . مجرد هلو ولعب . وستنتهي في أحد الأيام
الجميلة بأن يسبّب في كسر جمجمته بزجاجة شمبانيا في شجار مخمور .
وهذا كان يحدث في مثل تلك الأوقات التي كان فيها الناس يضحون
فيها بأرواحهم من أجل الأفكار . ولكنه لم يكن قادراً على ادخال أية
أفكار إلى رأسه . لم تكن رأسه تساوي أي شيء سوى أن تكسر بزجاجة
شمبانيا .

حاول رازوموف التملّص بحجة أنه مشغول ولا وقت لديه . ولكن
لهجة الآخر تغيرت لتصبح جدية وسرية .

— أستحلفك بالله يا كيريلو ، يا روحي العزيزة ، اسمح لي بالقيام

(١) المينوطور : حيوان خرافي نصفه عل صورة رجل ونصفه الآخر عل صورة
ثور . (المترجم)

بتضحية ما . لن تكون تضحية تماماً . لديّ والدي الغني ورأى . يبدو أنه لا سبيل إلى الوصول إلى قعر جيبه .

ثم رفض باحتقار تعليق رازوموف بأن هذا هذر شخص نخمور ، وعرض عليه أن يقرضه بعض المال ليهرب إلى خارج البلاد به . يمكنه أن يحصل على المال من والده دائماً . كل ما عليه هو أن يقول له انه خسِر في لعب الورق أو شيئاً من هذا القبيل ، ويعدّه في الوقت نفسه بكل وقار أنه لن يفوت محاضرة واحدة مدة ثلاثة شهور متواصلة . كان من شأن ذلك أن يقنع الرجل العجوز ، وهو ، أي كوستيا ، قادر على القيام بالضحية ، رغم أنه لا يرى فائدة ترجى من المحاضرات . انها غير مفيدة إطلاقاً .

راح يتوسل إلى رازوموف الصامت : « ألن تمنحني فرصة لأن أكون ذا فائدة ؟ » ولكن هذا الذي كان ينظر بعينه إلى الأرض لم يكن قادراً على معرفة ما يرمي إليه الآخر فعلاً ، فأحس بتردد غريب حين أراد أن يستوضح المسألة :

سأله بهدوء شديد :

— ما الذي يجعلك تظنّ أنّي أريد السفر إلى الخارج ؟

أخضض كوستيا صوته :

— كانت الشرطة في مسكنك البارحة . لقد سمع بذلك ثلاثة أو أربعة منا . لا تكترث كيف عرفنا . يكفي أننا عرفنا . ولذلك كنا نتشاور معاً .

همهم رازوموف بلا اهتمام :

— آه ! لقد عرفتم ذلك خلال وقت قصير جداً .

— أجل . وقد دهشنا أن رجلاً مثلك . . .

قاطع رازوموف قائلاً :

— ما نوع الرجال الذي تظنون أنني أنتمي إليه ؟

— رجل أفكار . . . ورجل أفعال أيضاً . ولكنك عميق جداً يا كيريلو . لا مجال للوصول إلى قعر دماغك . أشخاص مثلي لا يسعهم ذلك . ولكننا اتفقنا جميعاً على أنه لا بدّ من المحافظة عليك في سبيل وطننا . نحن لا نشكّ في هذا الموضوع أبداً . . . أعني نحن الذين استمعنا إلى هالدين يتحدث عنك في مناسبات معينة . . . جميعنا . لا تفتش الشرطة منزل شخص ما دون أن يكون هناك عمل شيطاني ما معلق فوق رأسه . . . لذلك ان كنت تظنّ أنه من الأفضل لك الهروب فوراً . . .

انتزع رازوموف نفسه وسار على امتداد المر ، تاركاً الآخر دون حراك وبفم مفتوح . ولكنه استدار فوراً ووقف أمام كوستيا المندهب الذي أغلق فمه ببطء . نظر رازوموف إليه وجهاً لوجه في العينين ، قبل أن يقول بتعمد واضح وكل كلمة على حدة :

— أشكرك . . . جداً .

ابتعد مسرعاً ، واكن كوستيا الذي صحا من صدمة المفاجأة التي سببتها هذه المناورات ، جرى خلفه بالخاح :

— لا ! انتظر ! اسمع ! أنا أعني ما قلته . ذلك أشبه بتعاطفك مع شخص جائع . هل تسمعي يا كيريلو ؟ وأي تنكّر تريده أستطيع أيضاً أن أجلبه لك من خيّاط يهودي أعرفه . دع المجنون يقدم خدماته وفق جنونه . ربما ستحتاج إلى لحية مستعارة أيضاً أو شيئاً من هذا القبيل .

التفت رازوموف محرّجاً .

— لا حاجة إلى أي لحي مستعارة في هذه القضية يا كوستيا ، أيها
المجنون الطيب القلب . ما الذي تعرفه أنت عن أفكارني ؟ قد تكون
أفكارني سمّاً لك .

بدأ الآخر يهزّ رأسه باحتجاج شديد .

— ما علاقتك أنت بالأفكار ؟ من شأن بعضها أن يضع حداً لأكياس
نقود والدك . توقف عن التدخل فيما لا تفهمه . عد إلى جياذ نزهتك
وفتياتك وعندها ستكون على ثقة على الأقل من أنك لا تؤذي أحداً ولا
شخصك أيضاً .

غُلب الشاب المتحمس على أمره بسبب هذا الاحتقار .

— أنت ترسلني عائداً إلى معلف الخنازير الخاص بي يا كيريلو .
هذا يحسم المسألة . أنا وحش بائس . . . وسأموت كوحش أيضاً :
ولكن انتبه : ان احتقارك هو الذي قتلتني .

انطلق رازوموف بخطى طويلة . لقد أحس أن مسألة وقوع هذه
الروح البسيطة الاحتفالية جداً هي أيضاً ضحية اللعنة الثورية عارض شوم
من عوارض هذا العصر . عاتب نفسه لاحساسها بالاضطراب . كان
عليه أن يشعر شخصياً بالاطمئنان . فهناك ميزة واضحة في مؤامرة الحكم
الخاطيء حيث أن الناس تظنه على ما هو ليس عليه . ولكن أو لم يكن
ذلك غريباً ؟

ومن جديد أحس بأن سلوكه قد انتزع من يديه بسبب استبدادية
هالدين الثورية . لقد تم تدمير وجوده الانعزالي والمجدد . . . الشيء

الوحيد الذي كان قادراً على أن يسميه خاصته على وجه هذه الأرض .
بأي حق ؟ سأل نفسه بغضب . بأي اسم ؟

ولكن ما أحقّه أشد ما يكون الحق هو احساسه بأن « مفكّري »
الجماعة كانوا يربطون بينه وبين هالدين ، وهذا أمر واضح للعيان . . .
على أساس أنه شخص موثوق به ، على أن يبقى في الخلفية . رابطة غريبة !
ها ! ها ! . . . لقد تحول إلى شخصية هامة دون أن يعرف أي شيء حول
الموضوع . كيف كان هالدين البائس ذلك يتحدث عنه يا ترى ! ولكن
من المحتمل أن هالدين لم يقل سوى القليل جداً . كانت كلمات ذلك
الشخص ، حتى العرضية منها ، تُلْتَقَط وتُدخّر ويُفكّر بها من قبل
أولئك المغفلين جميعاً . أو لم يكن كل ذلك الفعل الثوري السري مبنياً
على الحماقة وخذاع الذات والأكاذيب ؟

غمغم رازوموف لنفسه : « من المستحيل التفكير بأي شيء آخر .
سأتحول إلى معتوه . الأوغاد والمغفلون يدمرون عقلي . »

فقد كل أمل في انقاذ مستقبله الذي كان يعتمد على الاستعمال
الحرّ لعقله .

وصل إلى باب منزله في حالة من الثبوت العقلي مكنته من أن يستلم
دون اكتراث واضح مغلفاً رسمي المظهر من اليد القنطرة للبواب . .

قال الرجل :

— جلبه دركبيّ . سأل ان كنت في البيت . وقد قلت له : « لا ،
ليس في البيت » وهكذا تركه لي وقال : « أعطه اياه باليد . » وها قد
وصلك ، أليس كذلك ؟

عاد إلى مسح الأرض وصعد رازوموف الدرج والمغلف في يده .
وما أن وصل إلى غرفته لم يهرع إلى فتحه . بالطبع كانت هذه الرسالة
الرسمية من الادارة العليا للشرطة . مشبوه ! مشبوه !

حدق في دهشة كثيبة مفكراً في غرابة موقفه . فكّر بنوع من
الحزن الموضوعي غير العاطفي بأن ثلاث سنوات من الجهد الطيب ،
وربما مسار أربعين سنة أخرى أضححت في معرض الخطر . . . تحولت
من الأمل إلى الفزع ، لأن الحوادث التي تشرع بها الحماقة البشرية
ترابط ضمن تتابع لا يمكن لأيّ حصافة أن تتنبأ به ولا لأية شجاعة أن
تقطعه . يدخل الشؤم إلى بيتك حين تلتفت صاحبة منزلك نحو الخلف .
تأتي إلى البيت وتجدّه مستمكاً حاملاً اسم رجل ومكتسباً باللحم . . .
مرتدياً معطفاً من القماش النبي وجزمة طويلة . . . متسكعاً عند المدفأة .
يسألك : « هل الباب الخارجي موصل ؟ » . . . وأنت لا تملك من المعرفة
ما يدفعك إلى أن تمسك به من الحنجرة وترمي به إلى آخر السلم . أنت
لا تدري . ترحب بالمصير المجنون . تقول : « اجلس » . وتكون نهاية
كل شيء . لا تستطيع أن تتخلص منه أبداً . سيلتصق بك إلى الأبد .
لا يمكن لا للجل ولا للرصاص أن يعيدا إليك حرية حياتك وصحة
تفكيرك . . . كان يكفي القيام بضرب رأسك مرة واحدة على جدار .

تلقت رازوموف ناظراً إلى الجدران وكأنه يبحث عن بقعة يضرب
عليها رأسه . ثم فتح الرسالة . كان فيها أمر بأن يذهب الطالب كيريلو
سيدوروفيتش رازوموف ليقدم نفسه دون تأخير إلى السكرتاريا العامة .

تخيّل رازوموف عينيّ « الجنرال . . . » الجاحظتين تنتظرانه . . .
القوة المجسّدة لحكم الفرد ، الغريبة والرهيبة . كان يجسّد قوة حكم

الفرد كلها لأنه كان حارسه . كان الشكّ مجسّداً ، الغضب مجسّداً ،
اللارحمة مجسّدة ، لا رحمة نظام سياسي واجتماعي في حالة الدفاع
عن النفس . كان يكره التمرد بالغريزة . وقد فكّر رازوموف في أن
ذلك الرجل لم يكن قادراً - وهذا أمر واضح - على فهم التزام معقول
بمبدأ الاستبداد .

سأل نفسه : « ما الذي يريد مني بالضبط يا ترى ؟ »

وكانما استدعى هذا السؤال الذهني الشيخ المعتاد ، فقد وقف
هالدين فجأة وبكمال استثنائي في التفاصيل . ورغم أن اليوم الشتائي
القصير كان قد سبق له ومضى متحولاً إلى الخسق الغريب لأرض مدفونة
في الثلج ، رأى رازوموف بوضوح الحزام الجلدي الضيق حول المعطف
الشركسي . كان وهم ذلك الوجود الكريه كاملاً إلى حدّ أنه كاد
يتوقع منه أن يسأله : « هل الباب الخارجي موصل . » نظر إليه بمحقد
واحتقار . لا تتخذ الأرواح شكل الملابس ، وعلاوة على ذلك لم يكن
هالدين ميتاً بعد . خطا رازوموف نحو الإمام مهدداً ؛ اختفى الشيخ . . .
ثم استدار على كعبه وخرج من غرفته بازدياد لا متناه .

ولكنه بعد أن هبط المجموعة الأولى من الأدراج خطر له أن السلطات
العليا للشرطة كانت تنوي مواجهته بهالدين شخصياً . وقد صعقه هذا
الخطر كرصاصة ، ولولا أنه تمسك بكلتا يديه بالدرابزون لكان قد
تدحرج حتى المنبسط التالي للدرج على الأرجح . لم تعد قدماه قادرتين
على الوقوف فترة طويلة . . . ولكن لماذا ، لأيّ سبب ممكن ادراكه .
لأيّ غرض ؟

لم يكن هناك أي جواب عقلافي على هذه الأسئلة ؛ ولكن رازوموف

تذكر الوعد الذي بذله الجنرال لـ « الأمير ك » . كان من المفروض أن يبقى ما فعله سراً .

نزل إلى أسفل الدرج ببطء شديد من درجة إلى أخرى ، مستنداً على الدرايزون . تحت البوابة استعداد الكثير من ثبات فكره وأعضائه . خرج إلى الشارع دون أن يترنح على نحو ملحوظ . في كل لحظة كان يشعر أنه أثبت فأثبت ذهنياً . ومع ذلك كان يقول لنفسه ان « الجنرال ت . . . » كان قادراً تماماً على حجزه في القلعة لفترة غير محددة من الزمن . كان طبيعه مناسباً لوظيفته ، كما كانت سلطته المطلقة تجعله بهياً عن تناول تأثير المجادلة العقلانية .

ولكن حين وصل رازوموف إلى السكرتاريا اكتشف أن لا علاقة لـ « الجنرال ت . . . » بالموضوع . كان واضحاً من مذكرات السيد رازوموف أن هذا الشخص المرهوب الجانب كان سيقتفى في الظل . استقبله رجل مدني ذو رتبة عالية في غرفة خاصة بعد فترة انتظار في مكاتب خارجية كان يجري فيها الكثير من الكتابة على طاولات عديدة في جوّ مدفأ خائف .

قال الكاتب المرتدي للبرزة الرسمية والذي رافقه حين كانا في المرء :

— ستقابل غريغوري ماتيفييتش ميكولين .

لم يكن هناك ما هو مخيف في الرجل الذي كان يحمل ذلك الاسم . كانت نظراته الرقيقة المترقبة قد سبق لها وتركزت على الباب حين دخل رازوموف . أشار على النور ، وبالريشة التي كان يمسكها بيده ، إلى أريكة عميقة بين نافلتين . تابع رازوموف بعينه وهو يعبر الغرفة ويجلس . استقرت

النظرة الرقيقة عليه ، دون فضول أو تساؤل - وبإتأكيد دون ارتياب -
وحتى دون تعبير تقريباً . في الحاحها اللانفعالي كان هناك ما يشبه التعاطف .
أحسّ رازوموف ، الذي جهّز ارادته وذكاءه لمواجهة « الجنرال
ت . . . » ، أحسّ باضطراب عميق . كان كل استجماعه لقواه الأخلاقية
المعجزة الإفراطات المدكّنة في السلطة والانفعال قد ذهب أدراج الرياح
أمام هذا الرجل الشاحب الذي كانت له لحية كاملة غير مشدّبة ؛ لحية
شقراء رقيقة وجميلة جداً . سقطت النور في أشعة نحاسية فوق بروزات
جبين عال متجمد . كان سيماء الوجه العريض المريح شديد البساطة
والعادية بحيث با الفرق المتوسط الدقيق للشعر نوعاً من التكلّف المشوب
بالتظاهر .

تشير مذكرات السيد رازوموف إلى بعض الحنق فيما يخص هذا
الموضوع . وأودّ أن أعلّق هنا أن السيد رازوموف بدأ بكتابة المذكرات
الأصلية المؤلفة من اليوميات في ذلك المساء بالذات وذلك حين عاد إلى
بيته .

لقد أصيب السيد رازوموف بالحنق اذن ، فقد أنهارت فريته
المعاقبة على نحو مفاجئ جداً .

حذر نفسه في الصمت الذي جلسا فيه يحدقان فيه واحدهما إلى
الآخر : « عليّ أن أكون حذراً معه . » وقد دام هذا الصمت بعض
الوقت ، وتميّز (فللصمت بأنواعه ميزات وخصائص) بنوع من الحزن
الذي أضناه عليه ربما الأسلوب التأملّي الرقيق للموظّف الملتحي . وقد
علم رازوموف لاحقاً أنه رئيس دائرة في السكرتاريا العامة وله رتبة في
السلك المدني تعادل رتبة العقيد في الجيش .

أصبح شكّ رازوموف حاداً . ولم تكن المسألة الرئيسية هي أن يُستجّر إلى الكثير من الكلام . فقد تمّ استدعاؤه إلى هناك لسبب ما : أي سبب ؟ أن يتمّ افهامه أنه مشبوه . . . وأنه سيتمّ استجوابه على الدوام . وعن أي موضوع بالضبط ؟ لم يكن هناك شيء محدد . أو أن هالدين كان يروي الأكاذيب ربما . . . كان كل شكّ مقلق يسبّب له الضيق . لم يعد يحتمل الصمت أكثر من ذلك وراح يشتم نفسه على ضعفه وهو يباشر بالحديث رغم أنه وعد نفسه بالألّا يفعل ذلك مهما حدث .

قال بلهجة خشنة استفزازية :

— لم أضيع دقيقة واحدة . . .

وبعد ذلك بدا له أن قدرة النطق قد تخلّصت عنه ودخلت جسده المستشار ميكولين الذي قاطعه بلهجة استحسنانية :

— جيد جداً . جيد جداً . رغم أنه في الواقع . . .

ولكن السحر كان قد انجلى ، فقاطعه رازوموف بجرأة وبقناعة مفاجئة أن ذلك كان أفضل المواقف أماناً . وقد راح بسيل عارم من الكلمات يشكو من كونه قد تعرّض لسوء الفهم الشامل . وحتى وهو يتحدث مع وعي بجرأته كان يفكّر بأن كلمة « سوء الفهم » أفضل من كلمة « عدم الثقة » ، وقد كرّرها مرة أخرى بالحاح . وفجأة توقّف عن الكلام وقد انتابه الخوف أمام السكون المجلّم للمستشار . فكّر في نفسه وهو ينظر إليه نظرة غامضة : « ما الذي أتحدّث عنه ؟ » « عدم الثقة » وليس « سوء الفهم » كان الرمز المناسب لأولئك الناس . كان « سوء الفهم » هو النوع الآخر من اللعنة . وقد جلب عليه كلا الأمرين ذلك الشخص : « هالدين » . وقد راح رأسه يؤلمه إلى حد هائل . مرّر يده

على جبينه . . . وهي أمانة لا إرادية تدلّ على المعاناة لم يحرص على
كبحها .

في تلك اللحظة رأى رازوموف دماغه وهو يعذب فوق آلة
التعذيب شخص طويل شاحب مشدود أفقياً بساقين متباعدتين
وبقوة هائلة وذلك في ظلام سرداب ، ذو وجه لم يستطيع هو رؤيته .
كان ذلك أشبه بمن يحلم لبرهة وجيزة جداً من الزمن بصورة معتمة لمحاكم
التفتيش

لا يتوجّب أن نفترض يجديية أن رازوموف قد غضا فعلاً ورأى
حلماً ، في حضور المستشار ميكولين ، بصورة قديمة لمحاكم التفتيش .
بل كان بالفعل مجهداً إلى آخر حد ، وقد دون في مذكراته تجربة حلمية
غريبة عن العذاب ولكن لم يكن هناك أي شخص آخر اطلاقاً قرب
الشخص الشاحب المشدود على آلة التعذيب . كانت عزلة الضحية المشدودة
أمراً مرعباً على الرؤية على نحو خاص . كانت استحالة رؤية الوجه ،
تلك الاستحالة الغامضة ، كما لاحظ هو ، قد بثت فيه نوعاً من الخوف .
كل هذه الصفات الخاصة بحلم قبيح كانت حاضرة . ولكنه كان على
ثقة من أنه لم يفقد وعيه أبداً بوجوده على الأريكة ، منحنيّاً نحو الأمام
، يده بين ركبتيه وهو يقلب قبعته بين أصابعه . ولكن اختفى كل شيء
لدى سماعه صوت المستشار ميكولين . أحسّ رازوموف بامتنان عميق
لبساطة العادية للهجته .

— أجل . لقد استمعت باهتمام . أفهم نوعاً ما . . . ولكن أنت
مخطيء بالفعل فيما يخص . . .

نطق المستشار ميكولين سلسلة من الجمل غير الكاملة . وبدلاً عن

أن يكملها راح ينظر إلى لميته . كان ذلك اختصاراً متعمداً يجعل الحمل أكثر تأثيراً . ولكنه كان قادراً على التحدث بطلاقة كافية كما تبين ذلك حين غير لهجته إلى لهجة الإقناع فقال :

– حين أصغيت إليك كما فعلت للتو فذلك لأقدمّ الدليل على أنني لا أعتبر حديثنا رسمياً تماماً . وفي الحقيقة فاني لا أريد أن تكون له هذه النصفة اطلاقاً . . . أوه أجل ! أعتز بأنّ طلب حضورك إلى هنا كانت له صفة رسمية – ولكنني أتترك لك مسألة ما إذا كانت تلك صيغة كانت ستعمل لاستدعاء . . .

صاح رازوموف وهو ينظر مباشرة إلى عيني المستشار :

– مشبوه !

كانت له عينان واسعتان بأهداب ثقيلة ، وقد ردّتا جرّأته بتحديدية عامضة ثابتة . « مشبوه » . كان التكرار الصريح لتلك الكلمة التي كانت تستحوذ على تفكيره في ساعات اليقظة قد أعطت رازوموف نوعاً غريباً من الشعور بالرضا . هزّ المستشار ميكولين رأسه قليلاً .

– لا شك أنك تعرف أن غرفتي قد فتّشت من قبل الشرطة ؟

لمّح المستشار ميكولين بهدوء :

– كنت سأقول « شخصاً مساء فهمه » حين قاطعتني .

ابتسم رازوموف دون مرارة . كان الاحساس المتجدد بتفوقه الفكري قد دعمه في ساعة الخطر . قال باحتقار نوعاً ما :

– أعرف أنني عمرد قصبة . ولكنني أرجو أن تسمح لي بأن أكون متفوقاً كقصبة مفكرة على القوى غير المفكرة التي هي على وشك

تخطيطها نهائياً . التفكير العمليّ في المثال الأخير مجرد نقد . قد يسمح لي مثلاً أن أعبّر عن استغرابي لهذا التصرف الذي قامت به الشرطة والذي تأخّر يومين كاملين ، وكان من شأني طبعاً أن أدمر في تلك الفترة أي شيء مشبوه بواسطة الحرق . . . أو لنقل أتخلص حتى من الرماد . . . فيما يخصّ تلك المسألة .

قال المستشار ملاحظاً ببساطة غير منطوقة في اللهجة والأمساق :

— أنت غاضب . هل هذا معقول ؟

— أنا معقول : أنا حتى — لو سمحت لي — مفكّر ، رغم أنّ هذا الاسم يبدو في هذه الأيام وكأنه حكر على الباحة المتجولين للبضائع الثورية ، عبيد فكر فرنسي أو ألماني ما . . . الشيطان وحده يعرف أية آراء أجنبية ! ولكنني لست هجيناً مثقفاً : أنا أفكّر كروسي . أفكّر باخلاص . . . وأسمح لنفسني أن أدعو شخصي بالمفكّر ، هذه ليست كلمة منوعة حسب ما أعرف .

— لا ، لماذا يجب أن تكون كلمة ممنوعة ؟

التفت المستشار ميكولين وهو جالس في كرسية بساقين متصلبتين ، ثم وضع مرفقه على الطاولة وأسند رأسه على براجم يده نصف معلقة : لاحظ راز وموف سبابة غابضة يحيط بها خاتم ذهبي كبير محلىّ بججر باون الدم . . . خاتم يستعمل كختم ، ويبدو وكأن وزنه يعادل نصف باوند (١) ، يالها من زينة مناسبة لذلك الرجل الذي يفرق شعره اللامع في المنتصف بلدقة فوق جبين سقراطي مجعد .

(١) الباوند يعادل ٤٥٣ غراماً . (المترجم)

وجد رازوموف نفسه وهو يتساءل بتجرد غير متوقع : « هل هذا
شعر مستعار ؟ » كانت ثقته بنفسه قد تزعزعت كثيراً . قرر ألا يثرثر
أكثر من ذلك . تحفظ ! تحفظ ! كل ما كان عليه أن يفعله هو أن
يبقى حادثة زيميانيتش سرّاً دفيناً ، وبتصميم مطلق ، وذلك حين يتم
سؤاله عن هذا الموضوع . دع زيميانيتش خارج كل الأجوبة تماماً .

نظر إليه المستشار ميكولين نظرة غامضة . تخلّت عن رازوموف
ثقته بنفسه تماماً . بدا له مستحيلاً إبقاء زيميانيتش خارج المسألة .
سيؤدي كل سؤال لآيه ، لأنه لم يكن هناك من أمر آخر طبعاً . حاول
أن يتماسك واكبه فشل . واكن المستشار ميكولين كان متجرداً هو أيضاً
على نحو مدهش .

كرّر :

— لماذا تكون ممنوعة ؟ أنا أيضاً أعتبر نفسي رجلاً مفكراً . أو كاد
لك ذلك . الشرط الأساسي هو التفكير على نحو صحيح . وأقرّ بأنه من
الصعب أحياناً في البداية على شاب وحيد ذي دوافع خيرة غير
منظمة كما يقال واقع تحت رحمة كل ريح عنيفة تهب . الايمان
الديني بالطبع أمر

رقمه المستشار ميكولين من خلال لحيته ، فغمغم رازوموف بتذمر
كثيب ، وهو الذي خفّ توتره بذلك المنحى غير المتوقع والاستطراذي
للحديث .

— ذلك الرجل ، هالدين ، كان يؤمن بالله .

— آه ، أنت تعرف ذلك !

هذا ما قاله المستشار ميكولين بالهجة لطيفة ، كأنما بتحفظ ، ولكنه عبّر عن ذلك بوضوح كاف ، كأنه قد خرج هو أيضاً عن حلره بسبب ملاحظة رازوموف . احتفظ الشاب بوجه جامد نكد ، رغم أنه راح يوبّخ نفسه بمرارة على أنه أحرق إلى حد قاتل إذ أنه أعطى انطباعاً مزيفاً تماماً عن أنه كان على علاقة حميمة بهالدين . أبقى عينيه مثبتتين على الأرض . « عليّ أن أمسك لساني حتماً إلاّ إذا اضطرت إلى الكلام . » هكذا راح يحدث نفسه ، ولكن سؤالاً طرح نفسه عليه فوراً وصد ارادته : « أليس من الأفضل أن أخبره بكل شيء ؟ » وقد طرح هذا السؤال بقوة إلى حد أنه اضطر إلى عض شفته السفلى . ويبدو أن المستشار ميكولين لم يكن يحمل أية آمال بسماع اعتراف ، وقد استأنف كلامه قائلاً :

— ما تقوله لي هو أكثر مما استطاع القضاة انتزاعه منه . لقد حاكمته لجنة من ثلاثة قضاة ، ولم يخبرهم بأي شيء إطلاقاً . بعد كل سؤال كتب في التقرير : « يرفض الإجابة . . . يرفض الإجابة » ، وهكذا دواليك الصفحة تلو الأخرى . وكما ترى ، فقد طُلب مني القيام بالمزيد من التحقيق في مسألته . لم يتّرك لي ما أبدأ به تحقيقاتي . وغد متمرس . إذن فهو كما تقول كان يؤمن . . .

ومن جديد نظر المستشار ميكولين عبر لحيته مع تكشيرة ضعيفة ، ولكنه لم يتوقف طويلاً عن الكلام ، إذ عاد ليقول ببعض الاحتقار أن المجذّفين على الرب لديهم أيضاً ذلك النوع من الإيمان ، ثم استنتج أن السيد رازوموف قد تحدّث مرات عدة مع هالدين حول هذا الموضوع .

قال رازوموف بصوت عال دون أن يرفع بصره :

— لا ، كان يتحدث وأنا أصغي ، وهذه ليست محادثة .

قال ميكولين بجملة اعتراضية :

— الاصفاء فنّ عظيم .

همهم رازوموف :

— وجعل الناس يتكاثمون فنّ عظيم آخر .

قال ميكولين ببراعة :

— لا . . . ليس هذا صعباً جداً ، الآ في حالات خاصة بالطبع .

مثلاً : هالدين هذا . لا شيء يدفعه إلى الكلام . لقد أحضر أربع مرات أمام القضاة المندبين ، أربع جلسات تحقيق سرية . . . وحتى خلال الجلسة الأخيرة ، حين طُرح اسمك . . .

كرّر رازوموف وهو يرفع رأسه بفضافة :

— حين طُرح اسمي . . . ؟ لا أفهم .

التفت المستشار نحو الطاولة وأخذ من عليها بعض الأوراق الرمادية كبيرة القطع ثم أسقطها الواحدة إثر الأخرى ، محتفظاً بالأخيرة فقط في يده . رفعها أمام عينيه وهو يتكاثم :

— لقد اعتبّر ذلك ضرورياً كما ترى . في قضية جديدة إلى هذا

الحلد يتوجب عدم اهمال اتخاذ أية وسيلة ضد المتهم . أنت تفهم ذلك ، وأنا على ثقة من ذلك .

حدّق رازوموف بعينين واسعتين كبيرتين إلى الصورة الجانبية

لوجه المستشار ميكولين الذي لم يكن ينظر إليه الآن .

— لذلك تقرّر (وقد استشارني « الجنرال ت . . . ») أن يُطرح سؤال معيّن على المتهم ، ولكن نزولاً عند الرغبة المأمّنة لـ « الأمير ك . . . » بقي اسمك خارج الوثائق بل وحتى بعيداً عن علم القضاة أنفسهم . ولكن « الأمير ك . . . » أدرك ملاءمة وضرورة اقتراحنا ، وان كان قلقاً على سلامتك . هناك تسرب في الأسرار فعلاً . . . هذا ما لا أستطيع انكاره . لا يستطيع المرء أن يضمن دائماً حفظ الأسرار من قبل الموظفين الصغار . كان هناك طبعاً أمين سرّ المحكمة الخاصة ودركي أو اثنان في الغرفة . وفضلاً عن ذلك ، وكما سبق وقلت ، ونزولاً عند رغبة « الأمير ك . . . » فحتى القضاة أنفسهم تركوا دون علم . ولكن السؤال الذي صيغ على الفور قد أرسل إليهم من قبل « الجنرال ت . . . » (كتبته بيدي هذه) مع تعليمات بأن يُطرح على السجين كآخر سؤال . وها هو .

أرجع المستشار ميكولين رأسه نحو الخلف ليركّز بصره وراح يقرأ بصورة رتيبة :

— سؤال : هل كانت للرجل المعروف لك جيداً ، والذي مكثت في غرفته ساعات عدة يوم الاثنين ، والذي تم اعتقالك بناء على المعلومات التي أدلى بها . . . : هل كانت له معرفة سابقة بنيّتك ارتكاب اغتيال سياسي ؟ . . . السجين يرفض الاجابة . يكرر السؤال عاياه . السجين يحتفظ بالصمت العنيد نفسه . ثم استدعني قسيس القاعة الموقر وحتّص السجين على التوبة ورجاه أيضاً أن يكفّر عن جريمته بالاعتراف الكامل الصريح الذي من شأنه أن يحرّره من خطيئة التمرد على القوانين الالهية وجلالة الحاكم المقدسة، ووطننا المسيحي . . . وقد فتح السجين فمه

للمرة الأولى منذ جلسة الصباح ورفض بصوت عال وواضح خدمات
القسيس الكهنوتية . وفي الساعة الحادية عشرة نظقت المحكمة موجز قرار
الحكم بالاعدام . وتم تثبيت موعد الاعدام في الساعة الرابعة بعد الظهر ،
ولكنه خاضع لتعليمات لاحقة من السلطات الأعلى .

أسقط المستشار ميكولين الورقة ونظر عبر لحيته ثم التفت نحو
رازوموف مضيفاً بلهجة بسيطة تفسيرية :

— لم نر أي دافع لتأخير الاعدام . وقد أرسل أمر التنفيذ بالتلغراف
عند الظهر . لقد كتبت تلك البرقية شخصياً . وقد تم شقه في الساعة
الرابعة من بعد ظهر هذا اليوم .

هذه المعلومات التي لا تُبس فيها حول موت هالدين منحت
رازوموف احساساً عاماً بالتراخي الذي يعقب الجهد العظيم أو الاستشارة
الخاللة . بقي ساكناً تماماً على الأريكة ، ولكن هممة ما أفلتت منه :
— لديه إيمان بالوجود المستقبلي .

هزّ المستشار ميكولين كتفيه بلا مبالاة ونهض بجهد . لم يعد هناك
شيء يستحق البقاء من أجله في تلك الغرفة . لقد سُتق هالدين في الساعة
الرابعة . ولا شك في ذلك . يبدو أنه قد دخل وجوده المستقبلي ، جزمته
الطويلة ، قبعته من فرو الأستراخان ، وكل شيء آخر ، حتى الحزام
الجلدي حول خصره . نوع من الوجود المومض المتلاشي . لم تكن تلك
روحه . بل مجرد شبحه الذي خَلّته وراءه على هذه الأرض . . . هكذا
قرّر رازوموف وهو يتسم بسخرية في نفسه خلال عبوره الغرفة ناسياً
تماماً مكان وجوده بل وحتى وجود المستشار ميكولين . كان يمكن لهذا

المستشار أن يقرع أجراساً كثيرة في هذا المبنى دون أن يغادر كرسيه .
وعلى كل حال ترك رازوموف يذهب حتى الباب قبل أن يقول له :

... تعال يا كيريلو سيندوروفيتش . . . ما الذي تفعله ؟

التفت رازوموف برأسه ونظر إليه بصمت . لم يضطرب أبداً .
كانت ذراعاً المستشار ميكولين ممدودتين على الطاولة أمامه وجسده منحني
نحو الأمام قليلاً وهو ينظر بجهد عبر تحديةته الغائمة .

تساءل رازوموف بينه وبين نفسه بوجه جامد : « هل كنت سأخرج
حرّاً هكذا » ؟ وقد كان واعياً لجمود وجهه الذي كان يخفي دهشة
واضحة .

فكّر : « من الواضح أنني كنت سأخرج أولاً أنه تكلم . ما الذي
كان سيفعله آنذاك ؟ عليّ أن أنهي هذه القضية بطريقة ما أو بأخرى .
عليّ أن أجعله يكشف عن نيّاته . »

فكّر للمحظة أخرى وراء القناع ، ثم ترك مقبض الباب وعاد إلى
منتصف الغرفة .

قال محتدماً دون أن يرفع صوته :

— سأقول لك ما تفكّر به . أنت تظنّ أنك تتعامل مع شريك
سري لذلك الرجل البائس . لا ، لا أعلم أنه كان بائساً . لم يقل لي .
كان بائساً من وجهة نظري أنا ، لأن إبقاء فكرة مزيفة حيّة جريمة
أشدّ هولاً من قتل إنسان . أعتقد أنك لن تنكر ذلك ، أليس كذلك ؟
لقد كرهته ! الملمرن يسببون شروراً دائماً الأرض . ان أحلامهم
الطوباوية نبثّ في جمهرة العقول العادية اشمئزاً من الواقع واحتقاراً
للمنطق الدنيوي للتطور البشري .

هزّ رازوموف كتفيه بلا مبالاة وراح يحدّق . فكّر : « يا لها من
خطبة مسهبة ! » لقد أثار فيه صمت وسكون المستشار ميكولين . جلس
البيروقراطي الملتحي في موقعه ، متمالكاً نفسه على نحو غامض ، أشبه
بوثن ذي عينين غائمتين غامضتين . تغيّر صوت رازوموف رغماً عنه .

— اذا كنت ستسألني عن ضرورة كرهني للمالدين ، فسوف
أجيبك . . . لا شيء عاطفي في ذلك . لم أكرهه لأنه ارتكب جريمة
القتل . الاشمئزاز ليس الكره . لقد كرهته ببساطة لأنني شخص عاقل .
ضمن تلك الصفة كان يثير حنّتي . كان مرتبه . . .

أحسّ رازوموف بصوته وهو يشخن في حنجرته . بدت غائمية
عيني المستشار ميكولين وكأنها تمتشر على وجهه فتجعله غير واضح أمام
نظر رازوموف . حاول أن يتجاهل هذه الظواهر .

تابع وهو يلفظ كل كلمة بعناية :

-- بالفعل ، ما هو موته بالنسبة اليّ ؟ او كان ممتدداً هنا على الأرض
لاستطعت أن أمشي فوق صدره . . . ذلك الشخص مجرد شبح . . .

وهنا سكّت صوت رازوموف رغماً عنه . لم يسمح ميكولين لنفسه
من وراء طاولته أن يقوم بأية حركة على الاطلاق . ساد الصمت بعض
الوقت قبل أن يستأنف رازوموف كلامه مرة أخرى :

— لقد استمر يحادثني . . . أوائلك المثقفون يجلسون في غرف بعضهم
البعض ويسكرون على الأفكار الأجنبية بالطريقة التي يسكر بها ضباط
الحرس الشبان بالخمير الأجنبية . فسوق محض . . . وأقسم على ذلك .

ثم أخفض رازوموف صوته مكرهاً حين تذكّر فجأة زيبه يانيتش :

— أقدم أننا نحن الروس شعب سكتير . ان علينا أن نكون متتشرين بنوع ما من الشوة : أن نجنّ من الحزن أو نبكي من الاستسلام ؛ أن نبقي هامدين كجذع شجرة أو نحرق البيت . ما الذي سيفعله رجل صاح ؟ أحب أن أعرف : أن يقطع المرء صلواته كلها بجنسه ، هذا أمر مستحيل . وحتى يعيش في صحراء عايبه أن يكون قديماً . ولكن أن يخرج رجل مخمور من حانة فينهار على عنقك ويوسع وجنتيك قُبلاً لأن في مظهره ما أثار اهتمامه ، ماذا إذن ، هيا قل لي ؟ قد تكسر هراوة على ظهره ومع ذلك لا تنجح في ابعاده عنك . . .

رفع المستشار ميكولين يده ومررها على وجهه بتعمد .

قال بلهجة خفضية :

— هذا . . . أمر بلهي .

كانت الجدية الهادئة لتلك الحركة قد جعلت رازوموف يتوقف عن الكلام ؛ كان ذلك غير متوقع أيضاً . ما الذي كانت تعنيه ؟ كان لها تحفظ مزعج . تذكر رازوموف نيته في جعله يكشف مقاصده .
بدأ بلهجة من اللامبالاة المصطنعة :

— لقد قلت هذا كانه « الأمير ك . . . » .

ولكنه لم يعد قادراً على المابعة وهو يرى المستشار ميكولين يوميء برأسه ببطء علامة الموافقة .

— أتعرف ذلك ؟ لقد سمعت . . . : اذن لماذا أستدعي إلى هنا لاخباري باعلام هالدين ؟ هل كنت تريد مواجهتي بصمته بعد أن أصبح الرجل ميتاً ؟ ما الذي يعنيه صمته لي ؟ هذا غير مفهوم . أنت تريد أن تزعزع توازني الأخلاقي ؛

غمغم المستشار ميكولين بصوت يكاد يكون مسموعاً :

— لا ، ليس ذلك . الخدمة التي قدمتها تُشتمن . . .

قاطعها رازوموف بسخرية :

— هل هي كذلك ؟

لم يرفع المستشار ميكولين صوته وهو يتابع :

— . . . ووضعك أيضاً . ولكن فكّر فحسب ! لقد سقطت على

حجيرة دراسة « الأمير ك . . . » كأنما من السماء بمعلوماتك المذهلة . . .

أنت لازلت تدرس يا سيد رازوموف ، ولكن سبق لنا نحن وخدمنا . . .

لا تنس ذلك . . . وبالطبع كان هناك بعض الفضول . . .

نظر المستشار ميكولين عبر لحية . ارتجفت شففتا رازوموف .

استمرت المهمة غير المتكلفة :

— حدوث أمر من هذا النوع يميّز الرجل بسمة خاصة . أعترف

بأنني كنت أشعر بفضول تجاهك وأتوق إلى رؤيتك . وقد ظنّ « الجنرال

ز . ن . » أن ذلك سيكون منسياً أيضاً . . . لا تظنّني أنني غير قادر على

فهم مشاعرك . حين كنت شاباً مثلك درست . . .

قال رازوموف بلهجة الكراهية العظيمة :

— أجل . . . رغبت في أن تراني . طبعاً لك الحق . . . أعني السلطة .

كلّته سيّان . ولكن لن يفيدك أبداً أن تنظر إلي وتستمع إليّ مدة عام

كامل . لقد بدأت أعتقد بأن هناك شيئاً ما فيّ لا يبدو أن الناس قادرين

على فهمه . هذا من سوء الحظ . وأتصرّر على أية حال أن « الأمير

ك . . . » يفهم ذلك . لقد بدا لي الأمر كذلك .

تحرك المستشار ميكولين قليلاً ، ثم نطق فقال :

– « الأمير ك . . . » على علم بكل ما تمّ فعله ، وليس عندي مانع من أن أخبرك بأنه وافق على رغبتى في التعرف عليك شخصياً .

أخفى رازوموف نخبة أمل هائلة تحت صرخات احتجاج ودهشة :

– اذن ، فهو فضولي أيضاً ! . . . حسناً ، على أية حال فان « الأمير ك . . . » لا يعرفني الاً قليلاً جداً. هذا بالطبع من سرء حظي الشديد . . . ولكن ذلك لا يعود إليّ بالضبط .

رفع المستشار ميكولين يداً سريعة مستنكرة وألقى برأسه قليلاً عن كتفه .

– والآن يا سيد رازوموف . . . هل من الضروري فهم المسألة على هذا النحو ؟ كل شخص ، وأنا على ثقة من ذلك ، قادر على أن . . . نظر بسرعة عبر لحيته ، وحين نظر إلى الأعلى مرة أخرى كانت هناك برهة من التعبير الذي يدلّ على الاهتمام في عينيه الغائمتين . وقد ثبطه رازوموف بابتسامة باردة صادّة .

– لا ، ليس لهذا أية أهمية وكن على ثقة من ذلك . . . باستثناء أنه فيما يخصّ كل هذا فان الفضول قد أثّر بسبب مسألة بسيطة جداً . . . ما الذي يمكن أن نفعله به ؟ إنه غير قابل للإشباع . أعني أن أقول انه لا شيء يمكنه إشباع ذلك الفضرل . لقد ولدت روسياً بغرائز وطنية صادقة . . . ولست في معرض القول ان كانت موروثه أم لا .

تحدث رازوموف بوعي وبثبات محكم .

– أجل ، غرائز وطنية نمتّها القدرة على التفكير المستقل . . .

التفكير الحيادي . في ذلك الخصوص أنا أكثر حرية من قدرة أية بؤرة ديموقراطية اجتماعية على جعلني حراً . ويبدو أنه من المحتمل جداً أنني لا أفكر كما تفكر أنت بالضبط . وبالفعل ، كيف يمكن ذلك ؟ ربما تفكر في هذه اللحظة أنني أكذب عن عمد لتغطية آثار توبتي .

توقف رازوموف . لقد أصبح قلبه أكبر بكثير من قدرة صدره على الاستيعاب . لم يتراجع المستشار ميكولين .

قال ببساطة :

— ولم هكذا ؟ لقد ساعدت شخصياً في تفتيش غرفتك . كما نظرت في كل أوراقتك بنفسي . وقد تأثرت إلى حد كبير بنوع من الاعتراف السياسي بمعتقدك . وثيقة رائعة جداً . والآن هل لي أن أسألك لأي هدف ؟

قال رازوموف بوحشية :

— لأخدع الشرطة طبعاً . . . ما هذه السخرية كلها ؟ طبعاً تستطيع أن ترساني من هذه الغرفة إلى سيبيريا على الفور . سيكون ذلك مفهوماً . أستطيع أن أخضع لما هو مفهوم . . . ولكنني أحتج على كوميديا الملاحقة هذه . لقد أصبحت المسألة كلها أكثر كوميدياً مما يستطيع ذوقني احتماله . كوميديا الأخطاء ، الأشباح والمفاجآت . هذا أمر غير شريف إطلاقاً . . . كان المستشار ميكولين يصغي باهتمام .

غمغم :

— هل قلت « الأشباح » ؟

قال رازوموف :

— أستطيع أن أدوس على عشرات منها .

ثم استأنف بتلويحة نافذة الصبر من يده :

– ولكن عليّ أن أطلب عن حق بأن أتخلص من هذا الرجل نهائياً .
وحتى ننفذ ذلك عليّ أن أطلب السماح بأن . . .

انحنى رازوموف قليلاً عند الجانب من الطاولة الذي يقف عنده ،
وذلك للبيروقراطي الجالس .

– أن أخلو إلى نفسي . . . ببساطة .

هذا ما قاله بتصميم ممتاز .

سار عبر الباب وهو يفكّر : « والآن عليه أن يكشف عن خططه .
لا شك أنه سيقرع الجرس ويأمر بالقاء القبض عليّ قبل خروجي من
المبنى ، أو عليه أن يتركني أرحل . وأي الأمرين . . . »

قال بصوت غير عجول :

– يا كيريلو سيدوروفيتش .

التفت إليه رازوموف وهو عند الباب وكرز :

– أخلو إلى نفسي .

سأله المستشار ميكولين برقة :

– ولكن إلى أين ؟

* * *

الجزء الثاني

— أولاً —

في ادارة قصة مخترعة هناك لا شك بعض الخواص التي لا بدّ من مراعاتها في سبيل الوضوح وتحقيق التأثير . ان للرجل صاحب المخيّلة ، مهما كان قليل التجربة في فهم القصص ، غريزته التي ترشده في اختيار الكلمات وتطوير الفعل . الحبة الواحدة من الموهبة تهرّ أخطاء كثيرة . ولكن هذا ليس عملاً من أعمال المخيّلة . وأنا لا أملك الموهبة ، وعذري لقيامي بهذه المهمة لا يتكمنُ في فنّها ، بل في لا فنّها . ربما أتي مدرك لبواحي عجزتي وقوتي في صدق عزيّمي ، فان أحاول (إن أستطعت) أن أخترع أي شيء . سأدفع بشكوكي بعيداً بحيث لن أخترع فصلاً انتقالياً .

اذن نترك هنا مذكرات السيد رازوموف في ذلك الموضوع الذي يرد فيه سؤال المستشار ميكولين : « ولكن إلى أين ؟ » بعزم هو عزم المشكلة غير القابلة للحلّ ، وليس عليّ سوى أن أقول لاني تعرفت بهاتين السيدتين قبل ذلك الحين بأشهر ستة وأعني بـ « هاتين السيدتين » طبعاً أم وأخت هالدين نعيمس الحظ .

بأية حجج أقنّع أمّه حتى تبيع ملكيتهم الصغيرة وتسافر إلى الخارج لفترة غير محددة ، لا أعرف بالضبط ، لديّ فكرة مفادها أن السيدة هالدين ، بناء على رغبة ابنها ، كانت ستشعل النار في منزلها وتهاجر إلى القمر دون أية اماراة من امارات الدهشة أو الخوف ، وأن الآنسة هالدين — ناتالي أو ناتالكا بلغة الملاطفة — كانت ستمنح موافقتها على الخطوة .

لقد توضّح لي تفانيهما المشوب بالاعتزاز في حب ذلك الشاب خلال وقت قصير جداً . وقد قامتا بناء على توجيهاته بالاتجاه إلى سويسرا فوراً - إلى زيوريخ - حيث بقيتا مدة عام تقريباً ، ومن زيوريخ - التي لم ترق لهما - أتتا إلى جنيف . هذا وقد كتب إليّ صديق لي في « لوزان » ، وهو محاضر في التاريخ يعمل في الجامعة (ومتزوج من سيدة روسية على قرابة بعيدة مع السيدة هالدين) مقترحاً عليّ زيارة هاتين السيدتين ؛ وكان ذلك اقتراحاً عملياً ولطيفاً . لقد وغبت الآنسة هالدين في أن تتبع دورة في المطالعة لأفضل المؤلفين الانكليز مع أستاذ قدير .

استمتباني السيدة هالدين استقبالاً لطيفاً جداً . وقد قضت فرنسيتهما الرديئة . التي كانت هي واعية لرداءتها وبابتسام دائم ، على رسمية الزيارة الأولى . كانت امرأة طويلة ترتدي ثوباً حريراً أسود اللون ، ذات جبين واسع وملامح منتظمة وشفقتين رقيقتين ، مما يشهد على جمال غابر . كانت تجلس باستقامة في كرسي مريح وقالت بصوت ضعيف رقيق بالأحرى إن « ناتالكا » متعطشة للمعرفة . كانت يداها النحيلتان قابعتين في حضنها ، ويوحى سكون وجهها بشيء من الرهينة . قالت :

- في روسيا ، المعرفة كلها مفسدة بالزيف . ليس الكيمياء وما مشابهاها ، بل التعليم عموماً .

ثم شرحت لي أن الحكومة كانت تفسد التعليم ليتلاءم مع أهدافها . لقد أحسّ ولداها كلاهما بذلك . فناتالكا نالت شهادة الدبلوم من المدرسة العليا للبنات كما كان ابنها طالباً في جامعة سانت بطرسبورغ . وهو ذكي لامع الذكاء ، ذو طبيعة نبيلة غيرية جداً ، كما كان موضع ثقة زملائه . كانت تأمل في أن ينضم إليهما في بداية العام المقبل وعندها سيذهبون إلى إيطاليا معاً . كانت على ثقة أنه في أي بلد آخر غير بلدهم فإن مستقبلًا

عظيماً كان ينتظر شخصاً له القدرات الاستثنائية والشخصية السامية التي لابنها . . . ولكن في روسيا . . .

التفتت الشابة الجالسة قرب النافذة وقالت :

— يكفي يا أمي ، حتى معنا فان الأمور تتغير بمرور السنين .

كان صوتها عميقاً ، بل أجش حتى ، ومع ذلك فهو ملاطف في خشونته . وكانت لها بشرة داكنة وشفتان حمراوان وجسم ممتلئ . كانت توحى بالحيوية المتدفقة . تنهدت السيدة العجوز .

— كلا كما شابان . . . أنتما الاثنان . سهل عليكما الأمل . ولكني لست بفاقدة للأمل أنا نفسي . وبالفعل كيف أستطيع أن أكون كذلك ولي ابن مثل هذا ؟

خاطبت الأنسة هالدين فسألته عن المؤلفين الذين ترغب في مطالعة أعمالهم . وقد وجهت إليّ عينها الرماديتين المظلتين بأهداب سوداء ، فأصبحت مدركاً — بغض للنظر عن سنّي — كم كانت شخصيتها جذابة جسدياً بالنسبة إلى رجل قادر على أن يقيّم في امرأة شيئاً آخر غير هبة الأنوثة مجردة . كانت نظرتها مباشرة وصادقة كنظرة شاب لم تفسده بعد دروس العالم الحكيمة . وكانت جريئة ، ولكن دون عدوانية . الثقة الساذجة انّما عميقة التفكير تعريف أفضل لها . كان قد سبق لها ومارست التأمل (في روسيا يبدأ الشباب بالتأمل في سنّ مبكرة) ، ولكنها لم تعرف الخداع أبداً لأنها لم ترزح حتى الآن كما يبدو تحت حكم العاطفة . كانت — والتطلع إليها كان يكفي — قادرة جداً على أن تُستثار بفكرة أو بشخص بكل بساطة . على الأقل ، هذا كان حكيم

عليها دون تحيز ؛ فشخصي لم يكن هو الشخص المطلوب . . . أما بالنسبة إلى أفكاري ! . . .

أصبحنا صديقين ممتازين خلال المطالعة . كان ذلك أمراً ممتعاً جداً . ودون الخوف من أن أثير ابتساماتكم فسوف أعترف بأني أصبحت شديد التعلق بتلك الفتاة . وما أن مضت أربعة شهور حتى قلت لها انها تستطيع أن تتابع قراءة الانكليزية لوحدها . لقد حان موحد رحيل المعلم . وقد بدا على تلميذتي الدهشة المترعة بالانزعاج .

ولكن السيدة هالدين بسكون ملاحظها ولطافة التعبير في عينيها ، قالت من كتبها بلغتها الفرنسية غير الموثوق بها : « ولكن الصديق سيعود » . وهكذا تقرر الأمر . أصبحت أعود : ليس مرات أربع في الأسبوع كما من قبل ، بل أقل من ذلك . في الخريف قمنا ببعض التزهات القصيرة مع بعض الروس الآخرين . لقد منحتني صداقتي مع هاتين السيدتين مكانة في الجالية الروسية ما كان ممكناً الوصول إليها لولاهما .

في اليوم الذي رأيت فيه في الصحف خبر اغتيال « السيد دو . . . » — وكان يوم أحد — قابلت السيدتين في الشارع ورافقتهما بعض مسافة الطريق . كانت السيدة هالدين ترتدي معطفاً رمادياً فضفاضاً وثقيلاً ، كما أتذكر ، وذلك من فوق ثوب حريري أسود ، وقد التقت عيناها الجميلتان بعيني بتعبير هادىء جداً .

قالت :

— كنا في الصلاة المتأخرة ، وكانت ناتالكا معي . أما رفيقاتها ، الطالبات هنا ، فهن لا يذهبن طبعاً إلى الصلاة . . . بالنسبة إلينا نحن الروس فان الكنيسة تتطابق مع القمع ، لذا يبدو ضرورياً تقريباً أن يتخلى

المرء - اذا أراد أن يكون حرّاً في هذه الحياة - عن كل أمل في وجود
آخر مستقبلي . ولكني لا أستطيع التخلي عن الصلاة من أجل ابني :
ثم أضافت بنوع من الكتابة المتحجرة وبالفرنسية : « قد يكون ك
بحكم العادة فحسب . »

كانت الآنسة هالدين تحمل كتاب الصلوات . لم تنظر إلى أمها .
قالت :

- أنت وفيكتور عميقا الايمان كلاكما .

نقلت إليهما ذلك الخبر الوارد من بلدهما الذي قرأته وأنا في المقهى .
ولمدة دقيقة كاملة رحنا نسير معاً بسرعة وبصمت . ثم همهمت السيدة
هالدين :

- سيكون هناك المزيد من الاضطراب ، ومن الملاحقة ، بسبب
ما حدث . وربما سيغلقون الجامعة . لا سلام ولا راحة في روسيا للانسان
إلاّ في القبر .

- أجل . الطريق صعبة .

هذا ما قالته الابنة وهي تنظر نحو الأمام إلى سلسلة جبال « جورا »
المغطاة بالثلج ، كجدار أبيض يغلق نهاية الشارع .

- ولكن الوثام ليس بعيداً إلى ذلك الحد .

قالت لي السيدة هالدين :

- هذا ما يظنه ولداي .

لم أخف شعوري بأن تلك الأوقات لم تكن مناسبة للحديث عن الوثام .
وقد أدهشتني ناتالي هالدين بأن قالت ، وكأنها قد فكرت كثيراً في

الموضوع ، ان الغربيين لا يفهمون الوضع . كانت هادئة جداً ومتفوقة على نحو مترع بالشباب .

– أنت نظن أنه صراع طبقي ، أو صراع مصالح ، كما هي حال الخلافات الاجتماعية لديكم في أوروبا . ولكن الأمر لدينا ليس هكذا إطلاقاً . انه شيء مختلف تماماً .

قلت مسامحاً :

– من الممكن تماماً أني لا أفهم .

تلك النزعة الطبيعية إلى رفع كل مشكلة من مستوى ما هو مفهوم بواسطة نوع من التعبير الغامض السري ، مسألة روسية جداً . كنت أعرفها بما فيه الكفاية بحيث اكتشفت احتقارها لكل الأشكال العملية للحرية السياسية المعروفة من قبل العالم الغربي . أعتقد أن على المرء أن يكون روسياً ليفهم البساطة الروسية ، وهي بساطة رهيبة أكالة تقوم فيها جمل غامضة بتغطية سخرية ساذجة وياثسة . وأعتقد أحياناً أن السر السيكولوجي للاختلاف العميق لذلك الشعب يكمن هنا ، في حقيقة أنهم يكرهون الحياة ، حياة الأرض التي يستحيل علاجها ، بينما تتمسك بها نحن الغربيين بمبالغة مماثلة لقيمتها العاطفية . ولكن هذا استطراد بالفعل .

ساعدت هاتين السيدتين على ركوب الحافلة فسألتاني أن أزورهما في فترة بعد الظهر . على الأقل طلبت مني ذلك السيدة هالدين وهي تصعد إلى الحافلة ، وابتسمت ناتالكا للغربي الغبي بتسامح من المنصة الخلفية للحافلة الآخذة بالتحرك . كان نور صدر النهار الشتائي الواضح قد خفت حدته في عينيها الرماديتين .

تُحيي مذكرات السيد رازوموف المديّ - وكأنها كتاب القدر المفتوح - ذكرى ذلك اليوم كشيء عديم الرحمة إذ حد مذهل في تحرّره من كل التنبؤات بشرّ مقبل . كان فيكتور هالدين لازال بين الأحياء ، ولكنهم الأحياء الذين لا اتصال لهم مع الحياة إلاّ عن طريق توقع الموت . كان قد سبق له وراح يشير إلى آخر نزواته الأرضية ، ساعات ذلك الصمت العنيد ، الذي تم تمديده بالنسبة إليه إلى الأبد . في عصر ذلك اليوم استضافت السيدتان عدداً كبيراً من مواطنيهما عدداً أكبر مما اعتادت استضافته في المرة الواحدة . وكانت غرفة الاستقبال في الطابق الأرضي من ذلك المنزل الكبير في « شارع الفلاسفة » شديدة الازدحام .

بقيت حتى غادر الجميع ، وحين نهضت وقفت الأنسة هالدين أيضاً . أخذت يدها وأحست بالرغبة في أن أعود إلى موضوع حديثنا الصباحي في الشارع :

— أسلم بأننا نحن الغريبين لا نفهم خاصية شعبك

بدا وكأنها كانت قد جهزت نفسها لي بالتنبؤ مسبقاً على نحو غامض بما سأقوله . صدّتي بلطف

— دوافعهم أعني

فتّشت عن التعبير المناسب ثم وجدته ، ولكنها قالت بالفرنسية :

— نزعاتهم النفسية .

لم يرتفع صوتها أعلى من همسة .

قلت :

— حسناً ، ولكننا لا نزال ننظر إلى صراع . تقولين إنه ليس صراع

طبقات وليس صراع مصالح . افترضني أنني أقر بذلك . هل يمكن للأفكار المتعارضة أن تتفق على نحو أسهل . . . هل يمكن أن تعزز بالدم والعنف لتصبح ذلك الوافق الذي تصرحين بأنه قريب جداً ؟

نظرت إليّ متفحصمة بعينيها الرماديتين الصافيتين ، دون أن تجيب على سؤالي المعقول . . . سؤالي الواضح ، سؤالي غير القابل للإجابة .

أضفت بشيء كالانزعاج :

— أمر لا يمكن تصوّره .

قالت :

— كل شيء لا يمكن تصوّره . العالم كله لا يمكن تصوّره أمام المنطق الصارم الأفكار . ومع ذلك فالعالم موجود بالنسبة إلى حواسنا ، ونحن موجودون فيه . لا بد أن هناك ضرورة متشوقة على تصوراتنا . وإنه لأمر شديد البؤس والزيف أن ينتمي المرء إلى الأغلبية . نحن الروس سنجد شكلاً أفضل من أشكال الحرية القومية من مجرد الصراع المصطنع للأحزاب . . . وهو صراع خاطيء لأنه صراع ، وهو جدير بالازدراء لأنه مصطنع . الأمر متروك لنا نحن الروس لاكتشاف أسلوب أفضل .

كانت السيدة هالدين تنظر إلى الخارج عبر النافذة . التفتت إليّ بجمال وجهها الذي يكاد يخلو من الحياة ، وبالنظرة الصريحة الممتلئة بالحياة لعينيها الداكنتين الواسعتين .

قالت :

— هذا ما يعتقده ولداي .

قلت مخاطباً الآنسة هالدين :

– أعتقد أنك ستصابين بصدمة اذا قلت لك اني لم أفهم . . . ان
أقول كلمة واحدة . . . لقد فهمت كل الكلمات . . . ولكن ما هو
الاتفاق المتحرر من الجسد هذا الذي تتشوفين إليه . الحياة شيء متعلق
بالشكل . إن لها شكلها التشكيلي ومظهراً فكرياً محددأ . لا بد لأكثر
المفاهيم المثالية عن الحب والتجمل بالصبر أن تكتسي لحمأ كما كانت
قبل أن أصبح ممكناً فهمهما .

ودّعت السيدة هالدين التي لم تتحرك شفتها الجميلتان أبداً .
ابتسمت بعينيهما فحسب . رافقتني ناتالي هالدين حتى الباب وبكل ودّ .

– تعتقد أمي أني الصدى الخانع لأخي فيكتور . والأمر ليس
كذلك . انه يفهمني أكثر مما أفهمه . حين سينضم إلينا وتعرف عليه
سترى أية روح رائعة هو .

توقفت ثم أضافت :

– ليس هو بالرجل القوي بالمعنى التقليدي كما تعرف ، ولكن
شخصيته تخلو من أي خلل .

– أعتقد أنه لن يكون صعباً عليّ أن أصادق أخاك فيكتور .

قالت بنجذب نوعاً ما :

– لا تتوقع أن تفهمه تماماً . انه ليس غريباً في أعماقه ، اطلاقاً ،

اطلاقاً ،

وغادرت الغرفة بهذا التحذير غير الضروري مع انحناءة أخرى عند
البوابة للسيدة هالدين في كنيبتها عند النافذة . كان ظل الحكم الفردي
الاستبدادي الذي لم أكن أدركه قد سبق له وسقط على « شارع الفلاسفة » ،

في المدينة الحرة ، المستقلة والديموقراطية : جنيف ، حيث يوجد حيّ يسمى « روسيا الصغيرة » . وكلما التقى شخصان روسيان معاً ، فإن ظل الحكم الفردي الاستبدادي موجود معهما ، يشوب افكارهما ، آراءهما ، وأكثر مشاعرهما حميمية ، حياتهما الخاصة وتصريحاتها العلنية . . . ساكناً سرّ صحتها .

ان ما صعقتني لاحقاً خلال أسبوع أو نحوه كان صمت هاتين السيدتين . اعتدت أن أقابلهما تسيران في الحديقة العامة قرب الجامعة . كانتا تحياني بؤدهما المعتاد ، ولكنني لم أستطع سوى أن ألاحظ صمتهما . في ذلك الحين أصبح معروفاً للجميع أن قاتل السيد « دوبر . . . » قد أُنقي القبض عليه وحوكم وأعدم . لقد أعطيت وكالات الأنباء الكثير من المعلومات الرسمية . ولكن اسمه بقي مغفلاً للعالم كله . لقد قررت السلطات الرسمية أن تبقي اسمه سرّاً . ولا أستطيع أن أنصّر السبب بالفعل .

وفي احد الأيام رأيت الآنسة هالدين تسير وحيدة في الشارع الرئيسي للحصن تحت الأشجار العارية .

قالت :

— أمي ليست في حالة جيدة .

وبما أن السيدة هالدين ، كما بدا ، لم تصب بالمرض في حياتها ، فإن هذا التوعك كان أمراً يدعو إلى القلق . ولم يكن هناك شيء محدد أيضاً .

— أعتقد أنها قلقة لأننا لم نستلم خبراً من أخي منذ فترة طويلة نسبياً .

قلت بمرح :

— لا خبر . . . نبأ جيد .

ثم بدأنا نسير ببطء جنباً إلى جنب .

قالت بصوت خفيض جداً بحيث لم أستطع الا بالكاد سماع كلماتها :

— ليس في روسيا .

نظرت إليها باهتمام أشد .

— أنت أيضاً قلقة ؟

أقرت بعد لحظة من التردد أنها كانت تشعر بالقلق .

— لقد مرّت بالفعل فترة طويلة منذ أن سمعنا . . .

وقبل أن أستطيع تقديم الاقتراحات المبتدلة المعتادة أسرّرت لي قائلة :

— أوه ولكن المسألة أسوأ من ذلك بكثير . كتبت إلى أسرة أعرفها

في بطرسبورغ . قالوا أنهم لم يروه منذ أكثر من شهر . أنهم يظنون أنه قد

سبق له وانضم إلينا هنا . كانوا مترعجين قليلاً حتى لأنه غادر بطرسبورغ

دون أن يزورهم . لقد ذهب زوج السيدة إلى مكان سكنه ولكن فيكتور

كان قد غادر المسكن ولا يعرف أحد عنوانه .

أندكر أنها التقطت أنفاسها على نحو مثير للشفقة بالأحرى ، فأخوها

لم يعد يُرى في المحاضرات منذ فترة طويلة أيضاً . كان يمرّ بين الحين

والآخر على بوابة الجامعة ليسأل البواب عن الرسائل . وقد قيل للصديق

ان الطالب هالدين لم يأت ليسأل عن آخر رسالتين له ، وان كانت الشرطة

قد جاءت لتسأل إن كانت قد وصلت الطالب هالدين أية رسائل إلى

الجامعة وأخذت هاتين الرسالتين .

قالت :

– آخر رسالتين بعثتهما إليه .

وقضنا وجهاً لوجه . تراقصت بضع رقيقات من الثلج تحت الأنصمان
الغارية . كانت السماء داكنة .

سألتها :

– ما تظنين أنه حدث ؟

تحركت كتفاها قليلاً :

– في روسيا لا يمكن للمرء أن يحزر أبداً .

رأيت آنذاك ظل الحكم الفردي الاستبدادي مخيماً فوق الحيوانات
الروسية في خنوعها وفي تمردها . رأيت يلمس وجهها الوسيم الصريح
المحتضن في قبتها المصنوعة من الفرو ويعتم عينها الصافيتين اللتين كانتا
تشان بلون رمادي لامع تحت نور العصر الغائم العاصف .

قالت :

– فلنمش . الطقس اليوم بارد على الوقوف .

ارتجفت قليلاً وضربت الأرض بقدميها الصغيرتين . تحركنا بسرعة
إلى نهاية الشارع ثم عدنا إلى البوابة الضخمة للحديقة .

تجرات فسألتها :

– هل أبلغت أمك ؟

– لا ، ليس بعد . لقد خرجت لأتمشى وأتخلص من تأثير هذه

الرسالة .

سمعت خشخشة ورق في مكان ما . جاء الصوت من غطاء يديها
المصنوع من الفرو . كانت الرسالة معها هناك .

سألتها :

-- ما الذي تخشيه ؟

بالنسبة إلينا نحن أوربيي الغرب فان أفكار المؤامرات والمكائد
السياسية كلها تبا و طفولية ، وكاخرعات فجة للمسرح أو الرواية .
لم أرغب في أن أكون أكثر تجديداً في سؤالي .

— بالنسبة إليّ . . . إلى أمي خصيصاً ، فان ما أخشاه هو اللابقيين .
الأشخاص يخنفون فعلاً . أجل ، انهم يخنفون . أنرك لك أن تتخيل
الموضوع . . . قسوة الاسابيع الخرساء . . . الشهور . . . السنوات !
لقد تخلى صديقنا هذا عن استعلاماته حين سمع أن الشرطة قد أخذت
الرسالتين . وأعتقد أنه خشي من التورط شخصياً . اديه زوجة وأطفال . . .
ولماذا يتوجب عليه ذلك على أية حال ؟ . . . وعلاوة على ذلك ، فإنه لا
علاقات له مع ذوي النفوذ والسلطة ، وهو ليس غنياً أيضاً . ما الذي كان
يستطيع أن يفعله ؟ . . . أجل ، أنا خائفة من الصمت . . . على أمي
المسكينة . لن تستطيع تحمل ذلك . أما بالنسبة لأخي فأنا أخشى . . .
عليه من أي شيء .

وقد قالت هذه العبارة الأخيرة بصوت يكاد لا يكون مسموعاً .

كنا الآن قرييين من البوابة المواجهة للمسرح . رفعت صوتها قائلة :

— ولكن الأشخاص الضائعين يظهرون ثانية حتى في روسيا .

أمرف ما هو اخر أمل لي ؟ ربما يكون الشيء التالي الذي سيحدث هو
أن نراه وهو يدخل إلى بيتنا .

رفعت قبعتي ونحجت هي من الحديدية ، رشية وقوية ، بعد حركة
خفيفة من الرأس باتجاهي ، ويدها في غطاء القمرو تجعماكان رسالة
بطرسبورغ القاسية .

لدى عودتي إلى البيت فتحت الصحيفة التي استلمتها من لندن ، وحين
نظرت إلى زاوية المراسلات من روسيا ، ليس البرقيات بل المراسلات . . .
فان أول شيء رأيته عيناى كان اسم هالدين . لم يعد موت « السيد دو
. . . » حدثاً مثيراً الآن ، ولكن مراسل الصحيفة المغامر كان فخوراً
بمقدرته على الحصول على معلومات غير رسمية عن تلك الواقعة الخاصة
بالتاريخ المعاصر . لقد أمسك باسم هالدين واستطاع معرفة حكاية
الاعتقال في منتصف الليل في الشارع . ولكن الإثارة الصحفية كان قد
سبق لها وتخطت هذه القضية ، فلم يُكرس لها أكثر من عشرين سطراً
من عمود كامل . ولكن ذلك كان كافياً ليحرمني من النوم الليل بطواه .
قد تصورت أنه سيكون هناك نوع من الخيانة في أن أدع الآنسة هالدين تتعرف
دون سابق انذار على هذا الاكتشاف الصحفي الذي سيعاد نشره لا شك
غداً من قبل الصحف السويسرية والفرنسية . عانيت الكثير حتى الصباح ،
وقد بقيت متيقظاً من القلق العصبي وانتابني كوابيس اليقظة مع احساس
بتشوش مرده إلى شيء مسرحي ومصطنع على نحو مرضي . ان تنافر
مثل هذا التعقيد في حياة هاتين السيدتين كان مُدركاً من قبلي خلال
الليل كله على شكل ألم مطلق . لقد بدا ، بسبب من بساطته المرهفة .
أنه يتوجب اخفاؤه عنهما حتى الأبد . ولدى وصولي في ساعة مبكرة إلى
حد غير معقول إلى باب شقتهما ، أحسست أني على وشك ارتكاب عمل
من أعمال التخريب

قادتني الخادم متوسطة العمر إلى غرفة الاستقبال حيث كان هناك منفضة غبار على كرسي ومكنسة مسندة إلى طاولة في الوسط . كانت دقائق الغبار تراقص في نور الشمس . وقد نامت لأنني لم أكتب رسالة بدلاًً عن القادوم بننسي ، وقد كنت ممتناً لأن الجوّ كان صافياً ذلك اليوم. خرجت الآنسة هالدين ، في ثوب أسود بسيط ، بجخنة من غرفة أمها ، وابتسامة غامضة على شفثيها .

أخرجت الصحيفة من جيبي . لم أكن أتصور أن عدداً من صحيفة « ستاندرد » سيكون له تأثير رأس ميدوزا (١) . لقد تجرّ وجهها خلال لحظة . . . وعيناها . . . وأعضاؤها . ولكن الأمر الأشد هولاً هو أنها رغم تجرّرها بقيت حية . كان يمكن للمرء أن يشعر بقلبها الخافق . وآمل أن تغر لي بسبب التأخير الناجم عن مواربي الخرقاء . ولكنه لم يطل كثيراً ؛ ما كان ممكناً أن تبقى ساكنة إلى هذا الحد من الرأس إلى القدم لأكثر من ثانية أو ثانيتين ، ثم سمعتها تتنفس . كأنما شلت الصدمة مقاومتها المعنوية ، وأثرت على صلابة عضلاتها ، وبدأت الخطوط الكفافية لوجهها كأنها قد انهارت . لقد تبدلت على نحو مخيف . بدت عجوزاً . . . مهذمة . ولكن لبرهة واحدة . قالت بتصميم :

— سأذهب إبلغ أمي فوراً .

اعترضت قائلاً :

— هل سيكون ذلك مأموناً وهي في مثل تلك الحالة ؟

— ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من الحالة التي كانت عليها هذا

(١) في الأساطير اليونانية كان يحيل كل من ينظر إليه إلى تمثال من الحجر .

(المترجم)

الشهر الأخير؟ نذهب هذا بطريقة أخرى . القتل لم يحدث عند باب بيته .
تتخيل أني أدافع عنه أم أمك ؟

ذهبت إلى باب غرفة النوم ثم عادت لتسألني في مهمة خفية ألا
أخرج حتى تعود . ولمدة عشرين دقيقة لا متناهية لم يصلني أي صوت .
وأخيراً خرجت الآنسة هالدين وسارت عبر الغرفة بخطواتها الخفيفة
السريعة . وحين وصلت إلى الكنبه سقطت فيها بثقل وكأنها منهكة تماماً .
قالت لي ان السيدة هالدين لم تدرف دمعة واحدة . كانت جالسة
في سريرها وكان سكونها وصمتها يدتوان إلى القلق . وأخيراً تمددت
برقة وطلبت من ابنتها الابتعاد .

أضافت الآنسة هالدين :

— ستطلبني على الفور . لقد تركت لها جرساً قرب السرير .

أعترف بأن تعاطفي الحقيقي بانذات لم تكن له وجهة نظر . ان
القراء الغربيين الذين كتبت لهم هذه الحكاية سيفهمون ما أعنيه . كان
ذلك هو انعدام التجربة ان كان يمكنني قول ذلك . الموت لص عديم
الشفقة . ان ألم الحسارة التي لا يمكن تعويضها مألوفة لدينا جميعاً . لا
حياة هناك وحيدة إلى حد أنها مضمونة ضد مثل هذه التجربة . ولكن
كان للحزن الذي جلبته لهاين السيدتين تداعيات مخيفة . كانت له
تداعيات تتعلق بالقنابل والمشائق تلوين روسي مثير جعل اون
بشرة تعاطفي أمراً غير أكيد .

كنت ممتناً الآنسة هالدين لأنها لم تخرجني بعرض خارجي للشعور
العميق . لقد أعجبت بها لتلك السيطرة الرائعة على نفسها ، حتى وأنا

خائف عليها من مثل سيطرتها تلك . كان ذلك سكون توتر عظيم .
ماذا لو انهار فجأة ؟ حتى باب غرفة السيدة هالدين ، والأم العجوز وحيدة
فيها ، كان له بالأحرى مظهر رهيب .

غمغمت نانثالي هالدين بحزن :

— أعتقد أنك تتساءل عن ماهية مشاعري ؟

كان هذا صحيحاً من الناحية الجوهرية . وكان ذلك التساؤل نفسه
هو الذي يزغزع تعاطفي ، تعاطف الشخص الغربي جداً . لم أستطع نطق
أي شيء عدا بضع جمل عادية ، تلك الجمل التي لا طائل منها والتي هي
مقياس عجزنا أمام امتحان ألدنا للآخر . غمغمت بشيء ما بمعنى أنه
بالنسبة إلى الشباب فان الحياة لا زالت تحمل آمالها وتعويضاتها . وتحمل
واجبها أيضاً ولكني كنت متأكداً من أنه لا حاجة إلى تذكيرها
بذلك .

كانت تحمل مندبلاً بين يديها وتعصره بعصية .

قالت :

— ليس وارداً أن أنسى أُمي . لقد اعتدنا أن نكون ثلاثة . والآن
نحن اثنتان امرأتان . ليست هي مسنة جداً . قد تعيش طويلاً بعد .
ما الذي يمكننا أن نتشوقه من المستقبل الآن ؟ أي أمل وأي سلوان ؟

قلت بتصميم :

— عليك أن تتمتعني بوجهة نظر أوسع .

وكنت أفكّر حينها أنه مع مثل هذه المخلوقة الرائعة فانه يتوجب
الضرب على هذا الوتر بالذات . نظرت إليّ بثبات لاحظتة ثم تدفقت الدمع

الذي كانت تكبجه دون أي عائق الآن . ففزت من مكانها ووقفت عند النافذة وظهرها إلي .

تسللت مبتعداً دون أن أحاول حتى الاقتراب منها . وفي اليوم التالي قيل لي عند الباب ان السيدة هالدين قد تحسنت حالتها . ثم قالت لي الخادم متوسّطة العمر ان روساً كثيرين قد زاروا المنزل اليوم ، ولكن الآنسة هالدين لم تستقبل أحداً منهم . وبعد أسبوعين ، حين كنت أقوم بزيارتي اليومية ، طلب مني الدخول فوجدت السيدة هالدين جالسة في مكانها المعتاد قرب النافذة .

في البداية قد يتخيّل المرء أنه لم يتغير أي شيء . رأيت عبر الغرفة الصورة الجانبية المعتادة لوجهها . ولكنها أكثر حدة الآن في خطوطها وقد انتشر عليها شحوب شامل كذلك الذي يتوقع المرء مشاهدته على ندمان مريض . ولكن ليس هناك من مرض يمكن أن يكون سبباً في تخيير في عينيها السوداوين . اللتين ما عادتا تبتسمان بسخرية لطيفة . رفعتهما وهي تعطيني يدها . وقد لاحظت عدد صحيفته « ستاندرد » ، الذي عمره ثلاثة أسابيع . مطوراً على الصفحة الوارد فيها خبر المراسل من روسيا . وقد وضع على منضدة صغيرة قرب الكنبه . كان صوت السيدة هالدين ضعيفاً وحيادياً إلى حدّ مذهل . كانت أول كلمات خاطبتي بها عبارة عن سؤال :

— هل كان هناك المزيد في صحفكم ؟

أطلقت يدها الطويلة النحيلة وهزرت رأسي علامة النفي . ثم جلست .

— الصحافة الانكليزية رائعة . لا يمكن ابقاء أي شيء سراً عنها :

وعلى العالم كله أن يصغي . أخبارنا الروسية ليست سهلة على الفهم . ليست سهلة دائماً . . . ولكن الأمهات الانكليزيات لا يبحثن عن أخبار كتلك . . .

وضعت يدها على الصحيفة ثم أبعدها مرة أخرى . قلت :

— ونحن أيضاً مررنا بأوقات عصبية في تاريخنا .

— منذ زمن بعيد . بعيد جداً .

— أجل .

قالت الآنسة هالدين التي كانت قد اقتربت منا :

— هناك أمم عقدت صفقة رابحة مع القدر . لسنا في حاجة إلى أن

نحسدها .

سألت بلطف :

— لم هذا الاحتمار ؟ ربما لا تكون صنفقتنا ثمينة جداً . ولكن الشروط

التي ينالها الناس وتناولها الأمم من القدر يضمني عايتها الثمن القدسية .

أشاحت السيدة هالدين برأسها بعيداً ونظرت إلى الخارج عبر النافذة

لفترة من الوقت ، بتلك التحديقة الجديدة الكئيبة المنطفئة لعينيها الغائرتين

واني صنعت منها امرأة أخرى تماماً .

نخاطبتي فجأة :

— ذلك الانكليزي ، ذلك المراسل ، هل تعتقد أنه من الممكن أن

يكون قد عرف ابني ؟

وعلى هذا السؤال الغريب ما استطعت أن أقول ان ذلك كان أمراً

ممكناً بالطبع . وقد لاحظت هي دهشتي .

غمغمت :

— لو كان لنا أن نعرف أي نوع من الرجال هو لأمكنك الكتابة إليه .

شرحت الآنسة هالدين الواقعة بيننا واحدى يديها تسريح على ظهر الكرسي الجالس أنا عليه :

— تعتقد أمي أن أخي المسكين لم يحاول على الأرجح انقاذ نفسه .
نظرت إلى الآنسة هالدين في رعب متعاطف ، ولكنها كانت تنظر بهدوء إلى أمها . قالت هذه الأخيرة :

— لا نعرف عنوان أي من أصدقائه ، بل نحن لا نعرف بالفعل أي شيء عن رفاقه في بطرسبورغ . كان لديه عدد كبير من الأصدقاء ولكنه لم يتحدث عنهم كثيراً . يمكن للمرء أن يجزر أنهم كانوا ينظرون إليه على أنه مثلهم الأعلى . ولكنه كان شديد التواضع . والمرء قد يعتقد أنه مع وجود كل هؤلاء الرفاق المخلصين . . .

أشاحت برأسها بعيداً ونظرت إلى « شارع الفلاسفة » ، وهو شارع قاحل ومغبر على نحو فريد ، ما كان ممكناً أن ترى فيه في تلك اللحظة سوى كلبين وفتاة صغيرة في مئزر تججل على ساق واحدة ، وعامل يقود دراجته من بعيد .

همست كأنما لنفسها ولكن كأنها كانت تنوي أن تجعلني أسمعها :
— حتى بين تلامذة المسيح كان هناك يهودا .

تجمع الزوار الروس في زمر صغيرة وهم يتحدثون فيما بينهم في هذه الأثناء ، في همهمات خفيضة ونظرات عجلى في اتجاهنا . وكان

ذلك يتعارض تماماً مع الهذر المرتفع المعتاد في مثل هذه الاجتماعات .
لحقت بي الآنسة هالدين إلى الحجرة الصغيرة المحققة .

قالت

— الناس سيأون . لا نستطيع اغلاق أبوابنا في وجوههم .

وبينما كنت أرتدي معطفي بدأت تتحدث عن أمها . كانت السيدة
هالدين المسكينة تتوق إلى المزيد من الأخبار . كانت تريد الاستماع إلى
المزيد عن ابنها البائس الحظ . لم تكن قادرة على التصميم على التخلي
عنه بهندوء إلى المجهول الصامت . كانت ستثابر على ملاحظته إلى هناك
عبر أيام الصمت الطويل وجهاً أوجه مع شارع النلاسة الفارغ . لم تكن
قادرة على أن تفهم السبب في أنه لم يهرب ، كما فعل ثوار ومتآمرون
كثيرون آخرون في مثل هذه المواقف . لم يكن مفهوم كيف أن وسائل
التنظيمات الثورية السرية قد فشلت إلى هذا الحد الذي لا يمكن اغتفاره في
الحفاظ على ابنها . ولكن في الواقع كان ما هو غير مفهوم والذي كان
يؤثر على عقلها هو الوقاحة الوحشية للموت الذي مرّ فوق رأسها ليصيب
ذلك القلب العزيز الشاب .

قامت لي الآنسة هالدين قبعتي آنيماً وبنظرة منهمة . وقد فهمت منها
أن المرأة المسكينة تستحوذ عايتها فكرة بسيطة واحدة منادها أن ابنها قد
مات لأنه لم يرغب في أن ينجو ولم يكن السبب هو يأسه من مستقبل
وطنه . كان ذلك مستحيلاً . هل كان ممكناً أن أمه وأخته لم تكونا
موضع سرّه ، وأنه بعد أن فعل ما كان مرغماً على فعله ، فإن روحه
أصبحت مدمرة بفعل شكّ لا يمكن احتمالها وأن ذهنه قد تشتت بفعل
ارتياب مفاجئ ؟

لقد صدمني هذا الابتكار المفاجيء إلى حد كبير .

— كانت حيواننا الثلاث هكذا !

وهنا شبكت الأنسة هالدين أصابع يديها الاثنتين معاً كنوع من الشرح ، ثم فصلتهما ببطء وهي تنظر مباشرة إلى وجهي . ثم أضافت الفتاة العجيبة :

— هذا ما وجدته أُمي المسكينة لتعذب نفسها به وتعذبني أنا به طوال السنوات القادمة .

وقد انكشفت لي في تلك اللحظة فتنها العصية على التعريف وذلك من خلال دمج العاطفة بالرواقية (١) . وقد تخيلت كيف ستكون حياتها إلى جانب سكونية السيدة هالدين الرهيبة المسكونة بتلك الضرة الثابتة . ولكن اهتمامي تحول إلى صمت بسبب جهلي بأساليب شعورها . ان اختلاف الجنسية عائق رهيب أمام طبائعا الغربية المعقدة . ولكن ربما كانت الأنسة هالدين أبسط من أن تشكّ في حرجي . لم تنتظر مني أن أقول أي شيء ، ولكن كأنما كانت تقرأ أفكارى على وجهي اذ استأنفت الكلام بشجاعة :

— في البداية أصيبت ماما بالخلد كما يقول فلا تحونا ؛ ثم بدأت تفكّر ومستبقى تفكّر وتفكّر ضمن ذلك التوتر البائس . أنت ترى بنفسك كم هو قاس هذا . . .

لكم كنت صادقة حين وافقتها على رأيها بأنه سيكون أمراً مؤسفاً إلى آخر حد . رغمك تنفست بقلق .

(١) الرواقية : وهي المذهب الذي أنشأه زينون اليوناني عام (٣٠٠) ق . م . والذي قال بأن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال ولا يتأثر بالفرح أو الترح وأن يخضع من غير تدمير للضرورة القاهرة . (المترجم) .

ثم صاحت فجأة :

— ولكن كل هذه التفاصيل الغربية في الصحيفة الانكليزية ! ما هو مغزاها ؟ أعتقد أنها صحيحة ، أليس كذلك ؟ ولكن أليس رهيباً أن يعتقل أخي المسكين وهو يتجول وحيداً ، كأنما في يأس ، في الشوارع ليلاً . . .

كنا نقف قرييين جداً واحداً الآخر في الغرفة الصغيرة المعتمة حتى أنني رأيتها تعرض شفتها السفلى لتكبح نشيجاً دون دموع . وبعد وقفة قصيرة قالت :

— لقد قلت لأمي انه قد ربما تعرض للخيانة من صديق مزيف أو ربما من قبل أي مخاوق جبان . ربما يكون أسهل عليها تصديق ذلك . سلمت معها بأنه سيكون أسهل ، وأنا أتعجب داخلياً من صراحة ورقة نظرة هذه الفتاة . كانت تتعامل مع الحياة كما صنعت لها من خلال الشروط السياسية لبلدها . كانت تواجه حقائق قاسية ، ليس تخيلات مريضة من صنعها بالذات . لم أستطع مغالبة شعور معين بالاحترام حين أضافت ببساطة :

— يقولون ان الزمن يخون كل انواع المرارة . ولكني لا أعتقد أن له أية سلطة على الندم . أعتقد أنه من الأفضل أن تظن أمي أن شخصاً ما هو المذنب في موت فيكتور على أن تربطه بضعف في ابنها أو عيب فيها .

شرعت في القول :

— ولكنك ، أنت بالذات ، لا تفترضين أن . . .

ضغطت شفيتها وهزت رأسها . لم تكن تضمّر أية أفكار شريرة
ضد أحد ، هذا ما صرحت به . . . وربما لا شيء مما حدث كان غير
ضروري . وهذه الكلمات التي نطقت بخفية وبإهجة توحى بالغموض
ضمن نصف العتمة السائد في الغرفة الجانبية ، افترقنا بمصافحة بالأيدي
معبّرة ودافئة . كانت لقبضة يدها القوية الجميلة صراحة مغوية ، نوع من
القوة الفائقة . لا أعرف سبب شعورها الودّي جداً تجاهي . ربما ظننت
أني أفهمها أكثر من قدرتي على ذلك . كانت أكثر أقوالها دقة تبدو لي
دائماً وكأنها فيها اطالات ملغزة تتلاشى في مكان ما أبعد من متناولي .
وقد أكرهت على الافتراض بأنها كانت تثنى اهتمامي وصمتي . ان
الاهتمام الذي كانت قادرة على رؤيته كان صادقاً ، ولذا فانه ما كان
ممكناً الشك في الصمت على أنه برودة . يبدو أنه كان يرضيها . ولا بد
من ملاحظة أنها ان كانت تثق بي فقد كان ذلك ليس بأمل كسب النصيحة
- وهو أمر واضح - فهي لم تطلبها أبداً .

. . .

- ثانياً -

لقد حدث أن انقطعت علاقاتنا اليومية في تلك الفترة لمدة أسبوعين تقريباً ، فقد اضطررت إلى أن أنغيب عن جنيف لسبب لم يكن متوقفاً .
والمدى عودتي توجهت بأسرع ما أستطعت إلى « شارع الفلاسفة » .
عبر الباب المتوح لغرفة الاستقبال انزعجت اذ سمعت زائراً
يلقي بصوت عميق مداهن خطبة متواصلة .

كانت كنبه السيدة هالدين قوب الناقله فارغة . وعلى الأريكة
كانت ناتالي هالدين ترفع عينيها الرماديتين الفاتمتين بنظرة عجيبة مرفقة
بما لا يمكن أن يكون سوى شبح ابتسامة ترحيب . ولكنها لم تتحرك .
وبيديها البيضاوين القويتين القابعتين مقلوبتين في حجر ثوب الحداد كانت
تواجه رجلاً كان يدير إليّ ظهراً قوياً مغطى بجوخ أسود ينسجم مع الصوت
العميق . التفت برأسه بجدّة من فوق كتفه ، ولكن للحظة واحدة فقط .
- آه ! صديقك الانكليزي . أعرف . أعرف . لا يهم .

كان يضع نظارتين لهما زجاج مدخن ، وكانت قبعة حريرية
عالية قابعة على الأرض قرب كرسيه . لوح بخفة بيد كبيرة ناعمة
واستأنف حديثاً مسرعاً إلقاءه قليلاً .

- لم أغير أبداً القناعة التي كنت أحملها وأنا أتجوّل في غابات
ومستنقعات سيبيريا . لقد غذّني بأسباب الحياة آنذاك . . . ولا تزال .

ان القوى العظمى في أوربا محتّم عليها أن تختفي . . . وسبب انهيارها سيكون بسيطاً جداً . ستتهك أنفسها في صراع مع طبقتها البروليمارية . أما في روسيا فالأمر مختلف . في روسيا ليس لدينا طبقات تقصّارم فيما بينها ، تملك احداها سلطة الغنى والأخرى قوة التعداد والكثرة . كل ما لدينا هو بيروقراطية غير نظيفة في مواجهة شعب عظيم وغير قابل للفساد شأنه شأن المحيط . لا ، ليس لدينا أي طبقات ولكن لدينا المرأة الروسية . المرأة الروسية المثيرة للاعجاب ! أنلتقى رسائل رائعة جداً موقّعة من نساء . وهي رفيعة جداً في لهجتها ، جريئة جداً وذات حرارة نيبية جداً ، معبّرة عن رغبة في تقديم الخدمات . ان أكبر جزء من آمالنا يكمن في النساء . الألاحظ تعطّشهنّ للمعرفة . شيء مثير للاعجاب . أنظر كيف يستوعبونها وكيف يجعلنها شيئاً يخصّهنّ . هذا معجز واكن ما هي المعرفة ؟ . . . أفهم أنك لا تدرسين شيئاً خاصاً . . . الطلب مثلاً . لا ؟ هذا صحيح . لو أبيع الشرف وسئلت أن أقدم لك النصيح حول كيفية قضاء وقتك حين وصلت إلى هنا لعارضت بشدة دورة المطالعة تلك . المعرفة بحدّ ذاتها مجرد نفاية .

كان له واحد من تلك الوجوه الروسية الماتحة التي لا شكل لها ، مجرد مظهر من اللحم والشعر دون ملمح واحد ذي خصوصية . كانت عيناه مخفيتين خلف نظارتين داكنتين وبانقالي لم يكن هناك أي تعبير اطلاقاً . كنت أعرفه بالمشاهدة فحسب . كان لاجئاً روسياً شهيراً تعرف ، جنيف كلها شخصه الضخم في المعطف الأسود . وفي وقت من الأوقات كانت أوربا كلها على معرفة بقصة حياته التي كتبها بنفسه وترجمت إلى سبع لغات أو أكثر . في شبابه عاش حياة الدعة والفجور ، ثم

ماتت فتاة مجتمع كان على وشك الزواج بها فجأة فهاجر عالم الطبقات الاجتماعية العليا وبدأ يتآمر بروح انتقامية ، وبعد ذلك اهتمت السلطة الفردية في بلده به وتلقى المعاملة المعتادة في مثل هذه الحالات . اُمد سجن في قلعة وضرب حتى كاد يفارق الحياة ثم حكم عليه بالعمل في المناجم مع المجرمين العاديين . ولكن النجاح العظيم الذي لاقاه كتابه كان يعود إلى أية حال إلى القيود .

لا أتذكر الآن تفاصيل وزن وطول القيود التي كانت مثبتة إلى أعضائه بأمر « إداري » ، ولكن الوزن وسماكة السلاسل كانا يؤكدان على نحو مفرغ الحق المقدس للسلطة الاستبدادية . أمر منزع وبلا طائل أيضاً . لأنّ هذا الرجل الضخم استطاع أن يحمل تلك الآلة الحكومية البسيطة إلى الغابات . ان صلصلة هذه القيود تسمع خلال هذه الفصول التي تصف هربه . . . وقد كان هذا موضوعاً أثار العجب في قارتين . لقد بدأ يخزي نفسه بنجاح بعيداً عن الخضراء في حفرة على ضفة نهر . كان النهار قد انتهى ، وبجهد لامتناه استطاع أن يحرر إحدى ساقيه . وخلال ذلك هبط الليل . كان سيبدأ بتحرير ساقه الأخرى حين حلّ به كرب عظيم . لقد أسقط المبرد .

كل هذا دقيق انما رمزي ؛ وكان للمبرد حكايته التي تثير الشفقة . لقد أعطي له دون توقع في إحدى الأمسيات من قبل فتاة هادئة شاحبة الوجه . كانت هذه المخلوقة المسكينة قد خرجت إلى المناجم لتنضمّ إلى أحد رفاقه من المحكومين ، وهو شاب رقيق يعمل ميكانيكياً وينتمي إلى الديمقراطيين الاجتماعيين ، وكانت له وجنتان عريضتان وعينان واسعتان محدقتان . لقد شقت طيقها عبر نصف روسيا وسيبيريا

كلها تقريباً على أمل مساعدته على الهروب . ولكنها وصلت متأخرة
فقد كان حبيبها قد مات قبل ذلك بأسبوع واحد فقط .

عبر هذه الحادثة المغمورة ، كما يصفها ، في تاريخ الأفكار في
روسيا ، فان المبرد وصل إلى يديه وألمه بتصميم حماسي على استعادة
حريته . وحين انزلق من بين أصابعه ، اختفى المبرد كأنما ابتلعته الأرض . لم
يستطيع بأية وسيلة أن يجده في الظلام . راح يتلمّس بخأعنه بطريقة منظمة في
التربة اللينة ، في الطين ، في الماء ؛ وكان الليل قد أوشك على الانقضاء ،
الليل الثمين الذي كان يعتمد عليه لتوغّل في الغابات ، فرصته الوحيدة
للهرب . وللحظة واحدة أعراه اليأس بالاستسلام ، ولكنه حين تذكر
الوجه الحزين الهادى للثقة البطلة ، أحسّ بالهجل العميق من ضعفه .
لقد اختارته لتمهيد هدية الحرية ، وعليه أن يبرهن على أنه يستحق هذه
المنة التي جادت بها روحها الأنثوية التي لا تقهر . بدت تلك الثقة
مقدّسة . وأن ينجونها كان أشبه بخيانة لقداسة التضحية بالنفس والمحبة
الأنثوي .

في كتابة صفحات كاملة من التحليل الذاتي التي تبرز منها القناعة
بتنوّق المرأة الروحي كما قد يبرز جسم أبيض من خضم بحر داكن
مضطرب . . . ومنذ ذلك الحين استغرقت قناعاته الجديدة مجلّدات عدة .
كان أول عربون وفاء قدمه لقاء ذلك هو ذلك العمل العظيم : أي اعتناقه
للمذهب الحديد ووجوده الاستثنائي في الغابات اللامتناهية لمقاطعة
« أوخوتسك » ، والطرف الفات من القيد ملفوف حول خصره :
لقد مزق قطعة من قميص السجن وربط هذا الطرف على نحو ثابت :
كما كانت حرق أخرى يربطها بين الحين والآخر فوق ساقه اليسرى

حتى يكتم صوت الصلصلة وليمنع الحلقات المتدلية من أن تعلق في الشجيرات . أصبح شديد القسوة . وقد نمت اديه عبقرية لا شك فيها في فنون الوجود البري المطارد . لقد تعلم أن يزحف إلى القرى دون أن ينكشف وجوده ودون أن يسبب أي ضجيج خلجلاجلة صغيرة أحياناً . كان يقتحم المباني الجانبية بفأس استطاع سرقتها من معسكر للحطابين . وفي الأصقاع المهجورة من الريف كان يعيش على الثوت البري ويبحث عن العسل ، لقد تساقطت عنه ملابسه بالتمديج . كان جسمه العاري المنوع والذي يحدق بغموض عبر الشجيرات وغمامة من البعوض والذباب محوّة فوق رأسه الأشعث ، قد سبب في انتشار حكايات رعب عبر مناطق بأكملها . لقد أصبح مزاجه وحشياً مع مرور الأيام وكان سعيداً باكتشاف كل تلك الوحشية في نفسه . لم يعد لديه ما يضع ثقته فيه ، فقد كان الأمر أشبه بوجود كائنين بشريين معقدين لا ينفصلان ، الانسان المتملن ، المتحمس للمثاليات الانسانية المتقدمة ، المتعطش لانحصار الحب الروحي والحرية السياسية ؛ والمتوحش البدائي المخفلس ، الخدّاع على نحو لا شفقة فيه من أجل الحفاظ على حرمة من يوم إلى يوم ، كوحش طريد .

كان الوحش يتهجه غريزياً نحو الشرق باتجاه المحيط الهادىء ، والانسان المتملن يراقب ما يجري برعب وباتكال قلق مخيف على الآخر . وخلال هذه الأسابيع كلها لم يستطع أن يصمم على الاحتكام إلى العاطفة الانسانية . في الوحش البدائي الخلد قد يكون هذا الخجل طبيعياً ، ولكن الآخر أيضاً ، المخلوق المتحضّر ، المتفكّر ، «السهجين السياسي» الهارب ، قد طور شكلاً غريباً من التشاؤمية ، شكلاً من الجنون المؤقت ، الناشئ

ربما عن الارهاق الجسدي وازعاج سلسلة القيود له . هذه القيود ، كما كان يتخيل ، جعلته بغياً في نظر بقية البشر . كانت حملاً كريهاً وموحياً . ما كان أي شخص قادراً على الشعور بالشفقة تجاه المرأى المثير للاشمئزاز لرجل هارب بقيد مكسور . لقد تأثرت محيائه بقيوده على نحو واقعي دقيق . بدا له مستحيلاً أن يقاوم الناس لإغراء ربط الطرف الغالت إلى رزة في جدار والانطلاق إلى أقرب شرطي . لقد حاول عن طريق الاختباء في الخضر أو الأدغال أن يقرأ وجوه المستوطنين الأحرار غير المدركين لوجوده وهم في أراضٍ مقطوعة الشجر أو سائرين على امتداد المرات على مبعدة قدم واحدة أو اثنتين من عينيه . وكان احساسه هو أنه لا يوجد شخص على الأرض يمكن ألا تغويه القيود .

وفي أحد الأيام حدث أن مرّ بامرأة وحيدة . كان ذلك على منحدر مفتوح من العشب القاسي خارج الغابة . كانت جالسة على ضفة جدول ضيق وتضع منديلاً أحمر على رأسها ، وسلّة صغيرة على الأرض قرب يدها . على مسافة صغيرة كانت هناك مجموعة من الأكواخ المصنوعة من جذوع الأشجار من طاحونة مائية تشرف على بركة مسورة تظللها أشجار البيتولا وتبدو لامعة كزجاج تحت نور الغسق . اقترب منها ببطء وفأسه مدسوس في حزامه الحليدي ، وهاوة ثمينة في يده . كان في شعره المتشابك ولحيته المتلبدة أوراق شجر وتقطع صغيرة من الأغصان ، وقد ربط خرقاً حول السلسلة النازلة من خصره . جاهدت قيوده قليلاً مما جعل المرأة تلتفت برأسها . أصيبت بالحرف لمشاهدتها هذا الشبح المتوحش وإلى حد أنها لم تستطع أن تقفز أو حتى أن تصرخ ، ولكنها كانت شهجاعة أيضاً إلى حد أنه لم يغم عليها . . . وقد غطت يديها بيديها

متوقعة أن تمقل في مكانها على أقله . وذلك لتمعجب مشاهدة الناس
النازلة عليها. وحين وجدت الشجاعة أنييراً أنظر مرة أخرى، رأيت الرجل
المتوحش الأشعث جالساً على الضئفة على بعد ستة أقدام منها . كانت
ذراعاه ، النخيلتان القويتان تعانقان ساقيه العاريتين واللحية الطويلة
تغطي الركبتين اللتين كانت ذقنه تستريح عليهما . كانت كل هذه
الأعضاء المتشابكة المطوية ، والكتنن العاريتان والرأس المتوحش ذو
العينين الحمر اوين المحلقتين ، تهتز وترتجف بعنف بينما المخلوق الوحشي
يبذل جهداً ليتكلم . كانت قد مرت ستة أسابيع منذ أن سمع صوته لآخر
مرة . بدا وكأنه فقد القدرة على النطق . لقد أصبح وحشاً أبكم يائساً ،
حتى أعادته الصرخة غير المتوقعة والمفاجئة التي أطلقتها المرأة عن شففة
عميقة ، اذ اكتشفت بصيرة عطفها الأنثوي البؤس المركب لهذا الانسان
تحت المظهر المرعب اوحش ، أعادته إلى صنوف الانسانية . وجهة النظر
هذه مذكورة في كتابه وبخطابية مؤثرة . ويقول ان هذه المرأة ذرفت
الدموع عليه ، دموعاً خائفة مخلصّة ، بينما بكى هو أيضاً من الفرح ،
وبأسلوب شخص آثم عاد إلى الايمان . ثم طلبت منه ان يخطني بين الأدغال
والانتظار بصبر (كان يتوقع وصول دورية للشرطة إلى المستوطنة) ،
وذهبت نحو البيوت واعدة اياه بالعودة ليلاً .

وكانما بلعبة من لعبات القدر كانت هذه المرأة زوجة حداد القرية
وهما متزوجان منذ وقت قريب . وقد أقنعت المرأة زوجها أن يخرج
معها حاملاً بعض أدوات مهنته من مطرقة وازميل وسندان صغير . . .
يقول الكاتب : « كسرت قيودي على ضئاف الجدول في نور نجوم
ليلة هادئة من قبل شاب رياضي البنية سسكوت ، ركع عند قدمي بينما

كانت المرأة كروح محرّرة تنقف على مقربة يديين متشابكتين . من الواضح أنهما زوجان رمزيان . وفي الوقت نفسه زودا انسانيته المستعادة ببعض الملابس الحثثمة ، وأعادا الروح إلى الرجل الجديد بالمعلومات التي مفادها أن شاطئ المحيط الهادئ لم يكن يبعد عن القرية أكثر من أميال قليلة جداً . كان من الممكن مشاهدته في الواقع من قمة التل التالي .

أما بقية حكاية هروبه فلم يعالجها بتلك الطريقة الغامضة والتفسير الرمزي . وقد أنهاها بأنه وجد طريقه إلى غرب أوربا عن طريق قناة السويس بالأسلوب العادي . وحين وصل إلى شواطئ أوربا الجنوبية جاس ليكتب سيرة حياته . . . وقد حققت نجاحاً أدبياً كبيراً في ذلك العام . وقد تبع هذا الكتاب كتب أخرى ألفها بهدف واحد صريح هو سمو بالانسانية . وقد نادى في هذه الكتب بمذهب عبادة النساء . وقد كان هو يمارسه وفق طقوس التنائي في حب المزايا الفائقة لسيده تدعى « نانا دو . . . » ، وهي سيده ذات آراء متقدمة ، لم تعد بالشابة الآن ، وإن كانت مرة الزوجة الآسرة له بلوماسي مات ونُسي منذ زمن بعيد . كانت المتجىء ، بادعاءاتها الصارخة بأنّها واحدة من قادة الفكر المعاصر والرأي المعاصر (كما فواتير ومدمام دو شتال) إلى أراضي جنيف الجمهورية وكانت إذ تسير بعربتها عبر الشوارع في عربتها الكبيرة تعرض أمام لا أكثرا المواطنين الأصليين وتحديات السواح جسداً شاباً ذا خصر طويل وتبيس كهنوتي وعينين واسعتين لامعتين ، تتقلبان بقلق خلف حجاب قصير من القماش الأسود المخرم لا يتزل أبعد من شفيتها الحمراء واللامعتين ، ويكاد يكون قناعاً . وفي العادة فان « اللاجيء البطل » (أضفي هذا اللقب في مراجعة للطبعة الانكليزية من

كتابه) . . . كان يرافقها ، جالساً بلحيته الهائلة ونظارتيه السوداوين ، ليس إلى جانبها ، بل مقابلها ، وظهره إلى الحصانين . وهكذا ، كانا يجلسان وجهاً لوجه ، وحيدين في تلك العربة الكبيرة ، فتبدو نزاهتهما نوعاً من الاستعراض العلني . أو ربما كان ذلك دون قصد . غالباً ما تسير البساطة الروسية ببراعة على حافة السخرية لسبب نبيل ، ولكنه اذ ما حاولت أوربا ربيعة الثقافة أن تفهم هذه الأفعال فيكون أمراً عقيماً . وإذا ما أخذنا في الاعتبار جو الحدية المنتشر حتى إلى وجه الحوذي وطريقة سير الحصانين الرائعين ، فإنه قد يكون لهذا الاستعراض الغريب أهمية طقوسية سرية ، ولكنه كان يبدو للعقل الغربي ذى الطبع اللاهي المفسد - كعقلي - أمراً قليل الاحتشام .

وعلى أية حال فإنه ليس لائقاً بمعلم مغمور للغات أن ينتقد « اللاجيء البطل » ذا الشهرة العالمية . لقد كنت مدركاً من الاشاعات أنه كان فضواياً مجداً يلاحق مواطنيه في الننادق والمساكن الخاصة ويمنحهم - كما قيل لي - شرف اهتمامه وذلك في الحدائق العامة حين تتاح له الفرصة الملائمة . لقد كان لدي انطباع بأنه بعد زيارة أو اثنتين قام بهما لسيادة هالدين وابنتها ، قبل شهور عدة ، فقد تخلت عن زيارتهما - بردد دون شك - اذ يبدو أنه شخص ذو تصميم على أية حال . لقد كان متوقفاً ، على الأرجح ، أنه سيعاود الزيارة في مثل هذه المناسبة الرهيبة ، كروسي وكثري ، وذلك ليقول الشيء الصحيح ، أن يضرب على الوتر الحقيقي الذي فيه السلوان . ولكنني انزعجت من رؤيته جالساً هناك . وأعتقد أن تلك غير لائقة لا علاقة لرضعي المتميز بها . لم أكن أطلب بأي شيء خاص لقاء صداقتي الصامتة . وكوني

قد عزلت بسبب الاختلاف في العمر والجنسية إلى عالم ذي وجود آخر ،
فقد تصرفت على نحو ترك تأثيراً - حتى على نفسي - أشبه بتأثير شبح
أبكم عاجز أو شيء قلق لا مادي لا يستطيع سوى أن يخلتق في المكان
دون أن يتمتع بانقدرة على الحماية أو التوجيه بأكثر من همسة . وبما أن
الآنسة هالدين بغريزتها الصادقة قد امتنعت عن تقديمي إلى الرجل الشهير
ضخم الجثة ، فقد كان يمكنني الانسحاب والعودة لاحقاً ، لولا أنني
رأيت ذلك التعبير العجيب في عينيها والذي فسّرتة على أنه دعوة إلى
البقاء على أمل تقصير أمد الزيارة غير المرحب بها .

التقط قبعته من على الأرض ولكن ليضعها فوق ركبتيه .

- سنتقابل مرة أخرى ياناتاليا فيكتوروفنا . لقد زرتك اليوم
لأعبر تلك المشاعر تجاه أمك المحترمة وتجاهك أنت والتي لا يمكنك
الشك في نوعيتها . لم أكن في حاجة إلى أي شخص يدعني إلى ذلك ،
ولكن « لاينور » - « المدام دو . . . » - قد أرسلتني شخصياً بطريقة
ما . انها تمدّ إليك يد الزمالة الأنثوية . ليس هناك إطلاقاً ضمن مجال
العراطف الانسانية أي فرح أو ترح لا يمكن لتلك المرأة أن تفهمه وتسمو
به وتمنحه معنى روحياً من لديها . ذلك الشاب الذي وصل مؤخراً من
سانت بطرسبورغ ، والذي ذكرته لك ، قد سبق له ووقع تحت سحر
فتنتها .

وهنا نهضت الآنسة هالدين فجأة : كنت سعيداً بذلك . لم يكن يتوقع
أي شيء حاسم كهذا على ما يبدو ، وقد ألقى برأسه إلى الخلف أولاً
ثم رفع نظراتيه بفضول رقيق . وأخيراً ، استجمع نفسه ونهض بسرعة
وهو يرفع قبعته عن ركبتيه بمهارة عظيمة :

- كيف حدث يا ناتاليا فيكتوروفنا أن بقيت منعزلة طوال هذه الفترة عما هو على أية حال - ودعي الألسنة الذميمة تقول ما تريد - مركز فريد للحرية الفكرية والجهد المبذول لتشكيل مفهوم سام عن مستقبلنا؟ فيما يخص أمارك المحترمة أستطيع أن أفهم موقعها إلى حد ما ، ففي مثل سنها تكون الأفكار الجديدة . . . الوجوه الجديدة ربما . . . أما أنت ! هل كان ذلك ارتياباً أو لا أكثرات ؟ عليك أن تتخذي من تحفظك : لا يحق لنا نحن الروس أن نكون متحفظين واحداً تجاه الآخر . في مثل ظروفنا يعتبر هذا جريمة ضد الإنسانية تقريباً . ان ترف الحزن للخصوصي ليس ترفنا . في هذه الأيام لا يُحارب الشيطان بالصاوات والصوم . وما هو الصوم على أية حال سوى التجويع ؟ عليك ألا تجوعي نفسك يا ناتاليا فيكتوروفنا . القوة هي ما نحتاج إليه . أعني القوة الروحية : أما بالنسبة إلى النوع الآخر ، فما الذي سيصدنا نحن الروس لو استعملناها ؟ الخطيئة مختلفة في أيامنا هذه ، وطريق الخلاص للأرواح النقية مختلفة أيضاً . ما عاد ممكناً إيجادها في الأديرة بل في العالم ، في الآ...

بدا الصوت العميق وكأنه يخرج من تحت الأرض ، بل أن المرء ليشعر أنه منغمس فيه حتى الشفتين . كانت مقاطعة الأنسة هالدين له تشبه محاولة الشخص الغارق البقاء فوق الماء . لقد فعات ذلك نافذة الصبر :

- ولكن يا بيتر ايتمانوفيتش : لا أنوي اللجوء إلى الدير ، من سيبحث عن خلاصه هناك ؟

قال بصوت داو :

— كنت أتحدث مجازياً .

— حسناً اذن ، وأنا أتحدث مجازياً أيضاً . ولكن الحزن حزن والألم ألم بالأسلوب القديم نفسه . انهما يأخذان حقيهما من الناس . وعلى المرء أن يواجههما بأفضل ما يستطيع . أعرف أن الضربة التي حطت بنا دون توقع مجرد حادثة في مصير شعب . ويمكنك أن تكون واثقاً من أنني ان أنسى ذلك . ولكن عليّ الآن أن أفكر بأمي . كيف تتوقع مني أن أتركها لوحدها . . . ؟

أقال، محتجاً بصوته القوي :

— هذا تبسيط شديد للأمر .

لم تنتظر الآنسة هالدين موت اهتزازات صوته :

— وأن أذهب لزيارة البيوت بين أناس غرباء لا أعرفهم .

الفكرة لا تعجبني ولا أعرف ما يمكن أن تعنيه أنت أيضاً من هذا كله ؟

نهض فارتفع فوقها ، ضحكاً ، مراعيّاً لرغبتها ، حنيق الرأس كمنحكوم ، وقد أوحى إليّ رأسه الكبيرة الوردية برؤيا رأس وحشية ذات خصل ملبّدة تحدّق من خلال أغصان شجيرات مباحدة ، ولمحات من أعضاء عارية مقلّعة تنسلّ نخاسة خلف أكوام من أوراق أشجار مبلّة وغمامة من الذباب والبعوض . كانت تلك ضريبة غير طوعية لحيوية كتابته . لم يكن في مقدور أحد أن يشكّ في أنه تجوّل في غابات سيبيريا عارياً ومطوّقاً بسلسلة حديدية بدلاً عن الخزام . كان معطف الجيوخ الأسود يضيفني على شخصه مظهر الاحتشام المترمّت . . . انه يذكرني بالمبشرين .

قال برزانة :

— هل تعرفين ما أريد يا ناتاليا فيكتوروفنا ؟ أريدك أن تكوني متعصبة .

— متعصبة ؟

— أجل ، الايمان وحده لا يكفي .

هبط صوته إلى درجة أخفض . رفع ذراعه الغايظة للحظة بينما بقيت الأخرى معاتقة على فخذيه وفي نهايتها قبعة الحرير المشتة .

— سأقول لك شيئاً أرجو منك أن تفكري فيه جيداً . اسمعي ، نحن في حاجة إلى قوة من شأنها أن تهزّ السماء والأرض . . . لا أقلّ من ذلك .

كانت لهجته عميقة تحت أرضية حين قال : « لا أقلّ من ذلك . » حتى لتجعل المرء يرتجف ، اذ بدت تقريباً كهجمات الريح في أنابيب الأرغن .

— وهل ستجد تلك القوة في صالون « المدام دو س . . . » ؟ اعذرني يا بيتر ايفانوفيتش ، ان كنت أسمح لنفسني أن أشك في ذلك . أليست « المدام دو س . . . » امرأة العالم الفخم ، ارستقراطية ؟

صاح :

— التحامل ! أنت تدهشينني . وافترضي أنها كذلك ! هي أيضاً امرأة من لحم ودم . هناك دائماً شيء ما يرهق الجانب الروحيّ فينا كأننا . ولكن أن نحوله إلى تقريع هو ما لم أتوقعه منك . لا ! لم أكن أتوقع ذلك . قد يعتقد المرء أنك كنت تستمعين إلى غبية حاقدة .

— لم أسمع أية اشاعات ، وأؤكد لك ذلك . وكيف سأسمع مثل

ذلك في مقاطعتنا في روسيا؟ ولكن العالم يتحدث عنها . ما الذي يمكن أن يكون مشتركاً بين ذلك النوع من النساء وفتاة ريفية مغمورة مثلي !
- انها تسجيلٌ دائمٌ لروح نبيلة لا مثيل لها . فتنتها . . . لا ، لن نحدث عن فتنتها . ولكن كل شخص يقرب منها يقع تحت سحرها . . . التناقضات تختفي . . . وينسى المرء مشاكله . . . هذا ما لم أكن مخطئاً . . . ولكن المرء لا يخطيء في القضايا الروحية . . . أنت قائمة الروح يا ناتاليا فيكتوروفنا .

نظرت عينا الآنسة هالدين الصافيتان مباشرة إلى وجهه اضمخم الرخو . وقد تلقيت انطباعاً بأنه وراء هانين النظارتين المعتمتين يمكنه أن يكون وقحاً بقدر ما يريد .

- منذ أيام كنا نسير مساء إلى المدينة من « قصر بوريل » مع آخر روسيٍ مثير للاهتمام وصل من بطرسبورغ ، فلاحظت التأثير المذهل القوي . . . يمكنني أن أقول التأثير التوفيقية . . . لقد كان هناك ، كل تلك الكياومترات على امتداد شواطئ البحيرة ، صامتاً ، كرجل تكشفت له طريق السلام . استطعت أن أشعر بالخميرة الناشئة في روحه تفهميني . لقد أصغى إليّ بصبر . لقد ألهمت أنا شخصياً ذلك المساء بالعبرية الراسخة والفاتنة لإلينور - أعني « المدام دو . . . » - كما تعلمين . كان القمر بدرأً و كنت قادراً على مراقبة وجهه . لا يمكن أن أنخدع . . .

بدأت الآنسة هالدين كالمترددة وهي تنظر إلى الأرض .

- حسناً ! سأفكر بما قلت يا بيتر ايفانوفيتش . سأحاول أن أزورها حالما أستطيع أن أترك أمي ساعة أو ساعتين على نحو مضمون .

ورغم أن هذه الكلمات قيات ببرود إلاّ أني دهشت من تنازلها .
اختطف يدها اليمنى بحرارة ظننت معها أنه سيأثمها أو يضمّها إلى صدره .
ولكنه أمسك بها بين أناماه فحسب ، وذلك بيده الضخمة وهزّها قايلاً
إلى الأعلى ثم الأسفل وهو يوجّه آخر وأبل من الكلمات :

— حسن ، حسن : لم أكسب ثقتك الكامة بعد يا ناتاليا فيكتوروفنا ،
ولكن ذلك قادم : كل شيء سيأتي في أوانه . ان أخت فيكتور هالدين
لا يمكن أن تكون غير ذات شأن . . . هذا مستحيل تماماً . ولا يمكن
لأية امرأة أن تبقى جالسة على الدرج . الزهور والدموع والاستحسان . . .
كان لهذا الأمور أوانها سابقاً : كان ذلك مفهوماً « قروسطياً » . الحابة ،
الحلبة نفسها هي مكان المرأة !

تخاطبي عن يدها متألقاً وكأنه يعطيها اياها كهدية ، وبقي ساكناً ،
ورأسه محنياً في خضوع وقور أمام أنوثتها .

— الحلبة . . . عليك أن تنزلي إلى الحلبة يا ناتاليا .

خطا خطوة واحدة نحو الخلف ، وانحنى بجسده الضخم ورحل
بسرعة . انصفق الباب من خلفه ، ولكن سرعان ما سمعنا رنين صوته في
الحجرة الصغيرة الماحقة بغرفة الاستقبال وهو يخاطب الخادم متوسطة
العمر التي كانت تقوده إلى الخارج . ولا أعلم ان كان قد حضّتها هي
أيضاً على النزول إلى الحابة أم لا . لقد بدا الأمر كمحاضرة ، وقد
قطعها فجأة صوت الباب الخارجي وهو ينصفق .

* * *

- ثالثاً -

بقينا ننظر واحدنا إلى الآخر لفترة من الوقت .

- هل تعرف من هو ؟

هكذا سألتني هالدين بالانكايزية وهي تتقدم نحوي .

أخذت يدها التي عرضتها عليّ .

- الكلّ يعرفه . هو مناد ثوري بالمساواة بين المرأة والرجل ،

وكاتب كبير اذا أحببت و . . . كيف أقولها . . . الضيف المألوف في

الصالون الثوري السري لـ « المدام دو . . . » .

مررت الآنسة هالدين يدها فوق جبينها .

- أتعرف ؟ لقد كان معي منذ أكثر من ساعة قبل مجيئك . وقد

كنت سعيدة أن أمي كانت تستريح . لقد قضت ليالي عدة دون نوم ،

وأحياناً تستريح خلال النهار ساعات عدة . إنه انماك كامل . . . ولكنني

سعيدة بذلك . . . ولولا فترات الراحة هذه . . .

نظرت إليّ وهزت رأسها بتناك القدرة الاستثنائية على الفهم التي

كان من عادتها أن تربكني .

- لا ، لن تُجنّ .

- يا سيدتي الشابة العزيزة . . .

هكذا صرخت محتججاً وقد صدمت على نحو أشدّ لأنني كنت في قلبي
أبعد ما أكون عن الظنّ في أن السيدة هالدين متملّكة تماماً لقواها العقابية.
استأنفت ناتالي هالدين ببساطتها الهادئة الصافية والتي بدت لها على أنها
تتميّز بالبطولة :

— أنت لا تعرف أي ذكاء رائع وجليّ كانت تتمتّع به أمي .

همهتُ :

— أنا واثق . . .

— لقد عتّمت لها غرفتها وخرجت إلى هنا . كنت أريد منذ زمن
بعيد أن أفكّر بهدوء .

توقفت عن الكلام ، ثم أضافت دون أن يظهر عاينها أية أمارّة من
أمارات الحزن :

— هذا صعب جداً .

ثم نظرت إليّ بثبات غريب وكأنها تراقب ظهور أية إشارة تدلّ
على المعارضة أو الدهشة .

ولكنني لم أبدأ أية إشارة تدلّ على أيهما . وقد اضطررت إلى أن أقول
على نحو لا يقاوم :

— أخشى أن زيارة ذلك السيد قد جعلت الأمر أشدّ صعوبة .

وقفت الآنسة هالدين أمامي بذلك التعبير العجيب في عينيها :

— لا أدعي أنني أفهم بيتر ايفانوفيتش تماماً . لا بدّ للمرء من دليل
حتى لو لم يستسلم لتوجيهاته نهائياً . أنا فتاة قليلة الخبرة ولكنني لا أحبّ
العبودية . هناك الكثير منها في روسيا . لماذا لا أصغني إليه ؟ ليس هناك

أي ضرر في أن يتمّ توجيه أفكار المرء . ولكن لا بأس ان اعترفت لك
بأنّي لم أكن صريحة تماماً مع بيتر ايفانوفيتش . لا أعرف تماماً ما الذي
منعني في تلك اللحظة .

سارت مبتعدة فجأة نحو جزء بعيد من الغرفة ، ولكن حتى تفتح
وتغلق درجاً في مكتب . عادت مع قطعة من الورق في يدها . كانت
رقيقة وقد كتب عليها بخط متلاصق فهدت سوداء . كانت تلك رسالة ،
وكان ذلك أمراً واضحاً .

قالت :

– لقد أردت أن أقرأ لك الكلمات ذاتها : هذه واحدة من رسائل
أخي المسكين . لم تكن لديه شكوك أبداً . وكيف كان سيشاك ؟ أنهم
عبارة عن حفنة صغيرة ، أولئك الظالمون البائسون مقابل الإرادة الموحدّة
لشعبنا :

– هل كان أخوك مؤمناً بقدرة ارادة الشعب على تحقيق أي شيء ؟

صرحت الآنسة هالدين :

– كان ذلك هو دينه .

نظرت إلى وجهها الهادى وعينيها المغممتين بالحيوية .

استأنفت قائلة :

– طبعاً لا بدّ أن يتم ايقاظ والهام وتركيز هذه الارادة : هذه هي
مهمة المحرّضين الحقيقيين . على المرء أن يضحّي بحياته من أجلها . يجب
ازالة واجتثاث ذلّ العبودية والأكاذيب الاستبدادية : الاصلاح مستحيل .
لا شيء هناك للاصلاح . ليست هناك مشروعية ولا مؤسسات . هناك

القوانين الاستبدادية فحسب . هناك مجرد حفنة من الموظفين القساة
- وربما العميان - ضد أمة بكاملها :

خشخشت الورقة قليلاً في يدها . نظرت إلى الصفحات المسودة
الرقيقة التي بدا خط اليد فيها من النوع التأمري غير المفهوم بالنسبة إلى
مجرية أوروبا الغربية .
قلت معترفاً :

- تبدو المسألة كما أوردتها بسيطة جداً . ولكنني أخشى أنه لن
يتاح لي أن أراها وقد حلت . ولو عدت إلى روسيا فأنا أعرف أنني لن
أراك ثانية . ومع ذلك فإني أقول مرة أخرى : عودي ! لا تفترضي أنني
أفكر بالمحافظة عليك . لا ! أعرف أنك لن تعودتي إلى هناك وتكون
سلامتك الشخصية في مأمن ، ولكنني أفضل أن أفكر فيك وأنت في حالة
الخطر هناك على أن أراك معرضة ، إلى هذا الحد ، إلى ما أنت معرضة
له هنا .

قالت الآنسة هالدين بعد لحظة تأمل :

- سأقول لك ما هو رأيي . أعتقد أنك تكره الثورة ، أنت تتخيل
أنها ليست مسألة شريفة تماماً . أنت تنتمي إلى شعب قايض القدر ولا
يريد أن يكون فظاً معه . ولكننا لم نقم بأية مقايضة . لم يُعرض علينا
ذلك . . . الكثير من الحرية مقابل الكثير من العملة مستقرة القيمة . أنت
تشمئز من فكرة الفعل الثوري على أنها شيء . . . كيف أقول . . . ليس
لائقاً .

طأطأت برأسي وقالت :

- أذت على حق تماماً : وأنا أقيّمك تقييماً عالياً جداً .

شرعت تقول بسرعة :

– لا نعتقد أنني لا أعرف ذلك . لقد كانت صداقتك ولا تزال
قيّمة جداً .

– لم أفعل أكثر من مجرد المراقبة .

احمرّ وجهها قليلاً تحت العينين .

– هناك طريقة للمراقبة يمكن أن تكون قيّمة جداً . لقد أحسست
بأنّي أقل وحدة بسبب ذلك . من الصعب تفسير ذلك .

– حقاً ، حسن ، لقد أحسست أنا أيضاً بأنّي أقل وحدة . وهذا
على أية حال سهل على التفسير . ولكن الأمر لن يستمرّ طويلاً . آخر
شيء أريد أن أبلغك إياه ، هو هذا : في ثورة حقيقية – ليس مجرد
تغيير بسيط في الأسرة الحاكمة أو مجرد اصلاح في المؤسسات – في ثورة
حقيقية فان أفضل الشخصيات لا تخرج إلى المقدمة . الثورة العنيفة تقع
بين أيدي المتعصبين ضيقتي الفكر والمنافقين الاستبداديين في البداية .
وبعد ذلك يأتي دور كل الفاشلين من المثقفين المدّعين . هؤلاء هم الزعماء
والقادة . ستلاحظين أنني أسقطت من الحساب الأوغاد المجردين . أما
كثيرو الوسواس والمعادلون ، النبيران ، الانسانيون وذوو الطباع
التميزة بالانحلاص : فقد يبدأ الغريون والأذكيااء بحركة ما . . . ولكنها
تفلت منهم : أنهم ليسوا قادة ثورة . هم ضحاياها : ضحايا الاشمزاز
والبحرر من الوهم . . . وغالباً الندم . الآمال تم خيانتها على نحو
عجيب ، والمثاليات تتحوّل إلى مسوخ . . . هذا هو تعريف النجاح
الثوري . في كل ثورة كانت هناك قاوب تحطّمها مثل هذه النجاحات .
ولكن يكفينا هذا ، ما أعنيه هو أنني لا أريدك أن تكوني ضحية .

احتجّت الأنسة هالدين قائلة :

— لو أستطعت أن أصدق كل ما قلته لما كنت سأفكر رغم ذلك
بنفسي : سأخذ الحرية من أية يد كما يختطف الجائع كسرة من الخبز .
على التقدّم الحقيقي أن يبدأ لاحقاً . ولذا فانه يتوجب إيجاد الأشخاص
المناسيين . انهم بيننا الآن . يقابلهم المرء في نحول ذكرهم وعلم
شهرتهم وهم يجهزون أنفسهم

فتحت الرسالة التي كانت تحتفظ بها في يدها طوال هذه الفترة ،
ثم نظرت إليها .

قالت مكررة :

— أجل ! يقابل المرء مثل هؤلاء الرجال !

ثم قرأت الكلمات التالية : « طاهر ، شامخ ووحداني . »

ثم طوت الرسالة وراحت تشرح لي ، بينما رححت أنظر إليها
بتساؤل :

— هذه هي الكلمات التي وصف أخي . بها شاباً تعرف عليه في
سانت بطرسبورغ . وأعتقد أنه صديق حميم له . لا شك في ذلك . انه
الوحيد الذي يذكر أخي اسمه في كل مراسلاته لي . الوحيد على الاطلاق
و . . . هل يمكنك أن تصدق ذلك ؟ . . . هذا الرجل هنا . لقد وصل
مؤخراً إلى جنيف .

سألته :

— هل رأيته ؟ لابد أنك رأيته بالطبع .

— لا ، لا ، لم أره . لم أكن أعرف أنه هنا . ان بيتر ايفانوفيتش

هو الذي أخبرني . لقد سمعته أنت بنفسك وهو يذكر شخصاً حديث
الوصول من بطرسبورغ . . . حسناً ، هذا هو الرجل « ذو الوجود الطاهر
الشامخ والوحداني . » صديق أخي !

قلت :

— أعتقد أنه مشبوه سياسياً .

— لا أعرف . لا بد وأن الأمر كذلك . من يدري ! ربما كانت
هذه الصداقة مع أخي بالذات هي التي . . . ولكن لا ! هذا غير ممكن
اطلاقاً . لا أعرف شيئاً بالفعل سوى أن بيتر ايفانوفيتش حكى لي عنه .
لقد جلب رسالة توصية من « الأب زوسيم » . . . أنت تعرفه . . . ذلك
القس الديقراطي . لا شك أنك سمعت بالأب زوسيم ؟

— أجل . الأب زوسيم الشهير الذي أقام في جنيف مدة شهرين
قريباً منذ حوالي العام . وحين غادر جنيف بدا وكأنه اختفى من العالم
كاه .

— يبدو أنه عاد للعمل في روسيا مرة أخرى . في مكان ما من أواسط
روسيا . ولكن أرجو ألا تذكر ذلك لأحد . . . لا تدع لسانك يزلق ،
لأنه لو وصل الأمر إلى الصحافة لكان في ذلك خطر عليه .

سألتها :

— أنت تواقّة بالطبع للقاء صديق أخيك، ذاك ، أليس كذلك ؟

وضعت الآنسة هالدين الرسالة في جيبتها . كانت عيناها تنظران إلى
ما وراء كتفي نحو باب غرفة أمها .

مهمت :

- ليس هنا . ليس للمرة الأولى على الأقل .
- وبعد لحظة صمت قات وداعاً ولكن الآنسة هالدين لحقت بي إلى
الغرفة الصغيرة الجانبية وأخاقت الباب خافنا بجنر :
- أعتقد أنك تعرف أين أنوي الذهاب غداً ؟
- لقد قررت زيارة « المدام دو س . . . » .
- أجل . سأذهب إلى « قصر بوريل » . يتوجب عليّ ذلك .
سألتها بصوت خفيض :
- ما الذي تتوقعين سماعه هناك ؟
- كنت أتساءل ان كانت تخدع نفسها بأمل مستحيل ، لم يكن الأمر
كذلك على أية حال .
- فكّر فحسب . . . مثل هذا الصديق . الشخص الوحيد المذكور
في رسائله . لا شك أن لديه شيئاً ما يعطيه إلي ، وان كان ذلك ليس أكثر
من مجرد كامات قلاية زهيدة . ربما كان ذلك شيئاً ما قاله أو فكر به في
آخر أيامه تلك . هل تريدني أن أرفض ما يخافه أخي المسكين . . . صديقه؟
قات :
- لا طبعاً . أفهم فضولك الجدير بالثناء تماماً .
هممت لنفسها :
- « ذو وجود طاهر ، شامخ ووحيداني . » ها هو ! ها هو !
حسناً ، فلأسأله عن الميت العزيز .
- كيف تعرفين اذن ان كنت ستقابليه هناك ؟ هل يقيم في
« القصر » كضيف . . . هل تعتقدين ذلك ؟

اعترفت قائلة :

— لا أعرف بالضبط . لقد جلب رسالة توصية من الأب زوسيم . . .
الذي هو صديق لـ « المدام دو س . . . » على ما يبدو . لا يمكنها أن تكون
امرأة تافهة اذن .

قالت :

— كانت هناك كل انواع الاشاعات حول الأب زوسيم نفسه .
هزت كتفيها .

— الافتراء سلاح من أسلحة حكومتنا أيضاً . هذا أمر معروف
تماماً . أجل ! انها حقيقة ان الأب زوسيم كان يتمتع بحماية الحاكم العام
لاحدى المقاطعات . لقد تحدثنا حول هذا الموضوع مع أخي منذ عامين
على ما أذكر . ولكن عمله كان طيباً . والآن هو منفي ومحروم من حماية
القانون . ما هو البرهان الأفضل الذي يمكن للمرء الحصول عليه ؟ ولكن
لا يهمني ما كان عليه هذا القسيس أو ما هو عليه الآن . كل هذا لا يؤثر
على صديق أخي . واذا لم أقابله هناك سأطلب عنوانه من هؤلاء الناس .
ويجب على أمي أن تراه هي أيضاً ، ولكن فيما بعد . لا تعرف ما يمكن
أن يحكيه لنا . وستحل عليها الرحمة لو قيل لها ما يلفت مصابها . أنت
تعرف ما تتخيله هي . ربما سيكتشف تفسير ما أو ... أو يخترع ربما .
لن يكون في ذلك أي خطيئة .

قلت :

— بالتأكيد . لن تكون تلك خطيئة ، بل غلطة مع ذلك .
— أريد منها أن تسترجع بعضاً من روحها القديمة فحسب . وبينما
هي على هذه الحال لا أستطيع أن أفكر في أي شيء بهدوء .

— هل تعين أنك ستخترعين نوعاً من الحيلة الفاضلة من أجل
أملك؟

— لماذا تسميها حيلة؟ مثل هذا الصديق يعرف لا ريب شيئاً عما
حدث لأخي في تلك الأيام الأخيرة . يمكنه أن يحكي لنا . . . هناك
شيء ما في الوقائع لن يجعلني أستريح . أنا على ثقة من أنه كان ينوي
الانضمام إلينا هنا — أن كانت لديه بعض الخطط — عمل بطولي ما يريد
انجازه ؛ ليس من أجل نفسه فحسب ، بل لكلينا . كنت أثق في ذلك .
لقد تشوفت إلى ذلك الحين ! أوه ! بكل ذلك الأمل ونفاد الصبر . . .
بكل طاقتي على التحمل . ولكنه يظهر كل ذلك الطيش والتهور . . .
كأنما لم يكن بهم . . .

بقيت صامته بعض الوقت ، ثم استأنفت بعناد :

— أريد أن أعرف . . .

حين فكرت بالموضوع ، لاحقاً ، وأنا أتمشى ببطء مبتعداً عن
« شارع الفلاسفة » سألت نفسي ناقداً ما الذي كانت تريد معرفته
بالضبط ؟ كان الذي سمعته من حكايتها كافياً لاعطائي مفتاحاً
للحل . في مؤسسة تعليم البنات حيث أنهت الآتسة هالدين دراستها لم
تكن تلقى الاستحسان ، إذ كان يُشك في أنها تحمل آراء مستقلة حول
مسائل يقرها التعليم الرسمي . وفيما بعد ، حين عادت السيدتان إلى
منزلهما الريفي ، اكتسبت الأم والبنات كلتاها ، عن طريق افشاء
آرائهما بالحوادث العامة علناً ، شهرة على أنهما ليبراليتين . كانت عربية
نقيب الشرطة ذات الجياد الثلاثة قد بدأ ترى كثيراً في قرينتهم . « علي
أن أراقب الفلاحين » . . . هكذا برّر زيارته للمنزل . « سيدتان وحيدتان .

يجب الاعتناء بهما قليلاً . « كان يفتش الجدران كأنه يريد اختراقها بعينه ، ويحرق في الصور ، ويقلب الكتب في غرفة الاستقبال دون اكتراث ، وبعد تناول المرطبات المعتادة ، كان يرحل . ولكن قسيس القرية العجوز وصل في أحد الأمسيات في حالة شديدة من الكآبة والاثارة ، ليعترف أنه هو - القسيس - قد أمر بمراقبتهما وأن يتأكد بطرق أخرى (كأن يستعمل سلطته الروحية مع الخدم) من كل ما يجري في المنزل ، وخاصة الزوار الذين تستقبلهم السيدتان ، ومن هم ، وفترة بقائهم ، وان كان أي منهم غرباء من المنطقة ، وهكذا دواليك . كان الرجل العجوز البسيط في حالة من العذاب بسبب الاذلال والخوف . « جئت أحذركما . كونا حريصتين في تصرفكما ، حباً بالله . أنا أحترق من خجلي ، ولكن لا مهرب من الشبكة . سأضطر إلى أن أخبرهم بما أراه ، لأنني ان لم أفعل فإن شماسي سيفعل . انه مستعد أن يرتكب أسوأ الأمور ليكسب مرضاتهم . وهناك صهري ، زوج ابنتي « باراشا » الذي يعمل كاتباً في مكتب المقاطعة الحكومي ، اذ سرعان ما يطردونه ، أو ربما يبعدهونه إلى مكان ما . « ثم ندب الرجل ضرورات هذه الأيام . . . « التي لا توافق الناس نوعاً ما . « ومسح عينيه . لم يكن يرغب في انفاق آخر أيامه برأس حليقة في قبو التوبة في دير من الأديرة . . . « وأخضع لكل مساوات النظام الكنسي ؛ فهم لن يرحموا رجلاً عجوزاً أبداً . « ثم أنّ وكاد يصاب بالهستيريا ، وقامت السيدتان ، اللتان أحسستا بالرتاء تجاهه بمواساته بقدر ما استطاعتا قبل أن تسمحا له بالعودة إلى كوخه . ولكن ، كان يتردد عليهما في الواقع القليل من الزوار . كان الجيران - والبعض منهم أصدقاء قدامى - قد بدؤوا يبتعدون ؛ قلة منهم بنجمل وآخرون باحتقار واضح كونهم أناساً كباراً لا يأتون سوى في الصيف - كما

شرحت لي الأنتسة هالدين - أي ارستقراطيون ورجعيون . كان المكان موحشاً بالنسبة إلى فتاة شابة ، كما كانت علاقتها مع أمها من أرقّ العلاقات وأصرحها ؛ ولكن السيدة هالدين عاشت تجارب جيلها ومعاناته وخداعه وارتداداته أيضاً . كانت تعبّر عن عاطفتها تجاه ولديها بكبحها لكل أمارات القلق . لقد تصرفت بتحفظ بطولي . وبالنسبة إلى ناتالي هالدين ، فإن أخاها مع حياته في بطرسبورغ ، غير المبهمة اطلاقاً (لم يكن هناك أي شك في ما كان يحسّ به أو يفكّر فيه) انما المعاشة على نحو سري ، كانت الممثل المرئي الوحيد لحرية مصادرة . ان أهمية الحرية كلها ، وعودها غير المحدودة ، كانت تعيش في نقاشاتهم الطويلة التي كانت تتنفس بأسمى الآمال في ممارسة الفعل والايمان بالنجاح . ثم ، فجأة ، انتهى الفعل والآمال مع التفاصيل التي كشفها الصحفي الانكليزي . كانت الحقيقة الملموسة ، حقيقة موته قد بقيت ، ولكنها بقيت غامضة في أسبابها الأعمق . لقد أحسّت أنها قد هُجرت دونما تعليل . ولكنها لم ترتب به . ما كانت تريده هو أن تعرف ، بأيّ ثمن كان ، كيف تستطيع أن تبقى مخلصة لروحه الراحلة .

• • •

- رابعاً -

مرت أيام عدة قبل أن أقابل ناتالي مرة أخرى. كنت أعبّر المكان أمام المسرح حين تبيّنت قوامها الرشيق خلال عملية التفاتته بين أعمدة بوابة المنتزه العام غير الجميل عند القلعة . لقد ابتعدت عني ولكنني عرفت أننا سنتقابل لا بدّ حين تعود لتسير على امتداد الشارع الرئيسي ، هذا الّا إذا كانت ذاهبة إلى بيتها . في مثل تلك الحالة لا أعتقد أن عليّ أن أزورها بعد . كانت رغبتني في إبعادها عن هؤلاء الناس قوية الآن كما لم تكن من قبل ، ولكن لم تكن لديّ أية أوامام فيما يخصّ مدى ساطعتي . لقد كنت مجرد شخص « غربي » ، وكان واضحاً أن الآنسة هالدين لم ولن تصغي إلى حكمتي ؛ أما بالنسبة إلى رغبتني في الاستماع إلى صوتها ، فقد كان من الأفضل ، كما فكّرت ، الّا أنغمس كثيراً في تلك المتعة . كلاًّ ، لم يكن عليّ أن أذهب إلى « شارع الفلاسفة » ؛ ولكنني حين كنت في وسط الشارع الرئيسي وشاهدت الآنسة هالدين قادمة نحوي ، كنت أشدّ فضولاً و صدقاً مع نفسي من أن أحاول الهرب .

كان هناك شيء ما من قسوة الربيع في الجوّ . فالسمااء الزرقاء ثقيلة ، ولكن الأوراق الصغيرة النابتة تشبّثت كغمامة طرية بالصف غير المثير من الأشجار ؛ وكانت الشمس الصافية تضم نقطتين صغيرتين من الذهب في عيني الآنسة هالدين الرماديتين الصريحتين ، وهي تانفت نحوي وتخيّبتني بمودّة .

سألته عن صحة أمها .

حركت كتفيها قليلاً وتهدت بجزن تنهيدة صغيرة .

— ولكنني ، كما ترى ، خرجت لأشمسي . . . لأترييض كما تقولون أنتم الانكاييز .

ابتسمت موافقاً فأضافت ملاحظة غير متوقعة :

— ياله من يوم رائع .

كان صونها أجشّ قليلاً ، ولكنه فاتن بذكورته ووجود شيء من خاصية الطيور فيه . كما كانت له لهجة القناعة الفطرية . كنت سعيداً به . كانت أشبه بمن وعى شبابه . . . فقد كانت هناك روعة ربيعية قوية جداً في مساحات العشب والأشجار المستطية المسيجة ، والمؤطرة على نحو مرئي بالسقوف المنحدرة المنتظمة لهذه المدينة ، الحميمة دون تناسق ، والمضياف دون تعاطف . في الهواء نفسه الذي كانت تسير فيه لم يكن هناك سوى قليل من الدفء ؛ والسما ، سماء أرض دون آفاق ، كانت ممسوحة ومغسولة تماماً بأعطار نيسان ، وتمتد زرقاء باردة قنسية ، دون سمو ، وقد ضاقت فجأة بالحدار القبيح المعتم لجبل الجورا : حيث كانت لا تزال متخلفة هنا وهناك بعض آثار وبقع بائسة من الشايج . لا بد وأن روعة الفصل كلها كانت كامنة في نفسها هي . . . وكنت سعيداً أن دخل هذا الشعور إلى حياتها ، ولو لفترة قصيرة .

— يسرني أن أسمعك تقولين هذه الكلمات .

حدجتي بنظرة سريعة . سريعة وليس مختاسة . ولو كان هناك شيء واحد كانت هي غير قادرة عليه اطلاقاً ، لكان الخلسة . كانت صراحتها واضحة في ايقاع مشيتها بالذات . كنت أنا من ينظر إليها سرّاً . . . لو

كان لي أن أقول ذلك . كنت أعرف أين كانت ، ولكنني لم أكن أعرف ما رأته وسمعته في عش المؤامرات الأرستقراطية ذاك . وأنا أستعمل كلمة أرستقراطية لعدم توفر مصطلح أفضل . كان « قصر بوريل » ، المحاط بالأشجار والأجمات النابتة في أراضيها المهمة ، ذا شهرة في أيامنا على أنه مسكن تامك المرأة الخطيرة المنفية « مدام دو شتال » (١) ، وذلك في الفترة النابوليونية . كان الاستبداد النابوليوني ، الوريث المتعل للحداء العسكري لـ « الثورة » ، وهو الوحيد الذي كان يعتبر تامك المرأة المثقفة عدواً يستحق المراقبة ، استبداداً لا يشبه إطلاقاً للحكم الفردي المطبق في أثواب باطنية ، الناشئة عن عبودية غزو تترى . وكانت « المدام دو . . . » أبعد ما تكون عن التشابه مع مؤلفة « كورين » . كانت تتجح بأنها ملاحقة . ولا أعرف ان كانت تعتبر ضمن دوائر معينة على أنها خطيرة . أما فيما يخص مراقبة بعيدة جداً . كان مسكناً مثالياً لتدبير المؤامرات العايا ، وذلك بسبب قلة زواره ، سواء أكانت جدية أو تافهة . ولكن هذا كآته لم يثر اهتمامي . كنت أريد معرفة تأثير سكانه غربي الأطوار وجوه الخاص على فتاة كالآنسة هالدين ، شديدة الصدق والصراحة ، انما قليلة التجربة إلى حدّ خطر ! كان جهالها النبيل غير الواعي بالفرائض الأخطّ لدى البشرية يتركها عزلاء أمام نزواتها . وكان هناك أيضاً صديق أخيها ذاك ، الواصل بالحديد من روسيا . . . كنت أتساءل ان كانت قد استطاعت مقاباته .

(١) أ: بية فرنسية (١٧٦٦ - ١٨١٧) ابنة الوزير الفرنسي الشهير « جاك نيكر » ، وقد اضطرتها معارضتها لنابوليون إلى اللجوء إلى جنيف ثم روسيا وانكلترا . كتبت روايتين ناجحتين هما : « دلفين » و « كورين » . (المترجم)

سرنا بعض الوقت ببطء وصمت .

هاجمتها فجأة :

— أنت تعرفين أنه اذا كنت تنوين ألاّ تحكي لي شيئاً ، فعمايك أن تقولي ذلك بوضوح ، ثم سيكون ذلك نهائياً بالطبع . ولكني ان ألعب لعبة المداورة . بل أطاب منك صراحة كل التفاصيل .

ابتسمت ابتسامة باهتة رداً على لهجتي التهديدية :

— أنت فضوليّ كالأطفال .

أجبت بجديّة :

— لا أنا مجرد رجل عجوز قتي .

حدّقت بي كأنما لتتأكّد من درجة قياقي أو عدد سنين عمري . لم يكن وجهي معبراً أبداً ، على ما أعتقد ، أما بالنسبة إلى سنين عمري ، فلست عجوزاً إلى حد العجز . ليست لي لحية طويلة كالراهب الطيّب في أغنية رومانسية ؛ خطواي ليست مترنّحة ، ومظهري ليس مظهر الحكيم البعطيء المهيب . ليست لديّ المزايبا الصورية الفاتنة . أنا عجوز ، وبالأسى ، ولكن على نحو عادي ونشيط . وقد بدا لي وكأنما كان في نظرة الآنسة هالدين الطوية بعض الرثاء لي . أسرعت في نخطاها قايلاً .

— أنت تطلب التفاصيل كلها . دعني أفكّر . عليّ أن أتذكّرها .

كانت جديدة تماماً عليّ . . . على فتاة قروية مثلي .

بعد لحظة صمت بدأت تقول ان « قصر بوريل » كان مهدلاً من الداخل كما هو من الخارج . لم يكن شيئاً مثيراً للعجب . كان أحد أصحاب المصارف من مدينة هامبورغ قد استقال من عمله ، على ما أعتقد

وبناه . ليؤنس الأيام الباقية من عمره بمنظر البحيرة ، التي كان جمالها الدقيق والمنتظم والغني جذاباً للمخيلة غير الرومانسية لرجل أعمال . ولكنه سرعان ما مات . وقد رحلت زوجته أيضاً (ولكن إلى إيطاليا) . وبقي هذا المنزل ، منزل الراحة الثرية ، والمفترض أنه غير قابل للبيع ، فارغاً لسنوات عدة . كانت الطريق إليه مغطاة بالحصى ، وتدور حول قطعة أرض كبيرة غير مهيّدة مغطاة بالحشائش ، مع الكثير من الوقت لمراقبة تداعي واجهته المزخرفة بالجص . قالت الأنسة هالدين ان الانطباع الذي يعطيه القصر كان لا يدعو إلى السرور . وكأما اقرب منه المرء أضحى أكثر كآبة .

لقد لاحظت بضعاً خضراء من الطحالب على درج الشرفة . كان الباب الأمامي مفتوحاً على آخره . ما كان هناك هناك أحد في المكان . وجدت نفسها في بهو واسع شامخ وفارغ تماماً ، مع عدد كبير من الأبواب . كانت هذه الأبواب مغلقة كآبها . واجهها درج عريض حجري عار ، وكان التأثير الكمي للقصر يوحي بمنزل غير مأهول . وقفت ساكنة مرتبكة من العزلة ، ولكنها أصبحت واعية بعد فترة بصوت يتحدث باستمرار في مكان ما .

اقترحت قائلاً :

- ربما كنت مراقبة طوال الوقت . لا بدّ وأنه كانت هناك عيون :

ردت قائلة :

- لا أعرف كيف كان يمكن لذلك أن يحدث . لم أر ولو طائراً واحداً حتى في أراضي القصر . لا أتذكر أنني سمعت تغريدة واحدة في الأشجار . بدا المكان كأنه مهجور تماماً باستثناء ذلك الصوت .

لم تستطع تمييز اللغة . هل كانت يا ترى روسية أم فرنسية أم ألمانية؟
لم يبد أن هناك من كان يجيب على الصوت . بدا كأن الصوت شيء
خائفة السكّان الراحلون ليخاطب الجدران العارية . استمرّ مهذاراً
مع توقّف بين الحين والآخر . كان وحيداً وحزيناً . بدا الوقت طويلاً
جداً للآنسة هالدين . وقد منعها اشمزاز قاهر من فتح أحد الأبواب في
اليهو . كان الأمر يدعو إلى اليأس . لا أحد سيأتي ، والصوت لن يتوقّف .
اعترفت لي بأنها اضطرت إلى مقاومة دافع يدعوها إلى أن تخرج دون أن
يراه أحد مثاماً وصلت .

صرخت أسفاً :

— حقاً ؟ هل كان لديك هذا الدافع ؟ أمر مؤسف أنك لم
تطيعيه .

هزّت رأسها .

— أية ذكرى غريبة كانت ستخلّفها تلك الأرض المهجورة المحيطة
بالقصر ، ذلك اليهو الفارغ ، ذلك الصوت المجهول المهذار و . . .
لا أحد ، لا شيء ، ولا روح واحدة .

كان من شأن هذه الذكرى أن تكون فريدة سايمة . ولكنها لم تكن
تلك الفتاة اليه تهرب من انطباع مرعب بالغرلة والغموض .

— لا ، لم أهرب . بقيت حيث أنا . . . وقد رأيت روحاً . وبها
من روح غريبة .

بينما كانت تحديق إلى الدرج العريض . وقد استنتجت أن الصوت
قادم من مكان ما في الأعلى ، لفت انتباهها حنين ثوب . نظرت إلى

الأسفل ورأت امرأة تعبر البهو ، بعد أن خرجت كما يبدو من أحد الأبواب . كانت ملتفتة بوجهها لذا لم يبد عليها في البداية أنها كانت عالمة بوجود الأنسة هالدين .

وعندما التفتت برأسها مرة أخرى ورأت شخصاً غريباً ، بدا عليها الاجفال الشديد . ومن رشاقة جسمها ظنتها الأنسة هالدين فتاة شابة ، ولكن رغم أن وجهها كان مدوراً على نحو طفولي تقريباً ، إلا أنه كان شاحباً ومتغضناً ، مع حلقات داكنة تحت العينين . أما شعرها فكان بنياً مغبراً وقصيراً وله فرق صبياني جانبي مع خصلة جانبية فوق الجبين الخاف المجهّد . بعد أن رمشت بعينيها لبرهة وهي صامتة ، أقعت فجأة على الأرض .

سألته مندهشاً :

— ما الذي تعنيه بالاقعاء على الأرض ؟ هذا غريب .

شرحت الأنسة هالدين السبب . حين شوهدت هذه المرأة للمرة الأولى كانت تحمل قطة كبيرة ظهرت آنذاك خلف تنورتها وأخفت رأسها في الوعاء بشره . نهضت ثم اقتربت من الأنسة هالدين وسألته بفظاظة عصبية :

— ما الذي تريدينه ؟ من أنت ؟

ذكرت الأنسة هالدين اسمها واسم بيتر ايفانوفيتش . أوأمأت السيدة الكهله المتشبهة بالفتيات برأسها وعلى وجهها تعبير مؤقت متعاطف . كان قميصها الأسود الحريري قديماً بل مهترئاً في بعض الأماكن . كما كانت التنورة السوداء المصنوعة من نسيج صوفيّ متين قصيرة وبالية .

استمرت ترمش عن قرب ، بينما بدت أهدابها وحاجباها بالية أيضاً .
تحدثت إليها الآنسة هالدين بلطف كأنها تخاطب شخصاً بائساً حساساً ،
فشرحت لها أن زيارتها لا يمكن أن تكون حدثاً غير متوقع أبداً بالنسبة
إلى « المدام دوس . . . » .

— آه ! اذن بيتر ايفانوفيتش هو الذي دعاك . كيف كان لي أن
أعرف ؟ ان الوصيعة لا تُستشار عادة ، كما يمكنك أن تتصورى .
ضحكت المرأة رثة الثياب قليلاً . كانت أسنانها ، البيضاء المتناسقة
على نحو رائع ، تبدو في غير مكانها ، كعقد من اللؤلؤ في عنق امرأة
متشردة رثة الملابس .

— بيتر ايفانوفيتش هو أكبر عبقرية في هذا القرن ربما ، ولكنه
أكثر الرجال الأحياء لامرعاة لمشاعر الآخرين . لذا ان كان لديك موعد
معه فعليك ألا تدهشي اذا سمعت أنه ليس هنا .

شرحت الآنسة هالدين أنه ليس لديها موعد مع بيتر ايفانوفيتش .
لقد أصبحت مهتمة على الفور بهذه المرأة الغريبة .

— لماذا يهتم بك أو بأية امرأة أخرى ؟ أوه ! هؤلاء العباقرة . لو
أنك تدرين فحسب ! أجل ! وكتبهم أيضاً . . . أعني بالطبع الكتب التي
يعجب بها العالم ، الكتب الملهمة . ولكنك لم تكوني خلف الكواليس . انتظري
حتى تجلسي معه إلى طاولة مدة نصف يوم والقلم في يدك . يستطيع أن يذرع
غرفته جينة وذهاباً ساعات وساعات . كنت أصاب بالتهيب والحدرد إلى
حدّ أني كنت أخشى أن أفقد توازني فأسقط من على الكرسي فوراً .

أبقت يديها مطويتين أمامها ، وكانت عيناها المثبتتان على وجه الآنسة
هالدين لا تعبران عن أية حيرة . ولكن الآنسة هالدين التي استنتجت

أن هذه السيدة التي تدعو نفسها بـ « الوصيفة » كانت فخورة بأنها عملت كسكرتيرة لبيتر ايفانوفيتش تلفظت بملاحظة ودية .

صرحت السيدة :

– لا يمكنك أن تتخيلي تجربة أكثر ارهاقاً . هناك صحفي أنكلو – أمريكي يجري لقاء مع « المدام دو س . . . » الآن ، والآ لاصطحبتك فوراً إلى الطابق العلوي .

هذا ما قالته بلهجة مختلفة وهي تنظر نحو الدرج . ثم استأنفت :

-- أعمل كمشرقة على التشريعات .

لقد بدا أن « المدام دو س . . . » لم تكن تستطيع احتمال وجود السوسيسرين فيما حولها . وبالفعل فإن الخدم ما كانوا يبقون فترة طويلة في « قصر بوريل » . كانت هناك صعوبات باستمرار . لقد سبق للآنسة هالدين ولاحظت أن البهو كان أشبه بحظيرة من الرخام والنقوش الحصية مغطاة بالغبار وبيوت العناكب في الزوايا وآثار خفيفة من الطين على الأرض المبلطة ببلاطات مربعة ذات لرنين أبيض وأسود .

استأنفت « الوصيفة » وهي تبقي يديها ممدوتين بهدوء أمامها :

– وأعني أيضاً بهذا الحيوان .

ثم رمت القطة بنظرها المرهقة .

– لا أكثر أبدأ . للحيوانات حة وقها . ولكني لا أرى رغم ذلك لماذا لا تعاني هي أيضاً كما يعاني البشر . ما رأيك ؛ ولكنها لا تعاني كثيراً جداً بالطبع . هذا مستحيل . ولكن في حالتها فان الأمر أكثر اثاره

لأنها لا تستطيع القيام بثورة . اعتمدت أن أكون جمهورية النزعة . أنت أيضاً جمهورية النزعة على ما أعتقد ؟

اعترفت الآنسة هالدين لي أنها لم تعرف ما تقول . ولكنها أومات برأسها وسألت بدورها :

— وأنت لم تعودي جمهورية النزعة الآن ؟

— بعد تدويني املاءات بيتر ايفانوفيتش لمدة عامين فانه من الصعب عليّ أن أكون أي شيء . أولاً عليك أن تجلسي دون حراك اطلاقاً . أخفّ حركة تقومين بها تجعل أفكار بيتر ايفانوفيتش تطير من رأسه . لا يمكنك حتى أن تتنفسسي . أما بالنسبة إلى السعال . . . فلا سمح الله . لقد غير بيتر ايفانوفيتش مكان الطاولة فوضعها عند الجدار لأنني كنت لا أستطيع سوى أن أرفع عينيّ للتطلع من النافذة وذلك خلال انتظاري له حتى يستأنف املاءه . لم يكن ذلك أمراً مسموحاً به . قال لي اني أحقدق على نحو غبيّ جداً . لم يكن مسموحاً لي أن أنظر إليه من فوق كتفي . كان بيتر ايفانوفيتش يضرب الأرض بقدمه فوراً ويزجر : « انظري إلى الورقة . » ويبدو أن تعابيري ووجهي يسببان في تشتت أفكاره . حسناً ، أعرف أنني لست جميلة وأن تعابيري ليست واعدة أيضاً . يقول ان جوّ التوقع غير الذكي الذي أثيره من حولي يضايقه . تلك كانت كلماته .

صدمت الآنسة هالدين ، ولكنها اعترفت لي بأنها لم تدهش كثيراً .

صاحت :

— هل من المعقول أن يعامل بيتر ايفانوفيتش أية امرأة بكل هذه

القساظة ؟

أومات الوصيفة براسها مرات عديدة بجدر ، ثم كدت للاسه هالدين أنها لم تكن تعاني من ذلك اطلاقاً . كان الجانب المرهق من المسألة هو وضع سر التأليف مكشوفاً أمامها : مشاهدة المؤلف العظيم للأناجيل الثورية وهو يتلمس الكلمات ليعبّر عما يريد وكأنه في ظلام دامس .

— أنا راغبة تماماً في أن أكون الأداة العمياء للأهداف السامية . أن يمنح المرء حياته للقضية ، هذا لا شيء . ولكن أن تدمر أوهامه . . . فهذا أكثر مما يستطيع المرء احتمالاه . وأنا لا أبالغ . لقد بدا أن ذلك يجمّد معتقداتي في . . . وعلاوة على ذلك فاننا حين كنا نعمل في الشتاء ، كان بيتر ايفانوفيتش الذي يذرع الغرفة جيثة وذهاباً ، لا يحتاج إلى حرارة اصطناعية ليبقى دافئاً . وحتى حين ننتقل إلى جنوب فرنسا تمر أيام باردة جداً هناك ، خاصة حين يكون عليك أن تجلسي ساكنة مدة ست ساعات دون توقف . ان جدران تلك الفيلات على الرينيريرا رقيقة جداً . لم يكن يبدو على بيتر ايفانوفيتش أنه مدرك لأي شيء . ومن المؤكد أني كنت أخفي ارتعاشاتي خشية أن أقطع عليه الوحي . لقد اعتدت أن أضغط على أسناني حتى أشعر بأن فكّي قد التصق تماماً . وفي تلك اللحظات التي كان فيها بيتر ايفانوفيتش يقطع املاءه ، وكانت هذه الفترات طويلة جداً أحياناً ، فقد تصل إلى ما لا يقل عن عشرين دقيقة ، وبينما كان يذرع المكان ورأني جيثة وذهاباً ، وهو يههم لنفسه ، كنت أحس أني أموت مرتاً ببطيئاً كما أوكد لك . وربما لو أني كنت أدع أسناني تصطك لكان بيتر ايفانوفيتش سيلاحظ بؤسي ، ولكني لا أعتقد أن ذلك كان سيرك أي تأثير عمليّ على أية حال . انه بخيل جداً في مثل هذه المسائل .

نظرت الوصيفة إلى أعلى الدرج . كانت القطة الكبيرة قد انهد لعق

الحليب وراحت تحك خدها ذا الشوارب على نحو متعرج على تنورها .
وقد انحنت لتلتقطها من على الأرض .

استأنفت وهي تمسك بالقطة بذراعين مطويتين :

— البخل صفة أكثر منه أي شيء آخر كما تعرفين . وبالنسبة
إلينا فالبعلاء هم الذين يستطيعون توفير المال للأشياء القيّمة . . . وليس
أولئك الذين يُدْعَوْنَ بذوي الطباع الكريمة . ولكن أرجو ألا تحسبني
أمرأة تحب الانغماس في الترف . كان أبي كاتباً في وزارة المالية دون أي
مركز إطلاقاً . لذا يمكنك أن تحزري من هذا أن بيتنا لم يكن فخماً ، رغم
أننا لم نكن نعاني من البرد أيضاً . لقد هربت من بيت والديّ بعد أن بدأت
أفكر بنفسي مباشرة . ليس سهلاً جداً مثل هذا التّفكير . يجب أن يوضع
المرء في الطريق المؤدّي إلى ذلك وأن يوقظ على الحقيقة . وأنا أدين بانقاضي
إلى بائنة تفاح عجوز كانت تضع الكشك الذي تباع عليه تحت مدخل
المنزل الذي كنا نسكن فيه . كان لها وجه لطيف مجمّد وصوت أشد
ما يكون وداً . وفي أحد الأيام ، بدأنا نتكلم — عرضاً — عن طفلة ،
عن فتاة صغيرة — رثة الثياب رأيناها تتسوّل في الشوارع عند الغسق .
ومن موضوع إلى آخر بدأت عينايتن تتفتّحان بالتدرّج على الأمور المرعبة
التي على الناس الأبرياء أن يعانون منها في هذا العالم ، وذلك لمجرد الإبقاء
على وجود الحكومات . وبعد أن فهمت في إحدى المرات جريمة الطبقات
العليا ، لم أعد قادرة على الاستمرار في العيش مع والديّ . لم يكن يسمع في
بيتنا كلمة لطيفة واحدة من نهاية سنة إلى نهاية سنة أخرى . لم يكن هناك
سوى الحديث عن المؤامرات الشريرة التي تجري في المكتب ، عن الترفيع
الوظيفي والراتب ، وكسب مودة الرؤساء . كانت مجرد فكرة الزواج

من شخص شبيه بأبي تجعلني أرتجف . لا أعني أنه كان هناك من يودّ الزواج مني . لم يكن هناك أية بارقة أمل في هذا الخصوص . ولكن أليس هناك إثم كاف في العيش على راتب حكومي بينما تعاني نصف روسيا من الجوع ؟ وزارة المالية ! ياله من أمر مرعب عجيب ! ما الذي يريد من الناس الجوعى الجاهلون من وزارة المالية ؟ قبلت والديّ كلا على خديهِ وهربت لأعيش في الأقبية ، مع البروليتاريا . حاولت أن أكون ذات نفع لأولئك الذين فقدوا الأمل . أعتقد أنك تفهمين ما أعنيه ، هه ؟ أعني أولئك الذين لا مكان لديهم يلهجؤون إليه ولا أمل يتطلعون إليه في هذه الحياة . أتدركين كم هذا مخيف . . . ؟ لا شيء يتطلعون إليه ! أحياناً أعتقد أنه لا يوجد مثل هؤلاء الناس ومثل هذا البؤس إلاّ في روسيا . حسناً ، لقد انغمست في ذلك العمل ، ولكن أتعرفين ؟ لا يمكن للمرء أن يفعل الكثير هناك . لا ، بالفعل . . . على الأقل طالما كان هناك وزارات مالية مرعبة كهذه تعترض الطريق . أعتقد أنني كنت سأجنّ هناك وأنا أحاول محاربة تلك الجرثومة ، لولا ذلك الرجل . كانت صديقتي ومعلمتي القديمة هي التي اكتشفته من أجلي ، وبالصدفة تماماً . جاءت تبهت عني في وقت متأخر في إحدى الليالي بأسلوبها الهادىء . تبعتها إلى حيث أرادت ، كان ذلك الجزء من حياتي ملكاً لها بالكامل ، وكنت لولا روحها قد مُتت على نحو بائس . كان ذلك الرجل عاملاً شاباً ، عامل مطبعة ، وقد تورّط في مشكلة تتعلق بمسألة تعاطي الخمر كما تتذكرين . لقد وضع الكثيرون في السجن بسبب ذلك . وزارة المالية مرة أخرى ! ما الذي كان سيحدث لو أن الفقراء توقفوا عن تحويل انفسهم إلى وحوش بسبب الاسراف في الشراب ؟ وأعتقد ، وأقسم على ذلك ، أن المالية

وكل ماله علاقه بذلك اختراع شيطاني . ولكن الاعتقاد بوجود مصدر
للشر خارق للطبيعة ليس ضرورياً : الناس لوحدهم قادرون تماماً على
ارتكاب كل شر . الماينة بالفعل !

كان الحقد والاحتقار يسهسان خلال نطقها لكلمة « الماينة » ،
ولكنها في اللحظة نفسها كانت تربت برفق على القطة المستريحة بين
ذراعيها . بل رفعتها قليلاً ثم حكّت خدها ، وهي تميل برأسها ، على
فرو القطة الذي استقبلت هذه الملاطفة بتجرد كامل يميز هذا النوع من
الحيوانات . ثم نظرت إلى الآنسة هالدين واعتذرت لعدم اصطحابها إلى
الطابق العلوي لتقابل « المدام دو س . . . » . ما كان يمكن للمقابلة الصحفية
أن تقاطع . سرعان ما سيرى الصحفي وهو ينزل الدرج . كان أفضل
شيء ممكن هو البقاء في البهو . وعلاوة على ذلك كانت هذه الغرف كلها
(نظرت فيما حوّلها إلى الأبواب العديدة) الموجودة في الطابق الأرضي غير
مفروشة .

استأنفت :

— بالتأكيد لا يوجد هنا كرسي أقدمه لك . ولكن ان كنت تفضلين
أفكارك على ثرثرتي فسوف أجلس على آخر درجة هنا وأبقى صامتة .
سارعت الآنسة هالدين إلى التأكيد بأنها — على العكس تماماً — مهتمة
جداً بحكاية عامل المطبعة . فقد كان ثورياً بالطبع .

قالت « الوصيفة » بتنهيدة خفيفة :

— شهيداً ، رجلاً بسيطاً .

ثم حدثت إلى الباب الأمامي المفتوح حاملة . ثم التفتت بعينها
البيتين الغائمتين إلى الآنسة هالدين .

— لقد عشت معه أربعة شهور . وكان ذلك كابوساً .

وبينما كانت الآنسة هالدين تنظر بتساؤل بدأت تصف لها وجه الرجل الهزيل : أعضاء النحيلة ومدى فقره . كانت الغرفة التي قادتها إليها بائعة التفاح عبارة عن علبة صغيرة ، حجرة بائسة تحت سقف منزل قدر . كان الجص المتساقط عن الجدران يغطي الأرض ، وحين فتح الباب تأرجح نسيج رهيب من خيوط العنكبوت السوداء مع تيار الهواء . كان قد أطلق سراحه قبل أيام قليلة . . . رمي من السجن إلى الشوارع . وهنا بدا على الآنسة هالدين أنها ترى للمرة الأولى اسماً ووجهاً لجسد أولئك الناس المعذبين الذين كان مصيرهم القاسي موضوع الكثير من الحوارات بينها وبين أخيها في حديقة منزلهم الريفي .

لقد قبض عليه مع عشرات وعشرات من الناس الآخرين في مسألة تعاطي الخمر تلك . ولسوء الحظ ، وبسبب القبض على الكثيرين من المشبهين ، فقد ظنت الشرطة أن باستطاعتها أن تتزعم من بعضهم معلومات أخرى تتعلق بالدعوة الثورية .

استأنفت قائمة :

— لقد ضربوه ضرباً مبرحاً خلال التحقيق حتى آذوه من الداخل . وبعد أن انتهوا منه كان قد حُكم عليه بالهلاك . لم يكن قادراً على أن يفعل أي شيء مفيد لنفسه . رأيته متمدداً على هيكل سرير خشبي دون فراش ، ورأسه فوق كومة من الخرق القذرة أعاره اياها من باب الاحسان شخص يعمل في لم الخرق البالية حدث أن كان يعيش في قبو المنزل . كان ممدداً هناك دون غطاء . ملتهباً من الحمى ، ولم يكن هناك حتى ابريق ماء في الغرفة يطفىء به ظمأه . لم يكن هناك أي شيء . . . هيكل السرير فقط والأرضية العارية .

سألت الآنسة هالدين بسخط :

— ألم يكن هناك في تلك المدينة الكبيرة كلها بين الليبراليين والثوريين شخص واحد يمدّ يد العون إلى أخ؟

— نعم ، ولكنك لا تعرفين أكثر الأمور ترويعاً في بؤس ذلك الرجل . اسمعي . يبدو أنهم قد أسأؤوا معاملته إلى حد أن صلابته انهارت تماماً ، وأنه قد باح ببعض المعلومات . يا للمسكين ! اللحم ضعيف كما تعرفين . لم يخبرني بما حدث . كانت هناك روح مسحوقة في ذلك الجسد الممثل به . لم أجد ما أقوله لأداوي له جراحه . وحين أطلقوا سراحه ، زحف إلى ذلك الجحر وتحملّ الندم دون تدمر . ما عاد يقترب من أي شخص يعرفه . كنت سأطلب له المساعدة ، ولكن أين كنت سأجد أي شخص لديه أي شيء يصفح عنه أو قدرة على المساعدة؟ كان الناس الذين يعيشون من حولنا جائعين وسكيرين جميعهم . كانوا ضحايا وزارة المالية . لا تسأليني كيف كنا نعيش . لا أستطيع أن أقول لك . كان ذلك أشبه بمعجزة البؤس . لم يكن لديّ ما أبيع ، وأؤكّد لك أن ملابسي كانت في حالة يستحيل معها خروجي في النهار . كانت في حالة غير محتشمة . كان عليّ أن أنتظر حتى يحل الظلام قبل أن أستطيع الخروج إلى الشوارع لأنسوّل كسرة خبز ، أو أي شيء أستطيع الحصول عليه لإبقائه وإبقاء نفسي على قيد الحياة . وغالباً ما كنت لا أحصل على شيء ، فأزحف عائدة وأتمدد على الأرض قرب السرير . أجل ، أستطيع أن أنام بعمق على الألواح الخشبية العارية ، هذا لا شيء ، وأنا أذكر ذلك لك حتى لا تظني أنني من النوع المغرم بالملذات . كان ذلك أقل تعديباً من مهمة الجلوس لساعات إلى منضدة في مكتب بارد

لنسخ كتب بيتر ايفانوفيتش وهو يملئها عليّ . ولكنك ستري نفسك
ما هو ذلك ، لذا لن أقول المزيد .

قالت الأنسة هالدين :

– ليس أكيداً أنني سأنسخ أبداً لإملاء بيتر ايفانوفيتش .

صرخت الأخرى بلهجة معبّرة عن الشك :

– لا ! ليس أكيداً ؟ أنت تعنين أن تقولي إنك لم تقرري بعد ؟

وحيث أكدت لها الأنسة هالدين أنه لم يكن بينها وبين بيتر ايفانوفيتش
مثل هذه المسألة ، زمت المرأة حاملة القطة شفيتها بشدة ولمدة دقيقة
كاملة .

– أوه ستجدين نفسك وقد جلست إلى الطاولة قبل أن تعرفي أنك
قد قررت ذلك . لا ترتكبي هذا الخطأ ، فالاستماع إلى بيتر ايفانوفيتش
وهو يملئ أمر يجعل المرء يتحرّر من سحر هذا الرجل ، ولكن هناك في
الوقت نفسه افتنان ما في الموضوع . انه لرجل عبقرى . وجهك لن
يشير حنقه بالتأكيد . بل أنك قد تثيرين لديه المزيد من الالهام وتجعلين
الأمر أسهل عليه في تقديم رسالته . وحيث أنظر إليك ، أشعر بالثقة في
أنك من ذلك النوع من النساء الذي ليس من المحتمل أن يكبح له إلهامه .
أحست الأنسة هالدين أنه لا فائدة من الاحتجاج ضد كل هذه
الادعاءات ، ولكنها قالت بعد فترة صمت قصيرة :

– ولكن ذلك الرجل – ذلك العامل – هل مات وهو تحت رعايتك ؟

لم تجب الوصيفة بل راحت تصغي لفترة قصيرة إلى صوتين متناوبين
ببعض الحيوية كان ممكناً سماعهما الآن من أعلى الدرج . وحيث خفتت

أصوات النقاش متحوّلة إلى همهمة غير مسموعة ، التفتت إلى الآنسة هالدين :

— نعم ، لقد مات ، ولكن ليس بين ذراعيّ . . . بالمعنى الحرفيّ للكلمة . وفي الواقع فقد كنت نائمة حين لفظ آخر أنفاسه . لذا لا أستطيع حتى الآن أن أقول إني رأيت أيّ شخص وهو يموت . وقبل بضعة أيام من النهاية ، وجَدْنَا بعض الشبان في حالة شديدة من البؤس . كانوا من الثوريين ، كما يمكنك أن تحزري . كان عليه أن يكون قد وثق بأصدقائه السياسيين حين خرج من السجن . لقد كان محبوباً ومحترماً من قبل ، وما كان هناك شخص يقدر على أن يحلم بتقريبه على سوء تصرفه أمام الشرطة . الكلّ يعرف ممارسات الشرطة وكيف أن لأقوى رجل لحظات ضعف أمام الألم . عجباً ، حتى الجوع وحده يكفي ليعطي الانسان أفكاراً غريبة حول كيفية الخلاص . لقد وصل طيب ، كان وضعنا قد تحسّن كثيراً فيما يخصّ الراحة الجسدية ، ولكنه ما كان يرضى بالسّلوان . . . ذلك الرجل البائس . أو كَدّ لك يا آنسة هالدين أنه كان محبوباً جداً ، ولكن لم تكن لديّ القدرة على البكاء ، فقد كنت شبه ميتة أنا نفسي . ولكن كانت هناك قلوب كريمة سارعت إلى الاعتناء بي . لقد جلبوا لي ثوباً ستروا به عريي . أقول لك اني لم أكن محتشمة المظهر . . . وبعد فترة وضعني الثوريون مع عائلة يهودية مسافرة إلى خارج البلاد ، وذلك كمربّية للأولاد . طبعاً كان بإمكانني تعليم الأطفال ، فقد أنهيت الصف السادس من المدرسة الثانوية ؛ ولكن الهدف الحقيقي كان أن أحمل بعض الأوراق الهامة عبر الحدود . لقد ائتمنيت على مجموعة من الأوراق حملتها إلى القرب من قلبي . ما كان رجال الدرك في المحطة ليرتابوا بمرية عائلة يهودية منهمكة بالاهتمام بثلاثة أطفال . ولا أعتقد

أن أولئك العبرانيين كانوا يعرفون ما كنت أحمله ، فقد تم تقديمي إليهم بطريقة غير مباشرة من قبل أشخاص لا ينتمون إلى الحركة الثورية ، وقد وجهت طبعاً إلى أن أقبل براتب ضئيل جداً . وحين وصلنا إلى ألمانيا هجرتُ تلك العائلة وسلمتُ الأوراق إلى ثوري في شتوتغارت ، وبعد ذلك تم استخدامي في وظائف مختلفة . ولكنك لا ترغبين في سماع ذلك كله . لم أشعر أبداً أنني مفيدة جداً ، ولكنني أعيش على أمل أن أرى كل الوزراء مقتولين ، وزراء المالية والجميع . لقد كان الاستماع إلى ما فعله أخوك أعظم متعة في حياتي .

وجهت عينيها المدورتين نحو نور الشمس في الخارج ، بينما القطة مرتاحة بين ذراعيها الممدودتين في جمال ارستقراطي وتأمل كتأمل أبي الهول .

عادت لتقول :

— أجل ! لقد فرحتُ . بالنسبة لي هناك حالة بطولية تحيط باسم هالدين نفسه . لا شك أن أولئك كانوا يرتجفون من الخوف في وزاراتهم . كل أولئك الرجال ذوى القلوب الشيطانية . ها أنذا واقفة أتحدث إليك ، وحين أفكر بكل تلك الأفعال الوحشية والاضطهادات والأعمال الظالمة التي تجري في هذه اللحظة بالذات ، يصاب رأسي بالدوخة . لقد تمعنت فيما سيبدو غير قابل للتصديق لو كانت عينا المرء غير جديرتين بالثقة ، لقد نظرت إلى الأشياء التي جعلتني أكره نفسي بسبب عجزتي . لقد كرهت يدي التي لا قوة فيهما ، وصوتي الذي لا يمكن سماعه ، وعقلي بالذات الذي لا يريد أن يصبح قتماً . آه ! لقد رأيت الكثير . وأنت ؟

تأثرت الآنسة هالدين . هزت رأسها بخفة ثم همهمت :

— لا ، أنا لم أر شخصياً أي شيء . لقد عشنا دائماً في الريف .
وكانت تلك رغبة أخي .
استأنفت الأخرى :

— هذا لقاء غريب بينك وبينني . هل تؤمنين بالصدقة يا آمنة
هالدين ؟ كيف كان لي أن أتوقع مشاهدتك ، أنت أخته ، بعيني هاتين ؟
هل تعرفين أنه حين وصات الأخبار فان الثوريين هنا دهشوا بقدر ما
أحسوا بالسرور ، كل واحد منهم ؟ ما كان هناك من يبدو أنه يعرف
أي شيء عن أخيك ، لم يكن بيتر ايفانوفيتش نفسه قد تنبأ بأن مثل هذه
الضربة سيتم توجيهها . أفترض أن أخاك كان ببساطة ملهماً . وأعتقدنا شخصياً
أن مثل هذه الأفعال يجب أن تتم بالالهام . انه لا امتياز كبير أن يكون لدى
المرء الالهام والفرصة . هل كان يشبهك على الاطلاق ؟ ألا تشعرين
بالفرحة يا آمنة هالدين ؟

قالت الأنسة هالدين وهي تكبح رغبة في البكاء حاتت بها فجأة :

— عليك ألا تتوقعي مني هذا الكثير .

وقد نجحت في كبح دموعها ثم أضافت بهدوء :

— لست بطاة !

— أعتقدين أنك ما كنت تستطيعين أن تقومي بمثل ذلك العمل ،

أنت شخصياً ربما ؟

— لا أعرف . ليس علي أن أسأل نفسي مثل هذا السؤال الا بعد أن

أكون قد عشت فترة أطول قليلاً ، ورأيت أكثر . . .

حركت الأخرى رأسها في حركة تدل على الفهم . كانت القطة تهز

برضا ذاتي عالي الصوت في البهو الفارغ . لم تكن هناك أصوات قادمة من الطابق العاوي . ثم حطمت الأنسة هالدين الصمت :

— ما الذي يقوله الناس بالضبط عن أخي ؟ قلت أنهم كانوا مندهشين : أجل ، أفترض أنهم كانوا كذلك . أو لم يبدو غريباً لهم أن يفشل أخي في انقاذ نفسه بعد أن أنجز الجزء الأصعب . . . أي الهرب من المكان ؟ المتآمرون يفهمون مثل هذه الأمور جيداً . هناك أسباب تجعلني متاهة لمعرفة كيف أنه لم يستطع النجاة .

تقدمت « الوصيفة » نحو باب البهو المتوح نظرت بسرعة عبر كتفها نحو الأنسة هالدين التي بقيت داخل البهو .
كررت بشرود :

— لم يستطع النجاة . أو لم يضحّ بحياته ؟ أو لم يكن ببساطة مُلهماً ؟
لم يكن ذلك نكراناً للذات ؟ أأنت واثقة ؟
قالت الأنسة هالدين :

— ان ما أنا واثقة منه هو أنه لم يكن فعلاً من أفعال اليأس . أو لم تسمعي برأي ما ذُكر هنا فيما يخص وقوعه البائس في قبضة الشرطة ؟
فكرت الوصيفة للحظة عند الباب .

— هل سمعت ؟ طبعاً ، أنهم يناقشون كل شيء هنا . أو لم يتحدث العالم بأسره عن أخيك ؟ بالنسبة إلي فان مجرد ذكر ما فعله يجعلني في حالة من النشوة الحسود . لماذا يكون على امرئ واثق من نخاوده أن يفكر في حياته اطلاقاً ؟

ادارت ظهرها إلى الأنسة هالدين . وفي الطابق العاوي من خلف باب ضخّم ، قنر ، أبيض وذهبي ، كان مرثياً خلف درابزون منبسط

درج الطابق الأول ، بدأ صوت عميق ينطق بتكاسل وباهجة رسمية ، وكأنه يقرأ مذكرة دبلوماسية أو شيئاً من هذا القبيل : كان يتوقف مراراً ثم صمت تماماً .

قالت الآسة هالدين :

— لا أعتقد أنني أستطيع أن أبقى أكثر من ذلك . قد أعود في يوم آخر .

انتظرت حتى تفسح لها الوصيفة الطريق لتخرج ، ولكن المرأة بدت ضائعة وهي تتأمل نور الشمس والظلّ اللذين كانا يتقاسمان فيما بينهما صمت الأرض المهجورة المحيطة بالمنزل . لقد أخضت منظر طريق المركبات عن الآسة هالدين . وفجأة قالت :

— لن يكون ذلك ضرورياً . ها هو بيتر ايفانوفيتش قادم شخصياً ، ولكنه ليس لوحده . نادراً ما يكون وحيداً .

لدى سماعها أن بيتر ايفانوفيتش كان قادماً ، لم تسر الآسة هالدين كثيراً وكما كان متوقفاً : فقد فقدت الرغبة نوعاً ما في مشاهدة الأسير البطولي أو « المدام دو س . . . » . وكان سبب ذلك الانكماش الذي اعتبرها في الدقيقة الأخيرة هو إحساسها بأن هذين الشخصين ما كانا يعاملان هذه المرأة التي تحمل القطة الآن معاملة لطيفة .

قالت الآسة هالدين أخيراً وهي تلمس بحنّة كتف الوصيفة :

— هل لك أن تفضلي وتسمحي لي بالخروج ؟

ولكن الأخرى لم تتحرك بل راحت تضغط القطة على صدرها .

قالت دون أن تنفت إلى الخلف :

— أعرف من معه .

وهنا أحست الآنسة هالدين ، دون أي تعليل ، بدافع قوي لمغادرة المنزل .

— قد تكون « المدام دو س . . . » مشغولة لبعض الوقت أيضاً ، ولكن ما أريد أن أقوله لبيتر ايفانوفيتش عبارة عن سؤال بسيط فحسب يمكنني أن أسأله إياه حين أقابله في الطريق وأنا نازلة . أعتقد أن عليّ حقاً أن أغادر . أنا هنا منذ بعض الوقت وأتلهف الآن للعودة إلى أمي . هل لك أن تدعيني أمرّ من فضلك ؟

وأخيراً التفتت « الوصيفة » برأسها وقالت ببصيرة غير متوقعة :

— لم أفترض أبداً أنك تريدان مقابلة « المدام دو س . . . » فعلاً ، ولا للحظة واحدة حتى .

كان في صوتها شيء سرّي وغامض . مرت عبر الباب وتبعتهما الآنسة هالدين ، وذلك إلى الشرفة ، ثم نزلتا جنباً إلى جنب على الدرجات الحجرية التي نمت عايتها الطحالب . لم ترها أحداً عند جهة الطريق الممكن رؤيتهما من مقدمة المنزل .

شرحت السيدة ذات القطة :

— إنهما مخفيّان خفاف الأشجار التي هناك ، ولكنك ستريتهما مباشرة ، لا أعرف من هو ذلك الشاب الذي أولع به بيتر ايفانوفيتش إلى هذا الحد . لا بد أنه واحد منا ، وإلاّ لما كان سيسمح له بالمجيء إلى هنا حين يحضر الآخرون . تعرفين ما أعنيه بالآخرين . ولكن عليّ أن أقول إنه ليس ذا ميول سرية . لا أعرف ان كنت قد ميزته حتى الآن . من الطبيعي أني لا أبقى طويلاً في غرفة الاستقبال . هناك دائماً عمل أقوم به ،

رغم أن البناء هنا ليس واسعاً كتلك الفيلا على الريفيرا . ولكن هنا فرص كثيرة لي لأكون مفيدة .

إلى اليسار ، ظهر بيتر ايفانوفيتش ورفيقه ، وهما يمران بطرف الاصطبل الذي نمت عليه نباتات اللبلاب . كان يسيران ببطء شديد ويتحدثان ببعض الحيوية . توقف للحظة وأوماً بيتر ايفانوفيتش ، بينما راح الشاب يصغي دون حراك وفراغاً مدلاًتان ورأسه مطاطة قليلاً . كان يرتدي بذلة بنية داكنة وقبعة سوداء . بقيت العينان المودرتان للوصيفة مثبتتين على الشخصين اللذين استأنفا سيرهما البطيء نحو المنزل .

قالت :

— شاب شديد الأدب . سترين تلك الانحاء التي سيقوم بها ، وإن تكون استثنائية جداً على أية حال . فهو ينحني بالطريقة نفسها حين يقابني وحيدة في البهو .

تحركت بضع خطوات نحو الأمام والآنسة هالدين إلى جانبيها ، وجرت الأمور كما توقعت . رفع الشاب قبعته وانحنى وتراجع قليلاً بينما تقدم بيتر ايفانوفيتش بسرعة أكبر وفراغاً السوداوان الغايظتان مملودتان بوداً ، ثم أمسك بكلتا يدي الآنسة هالدين وصافحهما وخلق فيها من خلال نظارتيه السوداوين .

صاح مرتين مطرباً :

— حسن ! حسن ! اذن فقد كانت الوصيفة تعني بك :

ثم عيس قليلاً وهو ينظر إلى « الوصيفة » التي كانت لا تزال تحمل القطة .

— أستنتج أن الينور — أعني « المدام دو . . . » — مشغولة الآن .

أعرف أنها كانت تتوقع شخصاً ما اليوم . اذن فقد وصل الصحفي ،
أليس كذلك ؟ هل هي مشغولة ؟

وجراباً على ذلك كله التمنت « الوصيفة » برأسها ،

— من سوء الحظ الشديد . . . الشديد جداً . يؤسفني كثيراً أنك

كنت . . .

ثم أخفض صوته فجأة .

— ولكنك لن تغادري يا ناتاليا فيكتوروفنا ؟ لقد مالت من الانتظار ،

أليس كذلك ؟

احتجت الآنسة هالدين قائلة :

— لا ، اطلاقاً . ولكني هنا منذ مدة وأنا أتلهف على العودة إلى أمي .

— لقد بدا الوقت طويلاً ، أليس كذلك ؟ وأعتقد أن صديقتنا

الفاضة هنا (وهنا لوى بيتر إيفانوفيتش رأسه جانبياً نحو كتفه الأيمن

ثم أعاده مرة أخرى إلى ما كان عليه) . . . صديقتنا الفاضة هنا لا

تتمتع بفرن تقصير لحظات الانتظار . لا ، لا تتمتع بهذا الفن وهذا واضح .

وفي هذا الخصوص فان النية الطيبة لا تفيد شيئاً .

أسقطت « الوصيفة » ذراعها فرجدت القطة نفسها فجأة على

الأرض . ظلت ثابتة تماماً بعد الهبوط ، واحدى قائمتيها الخلفيتين ممتدة

نحو الخلف . أحست الآنسة هالدين بالسخط نيابة عن الوصيفة :

— صديقتي يا بيتر إيفانوفيتش أن الاحظات التي مرت علي في هذا

المنزل لم تكن ممتعة فحسب بل وفيها الكثير من التثقيف أيضاً ، انها لحظات

للهكرى . لست نادمة على الانتظار ، ولكني أرى أن الغرض من زيارتي

إلى هذا المكان يمكن الوصول إليه دون أن أضيع من وقت « المدام
دوس . . . » .

وهنا قاطعت الأنسة هالدين . ان الحكاية المذكورة أحلاه مبنية على
سردها بالذات والذي لم أقم باضفاء الكثير من الدرامية عايه كما هو
مفترض . فقد قامت الأنسة هالدين ، وبشعور وحيوية استثنائيين ،
بتتمليد متقن للهجة تلميذة بائعة التفاح كارهة الوزراء اللدود والحدام
المطيمة للمتراء . كانت انسانية الأنسة هالدين الصداقة والرقيقة قد أصيبت
بصدمة هائلة بسبب المصير غير العادل لهذه المرأة التي تعرفت عايتها حديثاً ،
تلك الوصيفة ، السكرتيرة ، التي لا أعرف من تكون فعلاً . ومن ناحيتي
فقد سررت لاكتشافي في ذلك عائناً أمام الصداقة الحميمة مع « المدام
دوس . . . » . كنت أשמئز كثيراً من « ايغيريا » (١) بيتر ايغانوفيتش
ذات الوجه المطلي ، المدهون بغير ذوق ، المليت ، وذات العينين الزجاجيتين .
لا أعرف ما كان موقفها تجاه ما هو غير مرئي ، ولكني أعرف أنها كانت
فيما يخص شؤون هذا العالم بخفية ، شرهة ومجردة من المبادئ الأخلاقية .
وقد كنت على معرفة بأنها قد هُزمت في صراع قلز ويانس حول أمور
مالية مع عائلة زوجها المتوفي ، ذاك الدبوماسي . وقد كانت بعض
الشخصيات الكبيرة بالفعل (الذين أصرت في غضبها المجنون على توريثها
على نحو فضائحي في مسائلها) قد جئبت على أنفسها كره المدام . وأعتقد
أنه من السهل عليّ أن أصدق أنها كانت على قيد شعرة من محاولة ختلف ،
لأسباب تتعلق بمصاحبة الدولة ، ووضعها في « مصبح » سري ، أو بصراحة

(١) ايغيريا : في الديانة الرومانية الهة الماء . وكانت تستحضر كاهنة للولادة .
ولأنها كانت مستشارة للملك « نوما » ، فقد أصبح أسماها يطلق على كل النساء المثقفات
الواتي يقدمن النصح للكتاب والفنانين .

في نوع من المستشفيات الخاصة بالمجانين . ويبدو على أية حال أن بعض الشخصيات الرفيعة المركز قد عارضت ذلك لأسباب . . .

ولكن لا فائدة من الخوض في التفاصيل .

وقد يعبر البعض عن استغرابهم حيال معرفة رجل هو عبارة عن معلم للغات لكل هذه التفاصيل وبها الوضوح . للروائي أن يقول ما يشاء عن شخصياته ، ولو أنه يعرف فحسب كيف يقوله باختلاص فقد لا يسأله أحد عما ابتدعته مخيلته والذي يظهر فيه بوضوح إيمانه عن طريق عبارة ، صورة شعرية ، أو لهجة انفعالية . الفن عظيم ! ولكن ليس لديّ فنّ ، وبما أنني لم أخترع « المدام دو س . . . » ، فأنا أشعر أنني مضطر إلى أن أشرح كيف توصات لمعرفة هذا الكثير عنها :

كان من أنبأني هي الزوجة الروسية لصديق لي سبق أن ذكرته ، ألا وهو بروفيسور جامعة لوزان . وقد علمت منها بالمئات آخر وقائع حكاية « المدام دو س . . . » ، والتي أنوي ازعاج قرأني بها . لقد قالت لي ، وهي تتكلم بثقة كبيرة بالنفس ، كمن هو واثق من مصادره ، عن سبب هروب « المدام دو س . . . » من روسيا قبل بضعة أعوام . ولم يكن الموضوع سوى ما يلي تقريباً : لقد أصبحت مشبوهة في أعين الشرطة فيما يتعاقب باغتيال الامبراطور ألكسندر (١) . كان أساس هذه التهمة عبارات أطلقت جزافاً في مكان عام ، أو حديث سمع مصادفة في « صالونها » . ربما سمعه أحد ضيوفها ، أو أصدقائها ، الذي أسرع إلى لعب دور المخبر ، وعلى أية حال فإن هذا الأمر الذي سُمِع مصادفة بدا

(١) يعني ألكسندر الثاني قيصر روسيا الذي اغتيل عام (١٨٨١) . (المترجم)

و كأنه يوحي بأنها كانت على معرفة سابقة بمحادثة الاغتيال ، وأعتقد أنها كانت حكيمة حيث أنها لم تنتظر التحقيق في مثل هذه التهمة . قد يتذكر بعض قرائي كتيباً من تأليفها نشرته في باريس ، وهو عبارة عن كتيب يسوده سوء المزاج ، انفعالي وغير مترابط الأفكار إلى حد بعيد ، والذي أقرت فيه تقريباً بمعرفتها السابقة بمحادثة الاغتيال ، وحزت ذلك إلى مسائل خارقة للطبيعة وطرحت بصراحة وبتامهجات مترعة بالحدود ، أن مسؤولية الحادث تقع ليس على الارهابيين ، بل على مجموعة من المتآمرين في القصر . وحين ألمحت إلى صديقتي ، زوجة البروفسور ، أن حياة « المدام دوس . . . » ، بدباوماسيتها غير الرسمية ، وهوامراتها ، ودعاواها القضائية ، وحظواتها ، ونجازيها ، وعماليات الترحيل فيها ، وجوها الفضائحي ، وعلاقاتها بالطوائف الدينية الغامضة ، وشعوذتها ، كانت أكثر ملاءمة للقرن الثامن عشر من شروط زماننا الحاضر ، فقد صادقت على كلامي بابتسامة ، ولكنها قالت بعد لحظة بهجة تأملية :

— الشموذة ؟ . . . أجل ، نوعاً ما ، ومع ذلك فان الأزمنة تتغير . هناك الآن قوى لم تكن موجودة في القرن الثامن عشر : وان أدهش ان كانت هي أكثر خطورة مما يستطيع أن يصدق رجل انكيزي . وعلاوة على ذلك ، فان البعض ينظرون إليها على أنها خطيرة حقاً . . . لدينا : (ه)
وعبارة « لدينا » هنا تعني روسيا عموماً ، والشرطة السياسية الروسية خصوصاً . كان الغرض من استطرادي هذا عن حكاية الآسبة هالدين (المروية بكلماتي) الخاصة بزيارتها لـ « قصر بوريل » ، هو أن أذكر عبارة صديقتي زوجة البروفسور . وقد أردت ايرادها حتى أجعل ما

(ه) وردت بالفرنسية . (المترجم)

سأقوله عن وجود السيد رازوموف في جنيف ، أمراً أشد قابلية للتصديق
بقليل ، فهذه حكاية روسية معدة للأذان الغربية التي لم تتألف - كما
المحت سابقاً - لهجات السخرية والقسوة ، وانعدام الأخلاق ، وحتى
المحنة الأخلاقية التي سبق لها وطُمِست في طرفنا نحن من أوروبا . وأصرح
بهذا كعلمي لترك الآنسة هالدين واقفة كواحدة من مجموعة مؤلفة من
امرأتين ورجلين اجتمعوا تحت شرفة « قصر بوريل » .

المعرفة التي سبق أن ذكرتها كانت في ذهني ، كما قات ، وذلك
حين قاطعت الآنسة هالدين . لقد قاطعتها بصرخة تدل على الرضا العميق .

- اذن ، فأنت لم تري « المدام دو س . . . » اذن ؟

هزت الآنسة هالدين رأسها . وكان هذا مرضياً جداً لي . لم تكن
قد رأيت « المدام دو س . . . » ! كان ذلك أمراً ممتازاً ، ممتازاً ! لقد
رحبت بفكرة أنها لن تتعرف أبداً على « المدام دو س . . . » الآن . لم
أستطع أن أشرح سبب الفكرة إلا بمعرفتي أن الآنسة هالدين كانت
تقف وجهاً لوجه مع الصديق أخيها الرائع . كنت أفضاه على « المدام
دو س . . . » كرفيق ودليل لتلك الفتاة الشابة التي كانت نهاية أخيها
البائسة قد تركتها وحيدة أمام لاخبرتها . ولكن ، وعلى أية حال ، تلك
الحياة انتهت وقد كانت عزيزة ، وربما كانت افكارها سامية ، ومعاناتها
الأخلاقية عميقة ، وفعلها الأخير توضحية حقيقية . لا يمكننا نحن ، المشق
الرصينين الذين ياطف عنهم امتلاكهم لحرية مهزومة ، أن ندين ، دون
حق في الاستئناف ، شراسة الرغبة المحبطة .

لست نحجولاً من دفء اهتمامي بالآنسة هالدين . كانت تلك ،
كما عليّ أن أعترف ، عاطفة غيرية ، حيث أنها دون مقابل . لقد

ظهر لي المرحوم فيكتور هالدين - في ضوء العاطفة - ليس كمتأثر فاسد ، بل كمتحمس نقى . لم أكن راغباً بالفعل في الحكم عليه ، ولكن الحقيقة المجردة ، حقيقة أنه لم ينجح ، وهي الحقيقة التي سببت كل هذه المشاكل لأمه ولأخته كتيهما ، جعلتني في صفته . في هذه الأثناء ، وخشية أن أرى للنشأة تستسلم أمام تأثير الأفكار الثورية المتعاقبة بالساواة بين المرأة والرجل في « قصر بوريل » ، فقد كنت أشد رغبة في أن أضع ثقتي في ذلك الصديق للمرحوم فيكتور هالدين . لم يكن هذا سوى اسم ، كما يمكنك أن تقول . بالضبط ! اسم ! وعلاوة على ذلك ، الاسم الوحيد ، الاسم الوحيد الذي ذكر في المراسلات بين الأخ والأخت . ولقد وصل هذا الشاب ، وها هما ياتقيان ، ولحسن الحظ دون التدخل المباشر لـ « المدام دوس . . . » . ما الذي سيتبع عن هذا اللقاء ؟ ما الذي ستقوله لي الآن ؟ هذا ما كنت أسأل نفسي عنه .

كان من الطبيعي تماماً أن تتوجه أفكاري نحو ذلك الشاب ، حامل الاسم الوحيد الذي ذُكر في كل ذلك الكلام الخالم عن مستقبل تحققه الثورة ، وقد اتخذت أفكاري شكل توجيه السؤال إلى نفسي عن السبب في أن هذا الشاب لم يتم بزيارة هاتين السيدتين . لقد وصل إلى جنيف قبل بضعة أيام من سماع الأنسة هالدين بذلك لأول مرة عن طريق بيتر إيفارفيتش . وقد حزنتُ لوجود هذا الشخص خلال لقاءهما . كنت أفضل لو حدث ذلك في مكان ما بعيداً عن نظره المغلبي بالنظارات ، ولكني افترضت أنه بعد أن رأى هذين الشابين معاً قام بتقديم واحدتهما إلى الآخر .

وقد حطمت الصمت بأن بدأت أوجه سؤالاً حول هذه الناحية :

— أعتقد أن بيتر ايفانوفيتش . . .
عبرت الآنسة هالدين عن سخطها . فما أن سمع جوابها حتى هاجم
« الوصيفة » بكتلام مخجل .
تساءلت مستغرباً :

— هاجمها ؟ لماذا ؟ لأي سبب ؟
— كان ذلك أمراً غريباً جداً ، كان مخجلاً .
هذا ما قالته الآنسة هالدين بعينين غاضبتين ثم استأنفت :
— لقد قرعها (*) . . . هكذا ، أمام الغرباء . لماذا ؟ لا يمكنك أن
تحزر : بسبب بضع بيضات . . . أوه !

— أنا مندهش : تقولين بضع بيضات ؟

— لسبب يخص « المدام دو . . . » . إذ تخضع هذه السيدة لحمية
خاصة ، أو شيء من هذا القبيل . ويبدو أنها شككت في اليوم السابق
لبیتر ايفانوفيتش من أن البيضات لم تكن مطبوخة بالشكل المناسب . وقد
ذكر ايفانوفيتش فجأة هذا الموضوع فهاجم المرأة المسكينة : كان ذلك
أمراً مثيراً للدهشة إلى أكبر حد . ولقد وقفت هناك وأنا متجمدة من الدهشة .
سألتها :

— هل تعنين أن ذلك المناادي العظيم بمساواة المرأة مع الرجل قد سمح
لنفسه أن يهين امرأة ؟

— أوه ، ليس ذلك ! بل كان شيئاً لا يمكنك أن تتصوره . كان ذلك
دوراً تمثيلاً بغيضاً . تصور أنه رفع قبعته في البداية ولطف من صوته

(*) وردت بالفرنسية .

وجعله ذا لهجة استنكارية : « آه ! أنت لست لطيفة معنا . . . ولن تتنازلي
فنتذكري . . . » . مثل هذه العبارات وبذاك اللهجة . وقد انزعجت
المخلوقة المسكينة إلى آخر حد وجرت الدموع من عينيها . لم تكن تعرف
أين توجه نظرها . ولا أتعجب إن كانت قد فضت الشثيمة ربما أو حتى
الضرب .

لم أطرح رأبي في أنه من الممكن تماماً أنه كان يمارس ضدها كلا
النوعين من الاهانات حين لا يكون هناك أشخاص آخرون حاضرون .
سارت الآنسة هالدين إلى جانبي ، ورأسها مرفوع في صمت ساخط
وغاضب .

قلت بتفاهة :

— لرجال العظماء شذوذاتهم المدهشة ، تماماً كالرجال غير العظماء .
ولكن لا يمكن الاستمرار في مثل هذه الأمور إلى الأبد . وكيف استطاع
ذلك المدافع العظيم عن حقوق المرأة أن يتعم هذه الحادثة المتميزة ؟

وقد حككت لي الآنسة هالدين ، دون أن تنفت برأسها إليّ أن
الخاتمة جاءت مع ظهور الصحفي الذي كان يجري المقابلة مع المدام
« دوس . . . » .

لقد وصل بسرعة ، دون أن يلحظه أحد ، فرفع قبعته قليلاً ، ثم
توقف ليقول بالفرنسية : « لقد طلبت مني البارونة أن أطلب من السيدة
التي قد أراها في طريقي أن تدخل فوراً . »

وبعد أن سلّم رسالته ، أسرع مبتعداً على امتداد الطريق . هرعت
الوصيفة باتجاه المنزل ، ولحق بها بيتر ايفانوفيتش على وجه السرعة ،

والانزعاج بادي عليه . وخلال لحظة وجدت الآنسة هالدين نفسها وحيدة مع الشاب الذي كان دون شك ذلك الوافد الجديد من روسيا . وقد تساءلت ان لم يكن صديق أخيها قد سبق له وميَّزها .

وأنا في وضع يمكنني من القول انه استطاع ذلك دون شك ، وهذه حقيقة . ومن الواضح لي أنّ بيتر ايفانوفيتش ، لسبب ما أو لآخر ، قد تجنَّب التلميح إلى وجود هاتين السيدتين في جنيف . ولكن رازوموف استطاع أن يميَّزها . يا للفتاة الواثقة ! كلّ كلمة نطقها هالدين كانت تعيش في ذاكرة رازوموف . كانت الكلمات أشبه بأشباح تسكنه ، وما كان ممكناً طردها بالرقى والتعاويد . وكان أكثرها حيوية هو ما ذكره عن أخته . لقد تواجدت الفتاة بالنسبة إليه منذ ذلك الحين . ولكنه لم يميَّزها على الفور . فحين كان يقترّب هو وبيتر ايفانوفيتش ، لاحظ وجودها ، بل أن عيونهما قد التقت . وقد استجاب ، كما لا يمكن لأحد سوى أن يستجيب ، للفتنة ككلّ ولقوتها ورشاقتها وصراحتها الهادئة . . . ثم أشاح بنظره بعيداً . قال لنفسه إن هذا كله لم يكن له ؛ جمال النساء وصدّاقة الرجال لم يكونا من الأمور التي تخصّه . وقد قبل ذلك الشعور بحزم هادف ، وحاول أن يستأنف السير . ولكن يدها الممدودة هي التي جعلته يميَّزها . وقد سجّل ذلك في صفحات اعترافاته ، حيث يقول ان ذلك خنقه جسدياً برد فعل انفعالي هو مزيج من الحقد والخوف ، وكأنما كان مظهرها نموذجاً للخيانة التامة .

واجهها . كان الارتفاع الشديد للشرفة يخفيهما عن نظر أي شخص يتسكّع عند مدخل المنزل ، وحتى من نوافذ الطابق العلوي . عبر الشجيرات التي كانت تنمو بشكل عشوائي والأشجار النامية على الأرض

المنحدرة المحيطة بالقصر ، راح يرى البحيرة الباردة الهادئة . لقد أتاحت
لها لحظة من الانفراد التام عند هذا المنعطف . وقد تساءلت بيني وبين
نفسي كيف استغلّ يا ترى تلك الفرصة الطيبة .

سألتها :

— هل توفّر لكما من الوقت ما يكفي لأكثر من كلمات قليلة ؟

لقد غادرتها الآن تماماً تلك الحيوية التي روت لي بها حكاية زيارتها
إلى « قصر بوريل » . وقد راحت تنظر مباشرة نحو الأمام وهي تسير إلى
جانبي ، ولكنني لاحظت احمراراً خفيفاً على خدّها . لم تجبني .

بعد قليل لاحظت أنه لم يكن ممكناً لهما أن يأملا في أن يبقيا منسيين
فترة طويلة ، ما لم يكن الشخصان الآخران قد وجدا « المدام دو . . . »
دائخة من التعب ، ربما ، أو في حالة من السموّ الكثيب بعد تلك المقابلة
الصحفية الطويلة . وفي كلتا الحالتين كان عليهما أن يعتنيا بها بشدة .
و كنت قادراً على أن أصف لنفسي بيتر ايفانوفيتش وهو يندفع خارجاً من
المنزل مرة أخرى ، حاسر الرأس ، ربما ، ثم يتجه ليعبر الشرفة بأسلوب
مشيته المتأرجح ، والجزء الأسفل من معطفه « الفراك » يعوم بعيداً عن
ساقيه الممتلئين بالبنتال الرمادي . وأعترف أنني نظرت إلى هذين الشابين
كطريدين لـ « اللاجئ البطل » . وقد كانت في ذهني فكرة مفادها
أنه لن يسمح لهما أن ينجوا بجلدهما . لم أذكر شيئاً من هذا القبيل أمام
الآنسة هالدين ، ولكنني إذ أحسست أنها كانت غير متجاوبة . ضغطت
عليها قليلاً .

— حسناً . . . ولكنك تستطيعين أن تحكي لي عن انطباعك على

الأقل .

التفتت برأسها لتنظر إلي ، ثم أشاحت بها مرة أخرى .

كررت ببطء وبلهجة تكاد تكون حاملة :

- انطباع ؟

ثم قالت بلهجة أسرع :

- يبدو وكأنه شخص عاني من أفكاره أكثر مما عاني من سوء الحظ .

- هل قلت من أفكاره ؟

- وهذا أمر طبيعي تماماً في شخص روسي ، خاصة ان كان شاباً .

الكثيرون منهم غير لاثقين للفعل ، ومع ذلك فهم غير قادرين على الشعور بالراحة .

- وهل تعتقدن أنه من ذلك النوع من الناس ؟

- لا ، لا أحكم عليه . كيف يمكنني ذلك هكذا فجأة ؟ لقد سألتني

عن انطباعي . . . وقد شرحت لك انطباعي . لا أعرف العالم بعد ولا

أناسه . لقد عشت حياة تتسم بالعزلة . . . لازلت صغيرة السن إلى حد

لا أستطيع معه أن أثق بآرائه .

قلت ناصحاً :

- ثقي بغريزتك . أغلب النساء يفعلن ذلك . ولا ترتكبي أخطاء أسوأ

من أخطاء الرجال . وفي هذه الحالة بالذات لديك رسالة أخيك لتهديك .

أخذت نفساً عميقاً كتنهيدة خفيفة :

- وجود طاهر وشامخ ووحيداني .

هذا ما ردّده مقتبسة من الرسالة ، ولكنني ميزت بوضوح المهمة

التواقة المشوبة بالكآبة :

همست لها :

- مديح سام .

- كأسمى ما يكون .

- سام إلى حد أنه ، كجائزة السعادة ، أكثر ملاءمة لنهاية حياة .
ولكن ما كان ممكناً لشخصية عادية أو غير جديرة ان توحى بكل هذا
الاطراء المبالغ فيه

قاطعتني بحماسة :

- آه ! ولو أنك كنت تعرف فحسب ذلك القلب الذي جاء منه هذا
الحكم !

توقفت عند تلك الملاحظة ، وقد تأملت لفترة في صفة الكلمات
التي أدركت تماماً أنها ستحيل كفة ميزان شعور الفتاة لصالح ذلك الشاب .
لم يكن لها رنين النطق العادي . لقد كانت غامضة على ذهني الغربي
وعواظفي الغربية ، ولكني لم أستطع أن أنسى ، وأنا أقف إلى جانب الأنسة
هالدين ، أنني كنت كمسافر في بلد غريب . وقد توضح لي أيضاً أن
الآنسة هالدين لم تكن راغبة في دخول تفاصيل الجزء المادي الوحيد عن
زيارتها إلى « قصر بوريل » . ولكني لم أشعر بالاساءة . ولم أشعر نوعاً ما
أنني أفتقر إلى الثقة . كانت هناك صعوبة أخرى صعوبة لم أستطع
أن أستاء منها . وقد قلت لها دون أي احساس بالامتعاض :

- حسناً جداً . ولكن على أساس هذا الرأي السامي ، الذي لن أجادل
فيه ، فأنت ، كأني واحدة أخرى في مثل هذه الظروف ، عليك أن
تصنعي لنفسك تصوراً خاصاً بذلك الصديق الفريد ، صورة ذهنية له ،
و . . . أرجو أن تقولي لي . . . هل أصبت بخيبة أمل ؟

- ما الذي تعنيه ؟ مظهره الشخصي ؟

– لا أعني بالضبط حسن منظره ، أو ما شابه .

انعطفنا عند نهاية الشارع وسرنا بضع خطوات دون ان ينظر واحدنا إلى الآخر .

قالت الأنسة هالدين أخيراً :

– مظهره ليس بالعادي .

– لا ، كان علي أن أظن أنه ليس بالعادي . . . وذلك من القليل الذي قلته عن انطباعك الأول . وعلى أية حال ، فعلى المرء أن يراجع عن تلك الكلمة . انطباع ! ان ما أعنيه هو أن هناك شيئاً لا يمكن وصفه يمكن أن يسمّى شخصاً « ليس عادياً » .

أدركت أنها لم تكن تصغي . لم يكن هناك مجال للخطأ في فهم تعبيرها ؛ ومن جديد أحسست أني كنت خارج الأمر . . . ليس بسبب سنتي ، الذي يمكنه أن يستجلب بعض الاستدلالات على أية حال . . . ولكنني أحسست أني خارج الأمر كله ، على سطح آخر لا يمكنني منه سوى أن أراقبها من بعيد . وهكذا حين توقفت عن الكلام راقبتها وهي تسير إلى جانبي .

صاحت فجأة :

– لا ، ما كان ممكناً أن أشعر بنجيبه الأمل تجاه رجل لديه مثل تلك المشاعر القوية .

هممت :

– ها هه ! مشاعر قوية .

هكذا هممت مفكراً في نفسي بنقد قاس : « هكذا ! دفعة واحدة ! في لحظة واحدة ! » .

سألت الآنسة هالدين ببراءة :

— ما الذي قاتته ؟

— آه ، لا شيء . أرجو عفوك . مشاعر قوية . لست مندهشاً .

صاحت بندم :

— ولا تعرف إلى أي حد من الفظاظة تصرفت معه !

أفترض أن كان عليّ أن أبدو مندهشاً ، فقد قالت لي وهي لا زالت تنظر إليّ ولونها قد ازداد احمراراً ، بأنها تخجل بأن تعترف بأنها لم تكن متماسكة إلى حد كاف . لم تستطع السيطرة على كلماتها وتصرفاتها كما كان الموقف يتطلب منها . لقد فقدت النبات الذي كان من شأنه أن يكون سمة اللقاء بين أخت فيكتور هالدين والصيديق الوحيد لفكتور هالدين . كان ينظر إليها بحدة مولكنه لم يقل شيئاً ، وكانت هي — كما اعترفت — متأثرة إلى حد مؤلم بحاجته إلى الفهم . وكل ما استطاعت أن تقولها كان : « أنت السيد رازوموف . » وقد قطّب جبينه قليلاً . وبعد توقف قصير مراقب ، انحنى علامة الموافقة وراح ينتظر .

وحين فكرت أنها تقف أمام الرجل الذي أخوها يحمل له كل ذلك الاعتبار ، الرجل الذي كان يعرف قدره ، وحادثته ، وفهمته ، وأصغى إلى اسراره ، وربما شجّعه . . . ارتجفت شفاتها ، واخضلت عينها بالدموع . مدت يدها وتقدمت خطوة نحوه بتهور وهي تقول باذلة جهدها لتكبح انفعالاتها : « ألا تستطيع أن تحزر من أكون ؟ » لم يأخذ يدها الممدودة . بل تراجع خطوة إلى الوراء حتى ، وتصوّرت الآنسة هالدين أنه كان قد تأثر على نحو غير سار . وقد عذرتة الآنسة هالدين ، فوجهت امتعاضها إلى ذاتها . لقد تصرفت دون جدارة ،

كفتاة فرنسية عاطفية . ومثل هذا التصرف كان من شأنه أن يزعج رجلاً ذا شخصية صارمة متحفظة .

لا شك أنه كان صارماً بالفعل ، أو ربما شديد الخجل مع النساء ، حتى لا يباوب بأسلوب أكثر انسانية مع محاولات فتاة كالآنسة هالدين للتقرب منه . . . هكذا فكرت في نفسي . تلك الشخصيات ذات الوجود الشامخ والوحداني (تذكرت الكلمات فجأة) تجعل الشاب خجولاً والعجوز متوحشاً . . . على الأغلب .

شجعت الآنسة هالدين على الاستمرار :

— حسناً؟

كانت لا تزال شديدة الامتعاض من نفسها .

قالت بلهجة من الاحباط لم أعهد لها فيها :

— سرت بتصرفي من السيئ إلى الأسوأ . لقد ارتكبت كل ما هو طائش باستثناء الانخراط فعلاً في البكاء وأنا ممتنة أنني لم أفعل ذلك . ولكني لم أكن قادرة على النطق لفترة طويلة تماماً .

وقفت أمامه عاجزة عن النطق ، تبتاع بكاءها ، وحين استطاعت أخيراً أن تنطق بشيء ما ، فقد كان ذلك مجرد اسم أخيها . . . « فيكتور . . . فيكتور هالدين ! » هذا ما شهقت به ، ومن جديد خانها صوتها .

علقت قائلة وهي تشرح لي :

— لقد أحبطه ذلك بالطبع . لقد غلب على أمره تماماً . لقد قلت لك رأيي في أنه شخص ذو مشاعر عميقة . . . من المستحيل الشك في ذلك . كان عليك أن ترى وجهه . لقد ترنح بالفعل . وقد استند إلى

جدار الشرفة . لا شك أن صداقتهما كانت مثلاً لأخوة الروح ! لقد شعرت بالامتنان تجاهه لأجل ذلك الانفعال ، الذي جعلني أشعر بخجل أقل تجاه عدم قدرتي على كبح نفسي . لقد استطعت استعادة القدرة على النطق على الفور تقريباً . وقد دام ذلك كله بضع ثوان معدودة . قلت : « أنا أخته . ربما سمعت بي . »

قاطعتها :

– وهل كان قد سمع بك ؟

– لا أعرف . كيف كان ذلك ممكناً ؟ ومع ذلك . . . ولكن ما يهم ذلك ؟ لقد وقفت هناك أمامه ، قريبة إلى حد يستطيع معه أن يلمسني دون أن أبدو كمدعية . وكل ما أعرفه هو أنه مدّ يديه كليهما نحوي ، أو قد أقول قذفهما نحوي بأعظم جاهزية ودفء وأني أمسكت بهما وضغطتهما ، وأنا أشعر أنني قد وجدت ثانية جزءاً مما فكرت أنه قد ضاع مني إلى الأبد ، مع خسارتي لأخي . . . بعضاً من ذلك الأمل ، الالهام ، والدعم الذي كنت أناله من ذلك العزيز الميت . . .

فهمت تماماً ما الذي كانت تعنيه . تابعتنا السير ببطء . تجنبت النظر إليها . وبدأ وكأني كنت أرد على أفكاري حين هممت :

– لا شك أنها كانت صداقة عظيمة . . . كما تقولين . وقد وصل ذلك الشاب إلى الترحيب باسمك ، كما يمكن أن يقال ، بكلتا يديه . وبعد ذلك كنتما ستفهمان بالطبع واحدكما الآخر . أجل ، ستفهمان واحدكما الآخر بسرعة .

وقد مرّت لحظة قبل أن أسمع صوتها :

– يبدو أن السيد رازوموف رجل قليل الكلام . رجل متحفظ . . .
حتى حين يتأثر بشدة .

قلت دون أن أكون قادراً على نسيان – أو حتى أن أغفر – الصراحة
غير المتحفظة ذات الصوت الجهير لبيتر ايفانوفيتش ، الراعي الأكبر
للأحزاب الثورية ، قلت اني أعتبر تلك صفة شخصية ايجابية . كانت
مترابطة في ذهني بالصدق .

أضافت :

– وإلى جانب ذلك ، لم يكن لدينا متسع من الوقت .

– طبعاً ما كان ذلك ممكناً .

كان ارتبائي وحتى خشيتي من الداعية إلى تحرر المرأة و « ايجيريا »
تلك ، أمرين يتعذر استئصالهما إلى حد أني لم أستطع منع نفسي من سؤالها
بقلق حقيقي وان كنت فعلت ذلك مبتسماً :

– ولكنك نجوت بجلدك سالمة .

فهمت ما عنيت ، وابتسمت أيضاً بسبب قلقي عليها .

– آوه ، أجل ، لقد نجوت بجلدي ، اذا شئت أن تسمي المسألة
هكذا . لقد ابتعدت بسرعة . لم تكن هناك حاجة إلى العدو . فأنا لست
خائفة ولا مفتونة بعد ، كذلك المرأة التي استقبلتني على ذلك النحو الغريب .

– والسيد . . . السيد رازوموف . . .

– لقد بقي هناك بالطبع . وأعتقد أنه دخل المنزل بعد أن تركته .
تذكر أنه جاء إلى هنا مع توصية جيدة إلى بيتر ايفانوفيتش . . . ربما
كان يحمل رسائل هامة له .

– آه ، أجل ! من ذلك التسييس الذي . . .

– الأب زوسيم . . . أجل . أو من آخرين ، ربما .

– لقد تركته اذن . ولكن هل رأيت منذ ذلك الحين ، هذا ان كان

لي أن أسألك ؟

لم تجبني الآنسة هالدين لفترة من الوقت على هذا السؤال شديد
المباشرة ، ثم قالت بهدوء :

– كنت أتوقع أن أراه هنا اليوم .

– حقاً ؟ هل تتقابلان اذن في الحديقة ؟ طالما أن الحال هكذا ،

فإن عليّ أن أتركك على الفور .

– لا ، لا تتركني . ونحن لا نتقابل في هذه الحديقة . لم أر السيد
رازوموف منذ تلك المرة الأولى . ولا مرة واحدة . ولكنني كنت أتوقع
منه . . .

توقفت . تساءلت بيني وبين نفسي من السبب في أن هذا الثوري
الشاب لا يبدي سوى القليل من النشاط .

– قبل أن نفرق قلت للسيد رازوموف أنني أتمشي في العادة هنا
لمدة ساعة كل يوم في مثل هذا الوقت . لم أستطع أن أشرح له آنذاك السبب
في أنني لم أدعه إلى منزلنا على الفور . يجب أن تتم تهيئة أمي لمثل هذه
الزيارة . ومن ثم ، كما ترى ، لا أعرف أنا نفسي ما الذي لدى السيد
رازوموف ليقوله لنا . يجب أن يعلم هو أيضاً بحالة أمي المسكينة . لقد
التمعت كل هذه الأفكار في ذهني على الفور . لذلك قلت له بسرعة ان
هناك سبباً يدعوني إلى عدم دعوته إلى منزلنا ، وأن من عادتي أن أتمشي

هنا . . . هذا مكان عام ، ولكن ليس هناك الكثير من الناس في مثل هذه الساعة . ظننت أن هذا حلّ معقول جداً . كما أنه قريب جداً من شقتنا . لا أحب أن أكون بعيدة جداً عن أمرٍ . كما أن خادمنا تعرف مكانني في حال دعت الحاجة إلى وجودي فجأة .

قلت مصادقاً :

— أجل . انه مناسب جداً من وجهة النظر هذه .

وفي الواقع ، أظن أيضاً أن « الحصن » مكان مناسب جداً ، حيث أن الفتاة لم تكن تظن أنه قد آن الأوان بعد لتقديم هذا الشاب إلى أمها . إذن ، كان هذا هو المكان ، كما رححت أفكّر . وأنا أنظر فيما حولي إلى تلك البقعة من الأرض شديدة الابتذال ، المكان المناسب لأن تبدأ فيه علاقتهما وتستمر عبر تبادل الكثير من السخط والانفعالات الحادة ، شديدة اللذع ربما ، بحيث لا يمكن لذهن غير روسي أن يفهمها . لقد رأيت هذين الاثنين ، الناجيين من بين ثمانين مليوناً من البشر المطحورين بين شقي الرحى ، يسيران تحت هذه الأشجار ، ورأساهما الشابان قريبان واحدهما من الآخر ، مكان ممتاز للتنزه مشياً على الأقدام والمحادثة . لقد خطر لي حتى ، حين انعطفتنا مرة أخرى مبتعدين عن البوابات الحديدية الكبيرة ، أنهما حين يتعبان سيجدان الكثير من الأماكن للراحة . فقد كانت هناك عدد من المناضد والكراسي منتشرة بين مبنى المطعم ومنصة الفرقة الموسيقية ، وكذلك مجموعة كاملة من المقاعد المصنوعة من الألواح الخشبية المطلية بالدهان تحت الأشجار . في منتصف ذلك المكان رأيت زوجين سويسريين وحيدين مضموني المصير من المهدي إلى اللحد بواسطة الآلية المتكاملة لمؤسسات ديمقراطية في جمهورية يمكن أن يمسك بها المرء

في كف يده . كان الرجل الغريب الأطوار الشاحب اللون ، يشرب الجعة من كأس لامية ، والراه الريفية الهادئة المظهر تستند نحو الخلف في الكرسي المصنوع بطريقة بدائية ، وتحديق فيما حوفا بكسل .

ليس متوقفاً أن نجد على هذه الأرض سوى اقليل من المنطق ، ايس في مسألة الفكر فحسب ، بل في مسألة العاطفة أيضاً . لقد دهشت إذ اكتشفت أني قد انزعجت من ذلك الشاب المجهول . لقد مرّ أسبوع منذ التقيا . هل هو ذو فؤاد قاسر ، أم شاب نحجزل أم شديد الغباء ؟ لم أتطع فهم ذلك .

سألت الآنسة هالدين بعد أن قطعنا بعض المسافة في اشارع الكبير :

— هل تعتقدين أن السيد رازوموف فهم مقصدهك ؟

تساءلت :

— فهم ما كنت اعنيه ؟ لقد تأثر إلى حد كبير . هذا ما أعرفه بالتأكيد ! لقد رأيت ذلك رغم استنارتي . ولكنني تكلمت بوضوح . وقد سمعني ، وبدا وكأنه يتشبه بكلماتي . . .

أسرعت في مشيتها دون وعي . كما أصبح نطقها أسرع أيضاً .

انتظرت قليلاً قبل أن أقول متأملاً :

— ومع ذلك فقد سمع لهذه الأيام كلها أن عمر .

— كيف لنا أن نعرف ما العمل المنوط به هنا ؟ ليس هو بالمتبطل المسافر لأجل متعته الخاصة . قد لا يكون وقته ملكاً له . . . ولا حتى أفكاره بعد ربما . . .

أبطأت من سيرها فجأة وأضافت في صوت خفيض :

— وربما حياته أيضاً .

ثم توقفت عن السير . وقالت :

— ربما اضطر إلى مغادرة جنيف في ذلك اليوم نفسه الذي التقاني فيه .

صحت غير مصدق :

— دون أن يبلغك !

— لم أترك له الفرصة . لقد غادرته فجأة . لقد تصرفت انفعالياً حتى النهاية . أنا آسفة لأنني فعلت ذلك . وحتى لو منحتة الفرصة لكان عدم وثوقه بي مبرراً . ان فتاة انفعالية باكية ليست بالشخص الذي يستطيع المرء أن يفضي إليه بأسراره . ولكن حتى لو غادر جنيف لمدة من الزمن ، فأنا على ثقة من أننا سنلتقي مرة أخرى .

— آه ! أنت على ثقة . . . ولكن على أي أساس ؟

— لأنني قلت له اني في حاجة ماسة إلى شخص ما ، مواطن من بلدي ، إلى مؤمن بما تؤمن به ، أستطيع أن أبوح له بمسألة معينة .

— حسناً ! لن أسألك عن جوابه على هذا . أعترف أن هذا أساس جيد لايمانك في أن السيد رازوموف سيظهر حتماً خلال فترة قصيرة ولكنه لم يظهر اليوم ، أليس كذلك ؟

قالت: بهدوء :

— لا ، ليس اليوم .

ثم وقفنا لفترة في صمت ، كشخصين لم يعد لديهما ما يقولانه
واحدهما للآخر ، وهما يتركان أفكارهما تتراكم بجنون في جهتين
متباعدين قبل أن يفترق جسداهما ويروح كل في طريقه . نظرت الآنسة
هالدين إلى ساعة يدها وقامت بحركة فظة . لقد سبق لها وتجاوزت الوقت
المحدد كما يبدو .

هممت وهي تهز رأسها :

— لا أحب أن أبتعد عن أمي . ليس الأمر أنها مريضة جداً الآن ،
ولكني أشعر بالقلق الشديد حين لا أكون معها .

لم تكن السيدة هالدين قد ألمحت إلى ابنها مطلقاً خلال الاسبوع الذي
مضى أو نحوه . كانت تجلس ، كعادتها ، في الكنية قرب النافذة ، وهي
تنظر إلى الخارج بصمت نحو ذلك الامتداد البائس لشارع النلاسة .
وحين كانت تتكلم ، كانت تتلفظ بوضع عبارات ميتة لا حياة فيها
عن أمور تافهة غير هامة .

— بالنسبة إلى أي شخص يعرف ما الذي تفكر فيه تلك الروح
المسكينة ، فان ذلك النوع من الكلام أكثر ايلاماً من صمتها . ولكن
صمتها أمر رهيب أيضاً لا أستطيع سوى بالكاد أن أحتمله ، ولا أجرؤ
على كسره .

تنهدت الآنسة هالدين وهي تثبت زراً في قفازها كان قد أفلت .
كنت أعرف تماماً الأوقات العصيبة التي تعانيتها . كان من شأن هذا الاجهاد
وأساببه وطبيعته أن يخرّب صحة فتاة غربيّة . أما الطبيعة الروسية فتتميز
بقدره قريده على مقاومة مظالم الحياة . لقد أجبرتني على أن أشعر نحوها بالهجب
والاعجاب وذلك لرشاقتها واستقامة جسدها ، وارتدادها الجا كيت قصير

مفتوح فوق ثوبها الأسود الذي جعلها تبدو أكثر رهافة وجعل وجهها
النضر انما الشاحب اكثر شحوباً .

— لا أستطيع أن أبقي ولا لحظة واحدة أخرى . عليك أن تأتي
لزيارتنا قريباً لترى أمي . أنت تعرف أنها تدعوك بـ « الصديق »
(بالفرنسية) . وهذا اسم رائع وهي تعني ما نقوله حين تتلفظ به .
والآن « وداعاً » (بالفرنسية) ، علي أن أركض .

ألقت نظرة غامضة إلى الممشى العريض . . . وقد راوغت اليد
التي مدتها إلى فيضني بحركة غير متوقعة نحو الأعلى لتستقر على كتفي .
كانت شفتاها الحمر اوان قد افترقتنا قليلاً ، ليس لتبتسما على أية حال ،
ولكن للتعبير عن سرور مندهل . حدثت إلى البوابات ثم قالت بسرعة مع
شهقة :

— ها هو ! لقد عرفت ذلك . ها هو قد أتى !

فهتت أنها كانت تعني دون شك السيد رازووف . كان هناك
شاب يسير على امتداد الشارع دونما اسراع . كانت ملابسه ذات لون
بني كثيب ، وكان يحمل عصا . وحين سقطت عيناها عاياه لأول مرة
كان رأسه معاناً على صدره كأنما هو في حالة تفكير عميق . وبينما كنت
انظر إليه رفع رأسه بجدّة ثم توقف فوراً . أنا واثق من ذلك ، ولكن
ذلك التوقف لم يكن ممكناً ملاحظته ، فقد كان مجرد تمهل مضطرب في
مشيته تغائب هو عاياه على الفور . ثم استأنف تقدمه وهو ينظر إلينا
بشبات . أشارت إلي الآنسة هالدين أن أبقي ، ثم تقدمت خطوة أو
خطوتين للاقائه .

أشحت برأسي بعيداً عن ذلك اللقاء ، ولم أنظر إليهما ثانية حتى سمعت صوت الآنسة هالدين وهو يلفظ اسمه بأسلوب التقديم . وقد تم ابلاغ السيد رازوموف باهجة دافئة خفيفة ، أنه إلى جانب كوني معلماً رائعاً فأنا أيضاً سند عظيم « في محنتنا وبلائنا » .

كما وُصِفْتُ أيضاً على أي انكايزي . كانت الآنسة هالدين تتكلم بسرعة ، أسرع من أي وقت مضى ، وكان من شأن هذا أن يجعل هدوء عينيها - بالتباين - أكثر تعبيراً .

أضافت وهي تنظر طوال الوقت إلى السيد رازوموف :
- لقد منحتُه نقتي .

كان ذلك الشاب قد راح يحدق فعلاً إلى الآنسة هالدين ، ولكنه لم يكن ينظر - بكل تأكيد - إلى عينيها اللتين كانتا جاهزتين جداً له ؛ وبعد ذلك كان ينظر نحو الخلف ونحو الأمام إلينا كإينا ، بينما كانت البداية الباهتة لابتسامة مقحمة ، ياحقها شبه تقطبية ، يتلاشيان الواحد في اثر الآخر . لقد ميزتهما ، رغم أنه ما كان ممكناً لشخص آخر أقل تصميماً على اكتشافه بالحدس ، أن يميزهما . لا أعرف ما ميزته نانالي هالدين ، ولكن انتباهي التقط حتى ظلال تلك الحركات . كانت محاولة الابتسام قد تم التخلي عنها ، وكذلك تم كبح مشروع التقطبية كما تم تلطيف الملامح بحيث لم يتبق منهما أي أماراة ، ولكني تخيَّته يصبح في داخله « ثقته ! لهذا الرجل الكهل . . . هذا الأجنبي ! »

لقد تخيَّلت ذلك لأنه بدا أجنبياً تماماً بالنسبة إليّ . وقد كان انطباعي عموماً في صالحه . كان يتمتع بهيئة تدل على الذكاء والثقافة وحتى بعض التمييز بالمقارنة مع المتوسط الذي يتمتع به طلاب وسكان « روميا

الصغيرة ، الآخرين . كانت ملامحه أكثر تحديداً من ملامح الوجوه الروسية عموماً . كان لديه خط واضح للفك ، ووجنة مخلوقة جيداً وشاحبة ، وكان أنفه عبارة عن ضلع وليس مجرد بروز . وكان يرتدي قبعته بحيث تنزل حتى عينيه ، وشعره الداكن قد هبط متجهداً حتى مؤخر عنقه . وضمن الملابس البنية غير الملائمة كانت أعضاؤه تبدو قوية ، وكان هنالك انحناء خفيف يجعل كتفيه عريضتين بما فيه الكفاية . لم أشعر بخيبة الأمل عموماً : مجدّ . . . قوي . . . نخجول . . .

وقبل أن تتوقف الآنسة هالدين عن الكلام أحسست بيده تقبض على يدي . وكانت قبضته شديدة تدل على عضلات قوية ، ولكنها أيضاً حارة وجافة إلى حد غير متوقع . ولم ترائق مصافحته القضيرة الجفاقة أية كحة أو حتى همهمة .

كنت أنوي أن أتركهما لشأنهما ، ولكن الآنسة هالدين لمستني على ذراعي بالهتة : مما كان يدلّ على رغبة واضحة في أن أبقى . فابتسم ما شاء له الابتسام ، ولكنني سأبقي إلى القرب من ناتالي هالدين ، ولست نخجلاً من القول ان المسألة لم تكن بالنسبة إليّ مسألة ابتسام : لقد بقيت ، ليس كما كان من شأن شباب أن يبقي ، متشاكراً فعلاً كأنما أرفرف في الهواء ، ولكن برصانة ، وقدماي على الأرض وذهني يحاول اختراق مقصدها . كانت قد التفتت إلى رازوموف .

— حسناً . هذا هو المكان . أجل ، لقد كان قصدي أن ألقاك هنا . وقد جئت إلى هنا لأتمشي في كل يوم من الأيام الماضية . . . لا تحاول أن تجد عدراً لنفسك . . . أفهمك تماماً . أنا شاكرة لك قدر ماك هذا اليوم ، ولكنني لن أستطيع البقاء على أية حال . هذا مستحيل . عليّ أن أسرع إلى

البيت . أجل ، حتى مع وجودك واقفاً أمامي ، الا أنني مضطرة للانطلاق فوراً . لقد طال غيابي . . . أنت تعرف كيف هي الأمور ؟

هذه الكلمات الأخيرة وجهتها إليّ . وقد لاحظت أن السيد رازوموف مرّر رأس لسانه فوق شفثيه كما قد يفعل شخص ظامىء محموم . أخذ يدها ببقاها الأسود التي أطبقت على يده وأمسكت بها . . . كانت تبقّيها في يدها على نحو مرئي تماماً لي رغم حركته التي كانت تحاول سحب يده من يدها .

استأنفت تقول بدفء :

— شكراً لك مرة أخرى . . . لأنك تفهمني .

وقد قاطعتها بنوع من الخشونة . لم يعجبني أن يخاطب تلك المخوقة الصريحة من تحت حافة قبعته كما حدث . كما كان صوته ضعيفاً أبع كصوت رجل مصاب بجفاف، في الخنجرة .

— على أي شيء تشكريني؟ أفهمك؟ . . . كيف أفهمك؟ . . . الأخرى بك أن تعرفني أنني لم أفهم شيئاً . كنت مدركاً أنك تريدني مشاهدتي في هذه الخديقة . لم أستطع المجيء قبل الآن . لقد كان هناك ما أعاقني . وحتى في هذا اليوم ، فأقد جئت متأخراً . . . كما ترين . كانت لا تزال تمسك بيده .

— أستطيع على أية حال أن أشكرك لأنك لم تصرفني عن ذهنك على أي فاة ضعيفة انفعالية ، لا شك أنه تعوزني المساندة ، أنا شديدة الجهل . ولكن يمكن الوثوق بي . يمكن ذلك حقاً !
كرر متأملاً :

— أنت جاهلة .

كان قد رفع رأسه وراح ينظر إلى مباشرة وجهها الآن ، بينما كانت لا تزال ممسكة بيديه . وقد وقف هكذا للحظة طويلة . ثم أظمت يده .

— أجل ، لقد جئت متأخرة . لكم هو جميل أنك أتيت خلال تلكتي هنا . لقد كنت أحادث هذا الصديق الطيب . كنا نتحدث عنك . أجل يا كيرياو سيلوروفيتش ، عنك . كان معي حين سمعت للمرة الأولى عن وجودك في جنيف . ويستطيع أن يحكي لك كم شعرت روحي المضطربة بالارتياح حين سمعت ذلك النبأ . كان يعرف أنني أوي البحث عنك . كان ذلك هو الغرض الأساسي من قبولي دعوة بيتر ايفانوفيتش ... قاطعها بذلك الصوت الراجف الذي يوحى بمنجرة جافة إلى حد مرعب :

— وهل حدثك بيتر ايفانوفيتش عني ؟

— القليل النادر . ذكر لي اسمك وأنتك وصات إلى هنا . ولماذا عليّ أن أسأله المزيد ؟ وما الذي كان يمكنه أن يقوله لي ولست أعرفه مسبقاً من رسالة أخي ؟ ثلاثة أسطر ! وكم كانت مائة بالمعاني بالنسبة لي ! سأريك اياها في أحد الأيام يا كيرياو سيدوروفيتش . ولكن عليّ أن أذهب الآن . لا يمكن لأول حديث بيننا أن يكون مسألة دقائق نحتمس ، لذا الأفضل ألاّ نبدأ . . .

تدّ ، أقف إلى جانب ، وأراهما كلاهما جانبياً . وفي تلك اللحظة خطر لي أن وجه السيد رازوموف كان أكبر مناً من عمره .

— لو أن أُمي . . .

وهنا التفتت فجأة إليّ ثم استأنفت :

– استيقظت فجأة في غيابي (الذي طال أكثر من أية مرة أخرى) ، فسوف تستجوبني على الأرجح . يبدو أنها تفتقدني أكثر فأكثر ، كما تعرف ، مؤخراً . ولا شك أنها ستريد أن تعرف ما الذي أخبرني وكما ترى . . . سيكون مؤلماً أن أخفي عنها شيئاً .

فهمت ما عنته تماماً . ولهذا السبب نفسه فقد صدت ما بدا أنه من جانب السيد رازوموف محاولة لمرافقتها .

– لا ! لا ! سأذهب لوحدي ، ولكن قاباني هنا بأسرع ما

تستطيع .

ثم قالت لي بلهجة أخفض وان تكون ذات مغزى :

– قد تكون أُمي جالسة عند النافذة في هذه اللحظة ، تنطبع إلى الشارع . ولا يتوجب أن تعرف عن وجود السيد رازوموف هنا حتى . . . حتى يتم تدبير أمر ما .

ثم توقفت عن الكلام قبل أن تضيف بصوت أعلى ، ولكنها كانت
! تزال تخاطبني :

– السيد رازوموف لا يفهم تماماً الصعوبات التي أواجهها ، ولكنك

تعرفها .

. . .

— خامساً —

بإماعة سريعة بالرأس لكياننا ، وبمنظرة جدية ودية إلى الشاب ، غادرتنا الآنسة هالدين ونحن نغطي رأسينا بالقبعات ونراقب جسدنا المستقيم اللدن وهو يبتعد بسرعة . لم تكن مشيتها من ذلك النوع الذي يتمز بانزلاق هجين غير واثق والذي تصطنعه بعض النساء ، بل حركة صريحة ، قوية وصحية نحو الأمام . لقد باعدت المسافة بسرعة . . . واختفت فجأة أخيراً . واكتشفت آنذاك فحسب أن السيد رازوموف بعد أن أنزل قبعته حتى غطت معظم جبينه ، كان يتفحصني من الرأس إلى القدم ، ويمكنني أن أقول اني كنت حقيقة لم يكن ذلك الشاب الرومي يتوقع أن يتعثر بها اطلاقاً . وقد رأيت في ملامح وجهه ، وفي كامل وقفته ، تعبيراً مؤلفاً من التفضول والاحتقار ، معزّزاً بالذعر . . . كأنما كان يمسك بأنفاسه حين لم أكن أنظر نحوه . ولكن عينيه قاباتا عيني بتحديدقة مباشرة بما فيه الكفاية . وحينها رأيت للمرة الأولى أنهما كانتا ذات لون بني صاف ومهدبتين بأهداب سوداء كثيفة . كانتا أكثر ملامحه شبابياً . لم تكونا عينين غير لطيفتين . مال بخفة وهو يستند إلى عصاه وأصبح معلقاً في الهواء . وقد خطر لي فجأة خاطر سريع أن الآنسة هالدين تعمدت أن تتركنا معاً . . . أن هناك شيئاً ما قد أوكات إلي أن أنفذه ، حيث أني ، وبعض الصدفة ، تواجدت في المكان والزمان المناسبين . وبناء على هذه الأساس المفترض ، فقد تصرفت بكل ود معقول .

رحت أبحث عن شيء ملائم أقوله ، وفجأة رأيت في آخر كلمات قالتها
الآنسة هالدين دليلاً لطبيعة مهمتي .

قلت باهجة جادة ، وان أرفقتها بابتسامة :

— لا ، لا يمكن أن يتوقع منك أحد أن تفهم الآن .

ارتجفت شفته المحاوقة جيداً قليلاً جداً قبل أن يقول وكأنه قد
سُرَّ على نحو شرير :

— ولكن أولم تسمع ما جرى الآن ؟ لقد شكرتني تلك السيدة
الشابة لأنني أفهم جيداً جداً .

نظرت إليه بقسوة نوعاً ما . هل كان هناك ازدراء خفي وغاضب في
رده السريع والحاسم ؟ لا ، لم يكن الأمر كذلك . قد يكون ذلك مجرد
استياء . أجل ، ولكن ما الذي لديه ليستاء منه ؟ بدا عايبه وكأنه لم يكن
ينام جيداً في الفترة الأخيرة . لقد كنت قادراً على أن أشعر بثقل تحديقته
التعبية الساكنة ، تحديقة رجل يتمدد دون أن يرمش في الظلام ، تراوده
الأفكار الكارثية ولكنه ساجي تجاهها وغاضب أيضاً بسبب هذه السابية .
والآن ، وأنا أعرف كم كانت وجهة نظري صحيحة ، فأستطيع أن
أؤكد بصدق أن هذا « كان » هو الانطباع الذي تركه لدي . كان ذلك
أمراً مؤلماً على نحو غريب غير محدد . . . فالتحديد يصني . الآن بينما
أجاس لأكتب وأنا على معرفة تامة بالتفاصيل . ولكن كان هذا هو
التأثير الذي تركه لدي في ذلك الوقت الذي كنت فيه في جهل مطبق ، هذا
النوع الجليد من القلق الذي بدا عايبه أنه يقحمه علي ، حاولت أنا أن
أحبطه بأن تظاهرت بنوع من الحميمية والرغبة في الحديث .

— هذه الشابة شديدة الفتنة والمثيرة للاعجاب (أنا كما ترون -جوز
بما فيه الكفاية بحيث يمكنني أن أكون صريحاً في تعبيراتي) كانت تدحج
إلى مشاعرها بالذات . لا شك أنك فهمت بقليل ما فهمت أنا ، اليس
كذلك ؟

قام بحركة فظة إلى حد أنه ترنح قليلاً حتى .

— لا شك أن فهمت هذا ! ليس متوقفاً أن تفهم ذلك ! قد تكون
لدي أمور أخرى أفعالها . والفتاة فائنة ومثيرة للاعجاب . حسناً . . . وإن
كانت كذلك ! أفترض أنني أستطيع رؤية ذلك بنفسي .

كان ممكناً لهذا الانفجار أن يكون مهيناً لو لم يكن صوته قد اختفى
عمياً ، جف في حلقه ؛ وكان الجهد الذي يبذله لينكم مؤناً إلى حد
لا يمكنه معه أن يكون مهيناً .

بقيت صامتاً ، محصوراً بين الحقيقة الواضحة والانطباع الدق . كان
ممكناً لي أن أغادره في ذلك المكان والزمان ، وأمكن الاحساس بأنني كنت
مكتئفاً بمهمة ، والايحاء الذي كان في آخر نظرة للآسة هالدين ، كانا
شديدي التأثير عليّ . وبعد لحظة تأمل قلت :

— هل لنا أن نمشي معاً لفترة قصيرة ؟

هزّ كتفيه بعنف شديد إلى حد أنه ترنح مرة أخرى . لقد رأيت
ذلك بطرف عيني حين تحركت وهو إلى القرب من مرفقي . كان قد
ترجع قليلاً إلى الخلف وأصبح خارج مرمى نظري إلا إذا التفت برأسي
لأنظر إليه . لم أرغب في أن أنفسه أكثر من ذلك بأن أظهر بمظهر الفضولي .
ربما كنت أثير اشمزاز هذا اللاجيء الشاب المتكتم التمام من تحت الغلّ

الروائي الذي يحفي الوجه الكريم الحقيقي لأرض وطنه . وكان هذا الظل المصاحب لمواطنيه ، يتمدد عبر أوروبا ، ويثقل عاينه هو أيضاً ، ويجعل شخصه أكثر غموضاً . قات في نفسي : « لا شك أنه يبدو كثورى كتيب بل ويائس حتى ؛ ولكنه شاب لا يزال ، وقد يكون غيرياً وانسانياً ، وقادراً على التعاطف ، على . . . »

سمعته يتنحج ليطرّي حنجرتَه الجفاة وأصبح شديد الانتباه .

قال :

— هذا يتجاوز كل شيء ، انه يتجاوز كل شيء ! أجدك هنا ، لسبب لا أستطيع فهمه ، ومالكاً لشيء ما لا يتوقع مني فهمه ! رجل موضع ثقة ! أجنبي ! يتحدث عن فتاة روسية مثيرة للاعجاب . هل الفتاة المثيرة للاعجاب حمقاء ؟ هذا ما بدأت أتساءل عنه . ما أنت ؟ ما هو غرضك ؟

كان صوته مسموعاً بالكاد ، وكان حنجرتَه ما عاد فيها من الرنين أكثر مما هو في خرقة أو قطعة من الصوفان . كان الأمر مثيراً للشفقة بحيث أني وجدت أنه من السهولة بمكان أن أسطر على مسخطي .

— حين تصبح أكبر سنّاً يا سيد رازوموف ، ستكتشف أنه ليس هناك من امرأة حمقاء تماماً . لست من أنصار المرأة كذلك المؤلف الشهير ، بيتر ايفانوفيتش ، الذي أشكّ فيه إن أردت الحقيقة . . .

قاطعتني باهجة هامسة تدلّ على الدهشة :

— تشكّ فيه ! تشكّ في بيتر ايفانوفيتش ! أنت تشكّ . . . !

— أجل أشكّ فيه من ناحية بعينها .

ثم استأنفت وأنا أصرف النظر عن ملاحظتي السابقة :

— كما كنت أقول يا سيد رازوموف ، فأنت حين تصبح أكبر سنّاً ستتم كيف تميّز ما بين الثقة النبوية لطبيعة بعيدة عن كل نخاسة ، وبين السذاجة المفرورة لبعض النساء . رغم أنه حتى النساء الساذجات ، مهما كنّ حمقاوات ، وغير سعيدات بالتأكيد ، لسن حمقاوات تماماً أبداً . وفي اعتقادي أنه ليست هناك امرأة يمكن خلداعها تماماً . وأولئك اللواتي يتمرّضن إلى الضياع ، يقفزن إلى الهاوية بعيون مفتوحة ، هذا ان عرفت الحقيقة كلها .

صاح عند مرفقي :

— هيتا قل لي ما شأني سواء كانت النساء حمقاوات أو مجنونات ؟ لا أهتمّ إطلاقاً في الواقع برأيك فيهنّ . أنا . . . لست مهتماً بينّ . أتركهنّ في حالهنّ . لست شخصية روائية . كيف تعرف أنني أريد أن أتعم أي شيء عن النساء ؟ . . . ما معنى هذا كله ؟

— تقصد الغرض من هذه المحادثة التي أقرّ بأنها فرضت عليك فرضاً نوعاً ما .

كرو وهو لا يزال متخفّفاً عني نصف خطوة أو نحوها :

— « فرضت » ! « غرض » ! لقد أردت التحدّث عن النساء على ما يبدو . وهذا موضوع لا أهتمّ به . لم يسبق لي . . . في الواقع لديّ مواضيع أخرى أفكّر بها .

— أنا مهتمّ هنا بامرأة واحدة فقط . . . فتاة شابة . أنت صديقك المتوقفي . . . الآسة هالدين . لا شك أنك تستطيع أن تعبرها القليل من

التفكير . ما عنيته منذ البداية كان وجود وضع ليس متوقعاً منك أن
تتفهمه .

أصغيت إلى وقع أقدامه غير الثابت إلى جانبي مسافة خطوات عدة .

— أعتقد أن من شأن هذا أن يمهّد الطريق للقائك التالي مع الأنسة
هالدين لو حكيت لك عننا . وأعتقد أنه قد يكون شيء من هذا القبيل في
ذهنها حين تركتنا معاً . أعتقد أنني مفوض بالحديث . الوضع العجيب الذي
ألمحت إليه قد نجم عن الصدمة الأولى للحزن والأسى نتيجة لاعدام
فيكتور هالدين . كان هناك شيء مبهم يحيط بظروف اعتقاله . لا شك
أنك تعرف الحقيقة كاملة . . .

أحسست بذراعي يمسك بها من فوق المرفق ، وفي اللحظة التالية
وجدت نفسي أتأرجح لأواجه السيد رازوموف .

— ها أنت تقفز من تحت الأرض بهذا الحديث . من أنت بحق
الشيطان ؟ لا يمكن احتمال هذا ! عجباً ! لماذا ؟ ما الذي تعرفه عما هو
عجيب أو غير عجيب ؟ ما علاقتك بأية ظروف لعينة ، بأي شيء يحدث
في روسيا على أية حال ؟

اتكأ على عصاه بيده الأخرى ، بثقل ، وحين حرّر ذراعي ، كنت
واثقاً من أنه لا يستطيع إلا بالكاد أن يبقى واقفاً على قدميه .

قلت وأنا أتجاهل هذا الكشف لعواطف عميقة إلى حد غير متوقع ،
ولم يفتم ذلك دون أن يترك تأثيره عليّ ، وقد أحسست بالشفقة عليه ،
قلت :

— فلنجاس إلى إحدى تلك المناضد الفارغة .

— أية مناظرة ؟ عمّ تتحدّث ؟ أوه . . . المناظرة الفارغة ؟ تلك
المناظرة هناك . بكلّ تأكيد . سأجاس إلى إحدى تلك المناظرة .

قدتته بعيداً عن الممر إلى وسط المجموعة الكبيرة من الألواح الخشبية
الصنوبرية أمام القلعة . كان الزوجان السويسريان قد رحلا الآن . ها
نحن لوحدهنا . نزل السيد رازوموف بثقله على أحد الكراسي ، وترك
عصاه تسقط ، ثم اتكأ على مرفقيه ورأسه بين يديه وراح يحدّق إليّ
بالحاح ، بصراحة ، وبمباشرة ، بينما كنت أشير إلى النادل وأطاب بعض
الجمعة . ما كان ممكناً أن أزعل من هذا الفحص الصامت لشخصي ،
لأنني ، إذا أردتم الحقيقة ، كنت أشعر بالذنب نوعاً ما لأنني هاجمته
فجأة . . . « قفزت من تحت الأرض » كما عبّر هو عن ذلك .

وبينما كنت أنتظر وصول الجمعة ذكرت له أنني ولدت لزوجين
استقرّا في سانت بطرسبورغ ، ممّا جعلني أكتسب اللغة وأنا طفل بعد .
وأنا لا أتذكر المدينة كوني غادرتها وأنا في التاسعة من عمري ، ولكنني
جدّدت معرفتي باللغة بعد سنوات من ذلك . راح يصغي دون أن يحرك
حتى عينيه على الأقلّ ولو قليلاً . كان عاينه أن يغيّر من جاسته لدى
وصول الجمعة ، وقد أنعشه على ما يبدو أنه أفرغ كأسه مرة واحدة ،
استند بظهره إلى الكرسي ، وبينما كان يلفّ ذراعيه فوق صدره ،
راح يحدّق إليّ وجهاً لوجه . لقد خطر لي أن هذا الوجه الحليق جيداً ،
والداكن البشرة ، كان من النوع المتحرك تماماً ، وأن سكونه المطاق
كان عادة اكتسبها هذا الثوري ، هذا المشارك في المؤامرات والمدي عاينه
أن يكون حليراً باستمرار ضد الزلزال في عالم الجواسيس السريين .

— ولكنك انكليزي . . . معلّم للأدب الانكليزي .

هذا ما همهم به بصوت لم يعد يصدر الآن عن حنجرة جافة . ثم
استأنف :

- لقد سمعت بك ، أخبرني الناس أنك تعيش هنا منذ سنوات .
- صحيح تماماً . أكثر من عشرين عاماً . وقد كنت أساعد الآنسة هالدين في دروس الانكليزية .
- كنت تقرأ معها الشعر الانكليزي .

هذا ما قاله ، دون أن يكون قادراً على التحرك الآن ، كأنه شخص آخر تماماً ، شخص مختلف تماماً عن ذلك الآخر ثقيل الخطو غير واثقه والذي كانه منذ فترة وجيزة . . . عند مرفقي .

قلت :

- الشعر الانكليزي . . . أجل . ولكن المشكلة التي أتحدث عنها
سببها صحيفة انكليزية .

استمرّ في التحديق إليّ . لا أعتقد أنه كان على معرفة بأن حكاية
القبض في منتصف الليل كانت قد تسربت إلى صحفي انكليزي ومنه
إلى العالم كله . وحين شرحت له ذلك همهم باحتقار :

- قد يكون ذلك كله عبارة عن كذب في كذب .

أجبتّه ببعض الاضطراب :

- عليّ أن أعتقد أنك أفضل من يحكم على ذلك . وعليّ أن أعترف
أن المسألة تبدو لي صحيحة على الأغلب .

سأل بأسلوبه الجديد غير القابل للحركة الآن :

- وكيف يمكنك أن تميّز الحقيقة من الكذب ؟

قلت وقد انزعجت من موقفه :

– لا أعرف كيف تفعلون ذلك في روسيا . . .

ولكنه قاطعني :

– في روسيا ، وفي كل مكان عموماً . . . في صحيفة من الصحف
مثلاً . ان لون الحبر وأشكال الأحرف لا تختلف .

– حسناً ، هناك أمور تافهة أخرى يمكن أن يمرّ بها المرء . نوع
النشرة ، واحتمال صحة الخبر ، ودراسة الدافع . . . الخ . لا أثق على
نحو أعمى بدقة المراسلين الصحفيين الخصوصيين . . . ولكن لماذا يزعم
هذا الصحفي بالذات نفسه فيختلق كذبة عرضية فيما يتعلق بمسألة لا
أهمية لها في نظر العالم ؟

غمغم :

– وهذه هي المسألة . ان ما يحدث لنا لا أهمية له . . . مجرد حكاية
مثيرة لتسلية قرّاء الصحف . أوربا المتفوقة المزدرية . ان التفكير في ذلك
لأمر كرهه . ولكن فلينتظروا قليلاً !

وهكذا قطع كلامه عند هذا التهديد الموجه إلى العالم الغربي . وقد
المحت ، دون أن أتجاهل الغضب المتجلّي في عينيه ، إلى أنه سواء كان
الصحفيّ ذا مصادر موثوقة أو غير موثوقة ، فان اهتمام أصدقاء هاتين
السيدتين كان مصدره تأثير تلك الأسطر القليلة المطبوعة . . . التأثير
وحده . ولا شكّ أنه يجب أن يعدّ كواحد من أصدقائهما . . . ولو
كان ذلك من أجل خاطر صديقه الراحل ورفيقه الحميم في الثورة .
وهنا ظننت أنه سيقول شيئاً بلهجة شديدة ، ولكنه أذهلني بالاجفالة

التشنجية لكامل جسده . ثم كبح نفسه ، وطوى ذراعيه المرتخيتين بشدة فوق صدره ، ثم استند إلى الوراء بابتسامة كان فيها ارتعاشة احتقار وحقد .

قال :

— أجل ، صديق ورفيق حميم . . . حسناً !

— لقد غامرت فحدثتك عن الموضوع على أساس هذا الافتراض : ولا يمكنني أن أكون مخطئاً . لقد كنت حاضراً حين أنبأ بيتر ايفانوفيتش الآنسة هالدين بوصولك إلى هنا ، وقد رأيت مدى ارتياحها وامتنانها حين ذكر اسمك . وفي وقت لاحق أرثني رسالة أخيها وتلت عليّ الكلمات القليلة التي أشار بها إليك . ما الذي يمكنك أن تكونه ان لم تكن صديقاً ؟

— هذا واضح . هذا مشهور تماماً . صديق . صحيح تماماً . . . هيتا استمر . كنت تتحدث عن تأثير ما .

قلت لنفسي : « انه يضع فوق صلابة الثوري الصارم لا حساسية الانفعالات العادية لرجل كرس نفسه لفكرة مدمرة . انه شاب ، واخلاصه يجعله يتخذ وضعا معيناً أمام شخص غريب ، أجنبي وعموز . ولا بد للشباب من أن يؤكّد وجوده . . . » وقد عرضت له بما وسعني الايجاز الحالة الذهنية التي تعيشها السيدة هالدين منذ سماعها خبر نهاية ابنها التي حدثت قبل أو أنها .

وقد راح يصغني — وهذا ما أحسست به — باهتمام عميق . راحت تحديقته المباشرة تنحرف تدريجياً نحو الأسفل ، ثم غادرت وجهي واستقرت أخيراً على الأرض عند قدميه .

— يمكنك أن تدخل إلى مشاعر الأخت . وكما قلت أنت فأنا لم أقرأ سوى القليل من الشعر الانكليزي معها ، ولن أجعل من نفسي أضحوكة في نظرك بمحاولة التحدث عنها . ولكنك رأيتها . انها واحدة من تلك الكائنات البشرية النادرة التي لا تحتاج إلى تفسير . هذا هو رأيي شخصياً على الأقل . لم يكن لديهما سوى ذلك الابن ، ذلك الأخ ، كرابط مع العالم الأوسع ، مع المستقبل . ان أساس الوجود الناشط لنا تالي هالدين قد ولتني مع رحيله . هل يمكنك أن تستغرب اذن أن تلتفت هي بتوق إلى الشخص الوحيد الذي يذكره أخوها في رسائله . اسمك نوع من المبراث بوصية .

صاح بلهجة خفيفة ساخطة :

— ما الذي كتبه عني يا ترى ؟

— مجرد كلمات قليلة . وليس من شأني أن أبلغك اياها يا سيد رازوموف . ولكن يمكنك أن تصدق تأكيدي بأن هذه الكلمات فعالة إلى حد كاف بحيث تجعل أمه وأخته تؤمنان ايماناً مطلقاً في أهمية رأيك وفي مصداقية أي شيء تقوله لهما . يستحيل عليك الآن أن تمرّ بهما مرور الغرباء .

توقفت ، ورحت أصغي للحظة من الزمن إلى وقع خطوات الناس القليلين الذين كانوا يمرون جيئة وذهاباً في الممشى المتوسط العريض ، وبينما كنت أتكلّم كانت رأسه قد غاصت فوق صدره وذراعيه المعقودتين . ثم رفعها بحدة .

— هل عليّ أن أذهب اذن وأكذب على تلك المرأة العجوز ؟

لم يكن غاضباً ، بل شيئاً آخر ، شيئاً أكثر حدة ، وليس بسيطاً إلى ذلك الحد ، لقد ادركت ذلك بتعاطف ، ولكنني كنت أشعر بقلق عميق تجاه طبيعة تلك الصرخة التعجبية .

— يا الهي ! ألن تكفي الحقيقة اذن ؟ كنت آمل أن في مقدورك أن تقول لهما شيئاً فيه بعض السلوان . أنا أفكّر بالأمّ المسكينة طبعاً . بلدكم روسيا ، بلد قاس حقاً . تحرك قليلاً في كرسيه .

كررت :

— أجل ، كنت أظنّ أن لديك شيئاً حقيقياً تقوله لهما .

كان ارتعاش شفثيه ، قبل أن يتكلم ، غريباً .

— ماذا لو أن الأمر لا يستحق أن يُروى ؟

— لا يستحق . . . من أية وجهة نظر ؟ لا أفهم .

— من أي وجهة نظر كانت .

قلت ببعض الحدة :

— أعتقد جازماً أن شأن أي شيء يفسّر ظروف ذلك الاعتقال

الذي جرى في منتصف الليل . . .

قاطعني قائلاً بلهجة احتقار :

— والذي نقله أحد الصحفيين حتى تتسلى به أوروبا المتحضرة .

— أجل نقله . . . ولكن أليس هو بالخبر الصحيح ؟ لا أستطيع أن

أفهم موقفك من هذه المسألة . إما أنّ الرجل بطل في نظرك ، أو . . .

قرّب وجهه من وجهي بمنخرين منتفخين بشدة وذلك على نحو مفاجيء

جداً بحيث وجدت صعوبة كبيرة في مواجهة تحديقته بأخرى .

– أنت تسألني ! أعتقد أن ذلك كله يسليك . انتبه إليّ ! أنا كادح .
لقد درست . أجل درست بكلّ جد . يوجد هنا ذكاء . (نقر على جبهته
بأنامله) . ألا تعتقد أنه يمكن أن يكون لشخص روسي طموحات معقولة ؟
أجل . . . كانت لديّ امكانيات كبيرة للنجاح حتى . وبكل تأكيد !
كان لدي مثل ذلك . والآن تراني هنا ، خارج الوطن ، وقد ذهب كل
شيء أدراج الرياح ، ضحيت به . أنت تراني هنا . . . وتساءل . أنت
تراني ، أليس كذلك ؟ . . . جالساً أمامك .

رمى بنفسه بعنف إلى الخلف . بقيت هادئاً من حيث المظهر الخارجي .
– أجل . أرى أنك هنا ؛ وأفترض أنك هنا بسبب قضية فيكتور
هالدين ؛ أليس كذلك ؟

تغيّر سلوكه ، ثم قال بلهجة لا مبالية :

– أنت تسميها قضية هالدين . . . أليس كذلك ؟

قلت :

– لا حقّ لي في أن أسألك أي شيء . لا أدعي ذلك . والحال هذه
فإن أم وأخت ذلك الشخص الذي هو بطل في نظرك دون شك لا يمكنهما
أن تكونا لا مباليتين بك . الفتاة مخلوق صريح وكريم ، وتمتع بأكثر . . .
حسناً . . . الأوهام نبلاً . لن تقول لها شيئاً . . . أو ستقول لها كل شيء .
ولكنني أودّ أن أكلّمك عن غرضي منك : أولاً ، علينا أن نتعامل مع
حالة الأم المرضية . ربما نستطيع اختراع شيء ما بتفويض منك كعلاج
لروح ذاهلة معانية مترعة بالعاطفة الأموية .

كانت سيماء اللامبالاة والانهاك قد اشتدتّ حديثها الآن ، وهذا
ما لم أستطع مغالبة التفكير فيه ، وبعناد .

غمغم بلا اكتر اثار :

- أجل . شيء ما يمكنه أن يؤدي ذلك .

وضع يده فوق فمه ليخفي تناؤبه . وحين أنزل يده عن فمه كانت شفاهه تبسمان ابتسامة واهنة .

- اعذرني . كان هذا حديثاً طويلاً وأنا لم أنم ما فيه الكفاية في هاتين الليلتين الأخيرتين .

هذا النوع المفاجيء والوقح إلى حد ما بين أنواع الاعتذار كان يتميز بكونه صادقاً تماماً . لم يكن قد عرف الراحة الليلية منذ ذلك اليوم الذي ظهرت فيه أمامه أخت فيكتور هالدين في الأرض المحيطة بقصر بوريل . كانت التعقيدات والأهوال المعقدة - ان كان يحق لي قول ذلك - بذلك السهاد قد دوت في الوثيقة التي كنت سأراها لاحقاً الوثيقة التي هي المصدر الرئيسي لحكايتنا هذه . في هذه اللحظة كان ينظر إليّ بتعب مقنع ، فقد كان الانهك بادياً عليه ، كرجل مرّ بأزمة من نوع ما .

أضاف :

- كان عليّ إنجاز الكثير من الكتابة الملحة .

نهضت من كرسيّ فوراً ، وقد فعل ما فعلت ، دون سرعة ، بل بتأقل .

قلت :

- عليّ أن أعتذر لاعتقتك كل هذه الفترة الطويلة .

- لم الاعتذار ؟ لا يمكن للمرء أن يأوي إلى فراشه قبل حلول الليل . وأنت لم تعفني . كان يمكنني أن أغادرك متى شئت .

لم أكن قد بقيت معه لتوجهه إليّ الاهانات .

قلت بهدوء :

- يسعدني أنك كنت مهتماً إلى حد كاف . لم يكن في ذلك أي فضل لي على أية حال . . . فأبسط أنواع الاحترام لأم صديقك كان يكفي . : أما بالنسبة إلى الأنسة هالدين نفسها ، فقد كانت تميل في وقت من الأوقات إلى الظنّ بأن أخاها قد تمت الوشاية به إلى الشرطة بطريقة ما .

ولدهشني البالغة جالس السيد رازوموف مرة أخرى وفجأة . حدثت إليه ، وعلي أن أقول انه بادلني التحديق دون أن يرمش له جفن لفترة طويلة جداً .

هممت وكأنه لم يفهم أو لم يصدق أذنيه :

- بطريقة ما : حادثة غير متوقعة ، مجرد حادثة طارئة كان يمكنها أن تسبب في ذلك . أو كما قالت لي انها ربما حماقة أو ضعف رفيق تعميس من رفاقه الثوريين .

كرّر بمرارة :

- حماقة أو ضعف .

قلت بعد فترة :

- انها محاولة كريمة جداً .

ثبّت الرجل ، الذي كان فيكتور هالدين شديد الإعجاب به ، عينيه على الأرض : التفتُ بعيداً وابتعدتُ ، دون أن يلاحظني كما يبدو . لم أحمل أية ضعينة عليه بسبب المظاهرة المزاجية التي عاماني بها ؛ كان

ما أشعر به بعد ذلك الحوار هو الشعور باليأس . وقبل أن أبتعد عن مجموعة الكرامى والمناضد كان قد لحق بي .

سمعتة يتكلم عند مرفقي مرة أخرى :

— هم . . . هم ، حسناً ! ولكن ما رأيك أنت ؟

لم ألتفت إليه حتى .

— أعتقد أنكم أيها الناس واقعون تحت لعنة ما .

لم يصدر أي صوت . ولم يتكلم ثانية حتى صرنا على الرصيف خارج البوابة .

— أود أن أسير معك قليلاً .

على أية حال ، لقد كنت أفضل هذا الشاب الغامض على مواطنه الشهير ، بيتر ايفانوفيتش العظيم . ولكني لم أر أي سبب يدعوني إلى أكون لطيفاً على نحو خاص .

قات كجواب على اقتراحه غير المتوقع :

— أنا ذاهب إلى محطة القطارات الآن ، وذلك عن أقصر طريق ، لأقابل صديقاً قادمًا من انكرا .

كنت أمل أن أخرج ببعض المعاومات خلال الطريق . ولكنه قال بكآبة ونحن واقفان عند الحاجز الحجري ننتظر مرور الحافلة :

— أحب ما قلته للتو .

— حقاً ؟

نزلنا معاً عن الرصيف .

قال :

— المشكاة الكبرى هو أن تفهم تماماً طبيعة اللعنة .

— ليس هذا بالصعب جداً على ما أظن .

أيتلذذني قائلًا :

— وأنا أعتقد هذا أيضاً .

ولكن موافقته الفورية لم تجعله أقل إبهاماً على الإطلاق ، وهذا غريب تماماً .

اختبرته مرة أخرى :

— اللعنة نوع من السحر الشرير . والمشكاة الهامة والكبرى هو أن

تجد الوسيلة لإزالتها .

— أجل ، أن تجد الوسيلة .

كان ذلك تأييد آخر ، ولكن بدا عايبه أنه يفكر في شيء آخر . كنا قد قطعنا المساحة الفارغة أمام المسرح على نحو مائل ، وبدأنا نزل في شارع عريض قليل المارة يذهب باتجاه أحد الجسور الصغيرة . ظلّ إلى جانبي دون أن يتكلم وذلك لفترة طويلة .

سألته :

— أنت لا تفكر في مغادرة جنيف قريباً ؟

ظل صامتاً لفترة طويلة جداً بدأت أظن معها أنني تصرفت بطيش وأنا لن أحصل على أي جواب منه . ولكنني حين نظرت إليه اعتقدت تقريباً أن سؤالي قد سبب له شيئاً أشبه بالألم الايجابي . كان الأمر

الأساسي الذي جمعني ألاحظ ذلك هو أنه كان يشبّك يديه بعضهما ببعض ، وكان يفعل ذلك بقوة وخلصاً . ولكنه ما أن استطاع على أية حال أن يتغائب على ذلك النوع من التردّد المعذب إلى حد كاف حتى يقول لي انه لم تكن لديه مثل تلك النية ، حتى أصبح أقل تحفظاً . . . على الأقل نسبياً بالمقارنة مع الاقتضاب اللفظ السابق لحديثه . وقد أصبحت لهجته أيضاً أكثر ودّية . وقد أفادني أنه ينوي الدراسة والتأليف أيضاً . بل أنه أخبرني حتى أنه كان في « شتوتغارت » . وكانت شتوتغارت حسب معرفتي واحداً من المراكز الثورية . وكانت اللجنة الادارية لأحد الاحزاب الثورية (لا أتذكر أيها الآن) تتخذ مقراً لها في تلك المدينة . وهناك كان على اتصال بالعمل الناشط للثوريين خارج روسيا .

راح يشرح لي الآن بصوت تعوزه الحيوية :

— لم أغادر روسيا قبل الآن .

ثم قال بعد تردّد قائل ، يختلف تماماً عن التردّد المعذب الذي أثاره سؤالى الأول البسيط « ان كان ينوي البقاء في جنيف » وبنوع من الثقة المفاجئة :

— في الواقع أني كلفت بمهمة ما من قبلهم .

— ومن شأنها أن تبقيك في جنيف .

كنت راضياً عن قدرتي على الاستنتاج من الوقائع حين استنبطت أن للمهمة ما يتعلق بشخص بيتر ايفانوفيتش العظيم . واكني أبقيت هذا الحدس لنفسي بالطبع ، ولم يقل السيد رازوموف شيئاً آخر لفترة طويلة من الزمن . ولكن حين أصبحنا على الجسر الذي كنا متجهين إليه فتح شفّته مرة أخرى ، فجأة .

– هل يمكنني أن أرى تلك المقالة العالية في أي مكان ؟

كان عليّ أن أفكر للحظة قبل أن أفهم ما كان بعينيه .

– لقد أعيد نشرها جزئياً من قبل الصحافة المعالجة هنا . وهناك ملفات عنها في أماكن مختلفة . لقد تركت نسختي من الصحيفة الانكليزية لدى الآنسة هالدين ، على ما أذكر بعد يوم من وصولي . وقد أثير قائمي تماماً لدى رؤيتي إياها على منضدة إلى القرب من كرسي الأم المسكينة لمدة أسابيع بحالها . ثم اختفت . كان في ذلك راحة كبيرة لي كما أوكد لك .
كان قد توقف عن السير .

استأنفت قائلاً :

– أتق أنك ستجد الوقت الكافي لزيارة هاتين السيدتين مرات عدة . . . أنك ستجد الوقت .

حدّق إليّ بغرابة شديدة بحيث لا أكاد أعرف كيف أصف وجهه آنذاك . لم أستطع أن أفهم ذلك فيما يتعلق بهذا الخصوص اطلاقاً . ما الذي كان يوجعه ؟ هكنا سألت نفسي . ما الفكرة الغريبة التي دخلت إلى رأسه ؟ أية رؤيا للفظائع كانها رآها في بلده وعادت إليه فجأة لتسكن عقله ؟ إن كانت شيئاً له علاقة بمصير فيكتور هالدين ، كنت سأمل جدياً أنه سيقبليها لنفسه إلى الأبد . كنت مصاباً بصدمة كبيرة ، اذا ما تحدثنا بصراحة ، بحيث أنني حاولت إخفاء انطباعي بابتسامة – ولتغفر لي السماء – وبالتصرف بخفة .

صححت :

– بالتأكيد ، لن يكفئك ذلك الكثير .

التفت مبتعداً عني واستند إلى حاجز الجسر . انتظرت لبرهة وأنا
انظر إلى ظهره ، ومع ذلك ، فاني أؤكد لكم اني لم أكن تواقاً للنظر إلى
وجهه مرة أخرى في تلك اللحظة . لم يتحرك إطلاقاً . لم يكن ينوي أن
يتحرك . تابعت سيرى ببطء في طريقي نحو المحطة ، وفي نهاية الجسر
أدريت رأسي . لا ، لم يكن قد تحرك . كان معاقاً فوق الحاجز ، كأنه
مفتون بالاندفاع الناعم للماء الأزرق تحت القوس . كان التيار هناك
سريعاً ، سريعاً جداً ؛ انه يجعل بعض الناس يشعرون بالدوخة . أنا
نفسي لا أستطيع أن أنظر أبداً إليه لأية فترة من الزمن دون أن أشعر
بالخوف من أن أخسّطَفَ فجأة من قبل قوته المدمرة . لا تستطيع بعض
العقول مقاومة ايماء القوة الطاغية الداعية إلى أن يرمي المرء بنفسه إلى الماء
والرأس في المقدمة .

من الواضح أنه كان لذلك كاه تأثير فأتن على السيد رازوموف .
وقد تركته معلقاً فوق حاجز الجسر . لا يمكن تفسير تصرفه معي على أنه
محض جلافة . كان هناك شيء آخر كما من تحت ازدرائه ونفاذ صبره .
وربما كان ذلك هو الشيء نفسه وهنا اقتربت من الحقيقة المكتومة دون
أن أدري — ذاك الذي جعله لا يقترب من الآنسة مدة أسبوع بل عشرة
أيام تقريباً . ولكن ما كان ذلك ؟ لم أستطع أن أعرف .

• • •

11

الجزء الثالث

- اولا -

كان الماء يسري تحت الجسر عنيماً وعميقاً وكانت اندفاعته المتموجة تبدو قادرة على فتح قناة عبر الغرائث الصاب وأنت تراقبه . ولكنه او سار عبر قاب رازوموف لما استطاع أن يغسل المرارة المتراكمة التي خلّفتها تدمير حياته هناك .

فكّر وهو يحرق إلى الأسفل نحو التدفق شديد التحدر ، شديد الملاسة والنظافة الذي كان لا يكشف عن سرعته التي تسبب الدوار وقوته الهائلة إلاّ مرور فقاعة هواء ضعيفة أو سائلة متلاشية من الزبد :

- ما معنى هذا كاه ؟ لماذا قام هذا الانكاييزي الفضولي العجوز باحلال خرفه عاّني وما هذه الحكاية التافهة عن امرأة عجوز مجنونة ؟

كان يحاول أن يفكّر على نحو موجه عن قصد ، ولكنه تجنّب أي الماح ذهني إلى الفتاة . راح يكرر لنفسه : « امرأة عجوز مجنونة . هذا قاتل ! أو هل علي أن أزدري هذا كاه على أساس أنه تافه؟ ولكن لا ! أنا على خطأ ! لا أستطيع ازدراء كل شيء . قد تكون التفاهة هي نقطة البداية لأكثر التعقيدات خطورة . كيف يمكن للمرء أن يحمي نفسه ضدها ؟ إنها لتجتث ذكاء المرء . وكالما كان المرء ذكياً كالما كان أقل امتهبهاً بالتفاهة . »

خفقت موجة من الغضب أفكاره للحظة . بل جعات جسده المنحني فوق الحاجز يرتجف ، ثم استأنف تفكيره الصامت كحوار سرّي مع

نفسه . وحتى في وحدته تلك كان لفكره بعض التحفظات التي كان واعياً لها على نحو غامض .

« على أية حال ، ليس هذا بالأمر التافه . انه غير هام . انه غير هام اطلاقاً . . . نهائياً . جنون امرأة عجوز . . . الفضول المنتعق لانكيزي عجوز نحرف . أي شيطان وضعه في طريقي ؟ أو لم أعامه بعجرفة كافية ؟ أو لم أفعل للتو ؟ هذه هي الطريقة التي يتوجب فيها معاملة هؤلاء الأشخاص الفضوليين . أمن المحتمل أنه لا يزال واقفاً خلف ظهري ينتظر ؟ »

أحس رازوموف بقشعريرة ضعيفة في عموده الفقري . لم يكن ذلك هو الخوف . كان واثقاً أنه لم يكن خوفاً . . . ليس الخوف على نفسه . . . ولكنه كان نوعاً من الخشية ، على أية حال ، كأنما على شخص آخر ، شخص آخر كان يعرفه دون أن يكون قادراً على وضع اسمٍ للشخص . ولكن تذكره أن الانكليزي الفضولي العجوز كان عايبه أن يستقبل شخصاً في محطة القطارات هدأ من روعه لفترة . كان من الغباء أن يفترض أنه سيضيع وقته في الانتظار . لم يكن ضرورياً الالتفات والتأكد .

ولكن ما الذي كان يعنيه ذلك الرجل بهرائه العجيب حول الجريدة وتلك المرأة العجوز المجنونة ؟ هذا ما فكر فيه فجأة . كانت تلك وقاحة لعينة ، على أية حال ، شيئاً لا يمكن سوى لانكيزي أن يكون قادراً على فعله . كان ذلك كانه نوعاً من اللعب الرياضي بالنسبة إليه — رياضة الثورة — مباراة يتفرج عايبها من عايباء تفوقه . وما الذي كان يعنيه بحق السماء حين صاح : « ألن تكفي الحقيقة اذن ؟ »

ضغظ رازوموف فراعيه المطويتين على أحجار الافريز الذي كان

يستند إليه بقوة . . . « أن تكفي الحقيقة اذن ؟ الحقيقة الأهم العجوز
المجنونة لا . . . »

ارتعد الشاب مرة أخرى . أجل : الحقيقة تكفي ! من الواضح أنها
تكفي . بالضبط . ثم يتلقى الشكر ، هكذا فكّر ، وهو يصنع الكلمات
غير المنطوقة بتهكم : « أن تعانقني من الامتنان لا شك . » هكذا راح
يسخر ذهنياً . ولكن هذه الحالة الذهنية سرعان ما تركته . أحس بالحزن ،
كأنه قلبه أصبح فارغاً فجأة . استنتج وهو يعود إلى نفسه كأن دماغه قد
استيقظ من نوبة اغماء : « حسناً ، يجب أن أكون حذراً ، لا شيء ولا
أحد قليل الأهمية أو تافه إلى حدّ يتوجب معه تجاهله . يجب أن أكون
حذراً . »

دفع رازوموف بنفسه بعيداً بيده عن الدرابزون وعاد يسير على
أثر خطواته على امتداد الجسر ، وسار مباشرة إلى مسكنه ، حيث كان
يعيش حياة الوحدة والعزلة في الأيام القليلة الماضية . لقد أهمل بيتر
ايفانوفيتش الذي أرسلته إليه مجموعة شتوتغارت برسالة ، ولم يكن قد
اقرب أبداً من الثوار اللاجئين الذي جرى تقديمه إليهم لدى وصوله .
لقد ابتعد عن ذلك العالم نهائياً . وكان يشعر أن مثل هذا الساوك ، الذي
كان يشير الدهشة والشك ، قد يحمل له الخطر أيضاً .

لا يعني ذلك أنه لم يخرج أبداً من مسكنه خلال الأيام القليلة الماضية .
لقد قابلته مرات عدة في الشوارع ، ولكنه لم يظهر أية أمانة تدل على
أنه يعرفني . وفي إحدى المرات ، وبينما كنت ذاهباً إلى البيت بعد
زيارة مسائية للسيدات من آل هالدين ، رأيته يعبر الطريق المظلم في
« شارع الفلاسفة » . كان يرتدي قبعة طرية عريضة الحواف ، وقبة

معظفة مرفوعة إلى فوق . راقبته وهو يسير مباشرة إلى المنزل ، ولكن عوضاً عن الدخول ، توقف مقابل النوافذ الساكنة المضاعة ، وبعد فترة ابتعد متخذاً شارعاً جانبياً .

عرفت أنه لم يكن قد اجتمع بالسيدة هالدين بعد . حكمت لي الآنسة هالدين أنه كان مبرداً . وعلاوة على ذلك كانت الحالة الذهنية للسيدة هالدين قد تغيرت . كان يبدو أنها تظن الآن أن ابنها حي لا يزال ، وربما كانت تنتظر وصوله . كان جمودها في تلك الكنية الكبيرة أمام النافذة يوحي بجو من الرقب ، حتى والستائر مسدلة والأنوار مضاعة .

من جهتي ، كنت على قناعة بأنها قد تأقت الضربة التي ستؤدّي إلى موتها ، وكانت الآنسة هالدين التي لم أذكر لها أي شيء عن هواجسي ، تظن أنه لا فائدة من تقديم السيد رازوموف في ذلك الحين بالضبط ، وهو رأي أبدتُها فيه كل التأييد . كنت على معرفة بأنها قابات الشاب عند « القلعة » ، لقد رأيتهما مرة أو مرتين وهما يتمشيان ببطء على امتداد الشارع الرئيسي . لقد راحا يتقابلان يومياً لأسابيع بحالما . وقد رحت أتجنب المرور من ذلك الطريق حين كانت الآنسة هالدين تمارس رياضة المشي هناك . ولكن حدث في أحد الأيام ، وفي نوبة من الشرود الذهني ، أن دخلت من البوابة فصادفتها تسير منفردة . توقفت لأتبادل معها كلمات قياية . لم يصل السيد رازوموف في ذلك اليوم ، وبدأنا نتحدث عنه . . . بالطبع .

غامرت فسألتها :

— هل ذكر لك شيئاً محدداً عن نشاطات أخيك . . . نهايته ؟

اعترفت الآنسة هالدين ببعض التردد :

— لا ، لا شيء بالتحديد .

فهمت جيداً أن محادثتهما كانت تشير ذهنياً لا شك إلى ذلك الرجل المتوفى الذي جمعهما معاً . كان ذلك أمراً لا يمكن تلافيه . واكبتها كانت مهتمة بالرجل الحي . وكان ذلك أيضاً أمراً لا يمكن تلافيه ، كما أعتقد : وحين حاولت أن أستفسر عن المزيد اكتشفت أنه قد كشف لها نفسه على أنه ليس الثوري التقليدي اطلاقاً ، فهو يحتقر الشعارات والنظريات أيضاً . وقد سررت بذلك وان شعرت بالحيرة .

شرحت لي الآنسة هالدين :

— ان ذهنه لينذهب بعيداً جداً ، إلى ما وراء الكفاح :

ثم أضافت :

— انه بالطبع شخص يمارس العمل المباشر .

سألته بصراحة :

— وهل تفهمينه ؟

فرددت مرة أخرى ، ثم هممت :

— ليس تماماً .

أدركت أنه قد فتنها باتخاذها وضع المتحفظ الغامض :

استأنفت وهي تتخلى عن موقفها المتحفظ المتردد تقريباً :

— هل تعرف ما أفكر به ؟ أعتقد أنه يراقبني ويدرسني ليكتشف

إن كنت أهلاً لثقته . . .

— وهل يسرك هذا ؟

بقيت صامئة على نحو غامض لبرهة . ثم قالت بجموية وباهجة واثمة :
- أنا على قناعة من أن هذا الرجل غير العادي يفكّر في خطّة هائلة ،
بمشروع عظيم ، وهذا الأمر يتماثله . . . انه يعاني منه . . . ومن كونه
وحيداً في هذا العالم .

عالت وأنا ألتفت برأسي :

- ولذا فانه يبحث عن مساعدين .

ومن جديد ساد الصمت .

قالت أخيراً :

- ولم لا ؟

لقد أصبح الأخ المتوفى والأم المحتضرة والصدیق الأجنبي في خافية
بعيدة ، ولكن في الوقت نفسه لم يعد بيتر ايفانوفيتش في أي مكان الآن
على الاطلاق . وقد واستني هذه الفكرة . ومع ذلك رأيت الظل الهائل
لحياة روسية تتعمق من حولها كظلام ليل وشيك . سيأتيها عما قريب .
سألت عن السيدة هالدين . : : تلك الضحية الأخرى من ضحايا الظل
القاتل :

ظهر قلق مترع بالندم في عينيها الصريحتين . لم تكن الأم أسوأ حالاً ،
ولكن لو أن لي أن أعرف الأوهام الغريبة التي تنتابها أحياناً ! ثم صرحت
الآنسة هالدين وهي تنظر إلى ساعتها ، أنها لم تعد تستطيع البقاء أكثر من
ذلك ، وبمصافحة سريعة بالأيدي ابتعدت بحفة وسرعة .

لا شك أن السيد رازوموف لن يظهر اليوم . يا للشباب غير الممكن

فهمه !

ولكن بعد أقل من ساعة . وبينما كنت أعبّر « ساحة مولار » ،
شاهدته يصعد إلى حافلة « الشاطئء الجنوبي » .
فكرت : « انه ذاهب إلى « قصر بوريل » .

بعد أن نزل رازوموف عند بوابات « قصر بوريل » الذي يبعد حوالي
نصف الميل عن المدينة : استأنفت الحافلة طريقها بين خطين مستقيمين
من الأشجار الظليلة . عبر الطريق تحت ضوء الشمس كان رصيف
خشبي قصير يبرز من الماء الضحل الشاحب ، الذي كان له لون أزرق
كثيف إلى مكان أبعد قليلاً ، وكان هذا يتباين على نحو مزعج مع
الانحدارات الخضراء المنتظمة على الشاطئء المقابل . كان للمنظر الشامل .
مع حواجز الميناء المبنية من الحجارة البيضاء التي تبرز على نحو شاحب
المقدمة المعتمة للمدينة إلى اليسار : والمساحة الممتدة من الماء إلى اليمين مع
التواءات البارزة التي ليس لها شخصية محددة ، كان لهذا المنظر صفة غير
ملهمة ، وان كانت لامعة ، للوحة زيتية مقلّدة وجديدة جداً . التفت
رازوموف إليه بازدراء . كان قبيحاً في رأيه - قبيحاً على نحو قمعي - في
زخارفه غير الملهمة : كمال الذوق العادي عينه والمنجز أخيراً بعد قرون
من الجهد والحضارة . ولدى التفاته بظهره مبتعداً عنه : واجهه المدخل
المؤدي إلى الأرض المحيطة بـ « قصر بوريل » .

كانت قضبان الطريق المركزي والقوس المشبك بالحديد بين الجسور
الحجرية ، التي ترك الطقس آثاره عليها ، صدئة جداً . ورغم آثار
العجلات الحديدية التي سارت من تحتها ، الا أن البوابة كانت تبدو
وكأنها فتحت منذ وقت بعيد جداً . ولكن إلى القرب من كوخ البواب
المبني من الحجر الرمادي نفسه الذي بنيت منه الجسور (كانت نوافذ

الكوخ مسدودة كلها بعوارض خشبية) ، كان هناك باب جانبي صغير . كانت قضبان ذلك الباب صدئة أيضاً ، وكان مفتوحاً ويبدو أنه لم يغلّق منذ زمن بعيد . وفي الواقع ، فان رازوموف ، الذي كان يحاول أن يدفع الباب لينفتح أكثر قد اكتشف أنه غير قابل للتحرك .

همهم لنفسه ممتعضاً : « فضيلة ديمقراطية . ليس هناك أي لصوص هنا على ما يبدو . » وقبل أن يتقدم ليدخل الأرض المحيطة بالقصر ، نظر بتجهّم إلى الخلف نحو عامل خمول كان متمدداً على مقعد في الشارع النظيف العريض . كان ذلك الرجل قد رفع قدميه عالياً بينما علق إحدى ذراعيه فوق الظهر الواطيء للمقعد العمومي . كان يقضي اجازته في استرخاء ارستقراطي ، وكأن كل شيء تحت مرمى نظره كان ملكاً له .

همهم رازوموف لنفسه :

— منتخب ! جدير بالانتخاب ! متنور ! شخص فظ على أية حال !

دخل رازوموف المكان وسار بسرعة قاطعاً الامتداد العريض للطريق ، محاولاً ألا يفكر في أي شيء . . . أن يريح رأسه وانفعالاته أيضاً . ولكنه ما أن وصل إلى سفح الشرفة أمام المنزل حتى تعثر ، فقد تأثر بدنياً بتدخل غير مرئي . لقد أذهله الغموض المرافق لتسارع نبضات قلبه . توقف ونظر إلى الجدار الآجري للشرفة ، الذي تواجهه أقواس مسطحة ، والمكسو على نحو هزيل بنباتات متسلقة غير مزدهرة ، مع حوض زهور ضيقت غير معني به على امتداد سفحها .

فكّر قائلاً لنفسه بنوع من الرهبة : « لقد جرى ذلك هنا ، . . . في هذه البقعة بالذات . . . »

أحس باغواء الهروب لدى تذكره أول لقاء له مع ناتالي هالدين .

وقد اعترف بذلك لنفسه ؛ الا أنه لم يتحرك ، ولم يكن ذلك بسبب رغبته في أن يقاوم ضعفاً تافهاً ، ولكن لأنه كان يعرف أنه لا مكان لديه يهرب إليه . وعلاوة على ذلك ، ما كان قادراً على مغادرة جنيف . وقد أدرك ، حتى دون كثير من التفكير أن ذلك كان مستحيلاً . كان من شأن الهروب أن يعني اعترافاً مميّناً ، انتحاراً أخلاقياً . كما كان ذلك خطيراً من الناحية الجسدية . صعد ببطء درج الشرفة المحاط من جانبيه بجرتين حجريتين خضراوين مبهجتين لهما مظهر جنائزي .

عبر المصطبة العريضة ، حيث نمت بضع أوراق من العشب على الحصى فاقد اللون ، واجهه باب المنزل ذو النوافذ الأرضية المغلقة ، وكان مفتوحاً . كان واثقاً من أنهم أحسوا بدخوله ، لأن بيتر إيفانوفيتش الذي كان المدخل يؤطره ، ولم يكن يرتدي قبعته العالية ، بدا وكأنه ينتظر قدومه .

كان المعطف الاحتفالي الأسود من نوع « الفراك » والرأس العاري لأعظم مناصري المرأة الأوربيين يؤكّدان على وضعه الذي يدعو إلى الريبة في المنزل المستأجر من قبل « المدام دوس . . . » ، أو « ايغيريا » . كان مظهره يجمع ما بين رسمية الزائر وحرية المالك . ها هو يستقبل الزائر مزخرفاً . ملتجياً ومقنّعاً بنظاراته الزرقاوين المعتمتين ، ويأخذه على الفور من تحت ذراعه بأسلوب رفع الكلفة .

كبح رازوموف كل أمانة من أمارات الاشمزاز بجهد جعلته الضرورة الآتية للحصافة آلياً تقريباً . وهذه الضرورة قد جعلت تعبيره يستقرّ على هيئة تحفّظ صارم بل ومتعصّب حتى . وها هو « اللاجيء البطل » ، الذي أثار فيه من جديد التحفّظ الشديد لهذا الواصل الحديد

من روسيا الثورية ، يتخذ لهجة توفيقية بل ومترعة بالثقة حتى . كانت « المدام دو س . . . » تستريح بعد ليلة سيئة . غالباً ما كانت لياليها سيئة . كان قد ترك قبعته في الطابق العلوي على منبسط الدرج وقد نزل ليقترح على صديقه الشاب أن يتمشياً ويتحادثا بصراحة في إحدى الطرق الظلمية خلف القصر . وبعد أن تلفّظ بهذا الاقتراح ، نظر الرجل العظيم إلى الوجه الجامد الذي إلى جانبه ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يصبح قائلاً :

— أقسم أيها الشاب أنك شخص استثنائي .

— أعتقد أنك على خطأ يا بيتر ايفانوفيتش . لو كنت شخصاً استثنائياً بالفعل ، لما كنت أسير معك هنا في حديقة في سويسرا ، كاتون جنيف ، كومونة ماذا . . . ما اسم الكومونة الذي يسمي إليها هذا المكان ؟ لا ميم . . . قلب الديمقراطية على أية حال . القلب المناسب ؛ ليس أكبر من حبة بازلاء جافة ولها ذات القيمة أيضاً . لست أكثر استثنائية من بقية الروس المتجولين خارج الوطن .

ولكن بيتر ايفانوفيتش عارضه مشدداً :

— لا ، لا ، أنت لست بالشخص العادي . لدي بعض الخبرة بالروس الذين . . . حسناً . . . يعيشون في الخارج . وأنت تبدو لي ، وللآخرين أيضاً ، كشخصية متميزة .

سأل رازوموف نفسه وهو يلتفت ليووجه رفيقه بعينه : « ما الذي يعنيه بهذا ؟ » كان وجه بيتر ايفانوفيتش يعبر عن الجدية المتألمة .

— أنت لا تفترض يا كيريلو سيدوروفيتش أي لم أسمع عنك من مصادر عدة توقفت عندها في طريقك إلى هنا ؟ لقد استلمت رسائل .

صاح رازوموف الذي كان يصغي باهتمام عظيم :

— أوه ، نحن عظيمون حين يتحدث واحدنا عن الآخر . الاشاعات والحكايات والشكوك ، وكل تلك الأمور ، ونعرف كيف نصل بذلك كله إلى درجة الكمال والافتراءات حتى .

استطاع رازوموف من خلال شنته لهذه الهجمة أن يخفي جيداً شعور القلق الذي اعتراه . وفي الوقت نفسه كان يقول في سره انه لا يمكن أن يوجد سبب ممكن للقلق . وقد أحس بالراحة لأن الصوت الاحتجاجي لرفيقه كان واضح الصدق .

صاح بيتر ايفانوفيتش :

— يا للسماء ! ما الذي تتحدث عنه ؟ ما هي الأسباب التي لديك ...؟
طوّح اللاجيء العظيم بذراعيه كأن الكلمات ما عادت تطيعه .
أحسّ رازوموف بالرضا . ومع ذلك فقد استمر في التكلّم بالمنحى نفسه .

— أعني النباتات السامة التي تزهر في عالم المتأمرين ، كما تنبت الفطور الشريرة في قبو مظلم .

عاتبه بيتر ايفانوفيتش قائلاً :

— أنت ترمي التهم ، وهي فيما يتعلق بك أنت . . .

قاطعة رازوموف دون حرارة :

— لا ! أنا لا أريد بالفعل أن أرمي التهم ، ولكن ذلك يشابه أيضاً أن لا تكون لديّ أية أوهام .

نظر إليه بيتر ايفانوفيتش نظرة ملغزة بنظاراتيه الداكنتين ، وأرفقها بابتسامة واهية .

قال بلهجة ودية جداً :

— الرجل الذي يقول انه ليس لديه أوهام يعاني من هذا الوهم بالذات على الأقل . ولكنني أرى ما تريد يا كيريلو سيدوروفيتش . أنت ترمي إلى الرواقية . (١)

— الرواقية ؟ هذه « بوز » اتخذها الاغريق والرومان . لنتركه لهم . نحن روس ، أي . . . أطفال ، أي صادقون ، أي : ساخرون اذا أحببت . ولكنه ليس « بوزاً » .

ساد صمت طويل . سارا ببطء تحت أشجار الزيزفون . كان بيتر ايفانوفيتش قد وضع يديه خلف ظهره . أحس رازوموف برطوبة الأرض غير المبلّطة بالحصى ، أرض الممشى ذي الظلال العميقة ، وأحس كأنها زلقة تحت قدميه . سأل نفسه بقلق ان كان يقول ما هو صحيح . كان من المفروض أن يكون منحى الحوار تحت سيطرته . هذا ما فكّر به . ظهر الرجل العظيم وكأنه يتأمل من ناحيته هو أيضاً . تنحنح قليلاً وأحس رازوموف فوراً بعودة مؤلمة للازدراء والخوف .

قال بيتر ايفانوفيتش بلطف :

— أنا مندهش . اذا افترضنا أنك محقّ في اتهاماتك فكيف يمكنك أن تطرح أية أسئلة تتعلق بالافتراءات والاشاعات في مثل حالتك ؟ هذا

(١) الرواقية : المذهب الذي أنشأه زينون اليوناني حوالي عام (٣٠٠) ق . م . والذي قال بأن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال وألا يتأثر بالفرح أو الترح وأن يخضع دون تدمير لحكم القوة القاهرة . (المترجم)

غير معقول . والحقيقة هي يا كيريلو سيدوروفيتش أن لا أحد يعرف
عك ما يكفي لنشر الاشاعات أو حتى الافتراءات . الآن أنت مجرد
رجل له علاقة بفعل عظيم ، فعل كان متأملاً صنعه ، فعل تمت محاولته
بنجاح . لقد مات أناس لمجرد محاولة فعل ما أنجزته أخيراً أنت وهالدين .
أنت قادم إلينا من روسيا بذلك الامتيازات . ولكنك لا تستطيع أن تنكر
أنك لم تكن صريحاً يا كيريلو سيدوروفيتش . لقد حكى لي الناس الذين
قابلتهم انطباعاتهم عنك ، كما كتب أحدهم شيئاً وبعضهم شيئاً آخر ،
ولكني أشكّل آرائي بنفسي . لقد انتظرت حتى أراك أولاً . أنت رجل
غير عادي . هذا أمر أكيد . أنت مغلق ، مغلق جداً . هذا الصمت ،
هذا الجبين الصارم ، هذا الشيء غير المرن والسري فيك ، يلهم بالآمال
وببعض التساؤل فيما تعنيه . هناك شيء ما من شخصية بروتوس . . .
انفجر رازوموف بعصبية :

— أرجو أن توفرّ عليّ هذه التلميحات الكلاسيكية ! ما علاقة
جونيوست بروتوس (١) بهذا الأمر؟ هذا مضحك !
ثم أضاف بتهكم ولكن بصوت أخفض :
— هل تعني أن الثوريين الروس هم جميعاً أشرف وأنا أرسقراطي؟
شكّك بيتر ايفانوفيتش ، الذي كان يقوم ببعض الايماءات ، يديه
خلف ظهره من جديد ، وتقدّم بضع خطوات وهو يفكر .
غمغم أخيراً قائلاً :

(١) جونيوست بروتوس : يبدو أنه يلحق إلى بروتوس الشهير الذي ساهم في اغتيال
يوليوس قيصر ، صديقه الحميم . (المترجم)

– ليسوا كلهم أشرف ، ولكنك واحد « منّا » على أية حال .
– عليك أن تعرف أن اسمي ليس « غوغنها بمر » . لست يهودياً
ديموقراطياً . كيف يمكنني أن أحول دون ذلك ؟ ليس لكل شخص مثل
هذا الحظ . ليس لي اسم . ليس لي . . .

أظهر صاحب الشهرة على مستوى القارة الأوروبية اهتماماً عظيماً .
خطا نحو الخلف خطوة واحدة وطارت ذراعاه أمام شخصه ، ثم مدّهما
مستنكراً بل متوسلاً تقريباً . كان صوته العميق الجهير مترعاً بالألم .
صاح :

– ولكن يا صديقي الشاب العزيزا يا عزيزي كيريلو سيدوروفيتش .
هزّ رازوموف رأسه .

– حتى اسم الأب الذي تتلطّف فتستعمله لدى مخاطبتي ليس لي
فيه حق قانوني . . . ولكن ما يهمّ ذلك ؟ لا أريد أن أدعيه . ليس لي
أب . وهذا أفضل بكثير . ولكن سأقول لك ماذا : كان جدّ أمي فلاحاً
. . . قنّاً . أنت ترى كم أنا واحد « منكم » . لا أريد لأي شخص أن
يدّعي انتمائي إليه . ولكن « لا يمكن » لروسيا أن تتبرأ مني . لا تستطيع .
ضرب رازوموف صدره بقبضته :

– أنا روسيا !

استمرّ بيتر ايفانوفيتش في السير ببطء ، وقد أحنى رأسه . لحق به
رازوموف وقد انزعج من نفسه . لم يكن ذلك هو ما يتوجّب عليه أن
يقوله . الصدق كله عبارة عن طيش . ومع ذلك لا يمكن للمرأة أن يتخلّى
نهائياً عن الحقيقة ، هكذا راح يفكر بيأس . وفجأة أصبح بيتر ايفانوفيتش

المعامل خلف نظارتيه الداكنتين ، كريباً جداً في نظره بحيث لو كان معه
سكّين لتصورّ أنه كان سيّطعنه ليس دون ندم فحسب بل برضا رهيب
ومترع بالنصر أيضاً . ركّزت مخيّلته على هذا العمل الفظيع رغم أنفه .
كان الأمر أشبه باصابتة بدوار خفيف . كرّر لنفسه : « ليس هذا ما هو
متوقع مني . ليس الأمر . . . يمكنني ان اهرب عن طريق تحطيم هذا
القفل على ذلك الباب الصغير الذي أراه هناك في السور الخلفي . انه قفل
رديء النوع . لا يبدو أن في المنزل من يعرف انه هنا معي . أوه ، أجل .
تلك القبعة ! ستكتشف المرأتان أنه ترك القبعة عند منبسط الدرج . ستجدانه
ملقياً هنا وقد فارق الحياة في هذا الظلّ الرطب الكثيب . . . ولكنني
سأكون قد رحلت ولن يستطيع أحد . . . أيها الرب ! هل أصبت
بالجنون ؟ » هذا هو السؤال الذي طرحه على نفسه في هلع .

سمع صوت الرجل العظيم . . . وهو يفكّر في صوت خفيض :

— هم . . . م . . . أجل ! هذا — دون شك — بمعنى ما . . .

ثم رفع صوته قائلاً :

— لديك الكثير من الاعتزاز بالنفس . . .

كانت لهجة بيتر ايفانوفيتش ذات رنة عطوف غير متكلفّة ،
تقرّ بأسلوب ما ادعاء رازوموف بنسبه الفلاحي .

— الكثير من الفخر يا أخي كيريلو . ولا أقول إنه لا مبرر لديك
الملك . لقد أقررت بذلك . لقد تجرأت فألمحت إلى حقائق ولادتك
ببساطة لأنني لا أنظر إليها دون اهتمام . أنت واحد منا . . . واحد منا .
(كررها بالفرنسية) . أفكر في هذا وأشعر بالرضا .

قال رازوموف بهدوء :

— وأنا انظر بأهمية إلى ذلك أيضاً . ولن أنكر حتى أنه قد تكون له أهمية ما بالنسبة إليك أنت أيضاً .

هذا ما قاله بعد توقف قليل وبلمسة من الكتابة كان واعياً لها ،
وبعض الانزعاج . كان يأمل في أن يكون ذلك قد فات على بيتر
ايفانوفيتش .

— ولكن ماذا لو توقفنا عن الخوض في ذلك ؟

ألحّ كبير قساوسة الثورة النبيل :

— حسناً ، لن نفعل ذلك ، ليس بعد هذه المرة يا كيريلو
سيدوروفيتش . ستكرن هذه آخر فرصة . لا يمكنك أن تصدق للحظة
واحدة أن لديّ أقل نية في ابناء مشارك . أنت دون شك ذو طبيعة
متفوّقة . . . هكذا أفهمك . فوق الحساسيات . . . احم . . . العادية .
ولكن الحقيقة هي يا كيريلو سيدوروفيتش ، أنني لا أعرف حساسياتك .
لا أحد خارج روسيا يعرف الكثير عنك . . . حتى الآن .

اقترح رازوموف :

— هل كنت تراقبني ؟

— أجل .

كان الرجل العظيم يتحدث بلهجة الصراحة الكاملة ، ولكن حين
أدارا وجهيهما ليتقابلا أحس رازوموف بالارتباك بسبب النظارتين
الداكنتين . تحت غطاءهما كان بيتر ايفانوفيتش يلمح إلى أنه قد شعر
لبعض الوقت بالحاجة إلى لقاء رجل ذي طاقة وشخصية متميزة ، وذلك
لوجود مشروع معين . لم يقل أي شيء آخر محدد على أية حال ، ولكنه

بعد أن أبدى بعض الملاحظات النقدية على شخصيات مختلف أعضاء لجنة العمل الثوري في شتوتغارت ، ترك الحديث ينقطع فترة طويلة . سارافي الممر من أو له إلى آخره . كان رازوموف الصامت أيضاً يرفع عينيه من حين إلى آخر ليلقي نظرة على مؤخرة المنزل . لم يكن فيه ما يوحي بأنه مسكون . فبجدرانه المكسوة بالسخام والتي ترك عليها الطقس آثاره ، وبنوافذه المغلقة من الأعلى إلى الأسفل ، بدا عليه أنه رطب وكثيب ومهجور : كان ممكناً أن يكون مسكوناً بالطريقة التقليدية بشبح كثيب غير ذي جدوى وذو أذن من صنف الطبقة الوسطى . لا بد وأن الأشباح ، كما تقول الاشاعات الدنيوية ، التي تستدعيها « المدام دو . . . » لتقابل رجال دولة ودبلوماسيين ونواب برلمانات أوربية مختلفة ، كانت من نوع آخر . لم يكن رازوموف قد رأى « المدام دو . . . » إلا في العربة .

خرج بيتر ايزانوفيتش من شروده .

– هناك أمران يمكنني أن أقولهما لك فوراً . أعتقد أولاً أنه لا يمكن أن يخرج من حثالة الشعب لا قائد ولا أي فعل حاسم . والآن ، اذا سألتني عمّن هم حثالة الشعب . . . احم . . . فسوف يستغرقني ذلك وقتاً طويلاً . قد تدهش بسبب تنوع العناصر التي تؤلف هذه الحثالة في نظري . . . ومنها ما يتوجب أن يبقى حتماً في القاع . وعلاوة على ذلك فان مثل هذا ارأى قد يكون عرضة لاجدال . ولكنني أستطيع أن أقول لك عما هو « ليس » الحثالة . وسيكون من المستحيل أن نختلف حول هذا . ليس فلاحو شعب ما هم الحثالة ؛ ولا أعلى طبقاته . . . حسناً . . . أعني النبلاء . فكّر في هذا يا كيريلو سيدوروفيتش ! أعتقد

أنك مؤهل تماماً للتأمل . كل ما هو غير أصيل في شعب ما ، كل
مالا يخصه من المنشأ أو بالية طور ، عبارة عن . . . قذارة ! الزكاء في
المكان الخطأ قذارة . والمبادئ الأجنبية كذلك . قذارة ! حشالة !
والشيء الثاني الذي أترضه عليك لتأمل فيه هو هذا : بالنسبة إلينا في هذه
اللحظة تكمن هوة بين الماضي والمستقبل : ولا يمكن لهذه الهوة أن يتم
تجسيرها بالليبرالية الأجنبية . كل المحاولات التي ترمي إلى ذلك هي
إما حذافة أو غش . لا يمكن تجسيرها ابداً ! يجب أن يتم ملؤها .

كان نوع من الهزل العجيب قد تغلغل في طبقة نصير النساء ضخمة
البنية . أمسك بذراع رازوموف من فوق المرفق وهزها هزة خفيفة .

— هل تفهم أيها الشاب الغامض ؟ يجب أن يتم ملؤها .

بقي وجه رازوموف ساكناً .

— ألا تعتقد أنه سبق لي وتجاوزت التأمل في هذا الموضوع ؟

هذا ما قاله رازوموف وهو يحرر ذراعه بحركة هادئة زادت من المسافة
قليلاً بينه وبين بيتر ايفانوفيتش ، بينما كانا يستمران في السير جنباً إلى
جنب . ثم أضاف أنه لا شك أن حمولة عربات بأكمامها من الكلمات
والنظريات لا يمكنها أن تملأ تلك الهوة . لم يكن التأمل ضرورياً . ولا
يمكن سوى التضحية بحياة أشخاص كثيرين أن . . . ثم صمت دون أن
ينتهي جملة .

مال بيتر ايفانوفيتش برأسه الكبيرة كثيفة الشعر ببطء . وبعد لحظة
اقترح أن يدخل ليريا إن كانت « المدام دو . . . » قد خرجت من
غرفتها .

قال وهو يخرج من الممشى المظائل الكثيب بخطوات أسرع :

— سنشرب بعض الشاي .

كانت الوصيفة تترقبهما . وقد مرّت نورتها السوداء عبر الباب بسرعة عندما أصبح الرجلان مرثيين عند الزاوية . أسرعت إلى مكان ما . وكانت قد اختفت تماماً حين دخلا إلى البهو ، وفي الزور الضئيل الداخلة من المنور الزجاجي المغبّر على الأرضية المغطاة بمربعات بيضاء وسوداء ، والمغطاة بأثار أقدام موحلة ، راحت أقدامهما تعطي صدى ضديفاً . تقدم نصير النساء المعظيم وهما يصعدان الدرج عن رازوموف ليبدأته على الطريق . وعند درابزون منبسط درج الطابق الأول كانت قبة عالية لامعة تستريح هناك ، وحافتها نحو الأعلى ، مقابل الباب المزدوج لغرفة الاستقبال التي تسكنها ، كما يقال ، أشباح مستندحة ويتردد عايتها ، كما يفترض ، ثوريون لاجئون . كان الغلاء الأبيض المنشقق للألواح الزجاجية والحلي المعمارية المطايع بالذهب الذي فقد بريقه ، يسمحان للمرء ألاّ يتخيل سوى الغبار والفراغ في الداخل . وقبل أن يدير مقبض الباب النحاسي الضخم ، منح بيتر ايفانوفيتش مرافقه الشاب نظرة حادة ، نافذة من ناحية وتمهيدية من ناحية أخرى .

غمغم بتحفظ :

— لا أحد يتصف بالكمال .

بهذه الطريقة قد يقوم مالك جوهرة نادرة بتحذير شخص قليل الخبرة ، وذلك قبل أن يفتح العاية ، بأنه لا جوهرة دون عيوب .

وقد بقيت يده على مقبض الباب فترة طويلة إلى أن أيّده رازوموف

قائلاً بمزاجية :

- لا أحد .

تابع بيتر ايفانوفيتش :

- الكمال نفسه لن يصنع مثل هذا التأثير في عالم ليس معداً له .
ولكنك ستجد عقلاً هنا . . . لا ! . . . خلاصة الحدس الانثوي الذي
سيغهم أي تعقيد يمكن أن تعاني منه ، وذلك بالقوة غير الممكن مقاومتها ،
القوة التنويرية ، قوة التعاطف . لا يمكن لشيء أن يبقى غامضاً أمام
ذلك . . . ذلك . . . النفوذ الملهم . . . أجل ، النفوذ الملهم ، هذا النور
الحقيقي للأنثوية .

كانت تحديقة النظارتين الداكنتين في ثباتها الصقيل اللامع تعطي وجهه
هيئة القناع المطابقة . أحس رازوموف بانكماش وقيء أمام الباب المغلق .

تأهّم قائلاً :

- النفوذ؟ النور . هل تعني نوعاً من قراءة الأفكار ؟

بدت الصدمة على بيتر ايفانوفيتش .

ردّ قائلاً بابتسامة باهتة مشفقة :

- ما أعنيه شيء مختلف تماماً .

بدأ رازوموف يشعر بالغضب رغماً عنه .

غمغم من خلال أسنانه :

- هذا مبهم جداً

سأله نصير المرأة العظيم :

- أتمنع في أن تكون مفهوماً ، أن تكون مسوساً ؟

انفجر رازوموف في همسة عنيفة :

— بأي معنى ؟ أرجو أن يفهم أي شخص جدّي . من تظنّني ؟

نظر الواحد منهما إلى الآخر عن قرب . وقد بردت حدة غضب رازوموف بسبب الجدية غير النموذة لزجاج النظارتين الأزرق الذي كان يردّ على تحدّيته . وأخيراً أدار بيتر ايفانوفيتش المقبض .

قال وهو يدفع الباب :

— ستعرف على الفور .

سمع صوت خشن خفيض الطبقة يقول بالفرنسية من داخل الغرفة :

— وأخيراً ها أنت قد جئت .

عند الباب ، ويجسسه الضخم المرتدي للمعطف الأسود الذي يسدّ

المشهد ، صاح بيتر ايفانوفيتش بهجة حماسية مع شيء من التبجح :

— أجل . ها أنذا جئت !

نظر إلى رازوموف من فوق كتفه ، وكان هذا ينتظره حتى يتقدم .

— وقد جئتكم بمتآمر مجرّب . . . متآمر حقيقي هذه المرة .

هذا التوقف عند الباب منح « المتآمر المجرّب » وقتاً ليتأكد من أن

وجهه لم يكن يكشف عن فضوله الغاضب واشتمتراه العقلي .

هذه العواطف مسجلة كلها ومعترف بها في مذكرات السيد

رازوموف عن أول لقاء له مع « المدام دو . . . » والكلمات ذاتها

التي أستعملها في هذه الحكاية مكتوبة في تلك المذكرات ولا يمكن الشك

بمدى صدقها . فالمذكرات التي لم تكن قد كتبت لتقرأ من قبل أي

شخص آخر سواه ، لم تكن حصيلة دافع الحماسة الغريب الشائع لدى الناس الذين يعيشون حياة سرية ، والذي كان وراء وجود « وثائق معرضة للشبهة » في كل المؤامرات والمكائد في التاريخ . فأنا أعتقد أن السيد رازوموف كان ينظر إليها كما ينظر شخص إلى نفسه في مرآة ، بعجب ، وربما بألم ، بغضب أو بياس ، أجل ، كما قد ينظر بخوف رجل مهدد إلى وجهه في المرآة وهو يصوغ لنفسه أعداءاً مطهنة لمظهره الذي تبدو عليه أمارات مرض وراثي غادر .

• • •

- ثانياً -

تركت « ايغيريا » خاصة « ماتسني روسيا » (١) من النظرة الأولى انطباعاً قوياً على رازووف بسكون وجهها الموتيّ المغليّ بالمساحيق على نحو واضح . بدت العينان لامعتين على نحو استثنائي . أما الجسم ، في الثوب الضيق ، جيد الخياطة ، وغير الحديد اطلاقاً ، فكان يتميز بصلاة أنيقة . كان الصوت الخشن الذي راح يدعوهُ إلى الجاوس ، وصرامة الوقفة المنتصبة واحدى ذراعيها ممدودة على ظهر الأريكة ، والدمعة البيضاء للمقلتين الكبيرتين اللتين ترسلان التحديقة العميقة السوداء لانساني العينين الواسعين ، كل ذلك أثر على رازووف أكثر من أي شيء آخر رآه منذ رحيله السريع والسري عن سانت بطرسبورغ . ساحرة في ملابس باريسية ، هكذا فكر . أعجوبة ! تردّد بالفعل خلال تقدمه ولم يفهم في البداية ما الذي كان يقوله ذلك الصوت الخشن حتى .

- اجلس . اجلب كرسيك إلى القرب مني . هنا . . .

جلس . أذهلته ، عن قرب ، عظام الوجنتين المطابتين بالمسحوق الأحمر والتجاعيد والخطوط الدقيقة على كل جانب من الشفتين الزاهيتين . لقد تمّ استقباله بلباقة مع ابتسامة جعلته يتكبر بحجمته تبسم .

- نحن نسمع عنك منذ فترة .

(١) ماتسني : (١٨٠٥ - ١٨٧٢) . نائير وبطل قومي ايطالي عمل من أجل ايطاليا
موحدة جمهورية النظام . (المترجم)

لم يعرف ما يقول ، فغمغم بكلمات غير مترابطة . اختفى تأثير
الجمجمة المبتسمة .

— وهل تعرف أن الشكوى السائدة هي أنك كنت متحفّظاً في كل
مكان ؟ بقي رازوموف صامتاً لفترة ، وهو يفكّر في جواب ،

— أنا كما ترين ، رجل أفعال .

هذا ما قاله بصوت أجش وهو ينظر إلى الأعلى .

وقف بيتر ايفانوفيتش في صمت استثنائي مترقب قرب كرسيه .
أحس رازوموف بنغيان خفيف . ما هي يا ترى العلاقة التي تربط هذين
الشخصين معاً ؟ هي الأشبه بجثة مُسَكَّنة خارجة من إحدى حكايات
« هو فمان » (١) . . . وهو واعظ الانجيل المنادي بتحرر المرأة في كل
العالم ، والثوري الكبير أيضاً ! هذه المومياء العتيقة المظلمة بالمساحيق ذات
العينين الغائرتين اللتين لا قرار لهما ، وهذا الرجل المحترم لرغبات
الآخرين ، ضمخ الجثة ، ذو العنق الأشبه بعنق الثور . . . ما هي تلك
العلاقة بينهما ؟ السحر ؟ الافتنان ؟ . . . هل هي نقودها ؟ لديها الملايين !

كانت جدران وأرضية الغرفة عارية كأنك في مستودع للحبوب ،
وكانت القطع القليلة من الأثاث قد اكتشفت في العاية وأنزلت لتستعدل
دون أن تنظف من الغبار على نحو ملائم حتى . كانت تلك هي النفريات
التي خافتها وراءها أرملة صاحب المصرف ، أما النوافذ الخالية من

(١) هوفمان : ارنست نيودور أمادبوس (١٧٧٦ - ١٨٢٢) مؤلف وموسيقار
وفنان ألماني كتب حكايات فانتازية كثيرة ومنها مااعتمدها تشايكوفسكي كأساس للباليه
المسماة : « كسارة البندق » . (المترجم)

الستائر فكان لها مظهر بائس قاق . وفي اثنتين منها كانت المصاريع البيضاء
المصفرة قد جرى انتزاعها . كان هذا كله يتعلق لا بالفقر بل بالجنل
الشديد .

قال الصوت الخشن بغضب من الأريكة :

— أنت تتفقت فيما حولك يا كيرياو سيدوروفيتش . لقد تمت
سرقتي على نحو مخجل ، لقد دمّرت تماماً .

ثم قاطعتها ضحكة مجاعة صدرت عنها دون ارادتها .

— الطبيعة العبودية من شأنها أن تجد ساواناً في حقيقة أن الص
الرئيسي كان شخصاً سامياً ومقدساً تقريباً . . . غراندوقا في الحقيقة .
هل تفهمني يا سيد رازوموف ؟ غراندوق . . . لا ! ليست لديك فكرة
كم هم لصوص أولئك الناس ! لصوص بكل ما في الكرامة من معنى !
ارتفع صدرها ، ولكن ذراعها اليسرى بقيت ممدودة بتبيّس إلى
امتداد ظهر الأريكة .

قال صوت عميق بدا لرازوموف المندهش وكأنه صادر من تحت
النظارتين اللدائمتين لبيتر ايفانوفيتش ، وليس بالأحرى من شفّيه ، وهما
اللتان لم تتحررا كالألّا بالكاد :

— سترعجين نفساك فحسب .

— ما رأيك ؟ أقول لصوصاً ! « لصوص ! لصوص ! » (بالفرنسية)

أحسّ رازوموف بالارتباك التام من هذا الصخب ، والذي كان
فيه شيء من العويل والنعيب ، بل وشيء من الهيستيريا .

— « لصوص ! لصوص ! لص . . . ! » (بالفرنسية)

صاح بيتر ايفانوفيتش بصوته الجهير الطاغى ولكن دون أن يتحرك
أو يقوم بأية ايماءة من أي نوع :

— ليست هناك قوة على الأرض يمكنها أن تسرق منك عبقرتك .
ثم ساد صمت عميق .

بقي رازوموف سلباً من الخارج . قال وهو يسأل نفسه : « ما معنى
هذا العرض التمثيلي ؟ » ولكن الوصيفة ، في تنورة سوداء رثة جداً
وقميص مهترىء ، دخلت بسرعة بعد صوت ارتطام تمهيدي خارج أحد
الأبواب التي من خلفه ، وقد راحت تسير على كعبيها حاملة بكلتا
يديها ساموفاراً روسياً كبيراً ، ثقيلاً جداً عليها كما كان واضحاً .
وقد قام رازوموف بحركة غريزية بنيتة مساعدتها الا أنها أذهلتها إلى حد
كبير كادت معه تسقط حملها المهسهس . ولكنها تمكنت ، على أية
حال ، من أن تضعه على الطاولة ، ثم نظرت نظرة وجلة جداً إلى
رازوموف مما حدا به إلى الاسراع بالجلوس . بعد ذلك أخرجت من
غرفة جانبية أربع كؤوس زجاجية وإبريق شاي ووعاء للسكر على صينية
حديدية سوداء .

سأل الصوت الخشن فجأة من الأريكة :

— أين الكاتو ؟ هل تذكرتها ؟

سارع بيتر ايفانوفيتش ، دون أن ينطق بكلمة واحدة ، إلى منبسط
الدرج ، وعاد فوراً وهو يحمل رزمة ملفوفة بورق أبيض صقيل ، لا بد
وأنه أخرجها من داخل قبعته . وبجدية هادئة فكّ الخيط وفتح الورق
الصقيل ووضع على الطاولة في متناول يد « المدام دو س . . . » . صببت
الوصيفة الشاي ثم بلحات إلى زاوية « المدام دو س . . . » . صببت الوصيفة

الشاي ثم لجأت إلى زاوية نائية بعيدة عن أنظار الجميع . ومن حين إلى آخر كانت « المدام دو . . . » تمدّ يداً أشبه بمخلب ، تلمع بالخواتم الثمينة ، نحو الورقة التي تحوي الكاتو ، وتأخذ واحدة منها وتلتهمها كأنها الغولة بأسنانها الصناعية الضخمة . في هذه الأثناء كانت تتحدث بصوت أجش عن الوضع السياسي في البلقان ، حيث كانت تبني آمالاً كبيرة على بعض التعقيدات في شبه الجزيرة وذلك لاثارة حركة نقمة وطنية كبرى في روسيا ضد « هؤلاء اللصوص – اللصوص – اللصوص . »

قال بيتر ايفانوفيتش وهو يرفع نظره المزجج :

— ستزعجين نفسك فحسب .

راح يدخن لفافات التبغ ويشرب الشاي في صمت وباستمرار :
و حين أنهى كأسه ، مدّ يده من فوق كتفه . وعلى هذه الإشارة كانت الوصيقة ، المحتجبة في زاويتها ، تندفع نحو الطاولة وتملأ له كأسه من جديد .

نظر إليها رازوموف مرة أو مرتين . كانت قلقة ، مرتجفة ، رغم أنه لا « المدام دو . . . » ولا بيتر ايفانوفيتش كانا قد أظهرأ أي اهتمام بها . سأل رازوموف نفسه : « ما الذي فعلاه فيما بينهما بهذه المخلوقة البائسة ؟ هل أرهاها حتى الجنون بالأشباح ، أو هل كانا يضربانها فحسب ؟ » وحين قدمت له الكأس الثانية من الشاي ، لاحظ أن شفتيها كانتا ترتجفان بأسلوب شخص مقدس على وشك أن ينطق . ولكنها لم تقل شيئاً بالطبع ، بل وعادت إلى زاويتها ، وكأنها تضمّ إلى صدرها ابتسامة الشكر التي منحها لها .

فكّر رازوموف فجأة : « انها تستحق الرعاية والتشجيع . »

كانت حدة مزاجه قد أخذت تخف ، وبدأ يمسك بالواقع الذي ألقى فيه . . . ربما للمرة الأولى منذ دخل فيكتور هالدين غرفته . . . وخرج مرة أخرى . كان مدركاً على نحو واضح أنه موضع العناية الشبحية لـ « المدام دو س . . . » الشهيرة . . . أوسيثة السمعة .

لقد سرت « المدام دو س . . . » لاكتشافها أن هذا الشاب يختلف عن الأنماط الأخرى بين الأعضاء الثوريين للجان ، والمبعوثين السريين ، والأساتذة من اللاجئيين السوقيين قليلي الكياسة ، والطلاب غير المهذبين والعمال السابقين ذوي الوجوه الرسولية ، والمتحمسين الرثي الثياب والمصابين بالسل . وكذلك الشبان اليهود ، والأشخاص العاديون من كل الأنواع الذين اعتادوا أن يلتفوا من حول بيتر ايفانوفيتش . . . والمتعصبون ، والمتحذلقون ، وكلهم من البروليتاريا . كان من الممتع تبادل الحديث مع هذا الشاب ذى المظهر الجيد . . . حيث أن « المدام دو س . . . » لا تكون دائماً في حالة ذهنية باطنية . كان سكوت رازوموف قد أثارها فجعلها تتكلم على نحو أسرع وأكثر هدراً . كانت لا تزال تتحدث عن البلقان . فهي تعرف جميع رجال السياسة في تلك المنطقة ، الأتراك منهم والبلغار ، المونتغنيون والرومان ، اليونان والأرمن ، كما تعرف الذين لا صفة لهم ، الشباب منهم والشيوخ ، الأحياء والأموات . ببعض المال كان ممكناً الشروع بمؤامرة تشعل شبه الجزيرة وتسيء إلى مشاعر الشعب الروسي . يمكن إطلاق صرخة لنجدة الأخوة المخدولين ، وشم ، والأمة ترغي وتزبد من السخط ، يمكن لفوجين أو نحوه من الجيش أن يبدأ بثورة عسكرية في سانت بطرسبورغ وتكون تلك نهاية أولئك اللصوص . . .

فكر رازوموف في نفسه : « من الواضح أن كل ما عليّ أن أفعله هو الجلوس صامتاً والإصغاء . أما بالنسبة إلى ذلك الوحش المشعراني البذيء (هكذا كان السيد رازوموف يسمي في ذهنه ذلك المؤيد للمفهوم الأنثوي عن الحالة الاجتماعية والمتمتع بشعبية كبيرة) ، أما بالنسبة إليه، وإلى مكره كله، فسوف يكون عليه أن يدفع حساب ذلك أيضاً . »

توقف رازوموف عن التفكير المحظوظ ، ثم شكّلت فكرة كثيفة نفسها في ذهنه ، وكانت فكرة ساخرة ومرّة : « لديّ موهبة الإيحاء بالثقة ، » ثم سمع نفسه يضحك بصوت عال . وكان من شأن ذلك أن يكون كشوكة بالنسبة إلى العجوز الشكسة المظلمة بالمساحيق ذات العينين اللامعتين الجللسة على الأريكة .

صاحت بصوت أجش :

— يمكنك أن تضحك كما تشاء ، ما الذي يمكن للمرء أن يفعله سوى ذلك ! محتالون إلى حد الكمال . . . ويالهم من محتالين ذئبين !

ألمان رخيصون . . . Holstein Gottorps ! رغم أنه ليس ممكناً أن تقول من هم وما هم عاينه . عاثة تعدّ مخاوقة مثل « كاترين الكبرى » (١) واحدة من أسلافها . . . أنت تفهم دون شك ما أعني !

قال بيتر اينمانوفيتش بضرب انما بالهجة صارمة :

— أنت تهيجين أعصابك فحسب .

وقد كان لهذه النصيحة تأثيرها على « الايغيريا » . فكان أن أخفضت جنزيتها الغليظين الفاقدون وعدلت من جلستها على الأريكة . كانت

(١) كاترين الكبرى : (١٧٢٩ - ١٧٩٦) امبراطورة روسيا من أصل ومولد

المانين . (المترجم)

كل حركاتها الفظة التي لا حياة فيها تبدو آليه تماماً بعد أن أغضت عينيها . ها هي تفتحهما الآن على وسعهما . كان بيتر ايفانوفيتش يشرب الشاي بثبات ودون اسراع .

خاطبت رازوموف مباشرة :

— حسناً ، أقول لك ان الناس الذين أرسلوك إلى هنا كانوا دلي حق . أنت شديد التحفظ . لم تقل ما مجموعه عشرون كلمة منذ أن دخلت إلى هنا . وأنت لا تسمح لأي من أفكارك أن يظهر على وجهك أيضاً .

قال رازوموف مستعملاً الفرنسية لأول مرة ، وبتردد ، حيث أنه لم يكن واثقاً من لکنته :

— لقد كنت أصغبي يا سيدتي .

ويبدو أن هذا ترك انطباعاً جيداً . نظرت « المدام دو . . . » نظرة ذات معنى إلى نظرتي بيتر ايفانوفيتش ، وكأنما تريد أن تتنقل إليه قناعتها بجدارة هذا الشاب . بل انها أومأت برأسها قليلاً بانجازه وسمعها رازوموف تغغم بصوت خفيض : « لاحقاً في الساك الدباوماسي » . وكان هذا يدل على مدى الانطباع الجيد الذي خلّقه لديها . ولكن الغرابة الذاتية لذلك كنه أثارت اشمزاز رازوموف لأنها بدت وكأنها تهيج آماله المحطمة برؤيا مهنة زائفة . راح بيتر ايفانوفيتش ، الساي كأنه أصم ، يشرب المزيد من الشاي . أحس رازوموف أن عليه أن يقول شيئاً ما .

بدأ بتعمّد وكأنه يقول فكرة مدروسة :

— أجل . هذا واضح . حتى لدى تخطيط ثورة عسكرية محضة فانه يتوجب أخذ الحالة العاطفية للشعب في الاعتبار .

— لقد فهمتني تماماً . لا بد من منح السخط قيمة روحية . هذا ما لن تفهمه الرؤوس العادية للجان الثورية . ليسوا قادرين على ذلك ، مثلاً : كان « مورداتييف » في جنيف في الشهر الماضي . لقد جذب بيتر ايفانوفيتش إلى هنا . هل تعرف مورداتييف ؟ حسناً ، أجل . . . لقد سمعت به : أنهم باقتبونه بالنسر . . . انه بطل ! ولكنه لم يفعل نصف ما فعلته أنت : لم يحاول . . . ليس نصف . . .

هتجت « المدام دو . . . » نفسها بكل عظامها البارزة وهي جالسة على الأريكة .

— طبعاً تحدثنا إليه . وهل تعرف ما قاله لي ؟ قال : « ما لئـ والمؤتمرات البلقانية ؟ عاينا أن نستأصل الأوغاد . » الاستئصال أمر جيد جداً . . . ولكن ماذا بعد ذلك ؟ يا للمغفل ! لقد صرخت به : « ولكن عاينا أن تمنح قيمة روحية . . . ألا تفهم ؟ عاينا أن تمنح السخط قيمة روحية . . . »

راحت تفتش بعصبية في جيبها عن مندباها . ثم ضغطته على شفيتها .

قال رازوموف باهجة التساؤل وهو يراقب صدرها اللاهث :

— يمنح قوة روحية ؟

كانت النهايات الطويلة لوشاح أسود مخرم عتيق تضعه فوق رأسها قد انزلقت عن كتفها ومالت إلى الأمام على كل جانب من جانبي وجنتيها الورديتين الشبهيتين .

انفجرت مرة أخرى :

– مخلوق كربه ا تصور رجلا يضع خمس قطع من السكر في الشاي . . . أجل ، قلت يجب أن يتم منح القوة الروحية ا وكيف يمكنك اذن أن تجعل السخبط فعالاً وشاهلاً ؟

قال بيتر ايفانوفيتش بوقار :

– اصنع لي هذا أيها الشاب : فعالاً وشاهلاً .

نظر إليه رازوموف بريية .

قال :

– يوماً ما سيفعل الجوع ذلك .

– أجل أعرف ذلك . شعبنا يموت من الجوع بالأكوام . ولكنك لا تستطيع جعل المجاعة شامة . وليس اليأس هو ما نريد أن نختمه . لن يكون هناك أي دعم أخلاقي يمكن أن نناله من ذلك . بل القمة ، . . . تركت « المدام دو . . . » ذراعها النحيل الممدودة تستقط على ركبتيها .

قال رازوموف :

– لست شخصاً مثل موردا تيبف . .

غمغت « المدام دو . . . » بالفرنسية :

– بالتأكيد !

– رغم أنني مستعد أن أقول : استأصلوا ، استأصلوا ! ولكن أرجو أن تسمعوا لي بأن أطرح رغم جهلي بالعمل السياسي السؤال التالي : أن تستغرق مؤامرة بلقانية وقتاً طويلاً جداً ؟

نهض بيتر ايفانوفيتش وابتعد بهدوء ليقتف ووجهه إلى النافذة .
سمع رازوموف صوت باب يغلق . التفت برأسه وأدرك أن الوصيقة قد
أسرعت خارجة من الغرفة .

حطمت « المدام دو س . . . » الصمت بقسوة :

— في مجال السياسة أؤمن بالمسائل الخارقة للطبيعة .

ابتعد بيتر ايفانوفيتش عن النافذة وربت على كتف رازوموف ،
وكانت تلك اشارة تفيد وجوب الخروج ، ولكنه خاطب في الوقت
نفسه « المدام دو س . . . » باهجة تذكيرية غريبة :

— إراينور !

ومهما كان المعنى وراء ذلك الا أنه لم يبد عايبها أنها سمعته . استندت
إلى زاوية الأريكة كأنها تمثال خشبي . كان للكدك الثابت للوجه المؤطر
بالتخريمات العميقة المترهنة ، صفة القسوة الوحشية .

نعبت مخاطبة رازوموف اليتظ :

— أما بالنسبة إلى الاستئصال ، فهناك طبقة واحدة في روسيا يتوجب
استئصالها واحدة فحسب . وتلك الطبقة تتألف من أسرة واحدة فقط .
أنت تفهمني ، أليس كذلك ؟ تلك العائلة الوحيدة يجب أن تستأصل :

كانت صرامتها مخيفة ، أشبه بصرامة مُعَدِّمَتَيْ تَحَوَاتٍ إلى نطق
أجش وتحديقة لامعة بقوة حقد قاتل . فنن المشها رازوموف . . . ومع
ذلك أحس أنه أكثر امتلاكاً لنفسه من أي وقت مضى منذ أن دخل
هذه الغرفة العارية العجيبة . شعر بالاهتمام . ولكن النصير العظيم
لحقوق المرأة ، والواقف إلى جانبه ، تلفظ مرة أخرى باستغاثته :

— إيلىنور .

تجاهته مرة أخرى . كانت شفتها المصبوغتان باللون القرمزي تتلخطنان بالتنهوات بسرعة غير عادية . الروح المحرّرة تستعمل أساحة مستشعب أمامها النهار كما نهر الأردن ، وستساقط الاستحكامات كأسوار أريحا . التخلص من الرق سيُصاحب بالأوبئة وبأمارات ، بأعاجيب وبالحرّ . النساء . . .

— إيلىنور !

توقفت عن الكلام ، فقد سمعته أخيراً . ضغطت بيدها على جبينها .

— ما المسألة ؟ آه أجل ! تلك الفتاة . . . أخت . . .

كانت تعني الآنسة هالدين . تلك الشابة وأمها كانتا تعيشان حياة منزلة جداً . انهما سيدتان ريفيتان . . . أليس كذلك ؟ كانت الأم جميلة جداً . . . لا زالت آثار ذلك واضحة حتى اليوم . وحين زارهما بيتر ايفانوفيتش كان انطباعه رائعاً . . . ولكن الطريقة الباردة التي استقبل بها كانت مدهشة فعلاً .

صاحت « المدام دو . . . » بقوة فجائية :

— انه واحد من أمجادنا الوطنية . العالم كله يصغي إليه .

قال رازوموف بصوت مرتفع وهو يقوم من كرسيه :

— لا أعرف هاتين السيدتين .

— نا الذي تقوله يا كيرىاو سيدوروفيتش ؟ لقد عرفت أنها حادثك

هنا ، في الخديقة ، منذ أيام .

قال رازوموف بكآبة :

— أجل ، في الحقيقة .

ثم تابع بجهد :

— لقد قدمت نفسها لي من باب التعارف .

استأنفت « المدام دو س . . . » بحوية مفزعة :

— ثم هربت منا جميعاً بعد أن وصات إلى هذا الباب بالذات !
ياله من تصرف عجيب ! حسناً ، لقد كنت مرة أنا نفسي فتاة ريفية
صغيرة وخجولة . أجل يا رازوموف (تعلمت أن تحادثه دون تكف
وبتكشيرة مفزعة لبقة . أجفل رازوموف على نحو واضح .) أجل ،
هذا هو أصلي : عائلة ريفية بسيطة .

قال بيتر ايفانوفيتش بأعذق درجة من صوته :

— أنت أعجوبة .

ولكنها منحت لرازوموف ابتسامتها الصادرة عن رأسها الأشبه
بالجمجمة ، كانت لهجتها متعجرفة ،

— عليك أن تجلب ذلك الشيء الشاب البرّي إلى هنا . إنها مطلوبة ،

وأنا أعتمد على نجاحك . . . هل فهمتني ؟

غمغم رازوموف بفظاظة :

— انها ليست شيئاً شاباً برياً ،

— حسناً إذن . . . لا فرق . قد تكون واحدة من أولئك الديمقراطيين

المخدوعين الشباب . هل تعرف ما أفكر به ؟ أعتقد أنها تشبهك كثيراً

من حيث الشخصية . هناك نار احتقار خامدة فيك . أنت مغرور على

نحو نخني ، ولكنني أستطيع أن أرى روحك بالذات .

كان لعينيهما اللامعتين تحديقته جافة مركزة جعته يقظن ، حين لم توجه إليه ، أنها كانت تنظر إلى شيء ما خلفه كان مرثياً بالنسبة لها .
لكن نفسه كونه أحمق سريع التأثير ، وسأل بهدوء فرضه على نفسه :

– ما الذي تربنه ؟ هل هناك شيء ما يشبهني ؟

حركت وجهها المصارم من اليسار إلى اليمين سابياً .

استأنف رازوموف ببطء :

– هل هو نوع من الأشباح على صورتي ؟ فأنا أعتقد أنه حين تُرى الروح فإنها لا تكون شيئاً آخر ، بل مجرد شيء تافه . هناك أشباح الأحياء كما للموتى أيضاً .

كان توتر تحديقته « المدام دو . . . » قد تراخى ، وراحت تنظر الآن إلى رازوموف في صمت أصبح مريباً .

تلثم كأنما أجبر على ذلك وقال :

– لديّ تجربتي الشخصية ، فقد سبق أن شاهدت شبحاً مرة .

تحركت الشفتان الحمراء على نحو غير طبيعي لتشكلاً سؤالاً

وبقسوة :

– شبح شخص ميت ؟

– لا ، شبح شخص حي .

– صديق ؟

– لا .

– عدو ؟

- كنت أكرهه .

- آه ! لم يكن لامرأة اذن ؟

- امرأة !

هكذا كور رازوموف وعيناه تحدقان مباشرة إلى صيني « المدام

دوس . . . » واستأنف يقول :

- ولِمَ تكون امرأة ؟ لم هذا الاستنتاج ؟ لم لا أكون قادراً على

أن أكره امرأة ؟

في الواقع كانت فكرة كره امرأة مسألة جديدة بالنسبة إليه . في تلك اللحظة كان يكره « المدام دوس . . . » . ولكن لم يكن ذلك كرهاً بالضبط . كان أمراً أشبه بالاشمئزاز الذي قد يسببه تمثال من الخشب أو الجصّ من النوع المثير للغثيان . لم تكن حركاتها تزيد عن حركات مثل ذلك التمثال ؛ وحتى عينيها اللتين كانت تحديقتهما المتواصلة ، دون أن يعترف جفناهما ، قد انغرستا في عينيه ، ورغم لمعانها ، فقد كانتا دون حياة ، وكأنتهما صناعتان بقدر ما هي أسنانها . ولأول مرة اشتم رازوموف عطراً خفيفاً ، أشعره رغم ضعفه بالغثيان إلى أبعد حد . ومن جديد ربت بيتر ايفانوفيتش بخفه على كتفه . وعندها انحنى ، وكاد يستدير حين تقمى منة غير متوقعة ، اذ امتدت إليه اليد الميتة بارزة العظام مع كلمتين بفرنسية مبسوطة :

- أو روفوار ! (وداعاً) ؛

انحنى فوق اليد الأشبه بيد هيكل عظمي ثم غادر الغرفة برفاقه الرجل العظيم الذي جعله يخرج قبله . صرخ خلفهما الصوت من الأريكة قائلاً :

- ابق هنا يا بيير .

– بالتأكيد يا صديقتي العزيزة (بالفرنسية) .

ولكنه غادر الغرفة مع رازوموف ، وهو يغلق الباب خلفه . كان منبسط الدرج عبارة عن دهليز عار من الأثاث ، إلى اليمين وإلى اليسار ، منظوريات مهجورة من الديكورات البيضاء والذهبية دون أية سجاجيد أو بسط. حتى النور الذي كان يدخل من نافذة عريضة في النهاية ، بدا مغبراً. الرخام الأبيض ... القبعة الحريرية العالية لنصير المرأة العظيم ... وكانت بارزة جداً ، سوداء ولامعة ضمن كل ذلك البياض الفج .

رافق بيتر ايفانوفيتش الزائر دون أن يفتح شفتيه . وحتى حين وصلا إلى رأس الدرج لم يكن بيتر ايفانوفيتش قد حطم الصمت . كان هناك دافع لدى رازوموف مفاده أن يتابع نزول الدرج ثم يخرج من المنزل دون أن يودعه حتى بايماة من الرأس ، ولكن هذا الدافع هجره فجأة . توقف عند أول درجة واستند بظهره إلى الجدار . تحته كان البهو العظيم بأرضه ذات المربعات قد بدا فجأة كبيراً إلى حد عجيب وكأنه مكان عام تنتظر فيه قوة هائلة على الرنين استثارة وقع الاقدام والأصوات . وقد تحدث رازوموف بلهجة خفيفة وكأنه يخشى ايقاظ الصدى العالي لذلك المنزل الفارغ .

– لا أنوي بالفعل أن أتحول إلى روحانيّ هاو .

هزّ بيتر ايفانوفيتش رأسه قليلاً وبجدية كبيرة .

تابع رازوموف :

– أو أنفق وقتي في نشوات روحانية أو تأمل سام في انجيل نصرة المرأة . لقد وصلت إلى هنا بسبب الدور العملي الذي أدته . . . وهو عمل محترم جداً يا بيتر ايفانوفيتش . لم يكن ما جذبني إلى هنا هو الكاتب

الاوربي العظيم ، أعني الى هذه المدينة الكريهة ، مدينة الحرية . كان ذلك شخصاً أعظم بكثير . كانت فكرة الزعيم هي التي جذبتني . هناك شبان في روسيا يموتون جوعاً ولكنهم يؤمنون بك كثيراً حتى ليبدو أن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يبقئهم أحياء رغم بؤسهم . فكر في ذلك يا بيتر ايفانوفيتش ! كلا ! ولكن فكر في ذلك فحسب !

كان الرجل العظيم ، الذي استعطف على هذا النحو ، ساكناً تماماً وصامتاً ، صورة للاحترام الحليم رابط الجأش .

— طبعاً لا أتحدث عن الشعب . الشعب أناس متوحشون .

هذا ما أضافه رازوموف باللهجة الخفيضة نفسها وان تكن فعالة . وقد صدرت لدى سماعه هذه الكلمات غمغمة احتجاج عن لحية « اللاجيء البطل » ، كانت غمغمة ذات سلطة .

— فلنقل انهم أطفال .

ولكن رازوموف أصرّ :

— لا ، لأنهم متوحشون .

قال الرجل العظيم بلهجة توسلية هامسة :

— ولكنهم أصحاب ، انهم أبرياء .

وأخيراً رفع رازوموف صوته قائلاً .

— فيما يخص هذه المسألة فالمتوحش صحيح تماماً . ولا تستطيع أن تنكر البراءة الطبيعية للمتوحش ، ولكن ما الفائدة من المجادلة حول الأسماء ؟ حاول فحسب أن تعطي هؤلاء الأطفال قوة وقوام الرجال وانظر كيف سيكونون . اعطهم ذلك فحسب ثم انظر . . . ولكن لا يهم . أقول لك يا بيتر ايفانوفيتش ان نصف دزينة من الشبان لا

يجمعون في هذه الأيام في غرفة رثة الأثاث من غرف الطلاب إلا
ويهمسون باسمك ، ليس كقائد للفكر ، بل كبقرة للطاقت الثورية . .
بؤرة الفعل . ما الذي جذبني إليك حسب ما تظن ؟ ليس ذلك ما يعرفه
عناك العالم كله وبكل تأكيد . بل هو بالضبط ما لا يعرفه العالم عموماً
عناك . لقد جُذبت على نحو لا تمكن مقاومته . . . أو بالأقل أُكرهت على
ذلك . . . أجل ، أُكرهت . أو لنقل أُجبرت ، دُفعت . . . دُفعت .

هذا ما كرره رازوموف بصوت مرتفع ، ثم توقف كأنه أجفل
بسبب التذبذب الأجوف لكلمة « دُفعت » على امتداد دهليزين عاريين
والبهو الضخم الفارغ .

لم يبد على بيتر ايفانوفيتش أنه قد أجفل اطلاقاً . ولم يستطع الشاب أن
يكبح ضحكة جافة قلقة . بقي الثوري العظيم دون أن يتحرك ، وقد
بدا عليه مظهر التفوق العادي غير المتكلف .

قال رازوموف لنفسه : « اللعنة عليه . انه ينتظر خلف نظارتيه حتى
أقوم بفضح نفسي . » ثم قال بصوت مرتفع مع استمتاع شيطاني بالاحتقار
الذي يدفعه إلى أن يعبث بوقار الرجل العظيم :

— آه يا بيتر ايفانوفيتش ، لو أنك تعرف فحسب القوة التي
جذبني . . . لا ، أعني « دفعتي » نحوك ! القوة غير الممكن كبحها .

لم يعد يشعر بأية رغبة بالضحك الآن . في هذه المرة حرك بيتر
ايفانوفيتش رأسه جانباً ، بأسلوب العارف ، وكأنما يريد أن يقول :
« ألسنت كذلك ؟ » وقد كادت هذه الحركة المعبّرة أن تمرّ غير ملحوظة
تقريباً . استأنف رازوموف بسخرية مكتومة :

- كنت تحاول فهمي طوال هذه الأيام يا بيتر ايفانوفيتش . وهذا طبيعي . لقد أدركت ذلك وكنت صريحاً . ألا تظنّ أنني لم أكن شديد الصراحة ؟ ولكن لم تكن هذه مطلوبة مع شخص مثلك . ربما كانت ستبدو كنوع من الوقاحة . وزيادة على ذلك ، فاننا معشر الروس ، نميل إلى الثرثرة كقاعدة عامة . لقد أحسست بذلك دائماً . ومع ذلك ، فاننا كأمة ، نعاني من الصمم . إذ كد لك أنه ليس من المحتمل أن أحادثك مرة أخرى بهذه الاطالة .

اقرب رازوموف ، الذي كان لا يزال على الدرجة السفلى ، من الرجل العظيم قليلاً .

- لقد تنازلت بما فيه الكفاية . لقد فهمت تماماً أن القصد من ذلك كان اغرائي . عليك أن تمنحني العدالة التي لم أحاول ارضاءها . لقد كنت مجبراً ، ومكراً ، أو مرسللاً - لنقل مرسللاً - إليك من أجل عمل لا يمكن لغيري أن يفعله . ستسمي ذلك وهماً لا ضرر منه : وهم تافه لا يمكنك حتى أن تبتم له . انه لغريب عليّ أن أتحدث هكذا ، ولكنك ستتذكر في يوم من الأيام ، هذه الكلمات ، على ما أمل . هذا يكفي . ها أنذا أقف أمامك . . . وقد اعترفت ! ولكن هناك شيء واحد عليّ أن أضيفه حتى يكتمل : لا يمكنني أن أوافق على أن أكون مجرد أداة عمياء .

مهما يكن التسليم الذي كان رازوموف يتوقعه ، إلا أنه لم يكن مستعداً لأن ينسك الرجل بكلتا يديه . كانت سرعة الحركة عدوانية إلى حد أنه أجفل . ما كان ممكناً لتبصير المرأة ضخمة الجثة أن يكون أسرع لو كان هدفه هو أن يحمل رازوموف غلداً ويرمي به خلف واحد من

الأبواب المغلقة العديدة القريبة منهما . وقد خطرت هذه الفكرة لرازوموف بالفعل ، وبداه قد تحررتا بعد ضغط بليغ غامض ، فابتسم ، وقلبه يخفق بعنف ، للحية والنظارتين اللتين تخفيان ذلك الرجل العصي على الاختراق .

قال في نفسه (وقد اعترف بذلك بخط يده) : « لن أتحرك من هنا حتى يتحدث أو يتعد . هذه مبارزة . » وقد مرت ثوان عديدة دون إشارة أو صوت .

قال الرجل العظيم بسرعة وبلهجة خفيفة وكان الأمر كله كان عبارة عن حوار مختلس لاهث :

— أجل ، أجل ، بالضبط . تعال لثرانا هنا خلال أيام قليلة . يجب أن تصبح علاقتنا عميقة . . . عميقة . . . حتى القاع . حتى . . . وبالمناسبة ، عليك أن تجلب معك ناتاليا فيكتوروفنا . . . أنت تعرفها . . . تلك الفتاة من آل هالدين . . .

سأل رازوموف بقسوة :

— هل أفهم هذا على أنه أول تعليماتك إلي ؟

بدت الحيرة على بيتر ايفانوفيتش بسبب هذا الموقف المستجد .

— آه ! هم ! أنت بالطبع هو الشخص المناسب . . . « الشخص الملائم » (بالفرنسية) . الكل سيكونون مطلوبين في الوقت الحاضر . كل واحد .

انحنى من منبسط الدرج فوق رازوموف الذي كان قد اخفض عينيه .

غمغم :

— دنت لحظة الفعل .

لم يرفع رازوموف نظره إليه . لم يتحرك حتى سمع باب غرفة الاستقبال يغلق خلف أعظم أنصار المرأة العائد إلى « إيغيريا » ه المطلية بالمساحيق . ثم سار ببطء إلى البهو . كان الباب مفتوحاً ، وكان ظل المنزل يسقط منحرفاً فوق الجزء الأعظم من الشرفة . وبينما كان يعبرها ببطء ، رفع قبعته ومسح جبينه الرطب ، وهو يزفر بقوة للتخلص من آخر آثار الهواء الذي كان يتنفسه في الداخل . نظر إلى راحتيه ثم مسحها بلطف على فخذيته .

أحس وكأن نفساً أخرى ، رغم غرابة هذا الشعور، كأن هناك شريكاً آخر له يشاركه في ذهنه وقادراً على أن يرى شخصه بالكامل على نحو واضح جداً . فكر : « هذا عجيب » . وبعد برهة صاغ رأيه في ذلك بأن صاح مستغرباً في نفسه : « بهيمي ! » وقد اختفى هذا الاشمزاز ليحل محله قلق واضح . فكّر بحصافة منهكة : « هذا هو تأثير الارهاق العصبي . كيف سأتابع يوماً بعد آخر إن لم تعد لدي القدرة على المقاومة... على المقاومة المعنوية ؟ »

تبع الممر الذي يبدأ عند أسفل الشرفة . وظل يكرر لنفسه : « مقاومة معنوية ، مقاومة معنوية » . الطاقة المعنوية . أجل ، تلك كانت ضرورة الوضع . توق هائل للخروج من هذه الأرض المحيطة بالقصر وللوصول إلى الطرف الآخر من المدينة ، ثم القاء نفسه على سريره والنوم لساعات ، هذا التوق مسح كل شيء من ذهنه للحظة . « هل من الممكن أنني لست سوى مخلوق ضعيف اذن ؟ » هكذا سأل نفسه بانزعاج مفاجيء . « آه ما هذا ؟ »

أجفل كأنه استيقظ من حلم . بل حتى أنه ترنّح قليلاً قبل أن يستعيد توازنه .

قال :

— آه ! لقد تسلت بهدوء لتتمشي هنا .

وقفت الوصيفة أمامه ، ولكنه لم يعرف مطلقاً كيف وصلت إلى ذلك المكان . كانت ذراعها الممدودتان ترتبان على القطة بعناية .

قال رازوموف في نفسه مستغرباً : « كنت غير واع وأنا أمشي ، وهذه حقيقة أكيدة . »

رفع قبعته بتهذيب واضح .

احمّر وجه المرأة الشاحبة إلى حد كبير . كان تعبير الخوف الدائم لا يزال على وجهها ، وكأن شخصاً ما قد أسرّها بنجر مروّع للتو . ولكنها تماسكت دون نخجل . فكّر : « تبدو رثة الملابس جداً . » في نور الشمس كان ثوبها الأسود يبدو مائلاً إلى الخضرة ، ويقع مهترته هنا وهناك حيث يبدو أن القماش قد تحلّل مع القدم إلى حالة مخملية سوداء وفروية . كان شعرها يبدو رثاً بل وحتى حاجبها أيضاً . تساءل رازوموف ان كان عمرها يقارب الستين عاماً . كان جسدها ، على أية حال شاباً بما فيه الكفاية . وقد لاحظ أنها لم تبدُ مُجَوَّعة ، ولكن كأنما كانت تطعم من فئات الأطباق وبقايا الطعام الضارة بالصحة .

ابتسم رازوموف بودّ وابتعد عن طريقها . التفت برأسها لتبقي عينها الوجلتين عليه .

قالت بتأكيد دون تمهيد :

— أعرف ما الذي كان يقال لك هناك .

كانت لهجتها ، بالتناقض مع أسلوبها ، ذات خاصية تدلّ على نحو غير متوقع على الثقة ، ما جعل رازوموف يشعر بالراحة .
- هل تعرفين فعلاً ؟ لا شك أنك سمعت كل أنواع الحديث في مناسبات عدة هناك .

غيرت من لهجتها ولكن بالثقة نفسها :
- أعرف بالتأكيد ما قيل لك أن تفعله .
هزّ رازوموف كتفيه قليلاً وهو يقول :
- حقاً ؟

كان على وشك أن يستأنف السير مع انحناءة لها حين خطرت له فكرة مفاجئة ، فغمغم وهو ينظر إلى القطة :
- أجل : بكل تأكيد ! ضمن وضعك الحميمي لا شك أنك تعرفين أموراً كثيرة .

وقد تالقت القطة ضمة تشنجية خاطفة من الوصيفة .
قالت :

- كل شيء تم البوح به لي منذ فترة طويلة ؛
كرّر رازوموف بذهن غائب :
- كل شيء .

صاحت بتسنيج :

- بيتر ايفانوفيتش طاغية رهيب .

استمرّ رازوموف بتفحص الأعلام على الفرو الرمادي للقطة .

— الارادة الحديدية جزء لا يتجزأ من هذه الطباع . والآن فكيف
يمكنه أن يكون قائداً؟ وأنا أعتقد أنك مخطئة في . . .

صاحت :

— عجباً ! أنت تقول لي اني مخطئة . ولكني أقول لك أيضاً انه
لا يكثر بأحد .

رفعت رأسها نحو الأعلى .

— لا تجلب تلك الفتاة إلى هنا . هذا ما طلبه منك . . . أن تجلب
تلك الفتاة إلى هنا . اصغ إليّ : الأجلد بك أن تربط حجراً حول عنقها
وأن ترميها في البحيرة على أن تجلبها إلى هنا .

أحس رازوموف بشيء من القشعريرة والكآبة ، وكان غيمة ثقيلة
قد مرت فغطت الشمس .

قال :

— الفتاة؟ وما علاقتي بها؟

— ولكنه طلب منك أن تحضر ناتالي هالدين إلى هنا . أألمت على
صواب؟ طبعاً أنا على صواب . لم أكن في الغرفة ، ولكني أعرف .
أعرف بيتر ايفانوفيتش بما فيه الكفاية . انه رجل عظيم . واكن الرجال
العظام رهييون . حسناً ، هذا هو الأمر . لا علاقة لك بها . هذا أفضل
ما يمكنك أن تفعله ، الآن اذا أردتها أن تصبح مثلي . . . خاتبة الرجاء !
خاتبة الرجاء !

كرّر رازوموف وهو يحمق في جهها الفارغ من أية وسامة سواء في
الملامح أو في البشرة كما يكون جيب الشحاذ فارغاً من النقود :

– مثلك .

ابتسم ، وهو لا يزال يشعر بالقشعريرة . انتابه احساس غريب راح
يزعجه . استأنف قائلاً :

– خائبة الرجاء فيما يخص بيتر ايفانوفيتش ؟ أهذا كل ما خسرتة ؟

صرخت ، وهي تبدو خائفة : ولكن بقناعة هائلة :

– بيتر ايفانوفيتش رمز لكل شيء .

ثم أضافت بلهجة أخرى :

– ابق الفتاة بعيدة عن هذا المنزل .

– وأنت تحرضيني على عصيان بيتر ايفانوفيتش وذلك لأنك خائبة

الرجاء فحسب ؟

بدأت ترمش بعينها .

– ما أن رأيتك للمرة الأولى حتى أحسست بالراحة والسلوان .

لقد رفعت قبعتك لي . بدا عليك أنك شخص ممكن الوثوق به . أوه !

انكلمت أمام الزجرة الوحشية لرازوموف وهو يقول :

– لقد سبق لي أن سمعت شيئاً كهذا من قبل .

لقد أصيبت بالذهول إلى حد أنها لم تستطع أن تفعل أي شيء سوى

أن ترمش بعينها لفترة طويلة .

شرحت بكآبة :

– كان ذلك بسبب سلوكك الانساني . لقد كنت تواقفة إلى القبايل

من التهذيب ، ولن أقول اللطف ، ومنذ فترة لا أعرف كم طالت .

وها أنت غاضب الآن .

قال محتجاً :

– ولكن لا ، على العكس من ذلك . أنا سعيد جداً لأني موضع
ثقتك . ومن الممكن أن أقوم لاحقاً بـ . . .
قاطعته بلهفة :

– أجل ، اذا ما مرضت أو عانيت من مشكلة ما ، ستجد أنني
لست حمقاء لا نفع منها . كل ما عليك هو أن تبلغني . وسأتي إليك .
سأفعل ذلك حقاً . وسوف ألتزم بخدمتك . البؤس وأنا صديقان قديمان . . .
ولكن الحياة هنا أسوأ من الموت جوعاً .

توقفت بقاء ، ثم قالت بصوت بدا للوهة الأولى أنه خجول .

– أو ان كنت منغمساً في عمل ما فيه خطورة . في بعض الأحيان
يكون الرفيق المتواضع . . . كما أنني لن أطاب معرفة كل شيء .
سأتبعك بسعادة . أستطيع تنفيذ الأوامر . الذي ما يكفي من الشجاعة .

نظر رازوموف باهتمام إلى العينين المدورتين الخائفتين ، إلى
الوجنتين الشاحبتين الداويتين المدورتين ، وكانتا ترتجفان عند زاوية
الضم .

فكّر : « انها تريد الخلاص من هذا المكان » .

قال ببطء :

– ولنفترض أنني سأقول لك اني منغمس في عمل خطير ؟

ضغطت القطة إلى صدرها الرث الملابس وندت عنها صيحة لاهية :
– آه !

ثم قالت باهجة لا تتعدى الهمسة :

– تحت امره بيتر ايفانوفيتش ؟

– لا ، ليس تحت امره بيتر ايفانوفيتش .

قرأ الاعجاب في عينيها ، ثم بذل جهداً ليبتسم .

– لوحدك . . . اذن ؟

رفع يده المغاظة والسبابه مرفوعة وقال :

– كهذا الأصعب .

كانت ترتجف قليلاً . ولكن خطر لرازوموف أنهما ربما يكونان مراقبين من المنزل ، وأصبح تواقاً إلى الرحيل . ومشت وهي ترفع إليه وجهها المتغضن ، وبدت وكأنها ترجو بصمت أن يقال لها شيء ما آخر ، أن تُسمح كرامة تشجيع لتفانيها الجائع العجيب المثير للشفقة .

سألها رازوموف باهجة الثقة :

– هل يمكن أن نرى من المنزل ؟

أجابت دون أن تظهر أية دهشة من السؤال :

– لا ، لا يمكن ذلك ، بسبب هذا الجانب من الاصطبلات .

ثم أضافت بدقة أدهشت رازوموف :

– ولكن أي شخص يظل من نافذة من الطابق العاوي سيعرف أنك

لم تمرّ بالبوابات بعد .

سأل رازوموف :

– من يمكن أن يتجسس من النافذة ؟ بيتر ايفانوفيتش ؟

أومأت برأسها .

- ولماذا يزعم نفسه بذلك ؟
- انه يتوقع وصول شخص ما بعد ظهر هذا اليوم .
- وهل تعرفينه ؟
- هناك أكثر من شخص واحد .
- كانت قد أخفضت أهدابها . نظر رازوموف إليها بفضول .
- أنت تسمعين بالطبع كل ما يقولونه .
- غمغمت دون أي طهجة عدائية :
- وكذلك الطاولات والكراسي .

فهم أن المرارة التي تراكمت في قلب تلك المخاوقة اليائسة قد دخنت إلى شرايينها . وراح كسب رقيق ، يفسد اخلاصها لذلك الزوجي الكريه . كان في ذلك ضربة حظ عظيمة له ، هذا ما فكر به ، لأنه نادراً ما تكون النساء قابلات للرشوة شأن الرجال الذين يمكن شراؤهم لاعتبارات مادية . ستكون حايضاً جيداً . رغم أنه ليس من المحتمل أن يُسمح لها بأن تسمع بقدر ما تسمع طاولات وكراسي قصر بوريل . لا يمكن توقع ذلك . ومع ذلك . . . وعلى أية حال : فانه من الممكن جعلها تتكلم .

حين رفعت نظرها قابات عيناها التحديقة الثابتة لرازوموف الذي راح يتحدث على الفور :

- حسناً ، حسناً يا عزيزتي . . . ولكنك لم تمنحيني بعد السرور بمعرفة اسمك ، أليس هذا غريباً ؟
- ولأول مرة حرّكت كتفيها .

– وهل هذا غريب ؟ لا يذكر اسمي لأحد . ليس هناك من
يكترث . ولا أحد يكتسمني ، ولا أحد يرأسني . ولا يعرف والدائي
ان كنت حية أم ميتة . لا أحتاج إلى اسم ، وقد نسيتته تقريباً أنا نفسي .
غمغم رازوموف بجديفة :

– أجل ولكن مع ذلك . . .

استأنفت ببطء أشد ولكن دون اكتراث :

– لك أن تسميني « تكلا » اذن. كان « أندري » العزيز يناديني بهذا
الاسم ، وقد كنت مخصصة له . لقد عاش في بؤس ومعاناة ومات في
الشقاء . هذا هو قدرنا نحن الروس جميعاً ، الروس الذين لا أسماء لهم .
لا شيء آخر لنا ، ولا أمل في أي مكان ، ما لم . . .

– ما لم . . . ؟

– ما لم يتمّ القضاء على كل أولئك الذين لهم أسماء .

هذا ما أنهت به حديثها وهي تزمّ شفثيها وترمش بعينيها .

قال رازوموف :

– سيكون من الأسهل مناداتك « بتكلا » كما تريدن ، هذا اذا
ما وافقت على مناداتي بكيرياو ، وذلك حين نتحدث بهذا الأسلوب . . .
بهدوء . . . فيما بيننا نحن الاثنين .

ثم قال في نفسه : « ها هي كينونة خائفة جداً من العالم دون ريب ،
والآ لسبق لها وهربت من هذا الوضع . » ثم فكّر في أن هجران الرجل
العظيم فجأة سيجعلها في موضع الشبهات . لم تكن لتتوقع أي دعم أو
تأييد من أي شخص . لم تكن هذه المرأة الثورية أهلاً لوجود مستقل .

تحرّكت بضع خطوات ، وهي ترمش وتحتضن القطة مع حركات
توازنية صغيرة من ذراعيها .

— أجل . . أنت وأنا فحسب . هكذا كانت الحال مع « أندري »
المسكين ، ولكنه كان محتضر ، قتله أولئك المتوحشون الرسميون . . أما
أنت ! أنت قويّ . أنت تقتل الوحوش . لقد أنجزت صنيعاً عظيماً .
حتى بيتر ايفانوفيتش نفسه يحسب لك حساباً . حسناً . . لا تنسني . .
خاصة ان كنت ستعود إلى العمل في روسيا . أستطيع أن أتبعك ، حامة
أي شيء يطالب مني . . من بعيد ، كما تعرف . أو أستطيع أن أراقب
لمدة ساعات بحالها عند زاوية شارع ان كان ذلك ضرورياً — في المطر
أو الثلج — أجل ، أستطيع . . طوال اليوم . أو أني أستطيع أن أكتب
لك وثائق خطيرة ، لوائح اسمية أو تعليمات ، حتى لا تتورّط في حال
حدوث مكروه . ولا حاجة بك إلى أن تخاف اذا أمسكوا بي . سأعرف
كيف أبقى خرساء . نحن النساء لا يخيفنا الألم بسهولة . لقد سمعت بيتر
ايفانوفيتش يقول ان ذلك يعود إلى أعصابنا غير الرهيفة أو ما شابه .
نستطيع تحمّل الألم على نحو أفضل . وهذا صحيح ، واني لأنضّل أن
أعصّ لساني وأرمي به إليهم على أن أفصح بأي شيء . ما فائدة النطق
بالنسبة إليّ ؟ من ذا الذي يريد أن يصغي إلى ما أستطيع أن أقوله ؟ منذ
أن اغمضت عيني « أندري » المسكين لم أقابل رجلاً بدا عايه الاهتمام
بنبرة صوتي . ما كنت لأحادثك لو لم تعاملي بكل ذلك اللطف في أوّل
مرة جثت فيها إلى هنا . لم أستطع سوى أن أتحدث عنك مع تلك الفتاة
العريضة الغائنة . أوه ، يالها من مخلوقة عذبة ! وقوية أيضاً ! يمكن للمرء
أن يلاحظ ذلك فوراً . ان كان لك قاب فلا تدعها تأتي إلى هذا المكان
أبدأ . وداعاً .

أمسك بها رازوموف من ذراعها . وقد عبّرت عن انفعالها لامسائها
بهذه الطريقة بنضال قصير سكنت بعده حركتها دون أن تنظر إليه .

همس لها في أذنها :

— ولكنك تستطيعين أن تقولي لي لماذا يتوق هؤلاء الناس هنا إلى
الامسك بها إلى هذا الحد ؟

حرّرت ذراعها لتواجهه وكأنها غضبت من السؤال .

— ألا تفهم أن على بيتر ايفانوفيتش أن يوجّه ويسألهم ويترك
تأثيره ؟ هذه هي روح حياته . ولا يمكن أن يكتفي بأي عدد من الأتباع .
انه لا يستطيع أن يتحمّل التفكير في أن ينجو منه أي شخص ، خاصة ان
كانت تلك امرأة ! يقول انه لا يمكن انجاز أي شيء دون نساء . لقد
كتب ذلك : انه . . .

كان الشاب يحدّق إلى انفعالها حين صمّنت فجأة وركضت إلى
ما وراء الاصطبل .

. . .

- ثالثاً -

بعد أن ترك رازوموف لوحده ، اتّجه نحو البوابة . ولكنه اكتشف في يوم الحوارات الكثيرة هذا أنه ما كان ممكناً له أن يغادر أرض القصر دون اجراء حوار آخر .

لقد ظهر من خلف مسكن البوّاب الزوّار المنتظرون لبيتر ايفانوفيتش : زمرة صغيرة مؤلفة من رجالين وامرأة . وقد لاحظوا وجوده هم أيضاً على الفور ، وتوقفوا كأنما يريدون التشاور . ولكن المرأة التي تنحّت جانباً ، أشارت بذراعها إلى الرجلين اللذين ابتعدا عن الطريق مباشرة واستمرا في طريقهما عبر مرج كبير مهمل ، نحو المنزل مباشرة . بقيت المرأة على الممر منتظرة اقتراب رازوموف . لقد ميّزته . وكان هو أيضاً قد ميّزها من أول نظرة : لقد تعرّف عليها في زيوريخ حيث توقف هناك في طريقه من درسدن . وقد أمضيا معظم الوقت معاً خلال اليومين اللذين قضاهما هناك .

كانت ترتدي الزي نفسه الذي رآها فيه لأول مرة . قميص الحريري القرمزي يجعلها لافتة للنظر من مسافة ، ومعه تنورة بنية قصيرة وحزام جلدي ، كان لون بشرتها هو لون القهوة والحايب ، ولكنه مشرق تماماً ؛ وكانت عيناها سوداوين لامعتين ، وجسدها منتصباً . كان شعرها الكثيف ذو اللون الأبيض تقريباً ، غير مرتب تحت قبعة « تيرولية » مغبرة من قماش غامق اللون ، بدت وكأنها فقدت بعض زركشتها .

كان تعبير وجهها جدياً وذا تصميم ، جدياً إلى حدّ أن رازوموف اضطرب بعد أن اقترب منها إلى الابتسام . صافحته مصافحة رجولية .

صاحت :

— ماذا ؟ أنت مغادر ؟ لم يا رازوموف ؟

أجاب رازوموف وهو يضغظ بدوره على يدها بقوة أقل من القوة التي بذلتها هي :

— أنا مغادر لأنه لم يطاب مني البقاء .

حركت رأسها جانباً اشارة الفهم .

في هذه الأثناء كانت عينا رازوموف قد سرحتا خلف الرجلين . كنا يعبران المرج بخط مائل ودون اسراع . كان أقصرهما يرتدي معطفاً ضيقاً مزرباً مخيطاً من مادة رمادية رقيقة ، ويصل إلى كعبيه تقريباً . أما رفيقه ، الأطول والأعرض بكثير ، فكان يرتدي جاكيت ضيقة قصيرة وبنطالاً ضيقاً حشر في جزمة عالية قدرة .

تحدثت المرأة التي أبعدهما عن طريق رازوموف على نحو واضح بصوت عملي تماماً :

— كان عليّ أن أسرع قادمة من زيوريخ لانتظر القطار وأحضر هذين إلى هنا لمقابلة بيتر ايفانوفيتش . وقد تمكنت من ذلك للتو .

قال رازوموف بلا مبالاة وقد انزعج تماماً من تلكتها لمحدثته :

— آه ! حقاً ! من زيوريخ . . . أجل ، طبعاً . وهذان الاثنان . . .

قادمان من . . .

قاطعته دون توكيد :

— من اتجاه آخر تماماً . من مسافة بعيدة أيضاً . مسافة كبيرة .

هز رازوموف كتفيه . كان الرجلان القادمان من بعيد قد اختفيا فجأة ، بعد أن وصلا إلى جدار الشرفة ، وذلك عند سفحها ، كأن الأرض فتحت فاها لتبتلعهما .

— أوه ، حسناً ، لقد وصلا للتو من أمريكا .

هزت المرأة ذات القميص القرمزي كتفيها قليلاً هي أيضاً قبل أن تتلفظ بهذا التصريح . ثم صاحت وكأنها تحدث نفسها :

— الموعد يقترب . لم أقل لهما من أنت . كان من شأن « ياكوفليتش » أن يعانقك .

— هل هو ذاك الذي تتدلى حفنة من الشعر من ذقنه ويرتدي المعطف الطويل ؟

— لقد حذرت . ذاك هو يا كوفليتش .

— أما كانا يستطيعان أن يجدا طريقهما إلى هنا من المحطة دون قدومك لهذا الغرض خصيصاً من زيوريخ ؟ حقاً اننا لا نستطيع أن نفعل أي شيء دون النساء . هذا ما كُتِبَ والأمر هكذا على ما يبدو . كان يحسّ بتعب هائل كامن من تحت محاولته أن يكون تهماكياً . وقد استطاع أن يرى أنها قد اكتشفت ذلك بعينها اللامعتين السوداوين الهادئتين .

— ما حكايتك ؟

— لا أعرف . لا شيء لقد كان يومي شيطانياً .

انتظرت ، وعيناها السوداوان مثبتتان على وجهه . ثم قالت :

— وماذا في ذلك ؟ أنتم الرجال شديدو الحساسية والحجل . اليوم

ككل يوم آخر ، قاس ، قاس . . . وهناك نهاية له ، إلى ان يأتي اليوم العظيم .
لقد جئت لسبب جيد جداً . لقد كتبنا إلى بيتر ايفانوفيتش ليلغاه بقدميهما .
ولكن من أين ؟ كتبنا من «شيربورغ» على قطعة صغيرة من دفتر السفينة .
كان يمكن لأي شخص أن يفعل ذلك . لقد كان يا كوفليتس يعيش
منذ سنوات وسنوات في أمريكا . وأنا الوحيدة التي عرفته جيداً في الأيام
الحالية . لقد عرفته جيداً بالفعل . وهكذا أبرق لي بيتر ايفانوفيتش طالباً
مني أن أحضر . هذا طبيعي بما فيه الكفاية ، أليس كذلك ؟
سألها رازوموف :

– هل حضرت لتتأكدي من شخصيته ؟

– أجل . شيء من هذا القبيل . خمسة عشر عاماً في حياة كهذه
يمكن أن تحدث تغييرات في الرجل . كان وحيداً ، كغراب في بلد
غريب . حين أفكر في يا كوفليتس قبل أن يذهب إلى أمريكا . . .
دفعت رقة لهجتها الخفيفة برازوموف إلى النظر إليها من جانب ؛
تنهدت ؛ وكانت قد غرزت أصابع يدها اليمنى عميقاً في كومة شعرها
الأبيض اللون تقريباً ، وراحت تحركها بذهن غائب . وحين سحبت
يدها بقيت القبعة الصغيرة الجائمة فوق رأسها مائلة قليلاً . بدا مظهرها
فضولياً غريباً ، ولكنه يتباين بشدة مع الغمغمة الحافلة بالذكريات التي
أفلتت منها :

– لم نكن في أول الشباب حتى آنذاك . ولكن الرجل طفل على
الدوام .

فكر رازوموف فجأة : « كانا يعيشان معاً » . ثم فكر بصوت مرتفع
وهو يسألها بصراحة :

– لماذا لم تلحقني به إلى أمريكا؟

نظرت إليه باضطراب .

– ألا تذكر ما كان يجري منذ خمسة عشر عاماً ؟ كانت تلك فترة نشاط . كان للثورة تاريخها في ذلك الحين . أنت ضمن ذلك ومع ذلك لا يبدو أنك تعرفه . لقد سافر يا كوفليتس آنذاك في مهمة ، وعدت أنا إلى روسيا . وكان على الأمر أن يكون كذلك . وبعد ذلك لم يعد لديه ما يعود من أجله .

همهم رازوموف بدهشة مصطنعة :

– آه ! حقاً . لا شيء !

سألته بعجلة :

– ما الذي تحاول أن تلمح إليه ؟ وماذا اذن لو أن همته ثبتت بالفعل قليلاً . . . ؟

– انه يبدو كواحد من « اليانكي » بذلك العثون المتدلي من ذقنه . مجرد « عم سام » عادي . حسناً ، وأنت التي ذهبت إلى روسيا ؟ أنت لم تثبط همته .

– حسناً . يا كوفليتس شخص بعيد عن الشك . انه ، على أية حال ، من الصنف الصحيح .

بقيت نظراتها السوداء الثاقبة مثبتة على رازوموف خلال الكلام وللحظة أخرى بعده .

سألها رازوموف ببرود :

– عفوك ، ولكن هل يعني ذلك أنك ، مثلاً ، تظنين أني لست
من الصنف الصحيح ؟

لم تعترض ، ولم تبد عليها أي أمانة تدل على أنها سمعت السؤال ،
بل استمرت تنظر إليه بأسلوب بدا له غير ودي اطلاقاً . حين مرّ بمدينة
زيوريخ كانت قد وضعت في عهدها ، بطريقة ما ، وكانت معه من
الصباح حتى الليل خلال اقامته هناك لمدة يومين . كما أخذته في جولة
لمقابلة أناس عديدين . في البداية كانت تحادثه مطوّلاً وعلى نحو غير
متحفظ ، ولكنها كانت تتجنب كل اشارة إلى شخصها بالذات .
وحوالي منتصف اليوم التالي صمتت فجأة خلال رعايتها له بالحماسة
نفسها . بل وحتى خلال مرافقته إلى محطة السكة الحديدية ، حيث
ضغطت بشدة على يده عبر النافذة المفتوحة للقطار . ثم تراجعت دون
كلمة واحدة ، انتظرت القطار حتى انطلق . وكان قد لاحظ أنها
كانت تتلقى معاملة احترام هادىء . لم يكن يعرف شيئاً عن حسبها ،
ولا عن قصة حياتها أو ملفها السياسي ، بل حكم عليها من وجهة نظره
الخاصة على أنها خطر واضح يعترض طريقه . وربما لا تكون عبارة
« حكم عليها » هي الكلمة الصحيحة . كان ذلك شعوراً بالأحرى ،
تجميعاً للانطباعات الصغيرة مدعماً باكتشاف أنه لم يكن قادراً على
احتقارها كما احتقر الآخرين جميعاً . لم يكن يتوقع رؤيتها مجدداً خلال
هذه الفترة القصيرة .

لا ، دون شك . لم تكن تعابرها غير ودّية . ومع ذلك فقد لاحظت
تسارعاً في نبض قلبه . ما كان ممكناً قطع الحوار هنا . فاستأنف بلهجة
الاستفسار المدقّق :

— هل ذلك لأنني أرفض ربما قبول كل تطور في المبدأ العام على نحو أعمى . . . مثلاً مبدأ نصرة المرأة الذي ينادي به بيتر ايفانوفيتش ؟ ان كان هذا هو ما يجعلني مشبوهاً ، فاني لا أقول سوى اني أحتقر فكرة تحولي إلى عبد حتى لو كانت تلك عبودية للفكرة .

كانت تنظر إليه طوال الوقت ، ليس كما ينظر المستمع إلى المتحدث ، ولكن كأنما كانت الكلمات التي يختارها ذات أهمية ثانوية . وحين انتهى دفعت بيدها ، بحركة فجائية ومصممة ، تحت ذراعه ودفعتها انما بلطف نحو بوابة القصر الخارجية . أحس بثباتها وأطاع هذا الدافع فوراً ، تماماً كما فعل الرجلان الآخران قبل برهة . لقد أطاع ، دون أخذ وردّ ، حركة يدها .

وقد سارا بضع خطوات على هذا النحو .

— لا يا رازوموف ، ربما تكون أفكارك مقبولة . قد تكون ذات قيمة كبيرة . . . جداً . ولكن مشكلتك هي أنك لا تحبنا . حررتة . واجهها بابتسامة جليدية .

— هل يتوقع مني اذن أن أمتلك الحب والقناعات ؟ هزّت كتفها .

— أنت تعرف بالضبط ما أعنيه . الناس أصبحوا يعتقدون أنك لست مخلصاً قلباً وقالباً . ولقد سمعت هذا الرأي من هذا الجانب ومن جانب آخر . ولكني كنت قد فهمتك منذ نهاية اليوم الأول . . . قاطعها رازوموف وهو يتحدث بثبات :

— أو كد لك أن حدة ذهنك قد أخطأت هنا .

صاحت معترضة :

- يا للجمال التي يستعملها ! آه ! يا كيريلو سيدوروفيتش ، أنت نيتو كالرجال الآخرين ، مترع بحب الذات وخائف من التوافه . وعلاوة على ذلك . ليس لديك أي توجيه . ان ما أنت في حاجة إليه هو أن تأخذ امرأة ما بيدك . ويؤسفني أني لن أبقى هنا طويلاً . سأعود إلى زيوريخ غداً . وسوف أصطحب معي يا كوفليتش على الأرجح . وقد بعثت هذه المعلومة الراحة في قلب رازوموف .

قال :

- أنا آسف أيضاً . ولكني لا أظن أنك تفهميني على أية حال . تنفّس بحرية أكبر ، ولكنها لم تحتج ، بل سألته :
- وهل تفاهمت مع بيتر ايفانوفيتش ؟ لقد التقيتما كثيراً . كيف هي الحال بينكما ؟
حار الشاب في الجواب وكان أن أمال رأسه جانباً ببطء .
- حسناً !

بدا هذا كشيء نهائي . ولكنها لم تغادره . كان من المستحيل أن يخزر ما في رأسها . غمغم رازوموف :
- كان يتوجب عليك عدم طرح هذا السؤال عليّ أنا . سترين بيتر ايفانوفيتش بعد لحظات . وسوف تتحدثان عن هذا الموضوع بالطبع . سيكون تواقفاً إلى أن يعرف السبب الذي أحرّك في حديقته هذه الفترة الطويلة .
- لا شك أنه سيكون لدى بيتر ايفانوفيتش ما يقوله لي . أشياء

عدة . وقد يتحدث عنك حتى . . . ويسألني . بيتر ايفانوفيتش مبال
إلى الثقة عموماً .

— يسألك؟ هذا محتمل جداً .

ابتسمت ابتسامة نصف جدية :

— حسناً . . . وماذا سأقوله له ؟

— لا أعرف . ربما ستحكي له عن اكتشافك .

— وما هو ذلك ؟

— عجباً . . . قلّة حيي . . .

قاطعته قائلة :

— أوه ! هذا أمر يخلصنا نحن الاثنين فحسب .

وكان من الصعب معرفة ان كانت مازحة أم جادة .

قال رازوموف بلهجة مازحة ووجه كالح :

— أرى أنك تريد أن تقولي شيئاً ما في صالح ليبيتر ايفانوفيتش .

حسناً اذن ، يمكنك أن تقولي له اني متحمّس جداً لمهمتي ، وأنوي
النجاح .

صاحت متعجّبة وبعجلة :

— وهل أوكلت مهمة إليك ؟

— تقريباً . لقد طلب مني أن أرتّب أمر حدث معين .

نظرت إليه متمحّصة .

كرّرت بجديّة واهتمام في الوقت نفسه :

— مهمة . أي نوع من المهمات ؟

— شيء له طبيعة العمل الدعائي .

— آه ! بعيداً عن هنا ؟

— لا ، ليس بعيداً جداً .

هذا ما قاله رازوموف وهو يكبح رغبة مفاجئة في الضحك ، رغم أنه لم يكن يشعر بالمرح إطلاقاً .

قالت متأملة :

— هكذا ! حسناً ، لا أقوم بطرح الأسئلة . يكفي أن بيتر ايفانوفيتش يعرف ما الذي يفعله كل واحد منا . ولا بدّ أن يصل كل شيء إلى الوضع الصحيح في النهاية .

— هل تظنين ذلك ؟

— لا أظنّ أيها الشاب . بل أؤمن به بكل بساطة .

— وهل بيتر ايفانوفيتش وراء هذا الايمان ؟

لم تجب على السؤال ، ووقفوا معاً ساكنين صامتين ، كأنهما مترددان في ما يخصّ مسألة الفراق .

غغمغت أخيراً :

— هذا أشبه بموقف الرجال . لكأنه من الممكن أن يعرف المرء كيف يأتي الايمان إليه .

تحرك حاجباها الرفيعان الشيطانيان قليلاً .

— هناك ملايين من الناس في روسيا يحسدون الكلاب على حياتها في

هذا البلد : وانه لأمر مرعب ومخجل أن أعترف بهذا حتى بيني وبينك .
على المرء أن يؤمن اشفاقاً . لا يمكن لهذا أن يستمر . كلا ! لا يمكن أن
يستمر . منذ عشرين عاماً وأنا أحيء وأروح ، دون أن أنظر إلى اليسار
أو اليمين . . . لماذا تبسم ؟ أنت لا تزال في البداية . لقد بدأت بداية
حسنة ، ولكن انتظر حتى تكون قد دست على كل جزيء فيك تحت
قدميك خلال ذهابك ومجيئك تلك المرات العديدة . فهذه هي النتيجة .
عايك أن تدوس على كل جزء من مشاعرك ؛ فإن تستطيع التوقف
ويتوجب عليك ألا تتوقف . كنت شابة أنا أيضاً . . . ولكنك تظن
ربما أنني أتدّمر . . . أليس كذلك ؟

احتج رازوموف دون اهتمام :

— لا أظن ذلك اطلاقاً .

— أعتقد أنك صادق أيها المخاوق العزيز المنفوق . أنت لا تهتم
ولا تكترث .

غرزت أصابعها في كومة الشعر التي على الجانب الأيسر من رأسها ،
وكان أن أعادت تلك الحركة الفظة القبيحة التيرولية إلى مكانها الصحيح
على رأسها . عيست تحت القبيحة بعدائية ، بأساوب قاضي تحديق . أشاح
رازوموف وجهه بلا مبالاة .

— أنتم معشر الرجال متشابهون . تخطئون فتحسبون الخطأ ميّزة .
وتفعلون ذلك عن إيمان حقيقي ! إن أقسو كثيراً عايك . تلك هي الطبيعة
الذكورية . أنتم معشر الرجال مثيرون للشفقة إلى حد مضحك وذلك في
ديانكم إلى تبني أوهام طفولية حتى قبوركم . هناك الكثيرات منا اللواتي
لازلن يعملن منذ خمسة عشر عاماً — أعني على نحو متواصل — وهنّ

يجربن شتى الطرق ويعمان سراً وجهرأ ، دون أن ينظرن إلى اليمين أو اليسار ! أستطيع أن أتحدث عن ذلك . لقد كنت واحدة من أولئك اللواتي لم يسترحن أبداً . . . عجباً ! ما فائدة الكلام . . . انظر إلى شعري الأشيب ! وها هما طفلان يأتیان . . . أعني أنت وهالدين . . . تأتیان وتستطيعان أن توجهها ضربة من أول محاولة .

لدى سماعه اسم هالدين وهو يسقط من الشفتين السريعتين النشفتين للمرأة الثورية ، انتاب رازوموف ذلك الوعي الفظ المعتاد بما لا يمكن الغاؤه . ولكن مع كل الشهور التي مرت على رأسه كان قد أصبح معتاداً على هذه التجربة . لم يعد الوعي مصاحباً بالفزع المربك والغضب الأصمى اللذين عرفهما في الأيام الأولى . لقد أقنع نفسه بمعتقدات جديدة ، كما صنع لنفسه جوّاً ذهنياً من الاستغراق الكثيب الساخر ، نوعاً من الوسط الضبابي الذي تبدو الحادثة من خلاله كظلمة عديم الملامح له شكل رجل انما على نحو غامض ، وهو شكل مألوف جداً ولكنه خاوي من التعبير اطلاقاً ، باستثناء جوّ الانتظار المتجرّد في الغسق . لم يكن ذلك مزعجاً .

سألته المرأة الثورية على نحو غير متوقع :

— وكيف كان شكله ؟

ردّ رازوموف وهو يبذل جهداً مؤلماً حتى لا يهاجمها بوحشية :

— كيف كان شكله ؟

ولكنه حرّر نفسه بالضحك قليلاً بينما سرق نظرة منها بزواية عينه .

لقد أربكها هذا الرد على سؤالها .

استأنف قائلاً :

— لكم هذا سؤال نسائي ! ما الفائدة من الاهتمام بمظهره ؟ مهما كان مظهره فانه أصبح خارج كل التأثيرات الأنثوية الآن .

ارتسمت تقطيعية على وجهها صانعة ثلاث تجهيزات عند جذر أنفها ،
مما أبرز الميل الشيطاني لحاجبيها .

قالت بصوتها الخفيض اللواتق :

— أنت تعاني يارازوموف .

واجه رازوموف المرأة بوضوح :

— ما هذا الهراء ! ولكنني اذ أفكر الآن بالأمر ، لا أظن أنه خارج تأثير امرأة واحدة على الأقل تاك المرأة التي هناك « المدام دو س . . . » . في السابق كان يسمح للموتى أن يرتاحوا ، ولكن يبدو الآن أنهم تحت تصرف اشارة ونداء عجوز شكسة ومجنونة . نحن الثوريين نقوم باكتشافات رائعة . صحيح أنها ليست من صنعنا نحن بالضبط . ليس لدينا ما هو خاصتنا . ولكن أما تستطيع صديقة بيتر ايفانوفيتش أن تشيع فضولك الأنثوي ؟ ألم تستطلع أن تستحضره لك روحياً ؟ . . .
هذا ما قاله ساخرأ متألماً .

كان تعبيرها المقطّب المركز قد تراخى ، ثم قالت بتعب نوعاً ما :

— فلنأمل أنها ستبدل جهلأ وتستحضر شيئاً لنا . ولكن هذا ليس مؤكداً على أية حال . أنا متعبة يارازوموف .

— أنت متعبة ! يا له من اعتراف ! حسناً ، كان هناك شاي حين كنت هناك . لقد شربت بعض الشاي . اذا أسرعت باللحاق بيا كوفائيتش ، بدلاً عن تضييع وقتك مع شخص شككك يثير الرضا مثلي ، فقد تجددين

شبحه : . . . شبحه البارذ . . . وهو لا زال يتسكع في المعبد . أما فيما يخص كونك متعبة ، فلا أستطيع تصديق ذلك إلا بالكاد . لقد قرأت في إحدى الصحف منذ فترة مقالة منكرة حول النشاط الذي لا يعرف الكلل للأحزاب الثورية . وهذا يترك تأثيره على العالم . هذه هي ميزتنا . قالت المرأة في القميص القرمزي وكأنها تناجي شخصاً ثالثاً دون أن تغادر عيناها السوداوان وجه رازوموف :

— انه يرمي بهذه الاهانات والتهكمات باستمرار ، ولماذا يا ترى ؟ كل ذلك لأن بعض أفكاره التقايدية أصيبت بصدمة ، وكذلك بعض معاييرها الكورية الصغيرة . قد تعتقد أنه واحد من أولئك الحساسين العصبيين الذين ينتهون نهاية سيئة .

توقفت عن الكلام لفترة قصيرة تأملياً ثم غيرت صيغة المخاطبة . — ومع ذلك فقد علمت للتو بشيء ما يجعاني أظن أنك رجل ذو شخصية متميزة يا كيرياو سيدوروفيتش . أجل بالفعل . . . أنت كذلك . روع رازوموف لهذه اليقينية الغامضة الكامنة وراء هذا الجزم . تقابلات عيونهما . أشاح بنظره بعيداً ومن خلال قضبان البوابة الصدئة ، راح يحدق إلى الطريق الواسعة المنظمة المطاطة بالأشجار المورقة . كانت حافلة كهربائية ، فارغة تماماً ، تسير على امتداد الشارع محدثة شخصشة معدنية . بدا له أنه مستعد أن يمنح أي شيء لقاء الجاوس في داخلها وحيداً . كان منهكاً إلى آخر حد ، منهكاً في كل نسيج من جسده ، ولكن كان لديه سبب يدفعه إلى ألا يكون المبادر إلى قطع الحوار . في أية لحظة ، ضمن ذلك الهذيان المثالي والاجرامي ، فقد تقع على أسماعه بعض الكلمات الخطيرة : من شفيتها . أو من شفتي أي شخص آخر . وطالما استطاع

أن يحتفظ بذهن صاف وأن يبقي نزقه تحت السيطرة ، لم يكن هناك ما يخشاه . كان الشرط الوحيد للنجاح والأمان هو قوة الإرادة التي لا تقهر . هذا ما راح يدكر نفسه به .

كان يتوق إلى يكون على الطرف الآخر من القضبان ، وكأنه بالفعل سجين داخل أرض مركز المؤامرات الثورية هذا ، منزل الحماقات والجهل والشر والجريمة . أطلق العنان بصمت لروحه الجريح في شعور من العزلة الأخلاقية والذهنية الهائلة . لم يبتسم حتى حين سمعها تكرر الكلمات التالية :

— أجل ذو شخصية قوية .

استمر في التحديق عبر القضبان كسجين ذي مزاج متعكر ، لا يفكر في الهرب ، بل يتأمل في ذكريات الحرية الباهتة فحسب :

غمغم وهو لا يزال ينظر إلى البعيد :

— إذا لم تنتهي ، فسوف لن تطالي حتى شبح ذلك الشاي .

لم تهتز لكلماته أبداً . بل أنه لم يكن يتوقع النجاح :

— لا بأس ، لن تكون تملك خسارة كبيرة . أعني ألاّ أشرب من شايبها ، بل مجرد شبحه على أية حال . أما فيما يخص « المدام » فعليك أن تفهم أن لها استخدامات ايجابية . أتري ذلك يا رازوموف ؟

التفت برأسه من جراء هذا السؤال الأمر ورأى المرأة الثورية تقوم بحركات عدّة النعود في راحتها .

— هذا هو الأمر . هل ترى ما هو ؟

تلفظ رازوموف بعبارة «رى ذلك» ببطء ، ثم عاد إلى تحديقته
السجينة إلى الطريق النظيفة المظلمة .

— الوسائل المادية لا بدّ من الحصول عليها بطريقة ما او بأخرى ،
وهذا أسهل من اقتحام المصارف ، وأضمن أيضاً . حسناً ! أنا أمزح . . .
ما الذي يغمغم به لنفسه الآن ؟
هذا ما صاححت به همساً .

— اعجابي بالتضحية المخلصة بالذات لبيتر ايفانوفيتش ، هذا كل
ما في الأمر . هذا ما يجعل المرء يصاب بالغثيان .

— أوه ، أنت أيها المخلوق الذكري سريع الغثيان . تشعر بالغثيان !
يصيبه بالغثيان ! وماذا تعرف عن حقيقة الأمر ؟ لا تتطلع هناك إلى
أسرار القلب . كان بيتر ايفانوفيتش يعرفها منذ سنوات ، في أيام الشباب
حين كان ضابطاً شاباً في سلاح الحرس . لا يمكننا نحن أن نحكم على
شخص ملهم . هنا لا توجد لكم معشر الرجال أية ميزة . أنتم ملهجون
أحياناً في الفكر والعمل معاً . طالما اعترفت أنكم حين تكونون ملهمين ،
حين تقدرّون على نبذ جبينكم واحتشامكم الذكورين ، يجب أن نُعامل
على درجة واحدة من المساواة . ولكن كم من النادر أن يحدث هذا . . .
بينما أكثر النساء حماقة يمكن أن تكون ذات نفع . ولكن لماذا ؟ لأننا
نتحلّى بالعاطفة ، بالعاطفة غير القابلة للتسكين . . . أودّ أن أعرف
لماذا يبتسم ؟

احتج رازوموف بكآبة :

— أنا لا أبتسم .

— حسناً ! كيف يسمي المرء ذلك ؟ لقد كان هناك انطباع ما على وجهك . أجل أعرف ! أنتم الرجال يمكنكم أن تحبوا هنا وتكرهوا هناك وأن ترغبوا بشيء ما أو بآخر . . . وأنتم تثيرون الدنيا حول ذلك ، وتسمون ذلك عاطفة ! أجل ! خلال فترة دوامها . ولكن نحن النساء واقعات في غرام الحب ، والكراهية ، هذه الأشياء بالذات ، والرغبة ذاتها . لهذا لا يمكن رشوتنا بسهولة كما الرجال . في الحياة ليس أمامنا الكثير من الخيار . اما أن تتعفن أو تحترق . وليست هناك واحدة منا ، سواء كانت مطلية بالمساحيق أم لا ، لا تفضل الاحتراق على التعفن .

كانت تتحدث بحيوية ، ولكن بلهجة سرد الوقائع . كان اهتمام رازوموف قد شرد باتجاه آخر ، خارج قضبان البوابة . . . ولكن ليس دون اصغاء . دفع بيديه في جيبي معطفه .

— التعفن أو الاحتراق ! لقد عبرت عن ذلك بقوة . مطلية بالمساحيق أو غير مطلية ! قوى ! مطلية بالمساحيق أم . . . قولي لي : لا شك أنها ستكون شديدة الغيرة منه ، أليس كذلك ؟

— من ؟ ماذا ؟ البارونة ؟ إلبينور ماكسيموفا ؟ تغار من بيتر إيفانوفيتش ؟ يا للسماء ! أهذه هي الأسئلة التي يفكر فيها عقل الرجل ؟ مثل هذا الأمر لا يمكن أن يخطر في بال .

— لماذا ؟ ألا يمكن لامرأة عمجوز ثرية أن تكون غيورة ؟ أم هل هما روحان نقيتان معاً ؟

— ولكن ما الذي جعلك تسأل مثل هذا السؤال ؟

— لا شيء . لقد طرحته فحسب . تفاهة ذكورية ان أحيايت .

ردت عليه فوراً :

— لا أحب . ليس هذا هو وقت التفاهات . من أي شيء تسخر ؟
أو أنك تلعب دوراً ما ربما .

أحس رازوموف أن مراقبة المرأة له أشبه باتصال جسدي ، كأن
هناك بدأ ترتاح بخفة على كتفه . في تلك اللحظة أحس بالانطباع الغامض
بأنها قررت أن تمسك به على نحو أشد . تماسك داخلياً ليتحمل ذلك دون
أن يورط نفسه .

كرر وهو يقدم لها جانب وجهه :

— ألعب دوراً . لا شك أن الأمر يتم على نحو سيء جداً حتى أنك
أصبحت تنظرين إلى الأمر من باب الافتراض .

راقبته وجبينها قد تغضن بتجديدات عمودية ، والحاجبان الأسودان
الرفيعان ينفرجان نحو الأعلى كقرفني استشهارة إحدى الحشرات . أضاف
بصوت يكاد يكون مسموعاً :

— أنت مخطئة . لا أفعل ذلك أكثر من بقيتنا .

صاحت فجأة :

— من الذي يفعله ؟

قال بصبر نافذ :

— من ؟ الكل . أنت مادية النزعة ، أليس كذلك ؟

— ماذا ؟ ياروحي العزيزة ، لقد تجاوزت كل ذلك الهراء .

— ولكن عاينك أن تتذكري تعريف « كabanيس » : « الإنسان

أنبوب هاضم . » أنتخيل الآن . . .

... أبصق عليه .

— ماذا ؟ على « كاباتيس » ؟ حسناً . ولكنك لا تستطيعين تجاهل أهمية الهضم الجيد . انه متعة الحياة . . . أتعرفين متعة الحياة ؟ . . . تلك تعتمد على معدة سليمة ، بينما يجعل الهضم السيء الانسان ميالاً إلى الشكركية ، ويولد لديه خيالات سوداء وأفكار الموت . هذه حقائق يؤكدها علماء الفيزيولوجيا . حسناً ، أؤكد لك أنه منذ جئت من روسيا فقد حشيت بتلفيقات أجنبية عسيرة على الهضم من النوع الذي يثير الغثيان إلى أقصى حد . . . أف !

غمغمت غير مصدقة :

— أنت تمزح .

فوافقها بأسلوب غير متحيز .

— أجل ، المسألة كلها عبارة عن نكتة . وهي لا تستحقّ إلا بالكاد التحدث إلى رجل مثلي . ولكن لهذا السبب بالذات عُرِف عن رجال أنهم انتحروا .

— بل العكس هو الصحيح ، أعتقد أنه لأمر مهم أن أتحدث إليك . بقي ينظر إليها من زاوية عينه . بدا عليها أن تفكّر بردّ قاس ، ولكنها هنّرت كنفها قليلاً فحسب .

— كلام سطحي ! أعتقد أن على المرء أن يغفر هذا الضعف فيك .

هذا ما قالته مع توكيد خاص على الكلمات الأخيرة . كان هناك نوع من القلق في استنابها المتسامح .

لاحظ رازوموف أدقّ درجات هذه المحادثة ، والتي لم يكن

يتوقعها ، والتي لم يكن مستعداً لها . تلك كانت المسألة . قال لنفسه :
« لم أكن مستعداً . لقد فوجئت على حين غرة . . . » بدا له أنه لو استطاع
فحسب أن يسمح لنفسه أن يلهث بصراحة ككتاب حتى يمرّ هذا الكبيح .
فكّر يائساً : « لن أتمكن من أكون جاهزاً أبداً . » ضحك قليلاً وهو
يقول بأخف لهجة ممكنة :

– شكراً . لا أطلب الرحمة .

ثم اصطنع نوعاً من القلق المرح وقال :

– ولكن ألا تخشين أن يشكّ بيتر ايفانوفيتش في أننا نتآمر على
شيء غير مسموح به عند البوابة هنا ؟

– لا ، لا أخشى ذلك . أنت بعيد عن الريبة طالما أنك معي أيها
الشاب العزيز .

انطفأت اللمة المرحّة في عينيها السوداوين واستأنفت بصرامة :

– بيتر ايفانوفيتش يثق بي . انه يستشيرني . أنا يده اليمنى في أهم
المسائل . . . هذا يسليّك . . . ماذا ؟ أتظنّ أنّي أتبيّجّ ؟

– لا سمح الله . ولكن كنت أقول لنفسني انه يبدو أن بيتر
ايفانوفيتش قد حلّ قضية المرأة حللاً كاملاً .

حتى وهو يتحدّث ، كان يلوم نفسه على كلماته ، وعلى لهجته .
فمنذ الصباح وهو يتلفّظ بالأخطاء . كانت تلك حماقة ، بل أسوأ من
حماقة . كان ذلك ضعفاً . كان داء المشاكسة يسيطر على ارادته . هل
كانت تلك هي الطريقة المناسبة للردّ على حوار يحوي الكثير من الوعود
بمستقبل مضمون تطلقها تلك المرأة التي يبدو أن لديها الكثير من الأسرار

وكل هذا النفوذ ؟ لماذا يوحى إليها بهذا الانطباع المحير ؟ ولكن لم
يبد عليها عدم الود . لم يكن في صوتها أي غضب . كان صوتها ناعماً
على نحو غريب .

– لا يعرف المرء ما يفكر به رازوموف . لا بدّ وأنتك مضغت
شيئاً مرآ في مهلك .

حدجها رازوموف بنظرة جانبية ثم غمغم :

– هم . . . م ! شيء مرّ ؟ هذا تفسير معقول ، ولكن كان ذلك
بعد المهذ بكثير . ألا تعتقدن يا صوفيا أنتونوفنا أننا كلانا من المهذ
نفسه ؟

غمغمت المرأة الثورية بعد فترة توقف ، واتي أرغم نفسه أخيراً
على التلطف باسمها (كان قد أحسّ باشمزاز قوي من فكرة جعل اسمها
يمرّ من خلال شفّتيه) :

– أتعني . . . روسيا ؟

ترفّع حتى عن أن يومئ برأسه . بداعليها أنها لانتّ ، فعيناها
السوداوان كانتا هادئتين جداً وكأنها كانت تتابع هذا التشبيه في ذهنها
مع كل تداعياته الرقيقة . ولكنها قطّبت حاجبيها فجأة بأسلوب شيطاني .

– أجل . ربما لا عجب اذن . أجل . يقع المرء هناك ملفوفاً
بالشورور ، تراقبه كائنات أسوأ من الغيلان والوحوش ومصاصي الدماء :
لا بدّ من طردها وتدميرها نهائياً . وفيما يخصّ تلك المهمة لا شيء يهمّ
ان كان الرجال والنساء مصمّمين ومخلصين . هذا ما أحسست به في
النهاية : الأمر الهام هو ألاّ نتشاجر فيما بيننا حول كل أنواع التفاهات
التقليدية . تذكر ذلك يا رازوموف .

لم يكن رازوموف يصغي إليها . كان قد فقد حتى الاحساس بأنه مراقب في نوع من الهدوء الثقيل . كانت حدة قلقه ويأسه واحتقاره قد خفت إلى الأبد . فكّر في نفسه بقناعة صارمة جداً بحيث لا يمكن أن تكون مبتهجة : « أنا نذّ لهم جميعاً . » كانت المرأة الثورية قد توقفت عن الكلام ، ولم يكن هو ينظر إليها كما لم يكن هناك من مارة على امتداد الطريق . بل كاد ينسى أنه لم يكن وحيداً . سمع صوتها مرة أخرى ، جافاً وعملياً ولكنه يكشف مع ذلك عن التردّد الذي كان السبب الحقيقي وراء صمتها المطول .

– قل لي يارازوموف .

كشّر رازوموف ، الذي كان وجهه ملتفتاً بعيداً عنها ، كأنه رجل يسمع لحناً نشازاً :

– قل لي : هل صحيح أنه في صباح ذلك اليوم بالذات والذي تمّ فيه الصنيع بالذات حضرت فعلاً المحاضرات في الجامعة ؟

مرّ جزء ممكن ادراكه من الثانية قبل أن تصله الفحوى الحقيقية للسؤال ، كرصاصة تصيب بعد فترة من التمتع المقذوف . ولحسن حظّه كانت يده الحرة جاهزة ليمسك بها أحد قضبان البوابة . أمسكه بقوة هائلة ، ولكن حضوره الذهني كان قد ولى بعيداً . ما عاد يستطيع أن يصدر سوى صوت من النوع المقرقر المتدمّر .

حشّته قائلة :

– هيا يا كيريلو سيدوروفيتش ! أعرف أنك لست بالمتبجح . هذا أمر واضح وجليّ . أنت رجل صموت جداً ربما . أنت تتغذّى على مرارة ما قابعة فيك . لست حماسياً . وربما تكون أقوى بسبب ذلك .

ولكن يمكنك أن تحكي لي . بودّ المرء لو يفهمك أكثر قليلاً . لقد
صعقت كثيراً . . . هل فعلت ذلك حقاً ؟

استعاد صوته . كانت الطلقة قد أخطأته . لقد أطلقت عشوائياً ،
بل ربما كعلامة للتقرب من الهدف . كان ذلك صراعاً واضحاً للحفاظ
على الذات . وكانت هي عدوّاً خطيراً أيضاً . ولكنه كان مستعداً للمعركة .
كان مستعداً تماماً بحيث أنه حين التفت إليها لم تتحرك عضلة واحدة في
وجهه .

قال دون حيوية ، بأعصاب مستثارة ولكن بثقة كاملة بالنفس :
– بالتأكيد . محاضرات . . . بكل تأكيد . ولكن لم تسألين ؟
كانت مترعة بالحيوية .

– لقد وصلني الموضوع في رسالة كتبها شاب من بطرسبورغ ،
واحد منّا ، طبعاً . لقد شوهدت . . . لقد لوحظت وكانت معك
دفاترك ، وكنت تكتب الملاحظات . . . بكل برود . . .
طوّقها بتحديثته الثابتة .

– وما يعني ذلك ؟

– مثل هذا البرود شيء رائع فأت . . . هذا كل ما في الأمر . انه
برهان على القوة غير العادية للشخصية . يقول الشاب في رسالته أنه ما
استطاع أحد أن يخمن من وجهك وأسلوبك الدور الذي لعبته قبل ذلك
بساعتين فحسب . . . ذلك الدور العظيم ، الخطير ، المجيد . . .

قال رازوموف بجدية :

– أوه ، لا . لا أحد بمقدوره أن يخمن ذلك ، لأنه لا أحد في ذلك
الحين . . .

– نعم ، نعم . ولكنك مع ذلك رجل ذو قوة استثنائية . كنت تبدو
كعادتك تماماً . وقد تم تذكّر ذلك لاحقاً باعجاب . . .

قال رازوموف بالجدية المحدّقة ذاتها :

– لم يكلفني ذلك أي جهد .

صاحت :

– اذن فهو يدعو إلى المزيد من الاعجاب أيضاً .

ثم صممت ، بينما راح رازوموف يسأل نفسه ان لم يكن قد قال
شيئاً غير ضروري، بارّة . . . أو ما هو أسوأ من ذلك .

رفعت رأسها بلهفة .

– أكنت تنوي البقاء في روسيا ؟ كنت قد خططت . . .

قاطعها رازوموف دون عجلة :

– لا ، لم تكن لدي أية خطط من أي نوع .

قالت له فجأة :

– لقد نجوت ببساطة وابتعدت .

أحى رأسه موافقاً وقال :

– ببساطة . . . أجل .

كان قد أرخى قبضته تدريجياً عن قضيب البوابة وكأنه قد اكتسب
القناعة بأنه لا يمكن لطلقة عشوائية أن تصيب منه مقتلاً الآن . وفجأة
ألهم أن يضيف :

– كان الثلج بهطل بغزارة شديدة كما تعلمين .

حركت رأسها حركة خفيفة كأنها تقدر كلامه حق قدره ، كخبير
في مثل هذه المسائل ، باهتمام شديد ، وكشخص قادر على أن يعالج
كل نقطة على نحو حرفي . تذكر رازوموف شيئاً كان قد سمعه .
قال بلا اكتراث :

— لقد انعطفت في شارع جانبي ضيق .
ثم توقفت كأنما لم تكن المسألة تستحق أن يتحدث عنها . ثم تذكر
نصيلاً آخر فرماه أمامها كمن يريد أن يرضي فضولها وهو يمين عليها
عينا بحسنة وأسلوب ازدراخي .
— لقد أحسست بالرغبة في أن أتمدد وأنام هناك على الأرض
في الشارع .

طققت بلسانها مستغربة هذه الأمانة وقد دهشت تماماً بالفعل .
ثم . . . صاحت :
— ولكن الدفتر ! الدفتر المذهل أيها الرجل . لا تعني أن الدفتر
كان في جيبيك سلفاً !

أجفل رازوموف . يمكن أن يكون ذلك علامة على نفاذ الصبر .
— ذهبت إلى البيت . مباشرة إلى البيت .
— ياله من برود أعصاب ! وهل تجرأت ؟
— ولم لا ؟ أؤكد لك أنني كنت هادئاً تماماً . ها ! أهدأ من الآن
ربما .

— أحبك أكثر بكثير الآن بالمقارنة مع تلك اللحظات التي تستسلم
فيها لمزاجك السوداوي ذاك يا رازوموف . ولم يرك أحد من سكان البناء
لدى عودتك . . . ؟ قد يبدو هذا غريباً .

قال رازوموف بثبات :

— لا أحد . كان « الدفورنيك » وصاحبة المنزل والخدام بعيدين عن طريقي . صعدت كشيخ . كان ذلك الصباح صباحاً كثير الضباب . وكان الدرج معتماً . انزلت كشيخ . هل هو القدر ؟ الحظ ؟ ما رأيك ؟

— أستطيع أن أرى ذلك !

انفلقت عينا المرأة الثورية على نحو غامض .

— حسناً . . . وأنت فكرت في . . .

كان كل شيء جاهزاً في ذهن رازوموف :

— لا ، نظرت إلى ساعتي ، طالما أنك تريد معرفة كل شيء . كان هناك وقت كاف . تناولت الدقر ونزلت الدرج مسرعاً على رؤوس أصابعي . هل سبق لك وسمعت وقع أقدام رجل يتزلل الدرج بحركة دائرية ؟ لديهم مصباح غازي في الأسفل يشتعل ليل نهار . وأعتقد أنه يشع في هذه اللحظة هناك الآن . . . الصوت يخمد . . . والشعلة تغمز . . .

لاحظ تذبذب الدهشة وهي تجرّ فوق الفضول الثابت للعينين السوداوين المثبتتين على وجهه كأن المرأة الثورية كانت تستقبل رنين صوته في بؤبؤي عينيها بدلاً عن عينيها . تمالك نفسه ، ومرّر يده على جبينه ، مضطرباً ، كرجل كان يحلم بصوت مرتفع .

— وأين يمكن لطالب أن يعدو في الصباح ان لم يكن إلى محاضراته ؟ في الليل المسألة أمر آخر . ما كنت لا أكثرث لو أن سكان البناء كله كانوا ينظرون إلي . ولكني ما كنت أعتقد أنه كان هناك أي واحد منهم .

الأفضل ألا يُرى المرء وألا يُسمع . هه هه ! الأشخاص الذين لا يُروّن ولا يُسمعون هم المحظوظون . . . في روسيا . ألسنت معجبة بحظي ؟

قالت :

— مدهش ! إن كان لديك الحظ والتصميم كذلك ، فأنت ستكون عوناً كبيراً في العمل المطلوب الآن .

كانت لهجتها صادقة ، وبدا لرازوموف أنها كانت تحزنية ، وكأنها كانت تخصص له مسبقاً ، في ذهنها ، حصته من العمل . كانت عيناها تنظران إلى الأرض . انتظر ، ليس بحذر شديد الآن ، ولكن بجديّة واهتمام فرضتهما قبضة الخطر دائم الوجود . من يكون ذاك الذي كتب عنه تلك الرسالة من بطرسبورغ ؟ زميل له في الجامعة ، بالتأكيد أحد الضحايا البلهاء للدعاية الثورية ، عبد مغفل للمثاليات الأجنبية المخرّبة . شخص طويل ذو وجه ترك فيه الجوع بصماته وأنف أحمر ، برز فجأة في ذهنه خلال بحثه هناك . لا شك أنه كان ذلك الشخص بالذات .

ابتسم داخياً على هذا التشبث بالرأي الخاطيء الذي يحيط بالمسألة كلها ، الخداع الذاتي لمثالي مجرم يحطم وجوده كقصف رعد في سماء صافية ، ويترك صدى بين الحطام ضمن الافتراضات المزيفة لهؤلاء الحمقى الآخرين . تخيل ذلك الأحق الجائع المثير للشفقة وهو يغذي فضول اللاجئين الثوريين بهذه التفاصيل الفائتة ! لم يقيم الأمر على أنه يشكل خطراً على الإطلاق . بل على العكس من ذلك . كان ذلك — حسب ما وصلت إليه الأمور — لمصلحته بالأحرى ، ضربة حظ عجيب يجب أن تقبل بحذر مناسب .

سمع الصوت المتأمل للمرأة يقول :

— ومع ذلك يا رازوموف ، نيس لك وجه رجل محظوظ .

رفعت عينيها باهتمام متجدد .

— اذن هكذا حدث ما حدث . بعد أن أنجزت عملك ابتعدت

ببساطة واتجهت نحو غرفتك . مثل هذا الأمر قد ينجح أحياناً . وأعتقد أنه كان متفقاً على ذلك سلفاً ، أي أنه ما أن يتم انجاز الأمر ، سيذهب كل واحد في طريقه ؟

احتفظ رازوموف بجديّة تعبيره والأسلوب المتأنّي انما الحذر في

الكلام .

سألها باهجة خائبة من الانفعال :

— ألم يكن ذلك أفضل شيء ممكن عمله ؟

ثم أضاف بعد ان انتظر للحظة :

— لم تفكّر كثيراً فيما سنفعله لاحقاً . لم نناقش رسمياً أي أسلوب

للتصرف . كان ذلك مفهوماً ضمناً على ما أعتقد .

وافقته على ذلك بايماءات خفيفة برأسها .

— كنت راغباً في البقاء في روسيا طبعاً ؟

شدّ رازوموف :

— في سانت بطرسبورغ بالذات . كان تلك هي الوجهة الآمنة الوحيدة

لي . وعلاوة على ذلك ، ما كان لديّ مكان آخر أذهب إليه .

— أجل ! أجل ! أعرف . هذا واضح . وذاك الآخر — ذاك

الهالدين الرائع المأسوف عليه — ألا تعرف ما كان ينويه ؟

كان رازوموف قد تنبأ بأن مثل هذا السؤال سيواجهه ان عاجلاً أم
آجلاً . رفع يديه قليلاً ثم تركهما تسقطان بعجز إلى جانبه . . . ولا
شيء آخر .

كانت المرأة المتأمرة بيضاء الشعر أول من حطمت الصمت .

قالت وهي تلفظ الكلمات ببطء :

— غريب جداً . وأنت يا كيرياو سيدوروفيتش ، ألم تفكر بأنه
كان من المحتمل أن يرغب في الاتصال بك مرة أخرى ؟

اكتشف رازوموف أنه لم يعد يستطيع كبح شفثيه . ولكنه فكر
في أنه كان مدينًا لنفسه بأن يتكلم . الحركات السلبية ما عادت تجدي .
عليه أن يتكلم ، وذلك ليصل إلى ما كانت تحتويه رسالة بطرسبورغ
تلك بالفعل .

قال وهو ينحني قليلاً ويقتحم بنظرته العيين السوداوين للمرأة بحيث
أنها ما كانت لتلاحظ ارتجاف شفثيه :

— لقد بقيت في البيت في اليوم التالي . أجل ، بقيت في البيت .
وكما كتبت عن تصرفاتي وتمّ تذكرها لاحقاً ، فلا بدّ أنك تعرفين أنني
لم أشاهد في المحاضرات في اليوم التالي ، أليس كذلك ؟ أما كنت
تعرفين ؟ حسناً ، لقد بقيت في البيت . . . طوال النهار .

بدا وكأنها تأثرت باهجته المنفجعة ، فقد غمغمت بتعاطف :

— أفهم ذلك ! لا شك أن الأمر كان مجهداً حقاً .

قال رازوموف بثبات :

— يبدو أنك تفهمين المشاعر . كان مجهداً حقاً . كان مريعاً . كان
يوماً شنيعاً . ولم يكن آخر يوم من نوعه .

— أجل ، لقد فهمت ، تعني بعد ذلك ، حين سمعت أنهم قد أمسكوا به ؟ ألا أعرف كيف يشعر المرء بعد أن يفقد رفيقاً في معركة طيبة ؟ يشعر المرء بالخجل لأنه نجا . وأستطيع أن أتذكر أمثلة كثيرة . لا بأس : سيكون هناك ثأر لهم قريباً . وما هو الموت ؟ على أية حال ليس الموت بالأمر المخجل كما هي بعض ضروب الحياة .

أحسّ رازوموف بشيء ما يتحرك في صدره ، بنوع من الرجفة الضعيفة المزعجة .

ردّد وهو ينظر إليها بتفحص :

— بعض ضروب الحياة ؟

— الحياة النديّة المدعنة . حياة ؟ لا ! مجرد نموّ فوق الكومة التندرة للظلم الذي هو هذا العالم . الحياة يا رازوموف ، لا يجب أن تكون تافهة بل أن تكون تمرداً — احتجاجاً لا هوادة فيه — طوال الوقت .

هدأت ، وجفّ التماع الدموع المكبوتة في عينيها على الفور بجرارة الانفعال ، واستأنفت بأساؤها العمليّة المتمكنة :

— أنت تفهمني يا رازوموف : لست من النوع الحماسي ، ولكن هناك قوة هائلة على التمرد فيك . لقد أحسست بذلك من البداية ، منذ أن رأيتك — كما تتذكّر — في زيوريخ . أوه ! أنت مترع بالتمرد المرير . هذا أمر جيد . قد يفتر السخط أحياناً ، والانتقام نفسه قد يتحوّل إلى ضجر ، ولكن هذا الاحساس العنيد بالضرورة والعدالة الذي زوّد يديك ويدي هالدين بالقوة على قتل ذلك الوحش المتعصّب . . . ذلك الاحساس . . . وليس أي شيء آخر ! كنت أتأمل وأفكّر في ذلك . ما كان يمكن أن يكون سوى ذلك .

انحنى رازوموف قليلاً ، ولكن السخرية الكامنة وراء هذه الحركة
م اخفاؤها خلف ثبات غريب في الملامح .

– لا أستطيع التكلم عن الموتى . أما فيما يخصتي شخصياً فأستطيع
أن أؤكد لك أن ساو كي كانت تمايه الضرورة والاحساس . . . حسناً . . .
بالعدالة الجزائية .

قال في نفسه : « أحسنت » ، بينما عيناها مثبتتان عاياه ، سوداوان
غير قابليتين للنفاذ كالكهوف الذهنية حيث على الفكر الثوري أن يقبع
ليخطط الأسلوب العنيف في التغيير . لكأنما يمكن تغيير أي شيء ! في
عالم الرجال هذا لا يوجد ما يمكن تغييره . . . لا السعادة ولا التعاسة .
بل يمكن استبدال أحدهما بالآخر على حساب الضمائر المفسدة والحياة
المحطمة . . . لعبة لا طائل منها لفلاسفة متبجحين وعابثين سفاكين
للدماء . انطلقت هذه الأفكار من رأس رازوموف خلال وقوفه هناك
مواجهاً الثورة العجوز ، صوفيا أنتونوفنا ، المحترمة ، الموثوقة ذات
النفوذ ، التي كان لكلمتها وزن كبير في القسم « الناشط » من كل
حزب . كانت أكثر نفوذاً من بيتر ايفانوفيتش العظيم . ربما أنها كانت
مجردة من اللغة المنمقة والتأمل المبهم ، فقد كانت الروح الحقيقية
لثورة المدمرة . وكانت العدو الشخصي الذي عاياه أن يواجهه . لقد
منحه ذلك شعوراً بمتعة الانتصار : أن يخذعها من خلال كلماتها بالذات .
خطر له القول الساخر الذي يفيد أن النطق قد منح لنا حتى نحفي وراءه
أفكارنا . وقد كان هذا تطبيقاً دقيقاً وشديد الازدراء لتلك النظرية
التهكمية ، هازئاً من كلماتها بالذات عن روح الثورة التي لا هوادة
فيها ، المجسدة في تلك المرأة بشعرها الأبيض وحاجبيها السوداوين

كخطين أسودين ملتويين قليلاً مرسومين بالحبر الصيني ، واللذين اقتربا من بعضهما بسبب التجاعيد العمودية لتقطعية تأمّنية .

كان ما يمكن استنتاجه من صمتها هو : « العدالة الجزائرية وليس الشفنة » . وما أن تحطم هذا الصمت حتى استأنفت باندفاع بجمل قصيرة متذبذبة :

– استمع إلى قصتي بارازوموف ! . . .

كان أبوها حرفياً ماهراً وإنما سييء الحظ . ما كانت هناك متعة نضية أيامه المايئة بالكدة . مات وهو في الخمسين ؛ بعد أن قضى سنوات حياته كلها لاهثاً تحت نير سيطرة أسياده الذين كان جشعهم يساب منه ثمن الماء والملح بل وحتى الهواء الذي يتنفسه ، يساب عرق جبينه ويطالب بدم أبنائه . لاحماية ولا توجيه ! ما الذي كان لدى المجتمع ليقوله له ؟ كن خنوعاً وشريفاً . اذا سرقت سأسجنك . ولكذك ان عانيت فليس لدي أي شيء لك . . . لا شيء سوى كسرة خبز الشحاذين . . . ولكن لا حل لمشكلتك ، لا احترام لرجولتك ولا شفقة على مآسي حياتك البائسة . وهكذا كدح وعانى حتى مات . مات في المستشفى . وحين كانت تقف عند ضريحه المتواضع فكثرت في وجوده المعب . . . رآته بأكماله . وقد فكرت بالمتع البسيطة للحياة ، الحق المكتسب للفقراء ، والذي حرم قلبه . منها بسبب جريمة المجتمع التي لا يمكن لأي شيء أن يغفرها .

استأنفت بصوت مؤثر وخفيض :

– أجل رازوموف ، كان ذلك أشبه بنور متوهج وقفت فيه ، كنت لأزال طفلة قريباً ، وشتمت ليس الكلدح ، ليس البؤس الذي كان قدره ،

ولكن اللا عدالة الاجتماعية الرهيبة للنظام المعتمد على الكدح غير المعوض
والمعاونة التي لا يشفق عليها أحد . ومن تلك اللحظة أصبحت ثورية .
احتفظ رازوموف بوجه سلمي في محاولة منه لرفع نفسه إلى ما فوق
الضعف الخطير الذي يثيره الازدراء أو التعاطف . أما هي ، فبألمة
غير متكلفة من المرارة الصافية ، وهي أول لمسة من هذا النوع يلاحظها
منذ أن تعرف عليها ، استأنفت تقول :

— بما أني لم أستطع أن أذهب إلى الكنيسة حيث كان قساوسة النظام
يخضعون الحشرات غيرالمعتبرة من أمثالي على الامتسلام والتسليم ، فقد
التحمت بالجمعيات السرية حالما عرفت كيف أجد طريقي إليها : كنت
في السادسة عشرة . . . لا أكثر يا رازوموف . وانظر الآن إلى شعري
الأبيض .

لم يكن في هذه الكلمات الأخيرة لا اعتزاز ولا حزن . كانت
المرارة قد ولت هي أيضاً .

— هناك الكثير منه . كان لي شعر رائع على اللدوام ، حتى وأنا
طفلة صغيرة بعد . ولكننا كنا في تلك الأيام نقصه قصيراً على أساس
أن ذلك عبارة عن أول خطوة نحو تحطيم العار الاجتماعي . حطموا العار !
شعار جميل ! ساعته على جدران السجون والقصور ، وأنتم على
الصخور الصلبة ، وأعلقة بأحرف من نار على تلك السماء الفارغة كإشارة
إلى الأمل والرعب . . . كندير بالنهاية . . .

قاطمها رازوموف فجأة :

— أنت عظيمة يا صوفيا أنتونوفنا . ولكن يبدو أنك كنت تكتبين
ذلك بالماء حتى الآن . . .

أخذت وإكبتها لم تشعر بالاهانة .

— من يدري ؟ فقد يصبح يوماً حقيقة مكتوبة على امتداد أرضنا العظيمة كلها . وعندها سيكون المرء قد عاش بما فيه الكفاية . الشعر الأبيض لا يهم .

نظر رازوموف إلى شعرها الأبيض : وبدت هذه العلامة التي كانت دليلاً على سنوات كثيرة قمت لا شيء سوى شهادة على قوة التمرد التي لا تقهر . كان شعرها يبرز الوجه غير المتجعد في نقش نافر مذهش ، وكذلك النظرة السوداء اللامعة والجسد المستقيم المكتنز ورباطة الجأش البسيطة الحادة للشخصية الناضجة . . . كأنها في راحة الحج الثورية قد اكتشفت السر ، ليس سر الشباب الدائم ، بل سر الجلد الدائم .

لكم كانت تبدو غير روسية . . . هكذا فكر رازوموف . ربما كانت أمها يهودية أو أرمنية . . . أو ما لا يعرف سوى الشيطان ماذا . . . فكر في أن الثوري نادراً ما يكون مخلصاً لنمط محدد . التمرد كله عبارة عن تعبير عن فردانية قوية . . . هكذا راح يفكر . يمكن للمرء أن يميزهم على مبعدة ميل كامل في أي مجتمع ، في أية بيئة ، كان مذهباً أن الشرطة . . .

كانت تقول :

— لن نتقابل مجدداً في القريب العاجل على ما أعتقد . سأرحل غداً ، سأها رازوموف عرضياً ولكن مع شعور بالراحة ، ليس خشية من شيء مميز ، ولكن من شعور بالاجهاد كأنما بعد خوف مباراة مصارعة : — إلى زيوريخ ؟

— أجل ، إلى زيوريخ . . . وإلى أماكن أخرى أبعد ، أبعد بكثير .

رحلة أخرى . حين أفكر بكل رحلاتي ! ولا بد أن الأخيرة ستأتي يوماً
ما . لا بأس يا رازوموف . كان علينا أن نخوض هذا الحديث المطول .
كنت سأحاول بكل تأكيد أن أراك لو لم نامق . هل يعرف بيتر ايفانوفيتش
مكان سكنك ؟ أجل . أعني أنني كنت سأسأله . . . ولكن هكذا أفضل .
أنت ترى أننا نتوقع حضور رجائين آخرين ، وأفضل بالأحرى أن أنتظر
وأتحدث معك على أن أكون في البيت هناك مع . . .

وبعد أن رمت بنظرة إلى ما وراء البوابة ، قطعت حديثها بنفسها ،
قالت بسرعة :

— ها ها . حسناً يا كيريلو سيدوروفيتش لا بد من أن نقول وداعاً
في الوقت الحاضر .

• • •

- رابعاً -

من خلال لا يقينه بالأرض التي كان يقف عليها أحس رازوموف بالتشوش . التفت برأسه بسرعة فرأى رجلين على الجانب الآخر من الطريق . وما أن لاحظا أن صوفيا انتونوفنا قد رأتهما حتى عبرا فوراً وسارا الواحد إثر الآخر عبر البوابة الصغيرة عند جانب كوخ الحارس الفارغ . نظرا جيداً إلى الغريب ولكن دون انعدام في الثقة ، فقد كان القميص القرمزي إشارة أمان متوهجة . وأوماً الأول ، وكان ضخماً ذا وجه أبيض أمرد وذقن مزدوجة وكرش بارز ، بدا أنه يحمله أمامه بنجل ضمن معطف متضخم جداً ، برأسه ثم حول نظره بعيداً متبرماً ، أما رفيقه . . . وهو نحيل ذو وجنتين متوردتين وشارب عسكري أحمر تحت أنف حاد بارز . . . فقد اقترب فوراً من صوفيا أنتونوفنا وهو يحميها بحرارة . كان صوته قوياً جداً انما غير واضح ، كأنه أزيز عميق . كانت المرأة الثورية ودودة تماماً . . .

أعلنت بصوت واضح :

- هذا رازوموف ،

التفت النحيل نصيف التفاتة بلهفة . فكر رازوموف بارتداد عميق في كل كيانه بينما بدت أعضاؤه أثقل من أن يحركها : « سيرغب في معانقتي . » ولكن ذعره كان في غير محله . كان عليه أن يتحلم جيلاً من المتآمرين الذين لا يقبلون وجنات بعضهم البعض ، ورفع ذراعاً أحس أنها

ثقيلة كالرصاص وأسقط يده في الكف العريضة الممدودة إليه ، فكانت
نخيلة وساخنة كأنما جففتها الحمى ، وتعطي ضخماً عظيماً معبراً يبدو
أنه يقول : « بيننا لا حاجة هناك إلى الكلمات . »

كان للرجل عينان كبيرتان واسمتان . تخمّل رازوموف أنه استطاع
أن يرى ابتسامة خلف حزنهما .

كررت صوفيا أنتونوفنا بصوت مرتفع حتى يسمع الرجل البدين
الذي كان يعرض الصورة الجانبية لكرشه من مسافة :
- هذا رازوموف ؟

لم يتحرك أحد . بدا كل شيء ، الأصوات والمواقف والحركات
والجمود جزءاً من تجربة ، تجربة كانت نتيجتها صوتاً نخيلاً يتكلم
بمحاكاة مضحكة :

- أوه ، أجل ! رازوموف . كنا لا نسمع بشيء سوى بالسيد
رازوموف هذه الأشهر الأخيرة . من جانبي أعترف أنني كنت أفضل
لو رأيت هالدين في هذه البقعة على أن أرى السيد رازوموف .

كان التشديد على اسم رازوموف - السيد رازوموف - يخرق
السمع على نحو مضحك ، كصوت مصطنع لمهرج سيرك وهو يبدأ بنكتة
مدروسة . كانت الدهشة هي أول استجابة لرازوموف ، تبعها سخط
مفاجئ .

سأله بلهجة صارمة :

- ما معنى هذا ؟

قالت صوفيا أنتونوفنا بغضب واضح :

- ماذا ! حماقة . انه دائماً هكذا .

ولكنها تلفظت باسم « نيكاتور » بصوت عال حتى يسمعه رازوموف . كانت الصرخات الحادة الفظة من الرجل البدين تبدو وكأنها تخرج منه كما من بالون يحمله تحت معظفه . أخذ رازوموف بتبلد وفتنه ، بالقدمين للكبيرتين واليدين المتدليتين بلا حياة ، والحددين الضخمين الشاحبين والحصل الخمينية من الشعر المنتشرة على مؤخر العنق البدينة ، فوقف محذقاً وكان على وشك الانفجار رعباً أو ضحكاً .

« نيكيتا » ، الملقب بـ « نيكاتور » وواله من جناس استهلاكي مناسب وغريب ! كان رازوموف قد سمع به سابقاً . لقد سمع الكثير منذ أن عبر الحدود عن هؤلاء المشهورين من رجال الثورة المقاتلة ؛ تلك الأساطير والحكايات والتأريخ الحقيقي ، والتي تطلّ بين الحين والآخر أمام عالم نصف مصدق . كان رازوموف قد سمع به . كان مفترضاً أنه قد قتل من رجال الدرك والشرطة عدداً يفوق ما قتله أي ثوري حي آخر . كما كانت تُعهد إليه أعمال الاعدام .

وكانت ورقة عليها الحرفان (ن . ن .) وهو الاسم المستعار للقاتل ، قد وجدت مثبتة بدبوس على صدر جاسوس شهير (هذا التفصيل المثير عن الاغتيال وصل إلى الصحف) ، وكانت تلك علامة على أن الأمر من صنعه . (بأمر من اللجنة - ن . ن .) وتزفع زاوية من ستارة لاثارة مخيلة عالم مدهوش . ويقال انه دخل وخرج من روسيا عدداً لا يحصى من المرات ، نيكاتور البيروقراطيين ، إحكام المقاطعات والمخبرين المجهولين . كان يعيش بين الحين والآخر ، كما سمع رازوموف ، على شواطئ بحيرة « كومو » مع زوجة فاتنة وطنلين صغيرين . ولكن كيف كان ذلك المخلوق ، الغريب الشكل إلى حد أنه يثير نباح الكلاب

لمجرد مرآة ، كيف كان يستطيع الذهاب لتنفيذ تلك المهمات الرهيبة
ويهرب من أشراك الشرطة ؟

صرّ الصوت الحاد قائلاً :

– وماذا الآن ؟ أنا أحاول أن أكون صادقاً . لا يمكن انكار أن
الآخر كان هو الروح القائمة . حسن ، كان من الأفضل لو أن الآخر
هو الذي نجا وبقي لنا . كان أكثر فائدة . لست بالشخص العاطفي .
بل أقول ما أفكر به . . . أنا طبيعي :

صريز ، صريز ، صريز ، دون إيماء ، دون أية حركة . . . :
السخرية الرهيبة الحادة للحسد المهني . . . هذا الرجل ذو اللقب صاحب
الجناس الاستهلاكي العجيب ، هذا الجلاد منفذ الأحكام الثورية ، هذا
« ن . ن . ن » المرعب كان ساخطاً كمغني أوبرا من طبقة « التينور »
انزعج بسبب الاهتمام الذي بذل لمغنّ هاو مغمور . هزت صوفيا
أنتونوفنا كتفها . هرع الرفيق ذو الشارب العسكري نحو رازوموف
حاملاً نوايا استرضائية في صوته القويّ الطنان .

– فليأخذ الشيطان ذلك ! وفي هذا المكان أيضاً ، في الشارع العام !
ولكن تستطيع أن ترى بنفسك كيف هي الأمور . واحدة من انفجارات
غضبه الفانتازية . هذا أمر لا شأن له إطلاقاً .

صاح رازوموف وهو يضحك طويلاً :

– لا بأس في ذلك . أرجوك . أمر لا يستحق الذكر .

حدّق الآخر ، وحمرة خديه تتوهج كحريقين على وجنتيه ،
للحظة ، ثم انفجر ضاحكاً هو أيضاً . أما رازوموف ، الذي نجا مرحة
فجأة ، فتقدّم خطوة نحو الأمام .

قال بصوت واضح قاطع رغم أنه لا يستطيع سوى بالكاد أن يسيطر
على ارتجاف ساقيه :

– يكفي هذا . لا أريد المزيد منه . لن أسمح لأي شخص . . .
أعرف تماماً ما تريدونه من تلك الأوهام . . . استفسروا ! تقصّوا !
أنحدّ أكم ، ولكنني لن أسمح بأن أكون موضع العبث .

كان قد تلفّظ بمثل هذه الكلمات سابقاً . كان قد دُفِع إلى أن يقولها
في وجه شكوك أخرى . انها لدائرة جهنمية تعيد ذلك الاحتجاج إلى
وضعه الأول كضرورة قاتلة من ضرورات وجوده . ولكن لم يكن
هناك نفع في ذلك . سيكون موضع العبث دائماً . ولحسن الحظ فان
الحياة لن تدوم إلى الأبد .

صرخ وهو يضرب بقبضته على كف يده الأخرى :

– لن أسمح بذلك .

تدخلت المرأة الثورية بلهجة سلطوية :

– يا كيريلو سيدوروفيتش ، ماذا جرى لك ؟

كان الجميع ينظرون إلى رازوموف الآن . أما قاتل الجواسين
ورجال الدرك فكان قد التفت وراح يبرز كرشه الضخم بكامله ،
كترمس .

– لا تصرخ ، هناك مارة .

كانت صوفيا أنتونوفنا تخشى من انفجار نوبة أخرى من نوبات
الغضب . كان لنش بخاريّ قادم من « مونريبو » قد وصل إلى مصطبة
الرسو مقابل البوابة ، ولم يكن أحد قد لاحظ صوت صفارته المبحوح

وصوت الزبلر المتراكم على امتداد شاطئ البحيرة ، وكان قد أنزل مجموعة من الركاب المحليين الذين كانوا يتفرقون باتجاهات مختلفة ، باستثناء سائح مبكر في بنطال قصير واسع ، يتميز بمحفظة نظارات جلدية صفراء وجديدة ، اذ توقف هذا للحظات وهو يستشم شيئاً غير عادي في هؤلاء الأشخاص الأربعة الواقفين ضمن البوابات الحديدية الصدئة لما بدا أنه أرض مهملة محيطة بقصر خاص غير مأهول . آه ! لو أنه يعرف فحسب الفرصة التي أتاحتها له السفر العادي فجأة ! ولكنه كان شخصاً مهذباً ، اذ أشاح بنظره وابتعد بخطوات قصيرة على امتداد الجادة وهو يترقب قدوم الحافلة .

كانت ايماءة من صوفيا أنتونوفنا بمعنى أن « اتركاه لي » قد جعلت الرجلين يبتعدان ... وكان أزيز الصوت غير الواضح يخفت أكثر فأكثر، والصرير القائل : « وماذا الآن ؟ ما الحكاية ؟ » قد خفت إلى مستوى صوت دمية حاد بعيد . لقد تركاه لها . كان يمكن ترك الكثير من الأمور بكل أمان لخبرة صوفيا أنتونوفنا . وعلى الفور ، التفتت عيناها السوداء إلى رازوموف ، وحاول ذهنها أن ينفذ إلى لب تلك التوبة من الغضب . كان لها معنى ما . لا يولد أحد وهو ثوري ناشط . التغيير يأتي على نحو مشوش ، بقوة النداء الباطني الفجائي ، ويجلب معه شكوكاً مؤلمة وعنفاً حازماً ، وحالة روحية غير مستقرة ، حتى يصل الثوري المستجد إلى السكون النهائي مع القناعة الكاملة الشديدة . لقد رأيت - تكهنت غالباً - عشرات من هؤلاء الشبان والشابات الذين يمرّون بأزمة روحية . بدا هذا الشاب مغروراً ومزاجياً . وعلاوة على ذلك ، كانت تلك حالة خاصة ، بل وفريدة . لم يسبق لها أن قابلت فرداً أثار اهتمامها وحيرتها إلى هذا الحد .

– انتبه لنفسك يا رازوموف، يا صديقي الطيب. اذا كنت ستستمر على هذا المنوال فسوف تصاب بالجنون. أنت ساخط على الجميع وتشعر بالمرارة من نفسك، كما أنك تبحث عن شيء تعذب نفسك به. لم يكن رازوموف قادراً على انطق الاً لاهناً :

– هذا لا يحتمل ! عليك أن تعترفي أنني لا أستطيع أن أحمل أية أوهام فيما يخص الموقف الذي هو . . . ليس واضحاً . . . أو بالأحرى . . . واضح جداً.

بدرت منه اعماء تدلّ على اليأس. لم تكن شجاعته هي التي خانته. كان اللخان الخائق للزيف قد أمسك به من حنجرته . . . فكرة كونه محكوماً بالكفاح المتواصل في ذلّ؛ الجوف الفاسد دون أي أمل في استعادة قوته واو بنفس واحد من الهواء النقيّ.

نظرت صوفيا أنتونوفنا من الأرض المحيطة بالقصر نحو القصر ثم هزت رأسها وهي تقول :

– أنت في حاجة إلى كأس من الماء البارد.

ثم نظرت إلى الهدوء الطافح للبحيرة عبر البوابة. وبهزة نصف كوميدية من الكتفين قدّمت العلاج وهي تواجه هذا انكمّ الهائل :

– إنه أنت، يا روحي العزيزة، أنت الذي يرمي بنفسه على شيء لا وجود له. ما هو هذا الشيء؟ تأنيب للذات أم ماذا؟ انه لأمر غريب. ما كان يمكنك أن تذهب وتسلم نفسك لأن رفيقك قبض عليه.

حاججته على نحو معقول ومطول أيضاً. ما كان لديه ما يشكو منه فيما يخصّ طريقة استقباله. فكل قادم جديد لا بدّ من أن يناقش أمره

على هذا النحو تقريباً . كان من المترواح فهم كل شخص على أفضل نحو قبل أن يُقبل . ليس هناك شخص ، تستطيع هي تذكره ، أعطي كل هذه الثقة منذ البداية . وقريباً ، وربما في وقت أقرب ممّا يتوقعه هو ، سيُمنح فرصة اظهار ولائه للمهمة المقدسة ، مهمة تحطيم « العار » .

قال رازوموف في نفسه وهو يفكر بهدوء : « ربّما تحاول أن تهديء من مخاوفي وشكوكي . ومن ناحية أخرى ، فمن الواضح أن معظمهم حمقى . » تحرك جانباً خطوة أو خطوتين ثم طوى ذراعيه على صدره واستند على عمود البوابة الحجريّ .

قالت صوفيا أنتونوفنا وقد بدأت تتكلّم ببطء بدا ارازوموف كسقوط الرصاص المذاب نقطة في اثر نقطة :

— أما ما بقي غامضاً في مصير هالدين البائس . . . فرغم أنه لم يشر أحد إلى ذلك امّا خوفاً أو اهمالاً ، فان ساوكك لم يكن كما يتوجّب أن يكون . . . حسناً ، لديّ بعض المعلومات . . .

لم يستطع رازوموف أن يمنع نفسه من أن يرفع رأسه ، وأومات صوفيا أنتونوفنا برأسها بإشارة خفيفة .

— نعم لديّ معلومات . أتذكّر تلك الرسالة من سانت بطرسبورغ التي ذكرتها لك منذ لحظة ؟

— الرسالة ؟ تماماً . أحد الفضوليين قدّم تقريراً عن سلوكي في يوم محدد . هذا مثير للاشمئزاز . أعتقد أن شرطتنا تتنور كثيراً حين تفتح مثل هذه الرسائل الهامة . . . و . . . غير الضرورية .

— لا يا عزيزي لا ! الشرطة لا تعرف بكل الرسائل كما تتخيّل .

الرسالة المذكورة لم تغادر سانت بطرسبورغ حتى تحطم الجليد . لقد سارت مع أول باخرة انكليزية غادرت نهر النيفا هذا الربيع . لديهم اطفائي على السفينة . . . وهو واحد منا . لقد وصلتني من « ها . . . » . توقفت عن الكلام كأنها دهشت لرؤيتها ذلك الثبات الكئيب في تحديقه رازوموف ، ولكنها استأنفت الكلام فوراً وبلهجة أسرع بكثير :
— لدينا بعض عناصرنا هناك وهم . . . ولكن لا بأس . ان كاتب الرسالة يقصّ حادثة يظنّ أنها تتعلق بحادثة القبض على هالدين . كنت على وشك أن أحكيها لك حين قدم هذان السيدان .
غمغم رازوموف :

— تلك كانت حادثة من نوع فائن جداً . . . بالنسبة إليّ .
صاحت صوفيا أتونوفنا :

— دعك من هذا ! لا أحد يكثر بنجاح نيكيئا ايس هو بالشرير . اسمع ما لديّ لأقوله . قد تكون قادراً على أن تضيء شيئاً ما . كان في سانت بطرسبورغ أحد الفلاحين القاطنين فيها . . . رجل يملك جياداً . وقد قدم إلى المدينة منذ سنوات ليعمل لدى أحد أقربائه كسائق وانتهى بامتلاك عربة أو اثنتين .

كان يمكنها أن توفّر على نفسها ذلك الجهد الذي بذلته حين قالت :
« انتظر ! » فلم يكن رازوموف ينوي أن يقول شيئاً ، ما كان قادراً على مقاطعتها الآن ، ولا حتى لو كان في ذلك انقاداً لحياته . كانت تقلّصات عضلات وجهه غير ارادية ، مجرد حركة سطحية ، تاركة اياه مصغياً على نحو كئيب كما كان سابقاً .

— لم يكن رجلاً عادياً كغيره من أفراد طبقته . . . على ما يبدو .
كان سكان البناء . . . تحدث مراسلي مع كثيرين منهم — أنت تعرف
تلك المباني الضخمة المترعة بالعار والبؤس . . .

ما كان ضرورياً أن تتوسع صوفيا أنتونوفنا في شرح أوصاف
المنزل . لقد رأى رازوموف بوضوح كومة هائلة من المعمار مغطاة
بوشاح من الثلج تتسامى من خلف صوفيا أنتونوفنا ، مع الصفّ الطويل
من النوافذ الخاصة بالمطعم وهي تلتصق على نحو دهنيّ قريبة جداً من
الأرض . كان شبح تلك الليلة يطارده . وقف يواجهه بغضب وانهاك .

— هل تحدث المرحوم هالدين إطلاقاً عن ذلك المنزل ؟

كانت صوفيا أنتونوفنا تواقفة إلى أن تعرف .

أجاب رازوموف بالاجاب وهو يتساءل ان كان يسقط في فخّ .
كان من المهين جداً أن يكذب على هؤلاء الناس ، فلم يستطع أن يجيب
بالنفي . ثم أضاف وكأنه يبذل جهداً لئلا يتذكر :

— لقد ذكر لي مرة مبنى من ذلك النوع . كان من عادته أن يزور
بعض العمال هناك .

— بالضبط .

لقد انتصرت صوفيا أنتونوفنا . كان مراسلها قد اكتشف الحقيقة
بالصدفة من حديث سكان البناء بعد أن تعرف على عامل يسكن إحدى
الغرف هناك . وقد وصفوا له هالدين على نحو دقيق . كان يجلب كلمات
السلوان والأمل إلى بؤسهم . كان يزورهم على نحو غير نظامي ، وان
كانت زيارته عابدة و — كما كتب مراسلها — كان يقضي الليل أحياناً
في المنزل ، وينام في الاضطبل الذي كان مفتوحاً على باحة داخلية .

– لاحظ ذلك يارازوموف ، في اصطبل .

كان رازوموف بصفي بنوع من الموافقة الشرسة انما باستمتاع .

– أجل ، في القش . كان ذلك ربما أنظف مكان في المبنى كله .

قالت المرأة بتلك التقطية العميقة التي بدا أنها تقرب عينيها الواحدة

من الأخرى بأسلوب عجيب :

– لاشك في ذلك .

ما كان يمكن لأي مخلوق يمشي على أربع أن يتمم قدرة وبؤس الكثير من المخلوقات الانسانية المحكوم عليها بالمعاناة في روسيا . كانت أهمية ذلك الاكتشاف هي أنه برهن على أن هالدين كان على معرفة بذلك الفلاح مالك الجياد . . . وهو شخص متهور ، استقلالي ، مسرف في اشباع شهواته ، غير محبوب من سكان المبنى الآخرين . وكان يعتقد أنه متواطئ مع عصابة من لصوص المنازل . وقد أقي القبض على بعض من هؤلاء . لم يكن ذلك وهم في عربته على أية حال ، ولكن كان هناك شك في أن ذلك الشخص قد أوحى إلى الشرطة بذلك وأن . . .

كبحت المرأة الثورية نفسها فجأة .

– وأنت ؟ هل حدث أن سمعت صديقك يذكر شخصاً باسم

زيميانيتش ؟

كان رازوموف مستعداً للاسم . ولكنه كان ينتش عن السؤال .

كان يقول لنفسه : « حين يأتي سأعترف . » ولكنه تمهل .

بدأ يقول ببطء :

– بكل تأكيد ! زيميانيتش ! فلاح يملك طقماً من الجياد . أجل .

في احدى المرات . زيميانيتش ! بكل تأكيد ! زيميانيتش صاحب
الحياد . . . كيف أمكن لذلك أن يتراق من ذاكرتي ؟ كان ذلك خلال
آخر الحوارات التي جرت بيننا .

بدا على صوفيا أنتونوفنا الجدية الشديدة :

— هذا يعني . . . هذا يعني يا رازوموف أن ذلك كان قبل وقت
قصير من . . . أليس كذلك ؟

صرخ رازوموف وهو يتقدم من المرأة التي بدت عليها الدهشة ،
ولكنها صمدت في مكانها :

— قبل ماذا ؟ قبل . . . أوه ! طبعاً قبل ذلك ! كيف كان ممكناً
لذلك أن يكون فيما بعد ؟ قبل ساعات قابلة فحسب .

— وهل تحدث عنه إيجابياً ؟

— بحماسة ! جياذ زيميانيتش ! الروح الحرة لزيميانيتش !

استمتع رازوموف بالتلفظ بذلك الاسم بصوت مرتفع ، وهو
الذي لم يسبق له أن مرّ بشنتيه على نحو مسموع . ثبتت عينيه المتوهجتين
على المرأة حتى أعاده تعبيرها المفتون إلى نفسه .

قال وهو يتماسك ويعينين مسبلتين :

— كان المرحوم هالدين هيالاً إلى أن يُفتن بالناس ، وذلك على . . .
كيف أعبر عن ذلك ؟ . . . على أسس غير كافية .

صدمت صوفيا أنتونوفنا بيديها :

— حسناً ! هذه هي المسألة . لقد أثرت شكوك مراسلي . . .

قال رازوموف بلهجة ساخرة صريحة السخرية تقريباً :

— ها ها ! مراسلك . أية شكوك ؟ كيف أثرت ؟ بواسطة زيميانيتش هذا ؟ ربما بواسطة شخص سكير هاذر جدير بالتصديق . . .
— تتكلم كأنك تعرفه .

رفع رازوموف نظره إليها .

— لا ، ولكنني عرفت هالدين .

أومأت صوفيا أنتونوفنا برأسها بجديفة .

— أفهم ما تعنيه . كل كلمة تقولها تؤكد لذهنك الشك الذي أبلغ لي في تلك الرسالة الهامة . لقد وجد زيميانيتش هذا في صباح أحد الأيام مشنوقاً من خطاف في الاصطبل . . . ميتاً .

أحسّ رازوموف بقلق عميق ، وكان ذلك واضحاً لأنّ صوفيا أنتونوفنا تحركت لتتول بجيوية :

— ها ها ! لقد بدأت ترى :

لقد رأى ذلك بكل وضوح . . . في نور مصباح يرمي ببرامق (١) من الظلّ في اصطبل أشبه بقبو الجسد الملفوف بمعطف من جلد الخروف والحذاء الطويل معلقاً على جدار . قلنسوة مدببة ، ونهاياتها ملتوية حتى العيين ، وتغطي الوجه . فكّر : « ولكن هذا لا علاقة له بي . انه لا يؤثر على مركزي . لم يعرف أبداً من ضربه ذلك الضرب المبرح . ما كان ممكناً له أن يعرف . » أحسّ رازوموف بالأسى تجاه ذلك العاشق العجوز للشراب والنساء :

(١) برامق : جمع برمق وهو شمع الدولار . (المترجم)

غمغم :

– أجل . بعضهم ينتهون هكذا نهاية . ما هي فكرتك يا صوفيا
انتونوفنا ؟

كانت بالفعل فكرة مراسلها ، ولكن صوفيا انتونوفنا تبنتها بالكامل .
قالت بكلمة واحدة : « الندم » . فتح رازوموف عينيه على وجهها .
كان مخبر صوفيا انتونوفنا بعد اصغائه إلى الحديث الجاري في البناء ،
وبعد أن وضع هذا فوق ذلك ، قد استطاع أن يقرب كثيراً من حقيقة
علاقة هالدين بزيميانيتش .

– أنا الذي يستطيع أن يخبرك بما لم تكن واثقاً منه . . . أن صديقك
قد وضع خطة ما لإنقاذ نفسه لاحقاً بالخروج من سانت بطرسبورغ ،
بأي ثمن . ربما كانت تلك هي الخطة وكان قد ترك الحظ ليقوم بالباقي .
وكانت جياة ذلك الشخص جزءاً من تلك الخطة .

تعجب رازوموف بينه وبين نفسه وهو يحني رأسه بحكمة : « لقد
وصلوا فعلاً إلى الحقيقة . أجل ، هذا ممكن ، ممكن جداً . » ولكن
المرأة الثورية كانت على ثقة من صحة ذلك . أولاً : جرى حوار حول
الجياة بين هالدين وزيميانيتش وقد سمع بعضهم جزءاً منه مصادفة .
ثم كانت هنسك شكوك لدى سكان البنساء بأن « السيد الشاب » (لم
يكونوا يعرفون هالدين بالاسم) قد توقف عن زيارة البناء . كان بعضهم
يتهم زيميانيتش بأنه يعرف شيئاً ما عن غيابه . ولكنه أنكر ذلك ساخطاً ،
إذ أن الحقيقة هي أنه منذ اختفاء هالدين لم يعد هو كما كان بل أصبح
مزاجياً وراح جسده ينحل ، وأخيراً ، خلال شجار مع امرأة ما (كان
يحاول التقرب منها) ، والذي اشترك فيه معظم سكان البناء على ما يبدو ،

فقد اتهمه عدوه الرئيسي ، وهو بائع متجول رياضي الجسم ، بأنه مخبر ، وأنه سبب في نفي « صاحبنا السيد الشاب إلى سيبيريا ، كما فعل بأولئك الشباب الذين كانوا يسطرون على المنازل . » ونتيجة لذلك حدث شجار ورُمي به إلى أسفل الدرج . وبعد ذلك شرب وتسكع أسبوعاً كاملاً ثم شق نفسه .

استمدت صوفيا انتونوفنا استنتاجاتها من الحكاية . وقد اتهمت زيميانيتش اما بالطيش الناجم عن السكر فيما يخص تنفيذ مهمة سياقة في موعد محدد ثم الاستماع إليه مصادفة من قبل جاسوس في بار يقدم مشروب الغرغ . . . ربما في المطعم نفسه الواقع في الطابق الأرضي من البناء . . . أو بقيامه بالتبليغ عن هالدين مباشرة ، ثم تبع ذلك الندم . رجل كهذا قادر على أي شيء . يقول الناس أنه كان عجوزاً سريع الاهتياج . ولو كان على علاقة سابقة مع الشرطة — كما هو مؤكد ورغم أنه ينكر ذلك باستمرار — فيما يتعلق بأولئك اللصوص ، فلا بد أنه يعرف بعض الرؤسسين الصغار في الشرطة الذين يبحثون باستمرار عن أي شيء ييلفون عنه . وبما لم تؤخذ حكايته على محمل الجد حتى ذلك اليوم الذي لقي فيه الوغد « دو ب . . . » ما يستحقه . آه ! عندما كانت كل نغمة من المعلومات والتلميحات أمراً يستحق الاهتمام وكان أن أمسكوا بها ليدن .

مدت صوفيا انتونوفنا يديها وقالت :

— إنه القضاء المحتوم .

القضاء المحتوم . . . الحظ ! فكر رازوموف في دهشة صامتة بالاحتمالات العجيبة لهذه الاستنتاجات . كانت في مصلحته بكل وضوح . كانت صوفيا انتونوفنا شديدة الهدوء والثبات من جديد :

— الصحيح الآن هو إشاعة هذا البرهان الحاسم .

لقد استلمت الرسالة منذ أيام ثلاثة ، ولكنها لم تكتب على الفور إلى بيتر ايفانوفيتش . كانت تعرف أنه مشتت ما الفرصة في الوقت الحاضر لمقابلة رجال عدة من ذوي النشاط الفعال سيجمعون لأجل أمر ذي أهمية .

— كنت أظن أنه من شأن الأمر أن يكون أكثر فعالية لو استطعت أن أريك الرسالة نفسها . هي في جيبى الآن . أنت تعرف كم أنا مصرورة بلقائك .

كان رازوموف يقول في نفسه : « لم تعرض علي أن تريني الرسالة . ليس هذا محتملاً . هل قالت كل شيء ، اكشفه مراسلها ذلك ؟ » كان تواقاً إلى رؤية الرسالة ، ولكنه أحس أن عليه ألا يطلب ذلك .

— قولي لي أرجوك ، هل كان هذا نوعاً من التحقيق حسب أوامر صادرة ؟

احتجت قائلة :

— لا ، لا . ها أنت تعود إلى حساسيتك . انها تجعلك غيباً . ألا ترى أنه لم تكن هناك حتى نقطة انطلاق لتحقيق ، حتى لو فكر أي شخص به . فراغ كامل ! هذا بالضبط ما كان بعض الناس يلمحون إليه على أنه سبب يدعو إلى استقبالك بجلد . كان ذلك عرضياً تماماً ، وناجماً أن تعرف مخبري صدفه على ديباغ ذكي يسكن في ذلك البناء البائس القلر نفسه . مصادفة رائعة !

قال رازوموف مبتسماً :

— كان من شأن شخص زورع أن يقول ان يد الله كانت وراء ذلك كله .

— كان من شأن أبي المسكين أن يقول الشيء نفسه .
لم تثبتهم صوفيا انتونوفنا . أخفضت بصرها .

— لا يعني ذلك أن ربّه قد قدم له أية مساعدة . لقد توقف الرب منذ زمن طويل عن مساعدة الناس اطلاقاً . وعلى أية حال فما حدث قد حدث .

قال رازوموف ومظهره يدل تماماً على التجرد المشوب بالتأمل :

— كل هذا سيكون حاسماً لو كان هناك أي يقين بأن « السيد الشاب » الذي يتحدث عنه هؤلاء الناس هو فيكتور هالدين . هل لدينا اليقين ؟

— أجل . لا مجال للخطأ هنا . كان مراسلي على معرفة بالمظهر الخارجي لهالدين وبك أيضاً .

هنا ما أكدته المرأة على نحو حاسم .

قال رازوموف لنفسه بقلق متجدد : « لا شك أنه ذاك الشاب ذو الأنف الأحمر . » هل مرتّ زيارته هو إلى ذلك المنزل الاعمق دون أن يلاحظها ؟ كان ذلك بالكاد ممكناً ، ومع ذلك فانه كان محتملاً بصعوبة . كان ذاك هو النوع الصحيح من الرقود الذي يفتلي الاشاعات الشعبية التي كان ذاك الفضولي التحيل يصطادها . ولكن لم يبد أن الرسالة كانت تحتوي أية اشارة إلى ذاك . ما لم تكن هي قد كتبت الموضوع . وان كان الأمر كذلك ، فلماذا ؟ ان كان الأمر قد فات على فضول ذاك

الديمقراطي الذي انهكه الجوع ، صاحب العبقرية اللعينة في مجال التعرف على الناس من أوصافهم ، فذلك سيكون أمراً مؤكداً فحسب . سيتعرف قريباً على الحقيقة ويسارع إلى ارسال رسالة لتخري . . . ومن ثم ا

بسبب ذلك المزاج المتهور المسموم ، المغدنى بالحقد والاحتقار ، ارتجف رازوموف داخلياً . ولقد صانه ذلك من الخوف العادي ، ولكنه لم يصنه من الاشتزاز بأن يُعامل بهذه الطريقة من قبل أولئك الناس . كان ذلك نوعاً من الخوف الخرافي . والآن ، بما أن وضعه قد أصبح أكثر أماناً بسبب حماقتهم على حساب زيميانيتش ، فقد شعر بالحاجة إلى الأمان التام ، والتحرر من الكذب المباشر الذي يمنحه هذا الأمان ، ويقتره على التحرك بينهم صامتاً ، دون اعتراض ، مصغياً ، غير قابل للاخراق ، كمصير جرائمهم وحماقتهم . هل أصبح يتمتع بهذه الميزة منذ الآن ؟ أم ليس بعد ؟ أم ليس أبداً ؟

— حسناً يا صوفيا انتونوفنا .

كانت سيماء التنازل المتردد حقيقية إلى حد أنه كره فعلاً أن يودعها دون أن يجتبر صدقها بسؤال كان مستحيلاً طرحه بأي شكل من الأشكال .

— حسناً يا صوفيا انتونوفنا ، ان كان الأمر كذلك ، إذن . . .

قالت المرأة وكأنها تفكر بصوت مرتفع :

— لقد عامل ذلك المخاوق نفسه بما تستحقه .

— ماذا آه ! الندم !

هنا ما تخمّم به رازوموف باحتقار غير حاسم .

— لا تكن قاسياً يا كبيريو سيدوروفيتش لأنك فقدت صدقاً .

لم تكن هناك أية أماره من أمارات الرقة في لهجتها ، ولكن الالتماع
الداكن لعينيتها بدا بعيداً للحظة عن الرؤي الانتقامية .

— كان رجلاً من الشعب . الروح الروسية البسيطة ليست من النوع
الذي لا يندم اطلاقاً . وأن يعرف المرء ذلك لأمر ذو أهمية .

لمح رازوموف بهجة التساؤل:

— مواساة ؟

صداً بهشلة :

— توقف عن الشكوى . تذكر يا رازوموف أن النساء والأطفال
والثوريين يكرهون السخرية ، التي ما هي الا نفي لكل الغرائز المنقطة ،
لكل الايمان ، لكل التضاني ، لكل الفعل . لا تتدمر ! دعك من ذلك . . .
لا أعرف كيف هو الأمر ، ولكن هناك لحظات تبدو فيها بغيضاً لي . . .
أشاحت بوجهها بعيداً . استمر صمت واهن ، كأنما كل كهزباء
الموقف قد أفرغت في هذه النوبة الانفعالية ، لفترة ما . لم يكن رازوموف
قد أحجم . وفجأة وضعت أنامها على كمنه .

— لا تقلق .

قال بهدوء كبير :

— لست قماً .

كان فخوراً بالشعور أنها غير قاهرة على قراءة أي شيء ما على
وجهه . كان هادئاً ، مرتاحاً بالفعل ، ولو كان ذلك لبرهة فحسب ،
وذلك من تأثير غيامض . وفجأة سأل نفسه :

— لم ذهبت إلى ذلك البناء بحق الشيطان ؟ كان ذلك عملاً

يتسم بالحماقة .

طفي عايه شعور عميق بالاشتراك . تباطأت صوفيا أنتونوفنا وهي
تتكلم باهجة ودمية وبنية واضحة في المصالحة . وكان حديثها لا يزال
يدور حول الرسالة الشهيرة ، مشيرة إلى تفاصيل دقيقة مخفية أياً
بها مخبرها ، الذي لم ير زيميانيتش أبداً . كان « ضحية الغم » هذا قد
هزن قبل أسابيع عدة من قيام مراسلها بزيارة الدار لأول مرة . وكانت
تلك اللطيفة نحوي مادة ثورية جيدة جداً . كانت روح هالدين البطولية
قد مرت بأوكار البؤس الأسود تلك ، حادة وحداً بالعلاج الشامل
لكل عوامل البؤس التي تضاعف البشرية . أصفى رازوموف دون أن
يسمع ، تتأكله الرغبة الوليدة في الأمان ، مع استتلاله عن تلك الطريقة
المهينة ، طريقة الكلب المباشر التي وجد أنه من المستحيل أحياناً ممارستها .

لا ، للساعة التي كان يريد سماعها ما كان ممكناً أن يتم التطرق إليها
في هذا الحوار بالذات . لم تكن هناك طريقة يمكن بواسطتها التطرق إليها .
وقد ندّم لأنه لم يؤلف قصة متكاملة يستمعها خارج الوطن ، بحيث
تكون علاقته القارة مع تلك الدار مسألة معترفاً بها على نحو لا خطر فيه .
ولكنه حين غادر روسيا لم يكن يعرف أن زيميانيتش قد شق نفسه .
وعلى أية حال ، فمن كان سينبأ بـ « مخبر » هذه المرأة وهو يتعمر بهذه
الدار الهائسة بين كل الدور البائسة التي تنتظر الدمار ضمن الشعاع المطهرة
لثورة الاجتماعية ؟ من كان يستطيع التنبؤ بذلك ؟ لا أحد ! فكر
رازوموف بينه وبين نفسه : « أنها مفاجأة شيطانية كاماة ! » بينما وجهه
هاديء في وضعية من التفوق الغاضب وقد راح يوميء برأسه علامة
الموافقة على ملاحظات صوفيا أنتونوفنا حول سيكولوجيا « الشعب » .

كان يقول لها :

- أوه أجل . . . بالتأكيد .

ولكن يبرود ويتوق عصبي في أصابعه ليخرج بالقوة نوعاً ما من الاعتراف من حنجرتها .

ثم ، في النهاية ، وعند لحظة الفراق ، وعندما أحس أن التوتر قد تحف لديه ، سمع صوفيا أنتونوفنا وهي تلمح إلى موضوع قهقهة كيف حدث ذلك ؟ لم يستطع أن يعرف ، فقد كان ذهنه غائباً في تلك اللحظة ، ولكنه يبدو كأنه ناتج عن شكاوى صوفيا أنتونوفنا من الغرابة غير المنطقية للشعب . مثلاً ، زيميانيتش ذلك كان شهيراً بتجديفه ، ومع ذلك ، ففي آخر أسابيع حياته كان يعاني من فكرة مفادها أن الشيطان قد ضربه ضرباً مبرحاً .

كرّر رازوموف وكأنه لم يسمع الكلمة جيداً :

- الشيطان ؟

- الشيطان الحقيقي . الشيطان شخصياً . قد تبدو منلهشاً من حق يا كيريوا سيلوروفيتش . ففي وقت مبكر من الليلة التي تم القبض فيها على هالدين المسكين ، ظهر رجل غريب تماماً وضرب زيميانيتش ضرباً مبرحاً وذاك متمدد شبه ميت من شدة السكر في الاصطبل . لقد أصبح جسده كومة واحدة من الكدمات . وقد جعل سكان الدار يرون كلماته تلك .

- ولكن أنت يا صوفيا أنتونوفنا لا تؤمنين بوجود الشيطان الحقيقي ؟

ردت المرأة باقتضاب :

- وماذا عنك أنت ؟

ثم غمغت لنفسها :

— ولكني أؤمن بوجود الكثير من الناس الذين هم أسوأ من الشياطين ممن يحولون هذه الأرض إلى جحيم .

راقبها رازوموف ، حيوية وذات شعر أبيض ، والثنية العميقة بين حاجبيها الرفيعين ، ونظرتها الداكنة وهي تبتعد عنه بكسل . كان واضحاً أنها لم تمر كثيراً من الأهمية للحكاية . . . ما لم يكن هنا قمة النفاق بالفعل .

استأنفت تقول :

— شاب داكن اللون . لم يتر من قبل في الدار ولا من بعد . لم تبسم يارازوموف ؟
أجاب بهلوه :

— من فكرة أن يكون الشيطان لا يزال شاباً بعد كل هذه العهود ! ولكن من ذا الذي كان قادراً على وصفه ، طالما كانت الضحية ، كما تقولين ، شخصاً سكران شبه ميت من السكر ؟

— أوه ، صاحب المطعم وصفه . شاب متفطرس داكن اللون يرتدي عباءة طلابية ، دخل مندفعاً وسأل عن زيميانيتش ، ثم ضربه بجنون واندفع خارجاً دون أن يتلفظ بكلمة واحدة ، تاركاً صاحب المطعم مصعوقاً من الدهشة .

— وهل يعتقد هو أيضاً أن ذلك كان الشيطان ؟

— لا أعرف ذلك . لقد قيل لي انه شديد التحفظ حول هذه المسألة .
بائعو المشروبات الروحية أولئك يكونون في العادة أوغادراً كباراً .
وأعتقد أنه يعرف عن المسألة أكثر من أي شخص آخر .

سألها رازوموف بالهجة الاهتمام الشديد :

— حسناً ، رأيت يا صوفيا انتونوفنا ، ما هي نظريتك ؟ نظريتك
ونظرية مخبرك الذي كان في ذلك المكان ؟

— أنا أتفق معه في الرأي . لقد كان ذلك أحد كلاب الشرطة
متخفياً . من بومعه أن يضرب رجلاً لا حول له بكل تلك الوحشية ؟
أما بالنسبة إلى بقية الحكاية ، فلو كانوا قد خرجوا في ذلك اليوم ليتفحصوا
كل أثر ، قديمه وجديده ، فمن المحتمل أنهم فكروا في أن زيميانيتش
نحت تصرفهم للحصول على بعض المعلومات ، أو التعرف على شخص
ما ، أو أي شيء آخر . وقد تم ارسال شرطي سري وغد لاحضاره ،
ولكنه انزعج لأنه وجده ثملاً إلى ذلك الحد ، فحطم منارة الاصطبل
على أضلاعه . وفيما بعد ، وبعد أن أمسكوا بالطريدة الكبيرة ، وأضحت
في شباكهم ، ما عادوا يزعمون رؤوسهم بملك الفلاح .

تلك كانت الكلمات الأخيرة للمرأة الثورية في هذا الحوار ، وكانت
قريبة جداً من الحقيقة ، ومبتعدة عنها كثيراً . ضمن احتمالات الأفكار
والاستنتاجات بحيث تعطي المرء فكرة عن الطبيعة الكؤود والخطأ الانساني ،
ولمحة في الأعماق السحيقة لخداق النفس ، وبعد أن ضافح رازوموف
صوفيا انتونوفنا ، غادر أرض القصر ، وعبر الطريق وسار على امتداد
الرصيف الصغير للبواخر ليستند على الحاجز .

كان ذهنه مرتاحاً ، وكانت تلك راحة لم يعهدها منذ أيام عديدة ،
منذ تلك الليلة الليالي الممهودة . كان الحوار مع المرأة الثورية قد
منحه وجهة نظر مفادها أن الخطر قد انتهى بالنسبة إليه ، على نحو واضح
تماماً ، فكر : « كان علي أن أؤمن بالشكوك التي كانت متجذرة في أذهان

بيتر ايفانوفيتش . حتى السلوان الذي توفّره الزجاجه قد لا يكفيه، وهذا أمر واضح ، في هذه الأزمه الخطيرة . في مثل تلك السن لم يكن سوى حبل المشنقه قادراً على علاج آلام عاطفه لا ترتوي . وعلاوة على ذلك ، كان هناك السخط الغاضب الذي أثاره التشهير الجائر وازدراء أهل الدار له ، مع استحالة تفسير حادثة الضرب الغامض الذي تعرض له ، مما كان يثير الجنون ، اضافة إلى تلك الأخران البسيطة والمرّة . صاح رازوفوف باثتارة ذهنية وكأنه قد قام باكتشاف هام : « الشيطان ، هه ! لقد انتهى زيميانيتش إلى الوقوع في الباطنية . كثيرة هي الأرواح الروسية الأصلية التي تنتهي بتلك الطريقة ! هذه واحدة من ميزاتنا ! » أحسّ بالأمسى على زيميانيتش ، بأسمى كبير وحيادي ، كذلك الذي قد يشعر به المرء تجاه جمهرة غير واعية ، كثير من الناس تراهم من على . . . كمجتمع من النمل الزاحف تعمل في مجموعات كثيفة . بدأ الأمر كأن زيميانيتش ما كان قادراً على فعل أي شيء آخر . وكانت عبارة صوفيا انتونوفنا الوائقة المترعة بالازدراء : « شرطي سري وغد » عبارة روسية تماماً بطريقة أخرى . ولكن لم تكن هناك تراجيديا في هذه المسألة . كانت هذه نوعاً من كوميديا الأخطاء . بدأ الأمر وكأن الشيطان نفسه كان يمارس لعبة ما مع الجميع كلا على حدة . أولاً معه هو ، ثم مع زيميانيتش ، ثم مع أولئك الثوريين . كانت تلك لعبة الشيطان . . . وقد قاطع هذه المناجاة الذهنية الصادقة بفكرة مازحة تدور حوله هو بالذات : « مرحباً ! ها أنذا في الباطنية أيضاً . »

كان ذهنه في حالة من الاسترخاء لم يعرفها من قبل . التفت واستند إلى الدرابوزون براحة . استمر في التفكير : « كل هذا يناسب بعضه بعضاً

هؤلاء الناس . « ثم لفت انتباهه حجر ذو شكل عجيب ، وكان يراه بوضوح في قاع البحيرة . وقد راح يفكر في مدى عمق الماء في تلك البقعة . ولكنه سرعان ما عاد إلى حبل أفكاره وهو يستعجب من هذا المثل العجيب على التجرد سيء التوقيت . فكر : « كان علي أن أقدم بأكاذيب تفصيلية منذ البداية . » وقد أحس بكره قاتل للفكرة ذاتها التي أحرصت ما كان يقزله في ذهنه لفترة ماحوذة تماماً . فكّر : « من حسن الحظ أن كل شيء على ما يرام الآن . » ثم تحدث إلى نفسه بعد فترة بصوت نصف مرتفع : « بفضل الشيطان » . ثم ضحك قليلاً .

لقد استحوذت النهاية التي لاقاها زيميانيثش على أفكاره الجوالة . لم يكن مسروراً بالضبط من التفسير ، ولكنه لم يستطع سوى أن يرى فيه حدة معينة . وقد اعترف بينه وبين نفسه أنه لو كان يعرف بانتحاره قبل مغادرة روسيا ، لما كان قادراً على استغلاله هذا الاستغلال الممتاز لمصلحته هو . كان عليه أن يكون ممتناً إلى أقصى حد للشاب ذي الأنف الأحمر على صبره وبراعته . قال في نفسه ساخراً : « لا شك أنه محلل نفسي رائع . » انه الندم بالفعل ! كان ذلك مثلاً مدهشاً على العمى الحقيقي الذي كان يتمتع به ذلك المتأمر ، على الرقة الغبية للأشخاص ذوي الفكرة الواحدة . كان تلك دراما حب وليست دراما ضمير ، هكذا استمر رازوموف يخاطب نفسه ساخراً . امرأة كان الرجل الصجوز يحاول التقرب منها ! بائع متجول قوي البنية ، لا شك أنه منافسه في حب المرأة ، يرمي به من أعلى الدرج . . . وفي سن الستين ، وبالنسبة إلى عاشق عرف العشق طوال حياته ، لم تكن تلك مسألة يمكن تجاوزها بسهولة . كانت تلك واحدة من أنصار حرية المرأة من نوع يختلف عن

على نحو رائع . ان لمعان المائرة التي قمت بها ان يطفئها مصير زميلي
المنترض . فزيميانيتش الباطني قد فسر ذلك . لقد خدمني حفظاً لا
يصدق . لا حاجة إلى الأكاذيب الآن . سيكون علي أن أصغي فحسب وأن
أبقي ازدرائي بعيداً عن أن يسيطر على حلدي . »

تنهد ، ثم طوى ذراعيه ، وذهنه فوق صدره ، ومرّ وقت طويل
قبل أن يتقدم مغيراً هذه الوضعية ، وهو يتذكر أنه قد قرّر أن يقوم
بشيء ذي أهمية في هذا اليوم . ما كان ذلك الشيء ! لم يكن يستطيع
تذكره تماماً ، ولكنه لم يجهد ذاكرته ، فقد كان متأكداً على نحو قلق
من أنه سيتذكر على الفور .

لم يكن قد سار أكثر من مئة ياردة باتجاه المدينة حين أبطأ السير ، بل
كاد يتعثر في مشيته ، لدى مشاهدته لشخص يمشي في الاتجاه المعاكس ،
وكان ذلك يرتدي عباءة تحت قبعة طرية ذات حافة عريضة ، تلفت
النظر ولكنها صغيرة ، كأنما ترى من خلال منظار الأوبرا . كان مستحيلاً
تجنب ذلك الرجل الضئيل الحجم ، فلم يكن هناك مجال للتراجع .

فكر رازوموف : « شخص آخر ذاهب إلى ذلك الاجتماع السري . »
كان على حق في افتراضه ، إذا أن « هذا » فحسب ، بين من أتوا من
البعيد ، كان معروفاً له شخصياً . ومع ذلك كان يأمل أن يمر دون انحناءة
حتى ، ولكن كان مستحيلاً تجاهل اليد النجيلية الصغيرة ذات الرسغ
المشعراني والبراجم البارزة التي ارتفعت تلاوح له بوداً من تحت ثنابا
العباءة التي كان يرتديها وفق الأسلوب الإسباني بغض النظر عن الطقس
الدافئ ، وزاوية منها « ملحوشة » على الكتف .

قال الرجل وهو يجيبه بالألمانية :

– وكيف هو «المهر» رازوموف ؟

وهذا لوحده كان كافياً ليجعل رازوموف أكثر بغضاً لهذا الاهتمام
الدمث . وعند الاقتراب منه أكثر بدا الشخص الضئيل كأنه تصغير
لشخص عادي الحجم ، وله جبين مرتفع تعرّى للحظة وهو يرفع
قبعته ، بينما كانت اللحية العظيمة السوداء التي وخطها الشيب تنتشر فوق
الصدر العريض نسبياً . كان له أنف حاد ناتئ فوق فم رقيق مخفي في
كومة الشعر الناعم : كل هذا ، الملامح البارزة والأعضاء القوية في
صفرها النسبي ، بدت دقيقة دون أي إشارة تدلّ على الوهن . أما
العينان اللوزيتان بنيتا اللون فكانتا واسعتين جداً ، وبياضهما محمّر
قليلاً بسبب كثرة الأعمال الكتابية تحت ضوء المصباح . كانت الشهرة
الغامضة لهذا الرجل الضئيل الحجم معروفة تماماً لدى رازوموف ، فهذا
الرجل يتقن عدة لغات . وهو مجهول النسب والجنسية ، فوضوي ،
ذو مزاج غريب شرس وقدرة ملهبة إلى حد مدهش على الطعن بالناس .
كان ذا ساطعة في مجال المنظمات السرية ومؤلف كراريس عنيف ينادي
بالعدالة الثورية. كان اسمه جوليوس لاسبارا ، محرّر «الكلمة الحية»
وهو موضع ثقة المتأمّرين ، ومنظم الوعود والاعلانات الدموية ،
ويُشك بأنّه وراء كل مؤامرة . كان لاسبارا يسكن في المدينة القديمة في
منزل كئيب ضيق أهدي إليه من قبل أحد المهجيين ببلاغته الانسانية
التزعة ، وهو شخص ساذج من الطبقة الوسطى . وكانت تسكن مع
لاسبارا ابنتاه اللتان كانتا أطول منه بكثير ، ووالد نحيل شاحب في
السادسة من عمره ، يدوي في تلك الغرف المعتمة في «أوفرول» أزرق
قطني وحذاء غير متقن الصنع كان يمكن أن يكون لوالد أو لجوليوس

أو ليس لأحدهما . ما كان ممكناً لأي غريب أن يعرف . كان جوليموس
لاسيبارا يعرف دون شك مَنْ بين ابنتيه كانت هي الأم ، إذ أنه بعد أن
اختفى سنوات قليلة ، عادنا إليه ومعهما ذلك الطفل ، ولكنه ببزاعة
تدعّر إلى الاعجاب ، لم يسألها عن التفاصيل ، ولا حتى عن اسم الأب ،
لأن الأمومة يجب أن تكون وظيفية فوضوية . لقد سبق لرازوموف أن
دخل مرتين إلى تلك الشقة ذات الغرف الكثيرة المعتمة في طابق علوي :
زجاج نوافذ مغطى بالغبار ، ركاب من كل أنواع النفايات في كل أرجاء
المتزل ، كؤوس نصف ممتلئة بالشاي منسية فوق كل طاولة ، وابنتا
لاسيبارا تطوفان في أرجاء المكان صامتتين على نحو مبهم ، بعيون ناصعة ،
ودون مشدّات ، وهما في قباحتهما وفوضى ملبسهما تشبهان دميّتين
عجوزين . أما جوليموس العظيم المغمور ، وقدماه ملويتان حول كرسيه الواطئ
ذي الأرجل الثلاث ، فكان جاهزاً على الدوام لاستقبال الزوار ، وهو
يضع القلم جانباً ، وجسده ملتو ، ممّا يظهر الجبين العالي على نحو مدهش ،
وكذلك اللحية الكالحة العظيمة : حين نزل عن كرسيه ، كان كمن
يتزل من قمة جبل أوليمبوس . كان يبدو قزماً أمام ابنتيه والأثاث ،
وأمام أي زائر ذي طول حادي . ولكنه كان نادراً ما يخادر كرهيه ،
ونادراً ما كان يُسرى وهو يمشي نهراً .

لا شك أنها كانت مسألة ذات أهمية كبرى تلك التي أخرجته
ليسير في ذلك الاتجاه عصر هذا اليوم . لا شك أنه كان يودّ أن يلاطف
ذلك الشاب الذي أثار وصوله بعض الضجة في عالم اللاجئين السياسيين .
وقد سأل رازوموف بالروسية الآن - وهي لغة يتقنها كما يتقن لفظاً
وكتابة أربع أو خمس لغات أوروبية أخرى - دون تمييز وحين تكلف

(باسمثناء التكلّف الخاص بالطعن بالناس) ، سأله ان كان قد سجل نفسه في الجامعة أم ليس بعد . وقد أجابه الشاب بأن هز رأسه علامة النفي .

— لا يزال هناك الكثير من الوقت لذلك . ولكن في هذه الأثناء ،
أن تكتب لنا شيئاً ؟

لم يكن قادراً على أن يفهم كيف يمكن لأي شخص أن يحجم عن كتابة أي شيء ، سواء كان اجتماعياً أم اقتصادياً أم تاريخياً . . . أي شيء . أي موضوع يمكن أن يعالج بالروح الحقيقية ، وأصالح أهداف الثورة الاجتماعية . وان اه صديقاً في لندن اه علاقة بمجلة تنادي بالأفكار التقدمية .

— علينا أن نتقف ، نتقف الجميع . . . أن تطور الفكر العظيم ،
فكر الحرية المطلقة والعدالة الثورية .

غمغم رازوموف بفظاظة أنه لا يعرف الانكليزية حتى . . .
— اكتب بأرومية وسترجم لك . ليست هناك أية صعوبة . هجياً ،
إذا أردنا ألاّ نبتعد كثيراً فهناك الآنسة هالدين . تذهب بنتاي زيارتها
أحياناً .

وهنا أوما برأسه على نحو جدي وذوي مغزى وقال :

— انها لا تفعل شيئاً ، ولم تفعل أي شيء في حياتها . ستكون قادرة
على ذلك مع بعض المساعدة . اكتب فحسب . أنت تعرف أن عليك
ذلك . وذاها الآن .

رفع ذراعه وتابع السير . استند رازوموف إلى الجدار الواطيء وتابعه
بنظرة ، ثم بصق بعض وتابع وهو يغمغم بغضب :

— باليهودي اللعين !

لم يكن يعرف أي شيء حول الموضوع . من المحتمل أن يكون جوايوس لاسيارا من ترانسلفانيا أو تركيا أو الأندلس ، أو مواطناً من مواطني مدن الهانوس أو أي بلد آخر . ولكن هذه ليست حكاية عن الغرب ، ولا بدّ من تسجيل هذه الصرخة ، مرفقة بالتعليق القائل أنها كانت مجرد تعبير عن الحقد والازدراء ، كما كان يحسّ بهما رازوموف في ذلك الوقت بسبب طبيعة الشاعر التي كان يعانها . كان يغلي غضباً ، كأنما قد أهين إلى أكبر حد . سار يتخبط كالأعمى ، وهو يتبع غريزياً شاطئ الميناء الصغير على امتداد الرصيف ، ثم عبر الحديقة الكثيفة الجميلة ، حيث يجلس أشخاص كثيرون على الكراسي تحت الأشجار ، حتى زال عنه غضبه ، فاكتشف أنه في وسط جسر عريض طويل . خدّف من سيره فوراً . إلى يمينه ، خلف حواجز أشبه بالدمى ، شاهد المنحدرات الخضراء التي تؤطر « البحيرة الصغيرة » في كل الابتدال الرائع لمناظرها الجميلة المصنوعة من الورق المقوى ، مع الامتداد المائي البعيد المبتّ واللامع كقطعة من التنك .

أشاح برأسه بعيداً عن ذلك المنظر المخصّص للسواح ، ثم تابع المسير ببطء وعيناه مثبتتان على الأرض . كان على شخص أو شخصين أن يخرجوا من طريقه ، ثم التفتا إلى الخلف ليحدثا بدهشة إلى استغراقه العميق . كان الحناح الصحفي الشهير المدمّرين في ذهنه على نحو غريب : اكتب . عليك أن تكتب ! هو ! اكتب ! التمع نور مفاجيء في ذهنه : الكتابة كانت الأمر الذي قرر أن يفعله في ذلك اليوم . كان قد قرّر على نحو لا تراجع فيه أن يقوم بتلك الخطوة ، وها هو قد نسي الموضوع تماماً .

كانت تلك النزعة الشديدة نحو الهرب من قبضة الوضع الحالي مشحونة بالخطر الجدي . كان مستعداً لاحتقار نفسه بسبب ذلك . ما كان ذلك ؟ طيشاً أم ضعفاً عميقاً ؟ أم خوفاً لا واعياً ؟

رفض تلك الفرضية باحتقار ، ثم توقف عند حافة الرصيف واستعدّ لعبور الطريق والتقدّم نحو الشارع العريض المواجه لرأس الجسر . وكان ذلك دون أي سبب عدا أن تلك الطريق كانت أمامه . ولكن ما أن مرت عربتا ركاب ثم عربة يد بطيئة حتى التفت نحو اليسار فجأة وراح يتابع سيره على الرصيف انما بعيداً عن البحيرة .

فكّر وهو يسمح لنفسه بشكّ غير اعتيادي في صحة عقله : « قد يكون الأمر متعلقاً بصحتي البدنية . » فهو باستثناء مرض أو اثنين عانى منهما في الطفولة ، لم يمرض طوال حياته . ولكن كان في هذا خطر ما أيضاً وإن بدا الأمر كأنما كان يعتنى به بطريقة استثنائية جداً . فكّر مستمتعاً وبكآبة : « لو كنت أوّمن بعناية الهية فعالة لرأيت فيما حدث هنا آثار فاعل هازيء . أي أن يوضع في طريقي جوليوس لاسبارا كأنما ليذكّرني بوضوح بغرضي . . . قال لي اكتب . عليّ أن أكتب . . . عليّ بالفعل ! سأكتب ، لا تخشني أبداً ألاّ أكتب ، بكل تأكيد . لهذا أنا هنا . وسيكون لدي ما أكتب عنه للمستقبل . »

كان يثير نفسه بسبب هذه المناجاة الذهنية . ولكن فكرة الكتابة أبةظت فكرة مكان للكتابة ، مأوى أو مكان خصوصي ، وطبعاً كان ذلك متوفراً في مسكنه ، وكان ذلك الشعور ممتزجاً بكره ضرورة بذل الجهد للوصول إلى هناك ، وبشكّ في أنه قد ينتظره تأثير معاد بين تلك الجلودان الأربعة الكريمة .

سأل نفسه : « لنفترض أن أحد أولئك الثوريين كان سيخطر له أن يزورني خلال الكتابة ؟ » ان مجرد احتمال هذه المقاطعة جعلته يرتجف . يمكن للمرء أن يفضل عليه بابه ، أو يطلب من بائع التبغ في الطابق السفلي (وهو لاجيء مثله) أن يقول لمن يسأل عنه إنه ليس في البيت . ولكن هذه ليست احتياطات جيدة جداً . لقد أحس أن عليه أن يبقي أسلوب حياته نظيفاً من كل سبب يدعو إلى الشك أو حتى إلى فرصة للاستغراب ، وحتى مثل تلك المسألة التافهة ، مسألة التأخير في فتح باب مقتل . « أتمنى لو كنت في وسط حقل ما بعيداً مسافة أميال بجالها عن أي مكان . »

كان قد التفت نحو اليسار دون وعي مرة أخرى وأصبح مدركاً الآن أنه أصبح على جسر مرة أخرى . هذا الجسر كان أضيق من الآخر ، وبدلاً من أن يكون مستقيماً ، كان على شكل كوع أو زاوية . وعند رأس تلك الزاوية كانت ذراع قصيرة تربطها بجزيرة صغيرة سداسية الشكل مغطاة أرضها بالحصى ولها شواطئ مكسوة بأحجار مشدبة : كمال النظافة الصبانية . كان هناك زوج من شجر الحور وبضع أشجار أخرى تقف متجمعة على الحصى النظيف الداكن ، وتحتها بضع مقاعد من تلك الخاصة بالحدائق وتمثال برونزي بلان جاك روسو جالس على قاعدة . شيء فيه ادعاء ورداءة أيضاً . طلب كأس حليب شربه وهو واقف بجرعة واحدة : (لم يكن قد تناول سوى الشاي منذ الصباح) ، وكان يعتمد بخطوات منهكة بطيئة حين أوقفته فكرة ما . لقد وجد بالضبط ما كان يبحث عنه . اذا كانت العزاة أمراً ممكناً في الهواء الطلق في وسط مدينة ما ، فقد وجدها هنا على الجزيرة العجيبة ، مع امكانية مراقبة المعبر الوحيد إليها .

عاد بتناقل نحو أحد المقاعد ، وسقط فيه . كان هذا هو المكان الذي سيبدأ فيه كتابة ما يتوجب كتابته . كانت المواد معه . قال لنفسه : « سأتي إلى هنا دائماً . » ثم جلس فترة طويلة دون حراك ، دون تفكير أو رؤية أو سمع ، بل حتى دون حياة تقريباً . جلس فترة طويلة حتى غطست الشمس وراء أسطح المدينة خلف ظهره ، وأنقت بظل المنازل على مقدمة البحيرة أمام الجزيرة الصغيرة ، وذلك قبل أن يخرج من جيبه قلمه الخبر ويفتح دفتر ملاحظات صغيراً على ركبته ويبدأ بالكتابة بسرعة ، وهو يرفع عينيه بين الحين والآخر لينظر إلى الذراع الموصلة بالجسر . كانت هذه النظرات دون جدوى ، فقد كان العابرون من بعيد غير راغبين في النظر إلى الجزيرة الصغيرة حيث كان التمثال النصفي لمؤلف « العقد الاجتماعي » جالساً على العرش من فوق الرأس المنحني لرازوموف في سكون البرونز الكثيب . وبعد أن أنهى كتابته ، أخفي رازوموف قلمه بسرعة محمومة ثم دسّ دفتره في جيبه ، بعد أن مزق أولاً الصفحات المكتوبة بغلظة مصحوبة بتشنج . ولكنه طوى الورقة الرقيقة على ركبته بركة وتفكير . وبعد أن تم ذلك استند إلى الخلف وهو جالس في مقعده وبقي دون حراك وهو ممسك بالأوراق في يده اليسرى . كان الغسق قد أصبح أكثر قتامة . نهض وبدأ بذرع المكان جيئة وذهاباً تحت الأشجار .

فكّر في نفسه : « لاشك أنني أصبحت في أمان الآن . » كانت أذنه الحساسة قادرة على سماع المهمات الضعيفة للتيار وهو يتحطّم على رأس الجزيرة ، ثم نسي نفسه وهو يصغي إليها باهتمام . ولكن حتى بالنسبة إلى حاسة سمعه الحادة فان الصوت كان محيراً جداً .

غمغم : « يا لها من مهنة غريبة أكرّس نفسي لها . » ثم خطر له أن هذا هو الصوت الوحيد تقريباً الذي يصغي إليه ببراعة ، ولأجل همتته الخاصة . أجل ، صوت الماء ، صوت الريح . . . الغريبان تماماً عن العواطف الانسانية . كل أصوات الأرض الأخرى كانت تجلب التلوث إلى عزلة الروح .

كان هذا هو شعور السيد رازوموف ، والروح المقصودة هي بالطبع روحه هو ، والكلمة لا تستعمل هنا بمعناها الديني ، بل تمثل ذلك الجزء من السيد رازوموف الذي ليس جسده ، وذلك كما فهمت الموضوع ، وهي واقعة تحت خطر نيران هذه الأرض . ولا بدّ من الاقرار بأنه في حالة السيد رازوموف فان مرارة العزلة التي كان يعاني منها لم تكن ظاهرة مرّضية تماماً .

• • •

أجزاء الرابع

- اولا -

إذا كنت سأذكر في بداية هذه الاستعادة لحوادث الماضي ولمرة أخرى أن السيد رازوموف قضى يفاعته دون أن يكون له أحد في هذا العالم ، لا أحد في هذا العالم ، وبالمعنى الحرفي للكلمة ، كما يمكن أن يشهد على ذلك بصدق أي كائن بشري ، فانها واقعة تصدر عن رجل يؤمن بالقيمة السيكولوجية للحقائق . وهناك على الأرجح رغبة في العدل الحريص على الشكليات . وبما أنني لا أتماثل مع أي شخص في هذه الحكاية البعيدة فيها مظاهر الشرف والعار عن أفكار العالم الغربي ، وبما أنني أتخذ موقفني على أساس انساني شامل ، فاني أشعر ، لهذا السبب بالذات ، بتردد غريب في أن أبيت بصراحة هنا ما الذي اكتشفته القراء جميعاً بأنفسهم . مثل هذا التردد قد يظهر غريباً لولا فكرة أنه بسبب لاكمال اللغة فان هناك على الدوام شيء كريبه (بل مشين حتى) في عرض الحقيقة العارية . ولكن لقد آن الأوان لظهور مستشار الدولة ميكولين حيث ما عاد ممكناً تجاهله . كان سؤاله البسيط : « ولكن إلى أين ؟ » الذي تركنا عنده رازوموف في سانت سبورغ ، يلقي ضوءاً على المغزى العام لهذه القضية الفردية .

كان السؤال القائل : « ولكن إلى أين ؟ » هو رد في شكل سؤال لطيف على ما يمكن أن نسميه إعلان استقلال السيد رازوموف . لم يكن السؤال يحمل لهجة الوعيد اطلاقاً ، بل كانت له رنة السؤال البريء

بالفعل . ولو فهمنا الأمر بالمعنى الطبوغرافي لكان الرد الوحيد على ذلك سيبدو كريبها للسيد رازوموف . إلى أين ؟ سيعود إلى غرفته من حيث أخرجته « الثورة » لتختبر فبجأة غرائزه الهاجعة ، وأفكاره نصف الواعية وطموحاته اللاواعية تقريباً ، بلمسة أشبه بلمسة دين عنيف دوغمائي ، بكل مناداته بالتمصحيات المسعورة أو استسلاماته الرقيقة ، وأحلامه وآماله التي ترقى بالروح إلى جانب أكثر نوبات اليأس كآبة . كان السيد رازوموف قد ترك مقبض الباب وعاد إلى منتصف الغرفة وهو يسأل المستشار ميكولين بغضب :

— ما الذي تعنيه بذلك ؟

ضمن حدود معرفتي فان المستشار ميكولين لم يجب على ذلك السؤال . لقد جرّ السيد رازوموف إلى حوار حميم . انها خاصية الطبيعة الروسية أنه مهما كان الروس منخرطين في دراما الحدث ، الا أنهم يصغون إلى مهمة الأفكار المجردة . هذا الحوار (وغيره فيما بعد) لا حاجة إلى تسجيله هنا . يكفي أن نقول انه قد وضع السيد رازوموف كما نعرفه تحت اختبار ولاء آخر . ليس هناك أي شيء رسمي في هذا التعبير ، وقد اضطر السيد رازوموف إلى الدفاع عن موقفه الاستقلالي . ولكن المستشار ميكولين رفض كل البراهين . كانت آخر كلماته الخطيرة في ذلك الحوار : « بالنسبة إلى شخص مثلك ، فان هذا الموقف مستحيل . لا تنس أني رأيت تلك القطعة الهامة من الورق . أنهم ليبراليتك . ليس لدي مثل ذلك الفكر . الاصلاح بالنسبة إليّ هو مسألة فهم في الأساس . ولكن مبدأ التمرد عبارة عن ثمالة جسدية ، نوع من الهيستيريا التي يجب أن تبقى بعيدة عن الجماهير . أنت توافق على هذا دون تحفظ ،

أليس كذلك؟ لأنه كما ترى يا كيريلو سيدوروفيتش ، فإن الامتناع
والتحفظ في مواقف معينة تقرب كثيراً من الجريمة السياسية . لقد فهم
الاغريق القدماء ذلك جيداً .

سأل السيد رازوموف بابتسامة خفيفة المستشار ميكراين بصراحة
ان كان ذلك يعني انه كان قيد المراقبة .

لم يغضب الموظف الكبير من هذا السؤال التهكمي .
أجاب بجدية :

— لا يا كيريلو سيدوروفيتش . لا أعني أنني أضعلك قيد المراقبة .
ولكن رازوموف الذي انتابه الشك في أنه يكذب عليه ، تظاهر بأكثر
حرية ذهنية خلال النتره القصيرة التي تبقت من ذلك الحوار . عبّر
الرجل الأكبر سناً عن نفسه بلغة حميمة ، وبنوع من البساطة اللاذعة .
استنتج رازوموف أن الوصول إلى عمق ذلك الذهن كان عملاً مستحيلاً .
جعل قلبه كبير يلقى بسرعة أكبر . ثم خرج الموظف الكبير من
خاف مكتبه وكان يعرض يده فعلاً ليصافح رازوموف .

— وداعاً يا سيد رازوموف . ان التناهم بين الرجال الأذكياء حادثة
مرضية دائماً . أليس كذلك؟ وبالطبع فان هؤلاء السادة المتمرّدون لا
يحتكرون الذكاء .

طرح رازوموف سؤالاً بينما لا تزال يده في يد المستشار :

— أأفترض أنني لم أعد مطلوباً بعد الآن ؟

حرّر المستشار ميكواين يده ببطء .

قال بجدية كبيرة :

— هذا الأمر يا سيد رازوموف سيرك للصدفة . والله وحده هو العالم بالمستقبل . ولكن عليك أن تكون على ثقة من أنني لم أفكر أبداً في وضعك قيد المراقبة . أنت شاب على درجة كبيرة من الاستقلال . أجل . ستخرج من هنا حراً كالهواء ، ولكن سينتهي بك الأمر إلى العودة إلينا .

عبر رازوموف عن احتجاجه بهممة فزعة :

— أنا ! أنا ؟

ثم أضاف بصوت واهن :

— ولماذا ؟

قال موظف الشرطة الكبير ملحاً بقنائة بطيئة وقاسية :

— أجل ! أنت بنفسك يا كيريلو سيدوروفيتش . ستعود إلينا .

إن على بعض أصحاب أعظم العقول لدينا أن يفعلوا ذلك في النهاية .

كرّر رازوموف بصوت مذهول :

— أعظم العقول لدينا .

— أجل وبالفعل . أعظم العقول . . . وداعاً .

بعد أن أوصل رازوموف إلى خارج الغرفة سار مبتعداً عن الباب . ولكنه قبل أن يصل إلى نهاية الممرّ سمع خطوات ثقيلة ، وسمع صوتاً يناديه طالباً منه الوقوف . التفت برأسه وقد ذهل حين رأى المستشار ميكولين يلاحقه شخصياً . هرع الموظف الكبير ، ببساطة وبأنفاس لاهثة .

— دقيقة واحدة . فيما يخص ما كنا نتحدث عنه للتوّ ، ستكون

تلك حسب مشيئة الرب . ولكن قد تسنح الفرصة وأستدعيك من جديد .

تبدو مندهشاً يا كيريلو سيدوروفيتش . أجل ، مرة أخرى . . . وذلك لتوضيح أي مسألة أخرى قد تبرز معنا لاحقاً .

تلعلم رازوموف قائلاً :

– ولكني لا أعرف شيئاً ، ولا يمكن لي أن أعرف شيئاً .

– ومن يستطيع أن يعرف ؟ الأمور مرتبة بأسلوب رائع . من الذي يعرف ما قد يتكشف لك قبل أن ينتهي هذا اليوم . لقد سبق لك وكنت أداة الإرادة الربانية . أنت تبتم يا كيريلو سيدوروفيتش . أنت « فو روح قوية » (٥) (لم يكن رازوموف قد أدرك أنه كان يبتسم .) ولكنني أو من تماماً بالإرادة الربانية . ان مثل هذا الاعتراف يصدر من شفهي موظف عجوز مثلي قد يبدو لك مضحكاً . ولكن أنت نفسك ستدرك يوماً . . . أو أن ما حدث لك لا يمكن أن يؤخذ في الاعتبار . أجل ، لا شك أنني سأراك مرة أخرى ولكن ليس هنا . لن يكون ذلك . . . هم . . . م . . . سيتم ابلاغك بمكان مناسب للقاء وسيكون من الأفضل أن يتم التواصل الخطي بيننا في هذا الخصوص أو غيره عن طريق . . . لو كان لي أن أعبر عن ذلك بهذا الأسلوب : عن طريق صديقنا المشترك ، « الأمير ك . . . » . والآن أرجوك يا كيريلو سيدوروفيتش . . . كلا أنا واثق أنه سيوافق . عليك أن تمنحني الثقة بأنك تدرك ما أقوله . ليس لديك من صديق أفضل من « الأمير ك . . . » ، أما بالنسبة إلي فإني لم أتشرف منذ زمن طويل بهذا . . .
نظري إلى الأسفل عبر لحية .

(٥) وردت بالفرنسية . (المترجم)

- لن أؤخرك أكثر من ذلك . نحن نعيش في أوقات عصبية ،
أوقات الأوهام الرهيبة والأحلام الشريرة والحماقات الاجرامية . لا شك
أننا سنتقابل مرة أخرى . قد يمرّ بعض الوقت على أية حال قبل أن يحدث
ذلك . وحتى ذلك الحين إذن فلترسل لك السماء تأملات مشمرة !

ما أن أصبح في الشارع ، حتى أسرع رازوموف في سيره دون أن
يكثرث بالاتجاه . في البداية لم يفكر في شيء ، ولكنه خلال فترة قصيرة
عاد إلى وعيه بمواقفه وكان أمراً بشعاً وخطيراً وغريباً ، وكانت هناك
صعوبة تحرير نفسه من شرك ذلك التعقيد المستعصي على الحل ، بحيث
أن فكرة العودة و « الاعتراف » ، كما اصطلح على تسميته بنفسه ،
الاعتراف للمستشار ميكواين ، التمعت في ذهنه .

العودة ! لماذا ؟ الاعتراف ! الاعتراف بماذا ؟ قال لنفسه بصدق
كامل : « لقد تحدثت إليه بأعظم الصراحة . ماذا لديّ أيضاً لأضيفه ؟
أني قد أخذت على عاتقي نقل رسالة إلى ذلك الوحش زيميانيتش ؟
أن أزيّف اشتراكاً كاذباً في الجريمة وأدمر أية فرصة في السلامة التي
كسبتها لقاء لا شيء يا لها من حماقة ! »

ومع ذلك لم يستطع أن يمنع نفسه عن تخيّل أن المستشار ميكواين
كان على الأرجح الشخص الوحيد في العالم القادر على فهم سلوكه . كان
أمراً أسراً بالنسبة إليه أن يكون مفهوماً .

في طريقه إلى البيت كان عليه أن يتوقف مرات عدة . بدا له أن
قوته كلها قد نفذت من أعضائه . وفي الحركة التي رآها في الشوارع
المزدحمة ، وهو المعزول كمن في الصحراء ، بقي فجأة دون حراك

لمدة دقيقة أو نحوها قبل أن يستطيع متابعة السير . ولكنه وصل إلى غرفته أخيراً .

ثم أحس برضاً ما ، بشيء أشبه بحمى خفيفة ، نقلته على الفور إلى مسافة بعيدة عن الحاضر المربك ، وعن غرفته بالذات حتى . لم يفقد الوعي أبداً ، بل بدا له أن يتواجد على نحو مضمّن ، في مكان بعيد جداً عن كل ما حدث له . خرج من هذه الحالة ببطء ، وببطء شديد ، رغم أن عدد الأيام لم يكن كبيراً جداً . وحين عاد إلى وسط الأشياء كانت كلها قد تغيرت في طبيعتها على نحو دقيق وهفيظ : الجمادات ، الوجوه البشرية ، صاحبة المنزل ، الخادم الريفية ، الدرج ، الشوارع ، وحتى الهواء نفسه . عالج هذه الشروط المتغيرة بروح تتميز بالتجهّم . سار من الجامعة وإليها ، صعد الأدراج ، ذرع الممرات ، أصغى إلى المحاضرات ، كتب الملاحظات وعبر الباحث بعزلة غامضة ، وأسنازه مطبقة حتى آلمه فكاه .

كان واعياً تماماً بوجود « كوستيا الطائش » وهو يحدّق إليه من مسافة ككلب صيد صغير ، وبالطالب المجوع ذي الأنف الأحمر الكئيب ، الذي بقي بعيداً مطبقاً التعليمات بدقة ، وبعشرين آخرين ربما كان على معرفة كافية بهم ليتحدث معهم . وكان يبدو على الجميع الفضول والاهتمام كأنما هم يتوقّعون أن يحدث شيء ما . فكر رازوموف أكثر من مرة : « لا يمكن لهذا أن يدوم أكثر من ذلك . » في أيام معينة كان يخشى أن يقوم أحدهم بمخاطبته فجأة وبطريقة ما فيجعله يصرخ بجنون قاذفاً بالاشتائم القنطرة . وغالباً ، كان يسقط بعد عودته إلى البيت في كرسي وهو لا يزال يرتدي قبعته وعباءته ، ويبقى ساكناً ساعات بحالها

ممسكاً بكتاب جلبيه من المكتبة ، أو يمسك بموسى صغيرة ويروح يكشط
أظافره إلى ما لا نهاية وهو يشعر بالغضب طوال الوقت . كان يغمغم فهجأة
مخاطباً الغرفة الفارغة : « هذا مستحيل » .

واقعة لا بد من ذكرها : ربما أصبحت هذه الغرفة - وهذا أمر
ممكن تخيلاً - منتشرة له ، غير محتمة عاطفياً وغير قابلة للسكن معنوياً .
ولكن لا . لا شيء من هذا القبيل (وهو نفسه كان يخشى ذلك في
البداية) ، لا شيء من هذا القبيل قد حدث . بل على العكس من ذلك ،
اذ كان يجب مسكنه أكثر من أي مأوى آخر سبق أن استأجره من قبل ،
وهو الذي لم يعرف له بيتاً طوال عمره ، كان يجب مسكنه كثيراً إلى
حد أنه في هذا الاعتبار كان .. صعوبة في أن يقرر الخروج منه . كان
ذلك أشبه باغراء مادتي كذلك الاغراء الذي يجعل المرء يتردد في أن
يغادر مكانه إلى قرب النار في يوم بارد .

فطالما لم يكن يتحرك في ذلك الوقت الا ليذهب إلى الجامعة (وما ذا
كان لديه غير ذلك يفعله ؟) فانه حين كان يغادر المسكن كان يشعر على
الفور أنه متورط في النتائج الأخلاقية لما فعله . هناك كان النقل الكئيب
لسر هالدين يسقط عايه ، ويلتصق به كحبل سام كان مستحيلاً انتزاعه .
كان يعاني من ذلك بشدة ، وكذلك من تبادل حوارى ، عادي ، متعذر
تجنبه مع ذلك النوع الآخر من الطلاب . « لا شك أنهم يتساءلون حول
هذا التغيير في شخصي . » هذا ما كان يفكر فيه بقلق . كان يتذكر بقلق
أنه شتم طالباً أو طالبين بريئين ولطيفين قائلاً لهما أن يذهبا إلى الشيطان .
ومرة خاطبه أستاذ متزوج ، كان من عادته أن يزوره سابقاً وذلك خلال
مروره به قائلاً : « لماذا لم نعد نراك في أيام الأربعاء يا كيرويلو
سيدوروفيتش ؟ » كان رازوموف واعياً أنه أجاب على هذه الحركة بجملة

كريمة مغممة . وقد دهش الأسياذ كثيراً بل أحس بالإهانة . كل هذا كان شيئاً . وكل هذا بسبب هالدين ، هالدين دائماً . . . لا شيء سوى هالدين . . . هالدين في كل مكان : شبح أخلاقي يصبح أكثر فعالية إلى حد مطلق من أي شبح مرئي للمتوفي . تلك الغرفة التي تختبئ فيها ذلك الرجل في طريقه من الجريمة إلى الموت ، هناك فحسب لم يكن الشبح قادراً على التردد عليها . ولو توخينا الدقة لقلنا انه لم يكن غائباً تماماً عنها ، ولكن لم تكن له هناك أية سلطة . ففيها كانت لرازوموف اليد العليا ، بسبب تفوقه . انه شبح مهزوم . . . لا شيء أكثر من ذلك . في المساء وبينما تكون ساعته المصلحة التي تدقّ بصوت واهن موضوعة على الطاولة قرب مصباح مضاء ، غالباً ما كان رازوموف ينظر من حيث كان يكتب ويحدق إلى السرير باهتمام مترقب هادئ . ما كان ممكناً مشاهدة أي شيء هناك . لم يفترض فعلاً أنه يمكن له أن يرى أي شيء هناك . وبعد فترة كان يهزّ كتفيه بخنّة ويعود لينكبّ على عمله . فهو قد جلس ليعمل في البداية ، وبعرض النجاح . كانت لا رغبته في ترك المكان الذي كان يشعر فيه بالأمان من هالدين قد أصبحت قوية جداً مؤخراً بحيث توقف عن الخروج اطلاقاً . منذ الصباح الباكر وحتى فترة متأخرة من الليل كان يكتب ، وقد راح يكتب لمدة أسبوع دون أن ينظر إلى الوقت ، بل كان يرمي بنفسه على السرير وذلك حين لا يعود قادراً على فتح عينيه . ثم ، في عصر أحد الأيام ، نظر بالصدفة إلى ساعته . وعندها وضع قلمه على الطاولة .

فكّر كما يلي : « في مثل هذه الساعة تسأل الشخص دون أن يراه أحد إلى هذه الغرفة بينما كنت في الخارج . وقد جلس هناك بهدوء كضارة . . . ربما على هذا الكرسي بالمئات . »

نهض رازوموف وبدأ يذرع الغرفة بثبات ، وهو ينظر إلى الساعة بين الحين والآخر . « في مثل هذه الساعة عدت فوجدته واقفاً عند المدفأة . » هذا ما قاله في نفسه . وحين خيم الظلام أشعل مصباحه . وبعد فترة أوقف سيره مرة أخرى وذلك ليلوح بيده بغضب للخادم التي حاولت دخول الغرفة بالشاي وبعض الطعام على صينية . وقد لاحظ الآن أن الساعة كانت تشير إلى الوقت الذي خرج فيه تحت الثلج المنهمر ليفقد تلك المهمة الرهيبة .

غمغم بوهن : « اشترك في جريمة » ، ثم استأنف ذرعه للغرفة وعينه اثبتتان على عقارب الساعة وهي تزحف ببطء لتشير إلى وقت عودته .

فكر فجأة : « وعلى أية حال ، فلربما كنت بالفعل أداة القضاء الالهي . هذا نوع من انواع الكلام ، ولكن قد تكمن الحقيقة في كل نوع من أنواع الكلام ، ماذا لو كان ذلك القول العجيب صحيحاً في جوهره ؟

فكر لفترة ثم جلس وبساقين ممدودتين وعينين متحجرتين ، وذراعين مدلتين على كل جانب من جانبي الكرسي كرجل هجرته الارادة الإلهية تماماً . . . رجل بائس متوحّد .

لاحظ أن عقارب الساعة أشارت إلى وقت رحيل هالدين ولكنه استمر في الجلوس مدة نصف ساعة أخرى ، ثم غمغم : « والآن إلى العمل . » ثم اقترب من الطاولة وأمسك بالقلم ثم رماه فوراً تحت تأثير فكرة مقلقة جداً : « مضت ثلاثة أسابيع دون أن يصلني شيء من ميكولين . »

ما الذي كان يعنيه ذلك؟ هل تم نسيانه؟ ربما . ثم لماذا لا يبقى منسياً فيزحف إلى مكان ما؟ يختبئ . ولكن أين؟ كيف؟ مع من؟ في أي جحر؟ وهل سيكون ذلك إلى الأبد أم ماذا؟

ولكن الالتجاء كان مترعاً بالمخاطر الشبحية . فعين الثورة الاجتماعية مساطة عليه ، وأحس رازوموف للحظة بخوف مجهول يثير اليأس في قلبه ، وقد اختلط باحساس كرهه بالذل . هل كان ممكناً أنه لم يمد يده يمتدح إلى نفسه بعد الآن؟ كان ذلك أمراً لعيناً . ولكن لماذا لا يواظب على المنوال نفسه؟ أن يدرس . أن يتقدم . أن يجتهد كأنما لم يحدث أي شيء (وأن يكسب أولاً وقبل كل شيء الميدالية الفضية) وينال التمييز ويصبح خادماً كبيراً ومصالحاً لأعظم الدول ، وخادماً أيضاً لأقوى تجمع بشري متجانس التكوين ذي قدرة على التطوير المنطقي الموجه في تضامن أخوي يتميز بالقوة والهدف على نحو لم يحلم به العالم من قبل الروسية ! . . .

بهدهوء وتصميم وثبات . في عزمه العظيم ، مدّ يده نحو القلم ، ولكنه نظر صدفة إلى السرير ، اندفع نحوه غاضباً وهو يصرخ ذهنياً : « انه أنت أيها المتعصب المهجنون الذي يقف في طريقي ! » رمى بالوسادة على الأرض بعنف وشد البطانيات جانباً . . . لا شيء هناك . ثم أشاح بوجهه بعيداً فرأى لبرهة في الهواء ، كتفصيل حي في مشهد متلاش لرأسين ، عيني « الجنرال ت . . . » وعيني المستشار السري ميكواين ، جنباً إلى جنب ، مثبتة عليه ، مختلفة في صفاتها ، ولكن لها التعبير القاسي المتعب انما الهادف نفسه نخدم الأمة !

تعثر رازوموف نحو المغسلة وقد انزعج كثيراً ، شرب بعض الماء

ثم غسل جبينه . فكر بثقة : « سيمرّ هذا دون أن يترك أثراً . أنا على ما يرام . » ولكن أن يفترض أنه قد تم نسيانه ، فهذا هراء تام . انه رجل مشبوه . وكان ذلك لا شيء . كان ما يمثله ذلك الشبح البائس هو ما يتوجب ازاحته من الطريق . . . « لو أني أستطيع فحسب أن أذهب وأبصق الأمر كله بصراحة على بعضهم . . . وأتحمل بعد ذلك النتائج . »

تخيّل نفسه وهو يبادر الطالب ذا الأنف الأحمر ويهزّ قبضته في وجهه . ثم فكّر : « لا يمكن الوصول إلى أي شيء عبر ذلك الشخص ، لأنه لا يملك ذهناً خاصاً به . انه يعيش في نوبة ديموقراطية حمراء . آه ! أنت تريد أن تشقّ طريقك إلى سعادة كونية شاملة يا ولدي . سأمنحك سعادة كونية شاملة أيها الغول الأحمق ! وماذا عن سعادتني أنا ؟ أليس لي الحق في السعادة لمجرد أني أستطيع أن أفكّر على نحو مستقل ؟ . . . »

ومن جديد ، ولكن بلهجة ذهنية مختلفة ، قال رازوموف لنفسه : « أنا شاب . كل شيء يمكن أن يُنسى مع مرور السنين . » في تلك اللحظة كان يعبر الغرفة ببطء وهو ينوي أن يجلس على الأريكة ويحاول أن يهدّيء من خواطره . ولكنه قبل أن يصل إليها تخلّى عن كل شيء : الأمل والشجاعة والايمان بنفسه والثقة في الناس . لقد أفرغ قلبه نفسه فجأة . لم تكن هناك فائدة ترجى من الاستمرار بالنضال . الراحة والعمل والعزلة وصراحة التعامل مع الناس كانت كلها محظورة عليه . لقد ولّى كل شيء . تحوّل وجوده إلى فراغ بارد ، شيء ما أشبه بسهل هائل ، سهل روسيا كلها ، وقد سوّى بالثلج وراح يبهت تدريجياً من كل الجوانب متحولاً إلى ظلال وسديم .

جلس برأس دائخة ، وأغلق عينيه وبقي على هذه الحال ، جالساً كالسهم استقامة على الأريكة ومستيقظاً تماماً بقية الليل ، حتى دخلت الخادم إلى الغرفة الخارجية مثيرة الضجة وحاملة الساموفار ، ثم دقت بقبضتها على الباب وهي تنادي :

— كيريلو سيدوروفيتش ، من فضلك . لقد حان وقت النهوض من الفراش .

عند ذلك ، أطاع رازوموف نداءات القدر المخيفة شاحباً كشبح ، وفتح عينيه ونهض .

* * *

لن يُدهش أحد إذا ما سمع ، على ما أفترض ، أنه حين تم استدعاء رازوموف ذهب هذا ليقابل المستشار ميكواين . لقد وصل الاستدعاء في ذلك الصباح بالذات ، بينما كان يخلق لحيته ويبدو شاحباً مرتجفاً كمريض خرج لتوه من الفراش . كانت الكتابة على المغلف بيد المحامي ضئيل الجسم . وكان هذا المغلف يحتوي على آخر معنون باسمه بخط يد « الأمير ك . . . » وكتب عليه « يرجى توجيهه فوراً ضمن مغلف آخر . » أما الرسالة التي في الداخل فكانت بخط يد المستشار ميكواين . وقد أفاد الكاتب بصراحة أنه لا شيء جديد. يتوجب توضيحه ، ولكنه حدّد مع ذلك موعداً مع السيد رازوموف في عنوان معين في المدينة يبدو أنه عنوان طبيب عيون .

قرأها رازوموف ، ثم أنهى الحلاقة وارتدى ملابسه ، ونظر إلى الرسالة مرة أخرى وغمغم بكآبة : « طبيب عيون . » فكّر في ذلك لفترة من الزمن ، وأشعل عود كبريت ثم أحرق المغلفين والرسالة

بمناية . وبعد ذلك راح ينتظر وهو جالس دون حراك من غير أن ينتظر إلى أي شيء معين حتى اقترب الموعد ثم خرج .

لا نعرف ان كان قد فكّر في الإحجام عن الذهاب إلى ذلك الموعد بسبب صفته اللارسمية . على الأرجح فان ذلك لم يحدث . وعلى أية حال فقد ذهب ، وعلاوة على ذلك ، فقد ذهب بلهفة معينة قد تبدو غير قابلة للتصديق إلاّ اذا تذكرنا أن المستشار ميكولين كان الشخص الوحيد على الأرض الذي يستطيع رازوموف أن يحادثه على أساس أن قضية هالدين أمر مفروغ منه . وما أن يكون هالدين أمراً مفروغاً منه لا يعود شبحاً منتاباً مولداً الأكاذيب . ومهما كانت القوة المزعجة التي يستطيع الشبح أن يمارسها في كل بقعة من بقاع الأرض ، إلاّ أن رازوموف كان يعرف جيداً أنه في عيادة طبيب العيون هذا سيكون مجرد قاتل « السيد دو . . . » المنفذ به حكم الاعدام شتقاً ، ولا شيء آخر . فالمتى لا يمكن أن يعيشوا إلاّ بتلك الكثافة والنوعية الحية التين يضيفيهما عليهم الأحياء . لذا ، ذهب السيد رازوموف ، وهو واثق من الفرج ، لمقابلة المستشار ميكولين ، وذلك بلهفة الشخص الملاحق الذي يرحّب بأي مأوى .

بعد أن قلنا ما قلناه لم تعد هنالك حاجة إلى قول المزيد عن ذلك اللقاء الأول واللقاءات الأخرى العديدة بالنسبة إلى المبادئ الأخلاقية الخاصة بالقارئ الغربي فان وصفاً لهذه اللقاءات سيرتدي ربما لبوس الغرابة التي تميّز الحكايات الأسطورية القديمة حيث يقوم « عدو البشرية » بحوارات كاذبة لطيفة مع روح تم اغراؤها . ليس دوري هو دور المحتجّ . ولكن اسمحوا لي أن أقول إن « الشيطان » ، بعاطفته الوحيدة ذات الغرور الشيطاني

المركزة على دافع واحد ، قد يسمح له ضمن منظور أوسع وأكثر عصرية أن يكون أقل سواداً مما يُصوّر عادة . لكم علينا إذن أن نكون أكثر تسامحاً حين نقيّم الصبغة الحقيقية للرجل الفاني العادي ، بعواطفه الكثيرة وبراعته البائسة في ارتكاب الأخطاء ، والمبهور دائماً بالمعان الحقةير للدوافع المختلطة والذي تخونه على الدوام حكمة قصيرة النظر .

كان المستشار ميكولين واحداً من أولئك الموظفين الأقوياء الذين كانوا يمارسون تأثيراً كبيراً على الأساليب وليس بالأحرى على سير الأمور وذلك بسبب وجوده في مركز ليس بالمغمور ، وليس بالسري ، إنما ببساطة غير واضح . الولاء للكنيسة والعرش ليس بحذاته عاطفة اجرامية . ان تفضيل ارادة الشخص الواحد مقابل ارادة كثيرين لا ينم عن امتلاك قلب أسود أو يبرهن على غياب فطري . لم يكن المستشار ميكولين موظفاً ذكياً فحسب بل ومخلصاً أيضاً . كان عازباً يحب الراحة ، ويعيش وحيداً في شقة من خمس غرف، مؤهبة على نحو فاخر ، وكان معروفاً لدى أصدقائه المقربين بأنه واع متنور لفن الرقص النسائي . ولاحقاً سمع به العالم أولاً في ساعة سقوطه بالذات ، خلال احدي محاكمات الدولة التي تذهل وتدهش الشخص العادي من قراءة الصحف بلمحة من المؤامرات المفاجئة . فخلال اضطراب فظاعات غامضة ، في ذلك الجيشان المؤقت الغامض في المياه العكرة ، هوى المستشار ميكولين مبهتلاً ، مع احتجاج هادي رائع بأنه بريء . . . ولا شيء آخر . لم يجر أي فضح يسيء إلى حكم فردي استبدادي منتهك ، اخلاص كامل لأسرار الدولة العليا البائسة المودعة في صدره الوطني . عرض « رواقية » بيروقراطية في احتقار يكاد يكون سامياً ومتعذراً استثنائه ، احتقار موظف روسي

كبير للحقيقة ، « رواقية » الصمت المفهوم من قبل القلة القليلة من المطلعين فحسب ، وليس دون عظمة تهكمية معينة من جانب الشخص المترف المنغمس في الملذات . فالعقوبة الشديدة جداً حولت المستشار ميكولين مدنياً إلى جثة وفعلياً إلى شيء ما أشبه كثيراً بالمحكوم العادي .

يبدو أن الحكم الفردي المستبد الوحشي ، لا يقصر غذاءه على أجساد أعدائه فحسب شأنه في ذلك شأن الديموقراطية الالهية . فهو يلتهم أصدقاءه وخدمه أيضاً . كان سقوط صاحب السعادة غريغوري غريغوروفيفيتش ميكولين (الذي لم يحدث الا بعد سنوات) يُكْمِل كل ما هو معروف عن هذا الرجل . ولكن في الوقت الذي جرى فيه اغتيال « السيد دو . . . » (أو إعدامه) ، كان المستشار ميكولين ، تحت اللقب المتواضع « رئيس دائرة في السكرتاريا العامة » ، يمارس نفوذاً واسعاً على أنه موضع ثقة « الجنرال . . . » وبده اليمني ، وكانا زميلي دراسة وصديقي عمر . ويمكن للمرء أن يتخيلهما وهما يتحدثان عن قضية السيد رازوموف ، بكل مغزى سلطتهما المطلقة على حياة كل روسي ، بذلك الاحتقار الخاطف ، كما قد يفعل إلهان في جبل الأولمب وهما ينظران إلى دودة . كانت علاقته بـ « الأمير ك . . . » كافية لانقاذ رازوموف من اجراء اعتباطي طائش ، ومن المحتمل جداً على حدّ سواء أنه بعد اللقاء الذي جرى في السكرتاريا كان من الممكن أن يُترك شأنه . ما كان المستشار ميكولين لينساه (ما كان ينسى أحداً سبق له وراقبه) ، ولكن من الممكن أن يهمله إلى الأبد . كان المستشار ميكولين شخصاً طيب المعشر وما كان يرغب في ايلءاء أحد . وزيادة على ذلك (وبسبب من ميوله الاصلاحية) كان ذلك الطالب الشاب ، ابن « الأمير ك . . . » والذي لا يبدو أحمرق اطلاقاً ، قد ترك لديه انطباعاً جيداً .

ولكن شاء القدر أنه حين كان السيد رازوموف لا يجد أسلوباً
ممكناً له في هذه الحياة ، كانت قدرات المستشار ميكولين المتميزة قد
كوفئت بمركز يحمل مسؤولية كبيرة . . . لا شيء أقل من مدير الدائرة
المسؤولة عن أوروبا في رئاسة الشرطة . وعندها ، عندها فحسب ، ولدى
قيامه بتحسين الاجراءات الخاصة بمراقبة نشاطات الثوريين في الخارج ،
عاد ليتذكر السيد رازوموف . لقد رأى امكانية كبيرة في أن يكون لهذا
الشاب غير العادي فائدة خاصة ، هذا الشاب الذي سبق له وتفهمه ،
بمواجهه الغريب وذهنه غير المستقر وضميره المهزوز ، الذي يناضل واقعاً
في شباك موقع مزيف . . . كأنما كان الثوريون أنفسهم قد وضعوا في
يده تلك الأداة الأدق بكثير من الأدوات الشائعة الرديئة ، المجهزة على
نحو كامل ، هذا اذا ما منحت ثقة كافية ، للتغلغل إلى أماكن لا يمكن
للمخبرين العاديين الوصول إليها . انها يد الرب ! يد الرب ! و « الأمير
ك . . . » ، الذي ائتمن على هذا السر ، كان مستعداً تماماً لتبني وجهة
النظر الباطنية هذه أيضاً . كان قد اشترط بقلق : « سيكون من الضروري
على أية حال أن يتم ايجاد مهنة ما له لاحقاً . » وقد أبدته ميكولين قائلاً :
« أوه ! طبعاً . سنهتم بهذه القضية . » كان تأمل « الأمير ك . . . »
الباطني من النوع الساذج ، ولكن المستشار ميكولين كان داهية بما فيه
الكفاية عن شخصين .

غالباً ما يكون للأشياء والأشخاص حسّ ما ، جانب معين يجب أن
يتم الامساك بهم منه اذا أراد المرء أن يضبطهم جيداً ويسيطر عليهم تماماً .
كانت قوة المستشار ميكولين تتجلى في القدرة على معرفة ذلك الحسّ ،
ذلك الجانب من الناس الذي يمكن له أن يستغله . لم يكن يعنيه ما هو
ذاك . . . الغرور ، اليأس ، الحب ، الحقد ، الشره ، التبجح الغبي ،

التيه الأحمق بالذات... كان هذا كان سواء لديه طالما كان ممكناً جعل الشخص يخدمه . كان الطالب المغمور رازوموف ، الذي لا أقرباء له ، في لحظة الوحدة الأخلاقية العظمى ، قد سمح له أن يشعر بأنه كان موضع اهتمام مجموعة صغيرة من الناس ذوي المراكز العليا . وقد تم اقتناع « الأمير ك... » بأن يتدخل شخصياً ، وأن يستسلم في مناسبة معينة أمام انفعال رجولي أثار انزعاج السيد رازوموف بسبب كونه أمراً غير متوقع إطلاقاً . كان العناق المفاجيء لذلك الرجل ، الذي أثير بسبب إخلاصه للعرش والعاطفة الأبوية المكبوحة ، افشاء للسيد رازوموف بشيء ضمن صدره بالذات .

صاح في نفسه : « هكذا هو الأمر اذن ! » لطّف نوع من الرقة المترعة بالازدراء وجهة نظر الشاب الكثيرة بمركزه وهو يفكر بذلك اللقاء المتصف بالانارة مع « الأمير ك... » . رجل الحرس السابق المنصرف إلى الملذات الساذج التفكير هذا ، وعضو مجلس الشيوخ السابق ، والذي احتكّ شارباه الحديدان الرماديان الرسميان الناعمان بنحده ، أبوه الارستقراطي ذو القناعة ، هل كان أقلّ جدارة بالاحترام أو أكثر غرابة بقليل من ذلك الثوري المتعصب الذي عضّه الجوع ، ذلك الطالب ذو الأنف الأحمر ؟

وكان هناك بعض الضغط أيضاً ، إلى جانب القدرة على الاقتناع . لقد جعل السيد رازوموف يشعر باستمرار وكأنه قد أزم نفسه . ما كان هناك مهرب من ذلك الشعور ، من ذلك السؤال الرقيق غير القابل للاجابة : « إلى أين ؟ » الذي طرحه المستشار ميكولين . ولكن لم تُجرَح أية مشاعر إطلاقاً . كانت تلك مهمة خطيرة إلى جنيف للحصول ، في لحظة حرجة ، على معلومات موثوقة تماماً من جماعة من الحلقة الثورية

الداخلية يتعدّر الوصول إليها . كانت هناك تلميحات إلى وجود مؤامرات خطيرة جداً يجري اعدادها . . . فالأمن الضروري لدولة كبرى معرض للخطر . . . وكانت هناك خطة كبرى للقيام باصلاحات نظامية معرضة للخطر أيضاً . . . كانت أكبر الشخصيات في البلد تشعر بالقلق خشية على الوطن ، وهكذا دواليك . وباختصار ، كان المستشار ميكولين يعرف ما عليه أن يقوله . وهذه المهارة يمكن أن يستنتجها المرء بوضوح من مذكرات السيد رازوموف المتفصّلة بالتحليل الذاتي والاعتراف الذاتي الذهني والسيكولوجي . . . الملاذ المثير للشفقة لشاب ليس لديه من يلجأ إليه بأسراره ، ولا عاطفة طبيعية يلوذ بها .

أما كيف تم اخفاء كل هذا العمل التمهيدي عن أعين المراقبة فأمر لا حاجة إلى توضيحه . كانت ذريعة طبيب العيون مثلاً كافياً . فالمستشار ميكولين واسع الحيلة ، ولم تكن المهمة شديدة الصعوبة . كان مسموحاً لأي زميل لرازوموف ، وحتى صاحب الأنف الأحمر ذاك ، أن يرى السيد رازوموف وهو يدخل داراً خاصة ليستشير طبيب عيون . كان النجاح المطلق يعتمد على مسألة واحدة فحسب ألا وهي خداع الذات الذي وقع فيه الثوريون والذي كان يمنح رازوموف مشاركة غامضة في قضية هالدين . كان تورطه في تلك القضية شرفاً كافياً ، وكان ذلك من صنع الثوريين بالذات . كان « ذلك » بالضبط هو الذي طبع السيد رازوموف بطابع الشخص الذي تقف وراءه اليد الربانية وجعله بعيداً تماماً - - - ^{بوجهه قطبي} الأرض عن بعضهما - عن النمط العادي من العملاء المختصين : « المراقبة الأوربية » .

وكان « ذلك » بالضبط المهمة التي أخذتها السكرتاريا على عاتقها عن طريق القيام بأعمال طائشة ومحسوبة ومزيفة .

وقد وصل الأمر في النهاية إلى أن حدث في إحدى الأمسيات أن قام أحد الطلاب « المفكرين » بزيارة السيد رازوموف . وكان هذا الطالب من أولئك الطلاب الذين اعتاد هو أن يجتمع بهم في لقاءات خاصة عديدة قبل حادثة هالدين . وهو شخص ضخم الجثة له أسلوب هادىء غير متكلف وصوت لطيف .

ميزر رازوموف صوته في الغرفة الخارجية :

— هل لي أن أدخل ؟

قفز رازوموف من الأريكة التي كان يرتاح عليها بكسل وفكر بتهكم : « فلنترض أنه قادم ليطعني ؟ » ثم وضع رقعة خضراء على عينه اليسرى وقال بلهجة قاسية :

— ادخل .

أحس الآخر بالخرج وعبر عن أمله في أنه لا يزعجه في خلوته .

— لم نرك منذ أيام كثيرة ، وكنت أساءل عن السبب .

سعل قليلاً ثم سأل :

— هل عينك في حالة أفضل ؟

— كادت تشفى الآن .

-- حسناً . لن أتوقف أكثر من دقيقة ، ولكنك ترى أنني . . . أعني

أننا قد أخذنا على عاتقنا مهمة تحذيرك يا كبيريلو سيدوروفيتش من أنك تعيش في وضع أمان مزيف على الأرجح .

جلس رازوموف ساكناً ورأسه مسندة إلى يده ، ممّا كان يخفي عنه

المحجوبة .

– لديّ الفكرة نفسها أنا أيضاً .

– حسن اذن . كل شيء يبدو هادئاً الآن ، ولكن أولئك الأشخاص يحضرون لعملية قمع شاملة . هذه مسألة مفروغ منها . ولكنني لم أحضر إليك لأخبرك بذلك .

اقرب بكرسيه من رازوموف وأخفض صوته :

– سيتم اعتقالك قريباً ، هذا ما نخشاه .

كان هناك كاتب مغمور في السكرتاريا سمع كلمات قليلة من محادثة جرت هناك ، كما لم يسمح بسرعة خاطفة أحد التقارير . وما كان يتوجب اهمال مثل هذه المعلومات .

ضحك رازوموف قليلاً ، ولكن زائره أصبح قلقاً جداً .

– آخ ! يا كيريلو سيدوروفيتش ، هذه ليست مسألة تدعو الى الضحك . لقد تركوك وشأنك لفترة من الزمن ، ولكن . . . ! بالفعل ، الأجسر بك أن تحاول مغادرة البلاد يا كيريلو سيدوروفيتش بينما لا تزال الفرصة سانحة .

نهض رازوموف وبدأ يشكره على نصيحته بتدفق ساخر ، حتى أن الآخر ، الذي احمرّ وجهه ، خرج وهو يفكر في أن رازوموف الغامض ليس بالشخص الذي يتوجب تحذيره أو نصحه من قبل الأشخاص الأذني منزلة .

وحين تم ابلاغ المستشار ميكولين بهذه الحادثة في اليوم التالي عبر هذا عن رضاه .

– هم . . . م ا هاهه ا هذا ما كان مطلوباً بالضبط . . .

ثم نظر إلى الأسفل عبر لحيته .

قال رازوموف :

— أستنتج أن اللحظة قد حانت لأنطلق في مهمتي .

أبح المستشار ميكولين بلطف — بجاذية كبيرة — كأنما أصيب بالذرع :

— اللحظة السيكولوجية .

تمت كل الاجراءات التي توفر امكانيات مظاهر هرروب صعب . لم يتوقع المستشار ميكولين أن يرى السيد رازوموف مرة أخرى قبل رحيله . كانت تكمن في تلك اللقاءات مخاطرة كبيرة ، ولم يكن هناك شيء آخر تتوجب تسويته .

— لقد قلنا كل شيء واحدنا للآخر حتى الآن يا كبيريلو

سيدوروفيتش .

هنا ما قاله الموظف الكبير وهو يضغط على يد رازوموف بالموودة غير المتحيزة التي يمكن لروسي أن يعتبر عنها بأسلوبه الخاص ، وتابع :

— لا شيء غامض بيننا . وسأقول لك اني أعتبر نفسي محظوظاً في . . . التعرف . . . احم . . . عليك . . .

نظر إلى الأسفل عبر لحيته . وبعد لحظة من الصمت المتأمل ، سلم إلى رازوموف نصف ورقة من ورق الرسائل . . . ملاحظة مختصرة عن المسائل التي تمت مناقشتها ، بضع نقاط للسؤال عنها ، والأسلوب المتفق عليه . وبعض التلميحات المتعلقة بشخصيات معينة وغيره . كان تملك هي الوثيقة الوحيدة المعرضة للشبهة في هذه القضية ، ولكن كما قال المستشار ميكولين ، يمكن تدميرها بسهولة . والأفضل ألا يرى السيد

رازوموف أحداً الآن . . . حتى يصبح على الجانب الآخر من الحدود ،
وعندها سيكون عليه أن . . . يرى ويسمع و . . .

نظر إلى الأسنبل عبر لحيته ؛ ولكن حين صرح رازوموف بنيته في
لقاء شخص واحد على الأقل قبل مغادرة سانت بطرسبورغ ، لم يستطع
المستشار ميكولين أن يخفي انزعاجاً مفاجئاً . كانت الحياة المهددة ،
الوحدانية والملتزمة لهذا الشاب معروفة لديه . كانت تلك أعظم ضمانات
له على جدارته . ولكنه راح يستنكر الآن . هل وضع عزيزه كيريلو
سيانوروفيتش في الاعتبار أنه في سبيل مشروع عظيم كمشروعه فقد
كان أمراً مستحسناً للتضحية بكل عاطفة . . . ؟

قاطع رازوموف العتاب باحتقار . لم تكن تلك امرأة شابة بل شاباً
أحمق كان يرغب في أن يراه لغرض محدد . أحس المستشار ميكولين
بالراحة ، انما بالدهشة أيضاً .

— آه ! ولماذا . . . بالضبط ؟

— من أجل جعل الأمر كله أكثر قابلية للتصديق . يجب أن أكون
موثوقاً فيما أفعله .

هذا ما قاله رازوموف بفظاظة وهو يعبر عن رغبته في تأكيد
استقلاليته .

نراجع المستشار ميكولين بلباقة وهو يفهم :

— أوه بكل تأكيد . ان حكمتك على . . .

وبمصافحة أخرى افرقا .

كان ذلك الشاب الأحمق الذي كان السيد رازوموف يفكر به هو

الطالب الثري المرح المعروف بـ « كوستيا الطائش ». وبما أنه كان خفيف العقل ، مهذاراً ، سريع الاستثارة ، فقد كان ممكناً للمرء أن يكون على ثقة من طيشه المطلق الكامل . ولكن ذلك الشاب المشاغب ، حين ذكره رازوموف بعرضه الذي كان قد قدمه منذ بعض الوقت ، انتقل من حالة التيه المعتادة إلى النزاع الذي لا حدود له .

— أوه يا كيريلو سيدوروفيتش ، يا أعز الأصدقاء — يا مخلّصي — ما بوسهي أن أفعله ؟ لقد أنتقت الليلة الماضية كل روبل أخذته من أبي في اليوم السابق . ألا تستطيع امهالي حتى يوم الخميس ؟ سأهرع إلى كل المرابين الذي أعرفهم . . . لا ، طبعاً لا تستطيع ! لا تنظر إليّ هكذا . ما الذي سأفعله يا ترى ؟ لا مجال لطلب المساعدة من أبي . أقول لك انه أعطاني ملء قبضته من الأوراق النقاية الكبيرة منذ ثلاثة أيام . يالي من بائس .

راح ينرك يديه يائساً . من المستحيل الثقة بالأب .

--- لقد منحوه وساماً ، صليباً على العنق في العام الماضي فعسب . وهو يشتم النزعات العصرية منذ ذلك الحين . عندها كان مستعداً لرؤية كل مثقفي روسيا مشنوقين في صف واحد على أن يدفع روبلاً واحداً . انتظر لحظة واحدة يا كيريلو سيدوروفيتش . لا تحتقري . لقد عرفت الحل . سأفعلها . . . أجل . . . سأسرق من مكتبه . لا مفرّ من ذلك . أعرف الدرج الذي يحتفظ فيه بغنائمه ، وأستطيع شراء إزميل في طريقي إلى البيت . سيتمزج جداً دون شك ، ولكن أنت تعرف أن ذلك الغبي العجوز العزيز يجني فعلاً . سيكون عليه أن يتجاوز ذلك . . . وأنا أيضاً . يا كيريلو ، أيها الروح العزيزة ، اذا كنت تستطيع أن تنتظر

مجرد ساعات قليلة . . . حتى هذا المساء . . . سأسرقك كل ما أستطيع
أن أضع يدي عليه من أموال مباركة ! أتشكّني ؟ لماذا ؟ كل ما عليك هو
أن تلاحظ الكلمة .

قال رازوموف وهو يثبت نظره عليه بتحجّر :

— لإسرق بأية وسيلة كانت .

— فلتأهب الوصايا العشر إلى الشيطان !

هنا ما صاح به الآخر بحوية هائلة ، ثم استأنف قائلاً :

— انه المستقبل الحديدي الآن ..

ولكنه حين دخل غرفة رازوموف في وقت متأخر من تلك الليلة
كان في أشدّ حالة من الوقار بل الرزانة .

قال :

— لقد تمّ الأمر .

ارتجف رازوموف ، الجالس منحنياً ويدها المتشابكتان مدلاًّان بين
ركبتيه ، لدى سماعه الوقع المألوف لهذه الكلمات . وضع كوستيا ببطء
في دائرة ضوء المصباح رزمة ملفوفة بورق بنّي اللون مربوطة بخيط .

... كما قلت لك . . . كل ما استطعت أن أضع يدي عليه . سيقتد

العجز أن نهاية العالم قد دنت .

أوما رازوموف برأسه من الأريكة وراح يتأمل بجديّة ذلك الشاب ذي
العقل الخفيف مع احساس بمتعة شريرة .

قال كوستيا الطائش :

... لقد قمت بما عليّ من تضحية . وعليّ أن أشكرك يا كيريلو
سيدوروفيتش لمنحي الفرصة لفعل ذلك .

... وهل كلفتك شيئاً ما ؟

... أجل . أنت ترى أن المغنّتل الميجوز يحبّتي فعلاً . سيُشعر بالاهانة .

... وهل تصدّق كل ما يقولونه لك عن المستقبل الجديّد والارادة

المقاسة للشعب ؟

... تماماً . وأنا مستعد أن أضحيّ بحياتي . . . ولكنك ترى أنّي أشبه

بختير في معارف . لست صالحاً لأي شيء . هكذا هي طبيعتي .

نسي رازوموف ، الذي استغرق في التذكير ، وجوده حتى أيقظه

صوت الشاب الذي راح يتوسل إليه أن يهرب دون أن يضيع المزيد من

الوقت .

... حسناً . وداعاً .

... إن أتركك حتى أراك وأنت تغادر سانت بطرسبورغ .

هنا ما قاله كوستيا على نحو غير متوقع وبتصميم هادئ . ثم استأنف

قائلاً :

إن تضمنّ عليّ بهذا الآن . حبّاً بالله يا كيريلو ، يا روحي ،

قد تصل الشرطة في أي لحظة ، وحين يقبضون عليك سيسجنونك دهوراً

بجأها في مكان ما . . . حتى يبيضّ شعرك . لئديّ في الأسفل هنا أفضل

جواد في اعطبلات أبي وزلاجة خفيفة . سنقطع ثلاثين ميلاً قبل أن

يغرب القمر ، ونجد محطة ما على الطريق . . .

رفع رازوموف نظره مذهولاً . لقد تقررت الرحلة . . . ما عاد

ممكناً تجنبها . كان قد قرّر الرحيل في اليوم التالي . وقد اكتشف الآن فجأة أنه لم يكن يصدّق أمر الرحيل . كان قد شرع يصفني ويتكلم ويفكر ويخطط لهروبه الزائف ، وبقناعة متنامية بأن هذا كله محال . وهل هناك من فعل ذلك حقاً ؟ كان ذلك أشبه بمباراة في الكذب . والآن ها هو منذهل ! فيها هو شخص صدّق ذلك كله بلهفة يائسة . فكّر رازوموف وقد أجفله الخوف : « اذا لم أذهب الآن وعلى الفور ، فلن أذهب أبداً . » نهض دون أن ينطق بكلمة واحدة ، ورمى كوستيا القلق بقبعة رازوموف على رأسه وساعده على ارتداء عباءته ، والآن لكان قد غادر الغرفة حاسر الرأس كما كان . كان يسير بصمت حين سمع صرخة حادة أوقفته :

– كبير يلو !

– ماذا ؟

التفت بتردد عند الباب . هناك ، بذراع ممدودة ، كان كوستيا يشير بوجه جامد وشاحب وبسبابه بليغة إلى الرزمة البنية الصغيرة التي تركها رازوموف منسية في دائرة الضوء اللامعة على الطاولة . تردّد رازوموف ، ثم عاد إليها تحت نظر رفيقه القاسي ، وحاول أن يبتسم له . ولكن الشاب الطائش الصياني كان مقتطّباً . فكّر رازوموف وهو يضع الرزمة الصغيرة في جيبه وينزل الدرج : « هذا حلم . لا أحد يفعل مثل هذه الأشياء . » كان الآخر قد أمسك به من ذراعه وهو يهيمس عن الأخطار التي تنتظره ، وما عليه أن يفعله في حال حدوث طوارئ معينة . غمغم رازوموف وهو يدفع به إلى الزلاجة : « محال . » استسلم وراح يراقب الحلم باهتمام شديد . وقد استمر ذلك وفق خطوط متوقعة

ومنطقية على نحو عنيد . . . الرحلة الطويلة بالزلاجة ، الانتظار عند المحطة الصغيرة جالساً قرب المدفأة . لم يتبادلا نصف دزينة من الكلمات إجمالاً . لم يهتم كوستيا ، الكئيب هو نفسه أيضاً ، في تحطيم الصمت . ولدى الوداع تعانقا مرتين : كان لابدّ من ذلك ، ثم اختفى كوستيا من الحلم .

وحين حلّ الفجر ، نهض رازوموف ، الذي كان لا يزال في عربة قطار دافئة خانقة مليئة بالأسرة والأشخاص النائمين على امتداد طولها المضاء باضاعة خافتة ، نهض بهدوء ، وأنزل الزجاج بوصات قليلة ورمى على السهل العظيم المغطى بالثلوج رزمة صغيرة ملفوفة بورق بني . ثم جلس مرة أخرى خامداً ساكناً . فكّر وهو يحرق من خلال النافذة : « من أجل الشعب » . كانت الصحراء البيضاء العظيمة من الأرض المتجمدة القاسية تنزلق مارة أمام عينيه دون علامة تدلّ على وجود سكان من البشر .

كان ذلك عملاً يدلّ على أنه قد استيقظ ، ثم انتابه الحلم مرة أخرى : بروسيا ، ساكسونيا ، فوتمبرغ ، وجوه ، مناظر ، كلمات . . . كل ذلك كان حلماً ، حلماً راقبه باهتمام غاضب مفروض بالقوة . زيوريج ، جنيف . . . لازال حلماً ، حلماً يراقبه بدقة ، حلماً منهكاً متحوّلاً إلى ضحك قاسٍ ، إلى جنون ، إلى موت . . . مع الخوف واليقظة في النهاية . . .

* * *

- ثانياً -

فكّر رازوموف وهو يمشي جيئة وذهاباً تحت أشجار الخزيرة الصغيرة ، وحيداً مع التمثال البرونزي لروسو : « ربما الحياة هكذا . حلم وخوف . » أصبح الغسق أكثر قتامة . كانت الصفحات المكتوبة والمنزوعة من دفتره أول ثمرات « مهمته » . هنا لا مجال للحلم . فقد كانت الأوراق تحتوي على تأكيد بأنه على وشك القيام باكتشافات حقيقية . « أعتقد أنه لم يبق شيء في طريق قبولي الكامل . »

كان قد استأنف تسجيل انطباعاته في تلك الصفحات وبعض الحوارات . بل انه ذهب إلى حد كتابة ما يلي : « بالمناسبة فقد اكتشفت شخصية ذلك « ن . ن . أ . » الرهيب . (١) انه وحش متكرّش فظيع . واذا ما سمعت شيئاً عن تحركاته المستقبلية فسأرسل تحذيراً . »

طغت عليه كلعنة فكرة لا جدوى هذا كله . وحتى هذه اللحظة فهو لا يستطيع أن يصدق حقيقة مهمته . راح ينظر فيما حوله بئس ، كأنما كان يبحث عن طريقة ما لتحرير وجوده من هذا الشعور القاهر . سحق بيده بغضب صفحات دفتره : فكّر : « يجب ارسال هذا بالبريد . »

قطع الجسر وعاد إلى الشاطئ الشمالي حيث تذكر أنه رأى في أحد الشوارع الضيقة دكاناً صغيراً منعزلاً مليئاً بالمنحوتات الخشبية الرخيصة

(١) يقصد « نيكاتور » الذي ورد ذكره سابقاً خلال حوارهِ الطويل مع صوفيا أنترنوفنا . (المترجم)

وجدرانه مصفوف عليها كتب مجلدة بالكرتون وقذرة جداً ، وهي مخصصة للاعارة . كانوا يبيعون القرطاسية هناك أيضاً حيث ينام عجوز نكد المزاج رث الملابس خلف نضد الحساب . قدمت له امرأة نحيلة في ملابس سوداء وذات وجه سقيم ، المظروف الذي طلبه دون أن تنظر إليه حتى . وقد ظنّ رازوموف أن التعامل مع هذين الشخصين مضمون لأنه ما عاد يهتم بأي شيء في هذا العالم. كتب العنوان على المظروف مستناباً إلى نضد الحساب فخطّ اسماً ألمانياً لشخص ما يعيش في فيينا . ولكن رازوموف كان يعرف أن هذه الرسالة ، وهي أوّل مراسلة له مع المستشار ميكولين ، ستجد طريقها إلى السفارة ، وهناك تنسخ بالشفيرة من قبل شخص موثوق وترسل إلى المكان المقصود ، بكل أمان ، مع البريد الدبلوماسي . هذا هو الاجراء الذي تم تبديره للتغطية على مجرى سير المعلومات من كل العيون غير الموثوقة ، ومن كل الحماقات ، ومن كل الحظوظ العائرة والخيانات . كان الهدف من ذلك أن يكون في أمان . . . في أمان مطلق .

خرج من الدكان البائس واتجه نحو مكتب البريد . كانت تلك هي المرة الثانية التي أراه فيها ذلك اليوم . كان يعبر شارع « مون بلان » وتبدو عليه سيماء الشخص الذي خرج ليتمشى دون هدف محدد . لم يميزني ولكني ميزته من مسافة . كان وسيماً جداً ، كما ظننت ، هذا الصديق الرائع لأخ الأنسة هالدين . راقبته وهو يذهب إلى صندوق البريد ثم يعود ليسير في الاتجاه نفسه الذي كان قد قدم منه . ومن جديد مرّ قريباً جداً مني ، ولكني على ثقة من أنه لم يرني في تلك المرة أيضاً . كان يرفع رأسه عالياً ، ولكن تبدو عليه سيماء السائر في نومه وهو يصارع

الحلم الذي يدفع به نحو الامام ليتجول في اماكن خطيرة . عادت افكارى الى ناتاليا هالدين ، الى أمها . كان هو كل ما تبقى لهما من الابن والأخ .

كان الجانب الغربي مني قلقاً . فهناك أمر ما يثير الصدمة في تعابير ذلك الوجه . لو كنت أنا نفسي متأمرأ ، لاجئاً سياسياً روسياً ، لما كنت أستطيع أن أستنتج شيئاً عملياً في هذه اللمحة العابرة . وكما حدث ، فقد أثارت تلك قلقي إلى حد كبير ، وإلى حد أنها أيقظت فيّ خرفاً غير محدد فيما يخصّ ناتاليا هالدين . كل هذا أمر يصعب شرحه بالأحرى ، ولكن هكذا كان منشأ تصميمي على الذهاب لزيارة تينك السيدتين في ذلك المساء بالمدات ، بعد وجبة الغداء التي تناولتها وحيداً . كان صحيحاً أنني كنت قد قابلت الأنسة هالدين منذ ساعات قليلة فحسب ، ولكنني لم أكن قد رأيت السيدة هالدين نفسها منذ مدة طويلة . والحقيقة هي أنني كنت أتهرب من الزيارة مؤخراً .

يا للسيدة هالدين المسكينة ! أعترف أنها أخافتني قليلاً . كان لها واحد من تلك الطباع النادرة لحسن الحظ ، والذي لا يستطيع المرء سوى أن يكزن مهتماً به لأنه يثير النزاع والشنقة معاً . والمرء يخشى من الاحتكاك بها خوفاً على نفسه وعلى من يهتم بهم . ومن الواضح جداً أن هؤلاء يولدون ليتألموا وليجعلوا الآخرين يتألمون أيضاً . من الغريب أن نتكر أن لبرالية الاستشراف ، ولا أقول الحرية ، والتي قد تبدو لنا مجرد قضية كلمات وطموحات وانتخابات (وان كانت لما علاقة بالشعور اطلاقاً ، اذن فهو ذلك النوع من الشعور الذي يترك أعماق عواطفنا دون أن يلمسها) ، هذه الليبرالية قد تكون بالنسبة إلى آخرين يشبهوننا كثيراً

ويعيشون تحت السماء نفسها ، امتحاناً قاسياً للقوة وقضية دموع وعذاب وألم . كانت السيدة هالدين قد أحست بآلام جيلها . كان لديها ذلك الأخ المتحمس . . . ذلك الضابط الذي أعدم أيام حكم نية ولا . الاستسلام التهكمي الضعيف ليس درعاً لقلب ذير حصين . لقد كان على السيدة هالدين ، التي فجعت بولدها ، أن تعاني مجدداً من الماضي ، وأن تشعر بآلام المستقبل . كانت واحدة من أولئك الذين لا يعرفون كيف يشفون أنفسهم ، من أولئك الذين هم واعون جداً بلوبهم ، والذين ينظرون إلى جروحها ، لا يجبن ولا بأنانية . . . ثم يحسبون الثمن .

كانت مثل هذه الأفكار هي التي ملّحت وجبة الغداء المتواضعة الوحيدة الخاصة بالعزاب . ولو أراد أي شخص أن يقول ان هذه كانت طريقة غير مباشرة للتفكير في ناتاليا هالدين ، فلا يسعني سوى أن أردد بأنها تستحق أن أكرس لها تفكيري بالفعل . كانت حياتها كلها لا تزال أمامها . ولأعترف اذن أنني كنت أفكر بحياة ناتاليا هالدين من خلال شخصية أمها ، وهي طريقة تفكير في فتاة قد يكون مسموحاً بها لرجل عجوز مثلي ، ولكنه ليس عجوزاً بعد إلى حد أنه أصبح غير قادر على الشفقة . كان أمامها لا يزال شبابها بأكمله تقريباً ، شباب سرقت منه اعتبارياً خفته ومرحه الطبيعيين ، والذي طغى عليه استبداد غير أوربي . شباب كئيب إلى حد رهيب يواجه مخاطر كفاح عنيف بين عدائين ضارين على نحو متكافئ .

تربشت بأفكاري فترة أطول مما كان يتوجب . لقد أحسست بالعجز ، بل بما هو أسوأ منه . . . أحسست بأن لا علاقة لي أبداً بالموضوع نوعاً ما . وفي اللحظة الأخيرة ترددت : هل عليّ أن أقوم بالزيارة أم ألغيتها تماماً ؟ ما كانت الفائدة منها ؟

كان قد سبق للمساء وتقدم حين رأيت النور في النافذة عند الزاوية وأنا أدخل « شارع الفلاسفة » . كانت الستائر مسدلة ، ولكنني استطعت أن أتخيل خلفها السيدة هالدين جالسة في كرسيها في وضعها المألوف ، وهي تنظر إلى الخارج تبحث عن شخص ما ، الأمر الذي اكتسب مؤخراً مظهراً لا ذعاً يدلّ على الانتظار المجنون .

ظننتني ، وذلك لوجود النور ، مفوضاً نوعاً ما أن اطرق على الباب . لم تكن السيدتان قد أوتا إلى الفراش بعد . كنت آمل فحسب أن لا يكون لديهما أي زوار من موطنهما . كان هناك موظف روسي متقاعد معتلاً الصحة يتواجد عندهما أحياناً في الأمسيات . كان بائساً دون حدود ومضجراً بمجرد وجوده البائس . وأعتقد أن هاتين السيدتين كانتا تحتملان زيارته الكثيرة بسبب صداقة قديمة له مع السيد هالدين ، الأب ، أو شيئاً من هذا القبيل . وقد قررت ان وجدته يثرثر هناك بصوته الواهن أن أبقى دقائق قليلة فحسب .

وقد أدهشني الباب بأن انفتح قبل أن أقرع الجرس . وقد واجهتني فوراً الآنسة هالدين ، بقبعتها ومعطفها ، وهي على وشك الخروج . في مثل هذه الساعة ! هل هي ذاهبة لتحضر الطبيب يا ترى ؟

ولكن صيحتها الترحيبية طمأنتني . بدا وكأنني كنت الشخص الذي كانت تريد أن تراه بالذات . وهكذا استيقظ فضولي . أدخلتني إلى المنزل ، وكانت « آنا » المخلصة ، الخادم الألمانية العجوز ، قد أغلقت الباب ولكنها لم تتعد بل بقيت إلى القرب منه وعلى استعداد لإخراجي في الحال . وقد بدا أن الآنسة هالدين كانت على وشك الخروج للبحث عني . تحدثت بأسلوب عاجل على غير عاداتها . كانت تريد أن تذهب

مباشرة وتقرع على باب السيدة تسيغلر ، رغم أن الوقت متأخر ، فمن
عادة السيدة تسيغلر . . .

كانت السيدة تسيغلر أرملة بروفيسور شهير كان صديقاً حميماً لي ،
وكنت أسكن عندها في ثلاث غرف من شقتها الكبيرة الجميلة التي لم
تدخل عنها بعد وفاة زوجها ؛ ولكن كان لي بابي الخاص عند منبسط
الدرج نفسه . وكان ذلك اجراء عمره عشر سنوات على الأقل . قلت
اني كنت سعيداً جداً إلى حد أنني كنت أظن أن . . .

لم تبد الآنسة هالدين أية حركة تدل على أنها ستخلع ملابس الخروج .
وقد لاحظت احمراراً في بشرتها ، وشيئاً من التصميم الحازم في لهجتها .
هل أعرف يا ترى أين يسكن رازوموف ؟ السيد رازوموف ؟ في هذه
الساعة ... بكل هذا الالحاح؟ رفعت ذراعيّ عالياً دليلاً على جهلي المطبق .
لم تكن لدي أدنى فكرة عن مكان سكنه . لو أنني استطعت التنبؤ بسؤالها
قبل ثلاث ساعات فحسب ، لكنت قد غامرت بسؤاله على الرصيف أمام
المبنى الجديد للبريد ، وربما كان سيخبرني به ، وربما كان سيصرفني
بفظاظة طالباً مني أن أهتم بشؤوني الخاصة . وربما ، وهنا تذكرت ذلك
التعبير العجيب المهووس والمتألم والساهم على وجهه ، كانت ستنتابه نوبة
ما من جراء الصدمة الناجمة عن قيام شخص ما بالتحدث إليه . لم أقل
شيئاً من هذا للآنسة هالدين ولم أذكر حتى أنني لمحت ذلك الشاب قبل
فترة قصيرة جداً . كان انطباعي غير سار اطلاقاً بحيث أي كنت مسروراً
بأن أنساه أنا نفسي .

غمغمت يئأس :

— لا أعرف أين يمكن أن أسأل عنه .

كنت أود مساعدتها بأي شكل من الأشكال ، وكنت سأنتقل للبحث
عن أي شخص ، سواء كان شاباً أو عجوزاً ، فقد كنت على ثقة كبيرة
في فطرتها السليمة .

– ما الذي جعلك تفكرين في القدوم إليّ بحثاً عن هذه المعلومة ؟

قالت بصوت خفيض :

– لم يكن لأجل ذلك بالضبط .

كانت تبدو عليها سيماء من هو مضطر إلى تنفيذ مهمة غير سارة .

– هل عليّ أن أفهم أن عليك أن تري السيد رازوموف هذا المساء ؟

حركت ناتاليا هالدين رأسها علامة الإيجاب ، ثم قالت بالفرنسية

بعد أن ألقّت نظرة على باب غرفة الاستقبال :

– إنها أمي .

وبقيت محتارة للحظة . وبما أنها كانت فتاة دأمة الجدية ولا تهيئها

أية صعوبة خيالية ، فقد كان فضولي معلقاً على شفيتها اللتين بقينا مغلقتين.

للحظة . ما علاقة السيد رازوموف بذكرها لأمرها ؟ لم تكن السيدة هالدين

على علم بوصول صديق ابنها إلى جنيف .

سألتها :

– هل آمل في مشاهدة أمك هذا المساء ؟

مدّت الأنسة هالدين يدها كأنما لتسدّ عليّ الطريق :

– انها في حالة رهيبية من الاحتياج . أوه لن تكون قادراً على أن

تميّز ذلك . . . انه أمر داخلي ، ولكنني مصابة بالهلع ، لأنني أعرف

أمي جيداً . لا أملك الشجاعة على مواجهة الأمر أكثر من ذلك .
وذلك كله بسبب غلطتي أنا . أعتقد أنني لا أستطيع أن أمثل دوراً . لم
يسبق لي أن أخفيت شيئاً عن أمي . لم تسنح الفرصة لمثل هذا النوع من
الأمر بيننا . ولكنك تعرف سبب امتناعي عن اعلامها فوراً بوصول
السيد رازوموف . أنت نفهمني ، أليس كذلك ؟ ذلك بسبب حالتها
البائسة . وأنا لست بالمثلة . وبما أن عواطفني متورطة في الموضوع إلى
هذا الحد فاني نوعاً ما . . . لا أعرف . لقد لاحظت شيئاً في سلوكي .
خمنت أنني أخفي عنها شيئاً . لاحظت أن غيابي أصبح يطول ، وقد
كنت أقابل السيد رازوموف يومياً في الحقيقة ، واعتدت أن أبقى فترات
أطول من المعتاد لدى خروجي من البيت . والله يعرف ما هي الشكوك التي
برزت لديها . وأنت تعرف أنها لم تعد كما كانت منذ ذلك الحين . . .
ولهذا فهي قد بدأت هذا المساء - وكانت صامتة جداً منذ أسابيع -
بصب الكلام فجأة . قالت انها لا تريد أن توبخني ، وان لي شخصيتي
كما لها شخصيتها ، وانها لا تريد التدخل في شؤوني أو حتى في أفكاري .
فهي من ناحيتها لم تخف شيئاً عن أطفالها . . . أشياء قاسية على السمع .
وقد قالت ذلك "ذله بصوتها الهاديء ، وبوجهها المسكين النحيل الهاديء
كحجر . كان ذلك أمراً لا يحتمل .

كانت الآنسة هالدين تتحدث بصوت خفيض وعلى نحو أسرع مما
سبق أن سمعته من قبل . وكان ذلك في حد ذاته مقلماً . كانت الغرفة
الجانبية مضاعة بشدة فاستطعت أن أرى تحت الوشاح اللون المتوهج
ثوبها . كانت تقف منتصبه ويدها اليسرى تستريح على طاولة صغيرة ،
أما اليد الأخرى فمعلقة إلى جانبها دون حراك . وكانت تلتقط أنفاسها
بين الحين والآخر بخفة .

— كان ذلك مفاجئاً جداً . تصوّر ذلك فحسب ! لقد ظنّنت أنني كنت أقوم بالاستعدادات لأغادرها دون اعلامها بذلك مسبقاً . وقد ركعت إلى القرب من كرسيها ورجوتها أن تفكر ملياً فيما كانت تقوله ! لقد وضعت يدها على رأسي ، ولكنها استمرت في وهمها على أية حال . كانت تظن دائماً أنها تستحق ثقة ولديها بها ، ولكن يبدو أن الأمر ليس هكذا . لم يكن ابنها قادراً على الثقة بحبها ولا بتفهمها وما أنذا أخطط الآن لهجرها بالطريقة القاسية الظالمة نفسها ، وهكذا دواليك لم أستطع أن أقول شيئاً انه عناد مرضي قالت انها تشهر بوجود شيء ما بوجود تغيير ما في شخصي واذا كانت قناعاتي تدعوني إلى الرحيل ، فلماذا أرحل سراً ، وكأنّني جبانة أو ضعيفة بحيث لا يمكن أن أثق بها ؟ قالت : « لكأن قلبي يستطيع أن يخون أولادي » كان ذلك أمراً لا يمكن احتماله . وكانت تربت على رأسي طوال هذه المدة لم تكن هناك فائدة ترجى من الاحتجاج . انها مريضة . حتى روحها بالذات

لم أنجرأ على كسر الصمت الذي ساد بيننا . نظرت إلى عينيها اللتين كانتا تلمعان من خلال الوشاح .

صاحت باللهجة الخفيفة نفسها :

— أنا ؟ أنا تغيرت ؟ كان قاسياً سماع ذلك ، لأن مشكلتي هي أنني ضعيفة ولا أستطيع أن أرى ما عليّ أن أعرفه . أنت تعرف ذلك . واولضع حد للمسألة كلها ارتكبت فعلاً أنانياً . لإزالة شكوكها بي أخبرتها بمسألة السيد رازوموف . كان ذلك عملاً أنانياً . أنت تعرف أننا كنا على حق تماماً في الاتفاق على ابقاء المسألة سراً بالنسبة إليها . كنا على حق

تماماً . وما أن قلت لها أن صديق فيكتورنا المسكين هنا حتى عرفت كم
أنا كنا على حق . كان يتوجب تحضيرها لذلك . ولكني كنت في حالة
من اليأس فأفشيت لها السر دون تفكير . وقد استشيرت أمي إلى حد كبير
وعلى الفور . كم مضى عليه هنا ؟ ما الذي يعرفه ؟ ولماذا لم يأت ليزورنا
فوراً ، صديق فيكتورها هذا ؟ ما يعني ذلك ؟ ألا يمكن الوثوق بها حتى
بهذه الذكريات عن ابنها ؟ . . . فكّر فحسب كيف شعرت وأنا أراها ،
شاحبة كشرشف أبيض ، ساكنة تماماً ، وبدائها تشبثان بلدراعي
الكرسي . قلت لها ان اللوم كله يقع علي شخصياً .

استطعت أن أتخيل الشكل الصامت للأُم وهي في كرسيها ، هناك ،
خلف الباب الذي كانت الابنة تكلمني وهي واقفة إلى القرب منه . بدا
الصمت هناك وكأنه ينادي بصوت عال للانتقام من حقيقة تاريخية والأمثلة
العصرية على نشاطها . التمتت تلك الرؤيا عبر ذهني ، ولكني لم أستطع أن
أشك في أن الأنسة هالدين قد عانت الكثير . وقد فهمتها تماماً حين قالت
لي أنها لا تستطيع مواجهة الليل والانطباع عن ذلك المشهد في ذهنها .
لقد استسلمت السيدة هالدين أمام أكثر التخييلات بشاعة ، وأمام أكثر
الشكوك فانتازية وقسوة . وكان يتوجب تسكين كل هذا بأي ثمن ودون
إضاعة الوقت . لم يصدمني أن أعلم أن الأنسة هالدين قالت لها :
« سأذهب وأحضره لك إلى هنا فوراً . » لم يكن هناك ما هو غريب في تلك
الصرخة ، ولا مبالغة في الانفعال . لم أكن حتى متردداً حين قلت :

— حسناً ، ولكن كيف ؟

كانت على حق في أن تفكر بي ، ولكن ماذا كان بوسعي أن أفعله
وأنا الجاهل بعنوان مسكن السيد رازوموف ؟

صاحت :

— تصور أنه قد يكون من سكان الجوار ، على رمية حجر ربما !
كنت أشك في ذلك ، ولكنني كنت مستعداً كل الاستعداد أن أذهب
وأحضره من الطرف الآخر بلخفيف وبكل سرور . وأعتقد أنها كانت
واثقة من استعدادي ، حيث كانت أول فكرة خطرت لها هو أن تأتي
إليّ . ولكن الخدمة التي كانت ستطلبها مني بالفعل هي أن أصطحبها إلى
قصر بوريل .

كانت لديّ رؤيا ذهنية بغیضة للطريق المعتمة ، للأرض الكثيفة
المحيطة بالقصر ، وذلك المظهر المقفر الذي يدعو إلى الريبة الذي كان
يتصف به مأوى استحضر الأرواح والتأمر وعبادة الأنثوية ذاك . وقد
عارضت هذا الرأي قائلاً ان « المدام دو . . . » لا تعرف على الأغلب
ما نبحث عنه ، واني لا أظن أن الشاب هناك الآن . لقد تذكرت تلك
اللمحة الخاطفة لوجهه وكنت على قناعة بأن شخصاً كان يبدو في حال
أسوأ من حال من رأى الموتى لتوه سيكون في حاجة إلى أن يعتزل في مكان
يكون فيه وحيداً . كنت على ثقة من أن السيد رازوموف كان ذاهباً إلى
بيته حين رأيت اليوم .

قالت الآنسة هالدين بهدوء :

— إن من كنت افكر فيه بالفعل هو بيتر ايفانوفيتش .

آه ! هو يعرف طبعاً . نظرت إلى ساعتي . كانت التاسعة وعشرين
دقيقة فقط . . .

قلت ناصحاً :

- لنحاول أن نجده في فندقه اذن . انه يقيم في « فندق الكوزومبوليتان » في مكان ما من الطابق العلوي .

لم أعرض عليها أن أذهب بنفسني ، وذلك بسبب شكني في نوع الاستقبال الذي سيلقاني به . ولكنني اقترحت ارسال « آنا » المخلصة ومعها رسالة تطلب فيها العنوان .

كانت « آنا » لا تزال تنتظر عند الباب في الطرف الآخر من الغرفة وقد تناقشنا كلانا في المسألة همساً . كانت الآنسة هالدين تفضل الذهاب بنفسها . « فآنا » خجولة وبطيئة . كما أن المزيد من الوقت سيضيع خلال عودتها بالعنوان ومن وجهة النظر تلك فان الوقت أصبح متأخراً ، فلنا نعرف ان كان السيد رازوموف يعيش على مقربة من هنا .

قالت الآنسة هالدين :

- سأذهب بنفسني . أستطيع الذهاب إليه مباشرة من الفندق . وعلى أية حال فان عليّ أن أخرج لأنني مضطرة إلى أن أشرح المسألة للسيد رازوموف شخصياً . . وأن أهينه للمسألة . أنت لا تعرف الحالة الذهنية لأمي .

احمر وجهها ثم شحب ثانية . بل انها فكرت أنه لأجل أمها ولأجلها شخصياً سيكون من الأفضل أن تبتعدا الواحدة عن الأخرى لبعض الوقت . وستكون « آنا » ، وهي موضع محبة أمها ، في خدمتها .

استأنفت الآنسة هالدين وهي تسير أمامي نحو الباب :

- يمكنها أن تجعلها تحيط في الغرفة .

ثم قالت وهي تتخاطب الخادم بالألمانية وتلك تفتح لنا الباب :

– يمكنك أن تقولي لأمي ان هذا السيد قد زارنا وانه ذهب معي
للبحث عن السيد رازوموف . يجب ألا تقلق اذا تأخرت بعض الوقت .
خرجنا إلى الشارع واستنشقت هي أنفاساً عميقة من هواء الليل البارد .
همهمت :

– حتى اني لم أطلب منك رأيك في أن ترافقني !
قلت ضاحكاً :
– أعتقد ذلك .

كان أسلوب استقبالي من قبل نصير المرأة العظيم مسألة لا مجال لأخذها
بعين الاعتبار الآن . لم أكن أشك في أنه سينزعج من مشاهدتي وأنه قد
يقذفني بعبارة وقحة ربما ، ولكنني افترضت أنه لن يجرؤ على أن
يطردني . وكان ذلك هو كل ما يهمني .
سألتها :

– ألن تأخذي ذراعي ؟
فعلت ذلك في صمت ولم يقل أحدنا شيئاً ذا قيمة حتى أدخلتها قبلي
إلى البهو الكبير للفندق . كان مضاء على نحو رائع وفيه الكثير من الناس .
قلت :

– يمكنك أن أصعد إلى هناك من دونك .
قالت بصوت خفيض :
– لا أحب البقاء وحيدة في هذا المكان . سأتي معك .
قدتها نحو المصعد مباشرة . في آخر طابق قال المشرف ان علينا أن
نتجه إلى اليمين حتى نهاية الممر .

كانت الجدران بيضاء والسجادة حمراء والأنوار الكهربائية تشع بوفرة . وقد جعلني الفراغ والصمت والأبواب المغلقة المتشابهة والمرقمة أفكر في النظام الكامل لسجن شديد الفخامة منشأ على مبدأ المعزل الانفرادي . هناك في الأعلى ، تحت سقف ذلك الكم الهائل لا يواء المسافرين ، لم يكن هناك صوت من أي نوع يصلنا ، وكان اللباد القرمزي السميك يكتّم وقع أقدامنا تماماً . أسرعنا ونحن ننظر واحداً إلى الآخر حتى وجدنا نفسينا أمام آخر باب في ذلك الممر الطويل . ثم تقابلت أعيننا ، ووقفنا هكذا للحظة ونحن نسمع أصواتاً مهمة من الداخل .

همست دون ضرورة :

— أعتقد أن هذه هي غرفته .

رأيت شفتي الأنسة هالدين تتحركان دون صوت ، وبعد أن قرعت على الباب بمدة خفتت همهمة الأصوات في الداخل . دام صمت عميق للحظات قليلة ، ثم فتح الباب بفضافة من قبل امرأة قصيرة ، سوداء العينين في قميص أحمر ، ولها كثير من الشعر المشط باهمال وبأسلوب غير مرتب وغير جميل . كانت قد قرّبت حاجبيها الرفيعين السوداوين واحدهما من الآخر . وقد علمت لاحقاً وباهتمام أنها كانت صوفيا أنتونوفنا الشهيرة أو رديئة السمعة ، ولكنني كنت مصعوقاً وقتها بنظرتها الشيطانية الغريبة المتسائلة ، لأنها كانت دون شر اطلاقاً . . . أو دون شيطانية . وقد لانت هذه النظرة أكثر حين نظرت إلى الأنسة هالدين التي أوضحت بصوتها القوي المباشر رغبتها في رؤية بيتر ايفانوفيتش لبره .

ثم أضافت :

— أنا الأنسة هالدين .

عندما سمعت ذلك ، سارت المرأة ذات التميمص الأحمر وبجيمين لم يعد متغضناً اطلاقاً الآن ، ودون كلمة واحدة ، نحو أريكة وجاست تاركة الباب مفتوحاً .

ومن الأريكة ، ويدها في حجرتها ، راحت تراقبنا ، ونحن ندخل ، بعينها السوداوين .

تقدمت الأنسة هالدين نحو منتصف الغرفة ، أما أنا ، المخلص لدوري كمرافق فحسب ، فقد بقيت قرب الباب بعد أن أغلقته خلفي . كانت الغرفة ، وهي واسعة تماماً ، وان كانت ذات سقف واطيء ، قليلة المفروشات ، وكان هناك مصباح كهربائي له ظلّة من البورسلان قد أنزل فوق طاولة كبيرة (عليها خريطة كبيرة منشورة عليها) ، وكان هذا المصباح يترك الأجزاء البعيدة من الغرفة ضمن غسق خافت اصطناعي . لم يكن بيتر ايفانوفيتش هناك ولا السيد رازوموف . ولكن كان على الأريكة ، قرب صوفيا أنتونوفنا ، رجل ذو وجه نحيل وعثنون وكان ينحني نحو الأمام ويدها على ركبتيه وهو يحرق بشدة وبتعبير لطيف . وفي زاوية بعيدة كان ممكناً تمييز وجه عريض شاحب وجسم ضخم ، كان غريباً وقلقاً في جلسته على الكرسي الواطيء . كان الشخص الوحيد الذي عرفته هو جولوس لاسبارا بحجمه الضئيل والذي كان يبدو وكأنه يحرق إلى الخريطة ، وقدماه متشابكتان حول أرجل الكرسي . نزل بخفة وانحني للأنسة هالدين ، وهو يبدو عجبياً كولد ذي أنف معقوف ولحية مزيفة بيضاء وسوداء . تقدم وعرض كرسيه على الأنسة هالدين التي رفضته قائلة انها قد أتت إلى هنا لتقول بضع كلمات لبيتر ايفانوفيتش .

أصبح صوته الحاد مسموعاً على نحو مزعج في الغرفة :

— من الغريب أني كنت أفكر بك عصر هذا اليوم بالذات يا ناتاليا فيكتوروفنا . لقد قابلت السيد رازوموف . وقد طلبت منه أن يكتب لنا مقالة حول أي موضوع يريد . وأنت تستطيعين ترجمتها إلى الانكليزية . . . بوجود مثل هذا المعلم .

أوما برأسه باتجاهي بإيماءة اطراء . وعندما سمع اسم رازوموف صدر صوت لا يمكن وصفه ، نوع من الصرير الضعيف ، كأنما هو صوت حيوان صغير غاضب من الزاوية التي كان يشغلها الرجل الذي بدا أكثر بكثير من أن يجنس على الكرسي الذي كان تحته . لم أسمع ما قالته الآنسة هالدين . تكلم لاسبارا مرة أخرى :

— لقد حان الوقت لتقومي بشيء ما يا ناتاليا فيكتوروفنا . ولكني أعتقد أن لك آراءك الخاصة . لم لا تكتبين شيئاً ما أنت بالذات ؟ ما رأيك لو تأتين لزيارتنا قريباً ؟ يمكننا ان نتحدث في الموضوع . أية نصيحة . . . ومن جديد لم أسمع كلمات الآنسة هالدين . كان ذلك صوت لاسبارا مرة أخرى :

— بيتر ايفانوفيتش ؟ لقد ذهب ليرتاح قليلاً في الغرفة الأخرى . نحن جميعاً في انتظاره .

بدا الرجل العظيم الذي دخل في تلك اللحظة أضخم وأطول من المعتاد ، ومهيباً في « روب دو شامبر » من قماش داكن كان ينزل في خطوط مستقيمة حتى قدميه . كان يوحى براهب أو بنبي ، أو بساكن صحراء قوي الجسم . . . بشيء أسوي . وكانت النظارتان الداكنتان مع هذا الزي تجعلانه يبدو أكثر غموضاً من أي وقت مضى تحت النور المخفف .

عاد لاسبارا ضئيل الحجم إلى كرسيه لينظر إلى الخريطة ، الشيء الوحيد المضاء جيداً في الغرفة . وحتى من موضعي البعيد عند الباب كنت أستطيع أن أرى . من شكل الجزء الأزرق الذي يمثل الماء أنها خريطة لمقاطعات بحر الباطيق . صاح بيتر ايفانوفيتش صيحة خفيفة وهو يتقدم نحو الآنسة هالدين ، ثم كبح نفسه لدى مشاهدته لي ، على نحو واضح دون شك . ثم حلق من خلال نظارتيه السوداوين . لاشك أنه قد ميزني من شعري الأشيب . لأنه التفت ، بهزة واضحة لكتفيه العريضتين ، نحو الآنسة هالدين في لفظة تسامح كريم . أمسك بيدها بكفه السميكة اللينة ووضع يده الضخمة الأخرى فوقها كغطاء .

وبينما كان هذان الاثنان الواقفان في وسط الغرفة يتبادلان العبارات غير المفهومة . لم يتحرك أحد في الغرفة : كان لاسبارا وظهره لنا يجثم على ركبتيه فوق الكرسي ومرفقاه على الخريطة ذات المقياس الكبير ، وذلك الشخص الضخم المظلل في الزاوية ، والرجل المحدق بصراحة بعثنونه على الأريكة . والمرأة في القميص الأحمر إلى جانبه . . . لم يتحرك أي واحد منهم . وأعتقد أنه لم يكن لديهم الوقت الكافي ، فالآنسة هالدين سحبت يدها فوراً من يدي بيتر ايفانوفيتش وقبل أن أصبح مستعداً لها كانت قد تحركت نحو الباب . وقد فتحت الباب بسرعة ، أنا الغربي المتجاهل . ولحقت بها إلى الخارج ونظرتي الأخيرة تغادرهم جميعاً وهم ساكنون في أوضاعهم المختلفة : بيتر ايفانوفيتش وحيداً وواقفاً بنظارتيه السوداوين كمعلم أعمى ضخم الجثة ، وخلفه البقعة القوية من النور على الخريطة الملونة التي يحلق إليها لاسبارا ضئيل الحجم .

وبعد فترة طويلة ، عند سماعي باشاعات صحفية (كانت غامضة وسرعان ما انطفت) عن مؤامرة عسكرية مُجهّزة في روسيا ،

تذكرت اللمحة التي اختفظتها من تلك المجموعة الساكنة وشخصها الرئيس . لم تعرف أية تفاصيل ، ولكن عرف أن الأحزاب الثورية في الخارج قد قدمت يد المساعدة وأرسلت موفدين مقدماً ، وأنه تم احضار الأموال اللازمة لارسال باخرة مع شحنة من الأسلحة ومتأمرين لغزو المقاطعات البلطيقية . وبينما كانت عيناى تنعمان النظر في المعلومات التي تم افشاؤها على نحو غير كامل (والتي لم يكن العالم مهتماً بها كثيراً) فكرت في أن أوربا العجوز المستقرة قد مُنِحَتْ من خلال شخصي الذي كان يرافق تلك الفتاة الروسية شيئاً أشبه بلمحة إلى ما خلف الكواليس ، لمحة قصيرة إلى الطابق العلوي من فندق فخم في ذلك المكان من العالم : والرجل العظيم نفسه ؛ وذلك الرجل الضخم في الزاوية ، ذلك القاتل للجواسيس ورجال الدرك ؛ وياكوفليتس المخضرم الذي شهد الحملات الراهبية القديمة ؛ والمرأة ذات الشعر الأبيض كشعري والعينين السوداوين الحيويتين ؛ كل هذا ضمن ضوء خافت غامض ، وخريطة روسيا المضاء بشدة . لقد أتبع لي أن أرى المرأة مرة أخرى . فبينما كنا ننتظر المصعد أتت مسرعة عبر المر وعيناها مثبتتان على وجه الأنسة هالدين ، ثم أخذتها جانباً كأنما لتفشي لها سرّاً . لم يدم ذلك طويلاً . بضع كلمات فحسب .

وبينما كنا ننزل في المصعد ، لم تحطم ناتاليا هالدين الصمت . ولكن بعد أن خرجنا من الفندق وبينما كنا نسير على امتداد رصيف البحيرة في العتمة الباردة المتلألئة بأضواء هذا الرصيف ، المنعكسة في الماء الأسود للميناء الصغير على يسارنا ، والفنادق الفاخرة الكثيرة على يميننا ، عندها نطقت أخيراً .

— تلك كانت صوفيا أنتونوفنا . . . هل تعرفها ؟ . . .

— أجل أعرف . . . تلك المرأة الشهيرة . . .

— لا يهم . يبدو أننا بعد أن خرجنا قال لهم بيتر ايفانوفيتش سبب قدومنا . ولهذا السبب أسرع وراءنا . لقد عرفت على نفسها ثم قالت « أنت أخت رجل شجاع ستتذكره دائماً ، وقد تشهدين أوقاتاً أفضل . » قلت لها اني آمل أن أرى ذلك الوقت الذي سينسى فيه هذا كله بما فيه اسم أخي أيضاً . لقد دفعني شيء ما إلى قول ذلك ، ولكنك تفهمني ، أليس كذلك ؟

قلت :

— أجل . أنت تفكرين بعهد الوفاق والعدالة .

— نعم . هناك الكثير من الحقد والثأر في ذلك النشاط . لا بدّ من فعل ذلك . إنها تضحية . . . لذا فلتكن أعظم تضحية . فليُنسَ الطغاة والجللا دون أيضاً ، فلا يتذكر أحد سوى البنّاقين .
سألتها متشككاً :

— وهل آيدت صوفيا أنتونوفنا رأيك هذا ؟

— لم تقل أي شيء عدا : « جيد أن تؤمني بالحب . » أعتقد أنها فهمتني . ثم سألتني إن كنت آمل في مشاهدة السيد رازوموف في الوقت الحاضر . قلت اني أثق في أني أستطيع أن أحضره ليقابل أمي هذا المساء ، حيث علمت هي بوجوده هنا وكانت قلقة على نحو مرضي لتعرف إن كان لديه ما يقوله عن فيكتور . كان الصديق الوحيد لأخي الذي نعرف اسمه ، وهو من رفاقه الحميمين . قال : « أوه ! أخوك . . . أجل . أرجو أن تقولي للسيد رازوموف إنني أشعت الحكاية التي وصلتني من

سانت بطرسبورغ . وهي تتعلق باعتقال أخيك . » ثم أضافت : « لقد
خانه رجل من عامة الشعب ثم شقق نفسه . سيشرح لك السيد رازوموف
ذلك كله . لقد أعطيته كامل المعلومات في عصر هذا اليوم . وقولي
للسيد رازوموف ان صوفيا أنتونوفنا ترسل له تحياتها . سأرحل في الصباح
الباكر . . . إلى مكان بعيد . »

ثم أضافت الآنسة هالدين بعد لحظة صمت :

— لقد تأثرت جداً بما سمعته على نحو غير متوقع بحيث أنني لم
أستطع أن أكلمك قبل الآن . . . رجل من عامة الشعب ! أوه ،
يا لشعبنا المسكين !

راحت تسير ببطء وكأنها قد أنهكت فجأة . كانت رأسها منخفضة ؛
ومن شبابيك بناء ذي شرفات وصلنا صوت موسيقى فندقية مبتذلة .
وأمام مدخل واطيء عادي لأحد الكازينوهات كان اعلانان حمراوان
يتوهجان تحت المصابيح الكهربائية ، فلا يتركان إلا أثر أريفياً رخيصاً ...
وكان لفراغ الأرصفة ، ومنظر الشوارع الخاوية كالصحراء ، جو
الاحترام الزائف والوحشة التي تفوق الوصف .

كنت قد سلمتُ جدلاً بأنها قد حازت على العنوان ، وتركت نفسي
أقادُ من قِيَابِهَا . ومع جسر « مون بلان » حيث بدت بضعة أشكال
داكنة ضائعة في المنظور العريض الطويل الذي تحدده الأضواء . قالت :

— ليس بعيداً عن بيتنا . لقد فكرت أنه لا يمكن أن يكون كذلك .
العنوان هو : « شارع دو كاروج » . وأعتقد أنه لا بدّ واحد من تلك
الأبنية الكبيرة الخاصة بالحرفيين .

أخذت ذراعي بثقة وحميمية ، ثم أسرعت . كان هناك شيء بدائي في ما كنا نفعله . لم نفكر في استغلال وسائل الحضارة . سبقتنا حافلة متأخرة ، وكانت صف من عربات الأجرة الصغيرة يقف عند حاجز الحدائق . لم يخطر لنا أن نستخدم وسائل النقل هذه . كانت في عجلة شديدة من أمرها ، ربما ، أما فيما يخصني أنا . . . حسناً ، فقد كانت قد أخذت ذراعي بثقة . وبينما كنا نصعد منحدر « الكولاتري » السهل ، كانت كل الدكاكين مغلقة ولا نور هناك في أي من الواجهات (كأنما كان كل المترزة قد هربوا في نهاية النهار) . قالت بتردد :

— كنت أود لو أعدو بعض الشيء لأرى أمي للحظة . لن يكون بيتنا بعيداً جداً عن طريقنا :

ولكنني أفنعتها بالعدول عن ذلك . إذا كانت السيدة هالدين تتوقع فعلاً رؤية رازوموف في تلك الليلة فليس من الحكمة في شيء أن تريها نفسها من دونه . وكلما أسرعنا وأمسكنا بالشاب وجلبناه إلى البيت لتهدئة خواطر أمها ، كلما كان ذلك أفضل . وافقت على رأيي وعبرنا بخط قطري مائل « ساحة المسرح » الرمادية المائلة إلى الزرقة بأرضها المرصوفة بالحجارة ، تحت النور الكهربائي ، والتمثال الوحيد الراكب للحصان يبدو مسوداً كله في وسط الساحة . في شارع « دو كاروج » كنا في أفقر الأحياء ونقترب من أطراف المدينة . كانت هناك أبنية فارغة وأبنية عالية جديدة . عند زاوية شارع جانبي كان النور العاري لدكان مطلي بالكلس يسقط على الليل ، كمروحة ، عبر مدخل واسع . كان بإمكان المرء أن يرى من مسافة الجدار الداخلي برؤفه قليلة البضاعة ، ونضد الحساب المطلي باللون النبي . كان ذلك هو البناء المقصود . لدى

اقتربنا منه على الامتداد المعّم لحاجز من الألواح الخشبية المطليه بالمار ،
رأينا الوجه الضيقّ الشاحب للزاوية المقطوعة ، خمس نوافذ عالية دون
أي نور فيها ، وتزدحم بالظل الثقيل لانحدار سقف بارز .

قالت الأنسة هالدين :

— يجب أن تسأل عنه في الدكان .

أنزل رجل شاحب ذو شاربين خديين ويرتدي قبعة بيضاء قدرة
وربطة عنق مهترئة ، أنزل صحيفته واستند بحميمية بكلا مرفقيه على
نضد الحساب العاري وأجاب بأن الشخص الذي نسأل عنه هو بالفعل
مستأجر لديه في الطابق الثالث ، ولكنه ليس في المنزل في هذه اللحظة .

كررت بعد نظرة إلى الأنسة هالدين :

— في هذه اللحظة . هل يعني ذلك أنه سيعود فوراً ؟

كان لطيفاً جداً ، بعينين لطيفتين وشفتين ناعمتين . ابتسم ابتسامة
خفيفة وكأنه يعرف كل شيء . لقد عاد السيد رازوموف ، بعد أن
قضى نهاره كله خارجاً ، باكراً هذا المساء ، وقد دهش لأنه شاهده
منذ نصف ساعة ينزل مرة أخرى. وقد ترك السيد رازوموف مفتاحه ،
وأفاد أنه قد خرج ليشم بعض الهواء .

من خلف نضد الحساب العاري استمر الرجل يبتسم لنا ، ورأسه بين
يديه . هواء . هواء . ولكن كان من الصعب معرفة ان كان غيابه سيطول
أم لا . وكان الليل قريباً جداً ، بكل تأكيد .

وبعد فترة صمت ، التفتت عيناه اللطيفتان نحو الباب ثم أضاف :

— ستدفعه العاصفة إلى العودة .

سأئنه :

— وهل ستهبّ العاصفة ؟

— عجبياً ! نعم ستهب .

وللتأكيد على كلامه سمعنا صوتاً هادراً عميقاً من البعيد .

استشرت بعينيّ الآنسة هالدين ، فرأيتها مترددة في التخلي عن مرامها : فطابت من صاحب الدكان أن يرجو السيد رازوموف ، لو عاد خلال نصف ساعة ، أن يبقى في الدكان هنا ، فنحن سنعود قريباً .

وكجواب على ذلك هزّ رأسه بحركة ضعيفة جداً . وقد عبرت الآنسة هالدين عن موافقتها بالصمت . سرنا ببطء في الشارع مبتعدين عن المدينة . كانت أسوار الحدائق الواطئة للقبيلات المتواضعة المحكوم عليها بالهدم مغطاة بأغصان الأشجار وأكروام النباتات المضاعة من الأسفل بمصاييح غازية ، وكان الصوت العنيف الرتيب للمياة الثلجية لنهر « الآرف » الساقطة من فوق سدّ واطىء يقترب منا بتيار هواء بارد عبر مساحة واسعة منفتوحة حيث كان خط ثنائي من أنوار المصاييح يسير عبر شارع دون منازل . ولكن على الشاطيء الآخر الذي يسيطر عليه سواد قبيح هو سواد غيمة راعدة ، بدا نور وحيد خافت وكأنه يراقبنا بتحديدقة متعبة . حين مشينا حتى الجسر قلت :

— الأجر بنا أن نعود . .

في الدكان كان الرجل الشاحب لا زال يقرأ في صحيفته القنطرة المنشورة على نضد الحساب . رفع رأسه حين نظرت إلى الدانخل وهزّ رأسه نفيماً ، وهو يزّم شفّتيه . عدت إلى الآنسة هالدين في الخارج

وانطلقنا بخطوات سريعة . قالت انها سترسل « آنا » مع رسالة في الصباح الباكر . احترمت سكوتها ، فالصمت هو أفضل وسيلة للتعبير عن القلق .

كان الشارع نصف الريفي الذي سرنا فيه في طريق العودة قد تغير تدريجياً ليصبح شارع مدينة عادياً ، عريضاً ومهجوراً . لم نقابل أكثر من أربعة أشخاص ، وبدت الطريق كأنما لا نهاية لها ، لأن قلق مرافقتي كان قد انتقل اليّ بسبب تعاطفي معها . وأخيراً انعطفنا إلى « شارع الفلاسفة » الأعرض والأكثر خلواً وموتاً المعبر عن الاقفار الكامل للاحترام الهاجع . ولدى رؤيتنا لشباكين مضاعين ، واضحين من بعيد ، تخيلت السيدة هالدين في كتبها ، في يقظة رهيبية معدّبة تحت السيطرة الشريرة لحكم استبدادي : ضحية الطغيان والثورة ، وياله من مشهد قاس وغريب :

* * *

ثالثاً -

قالت ناتاليا هالدين :

— ألن تدخل لاحظة ؟

ترددت لأن الوقت كان متأخراً . ولكنها ألحت :

— أنت تعرف أن أمي تحبك كثيراً .

— سأدخل لأعزف كيف هي حالة أمك فحسب .

قالت كأنما تخاطب نفسها :

— لا أعرف حتى إن كانت ستصدق أني لم أستطع أن أجد السيد

رازوموف ، حيث أنها قد وضعت في رأسها فكرة مفادها أني أخفي عنها

شيئاً ما . قد تكون أنت قادراً على اقناعها .

قلت :

— قد تفقد أمك ثقتها بي أنا أيضاً .

— أنت ؟ لماذا ؟ ما الذي يمكنك أن تخفيه عنها ؟ لست روسياً ولا

متآمراً .

أحسست بعمق عزلي الأوربية ، ولم أقل شيئاً ، ولكنني صممت على

أن ألعب دور المتفرج الذي لا حول له حتى النهاية . كان هدير الرعد

البعيد في وادي الرون يقترّب من المدينة النائمة ، مدينة الفضائل المبتدلة

والضيافة العالمية . عبرنا الشارع المقابل للبوابة الكبيرة المعتمة ، وقرعت
الآنسة هالدين جرس باب الشقة . وقد فتح على النور تقريباً ، وكان
الخدام العمجوز كانت تنتظر في الغرفة الخارجية عودتنا . كان لوجهها
بسيط الملامح علامة ارضاء . قالت وهي تغلق الباب ان السيد موجود في
الداخل .

لم يفهم أي منّا ما قالته . التفتت الآنسة هالدين نحو الورااء بنظاظة
وقالت :

— من ؟

قالت الخادم :

— الهر (السيد) رازوموف .

كانت قد سمعت من حديثنا قبل أن نغادر ما يكفي حتى تعرف سبب
خروج سيدتها الشابة . ولذلك ، حين لفظ السيد اسمه عند الباب ،
سمحت له بالدخول فوراً .

غمغمت الآنسة هالدين وعيناها الرماديتان الجديتان مثببتان على
عينيّ :

— ما كان في وسع أحد أن يتنبأ بذلك .

والدى تذكرى للتعبير الذي كان على وجه الشاب منذ فترة لا تزيد
عن أربع ساعات ، نظرة شخص مسكون يسير في نومه ، فقد أصبت
بشيرة وبنوع من الرهبة .

سألت الآنسة هالدين الخادم :

— وهل سألت أمي أولاً؟

أجابت وهي مدهوشة من القلق الذي كان على وجهينا :

— لا ، لقد أعلنت قدوم السيد فحسب .

قلت بلهجة خنيفة :

— مع ذلك ، فقد كانت أملك على استعداد .

— أجل ، ولكنه لا يعرف شيئاً عن

بدأ لي أنها كانت تشكّ في مدى لباقته . وعلى سؤالها كم مضى على السيد وهو مع أمها ، قالت الخادم ان السيد في غرفة الاستقبال منذ ما لا يزيد عن ربع ساعة .

انتظرت لبرهة ، ثم انسحبت والخوف باد عليها . حدثت اليّ
الآنسة هالدين في صمت .

قلت :

— طالما حدث ما حدث ، فأنت تعرفين بالضبط ما سيقوله صديق
أخيك لأملك . وبعد ذلك لا شكّ أن . . .

قالت ناتاليا هالدين ببطء :

— أجل ، ولكنني أتساءل فحسب ، أنه طالما لم أكن هنا حين وصل ،
ان لم يكن من الأفضل ألاّ تقاطعهما الآن .

بقينا صامتين ، وأعتقد أن كلاّ منا قد أجهد أذنيه ولكن لم يصلنا
أي صوت عبر الباب . كانت ملامح الآنسة هالدين تعبّر عن تردّد
مؤلّم . تحركت كأنما تريد الدخول ولكنها كبحت نفسها . كانت قد
سمعت وقع خطوات على الطرف الآخر من الباب . فتح الباب ونحطنا

رازوموف ، دون توقف خارجاً إلى الغرفة الجانبية . كان انهاك ذلك اليوم والصراع مع نفسه قد بدّلاه كثيراً حتى أنني كنت سأتردد في التعرف على ذلك الوجه فقد كان مجفلاً بما فيه الكفاية انما على نحو مختلف وذلك قبل ساعات قليلة فحسب وذلك حين مرّ إلى القرب مني أمام مكتب البريد . لم يكن شاحباً إلى هذا الحد آنذاك ، وكانت العينان غير كئيبتين إلى هذا الحد . كانتا تبهوان أعقل الآن دون شك ، ولكن كان عليهما ظلّ شيء ما يتسم بالشر مع الشعور بالإثم .

أتحدث عن هذا لأن نظرتهما سقطت أولاً عليّ ، رغم أن ذلك حدث دون أي نوع من التمييز أو حتى النهم . كنت ببساطة ضمن خط تحديقته . ولا أعرف ان كان قد سمع جرس الباب أو كان يتوقع أن يرى أي شخص هنا . كان خارجاً ، على ما أعتقد ، ولا أظن أنه رأى الآنسة هالدين حتى تقدمت منه خطوة أو خطوتين . وقد تجاهل اليد التي مدتها له .

— أهذا أنت يا ناتاليا فيكتوروفنا . . . ربما أنت مندهشة . . . في مثل هذه الساعة المتأخرة . ولكن كما ترى ، فقد تذكرت حديثنا في تلك الحديقة . وقد فكرت بالفعل انها كانت حقاً رغبتك في أن أزوركما . . . دون تضييع للوقت . . . لذلك جئت . ليس هناك سبب آخر . فقط لأحكي ببساطة . . .

كان يتحدث بصعوبة . لاحظت ذلك ، وتذكرت تصريحه للرجل الذي في الدكان بأنه كان خارجاً لأنه يحتاج إلى « أن يشمّ الهواء » . واذا كان ذلك هو هدفه ، فقد كان واضحاً اذن أنه فشل على نحو بائس . وبعينين مسبلتين ورأس مطأطئة حاول أن يكمل جملة المخنوقة .

– لأحكي ما سمعته اليوم بنفسني . . . اليوم فحسب . . . اليوم . . .
عبر الباب الذي لم يغلقه رأيت غرفة الاستقبال . كان ينيرها مصباح
مظلل . . . ما كانت عينا السيدة هالدين تتحملان لا الغاز ولا الكهرباء .
كانت غرفة كبيرة نسبياً ، وبالتباين مع الغرفة الجانبية شديدة الاضاءة
فقد كان طولها ضائعاً في عتمة نصف شفافة خلفها ظلال ثقيلة . على هذه
الخلفية شاهدت الجسم الساكن للسيدة هالدين ، المنحني قليلاً نحو
الأمم ، ويد شاحبة ترتاح على يد الكنبه .

لم تتحرك . ومع تلك النافذة أمامها لم يعد لها هيئة من يجلس متوقفاً .
كان مصراع النافذة مسدلا وفي الخارج كانت هناك سماء الليل التي تحتضن
غيمة واحدة ، والمدينة لا مبالية ومضيفا في لا تعصبها البارد بل والمترع
بالازدراء تقريباً . . . مدينة محترمة للجوء لا تعير كل هذه الأحزان
والآمال أي اهتمام . كانت رأسها البيضاء مطأطة .

خطرت لي فكرة مقادها أن الدراما الحقيقية للحكم الاستبدادي الفردي
لا يجري تمثيلها على المسرح الضخم للسياسة ، وذلك حين كنت أنا الذي
حكيم عاينه القدر لعب دور المشاهد ، أخطف لمحة أخرى من خفاف
الكواليس ، شيئاً ما أكثر عمقاً من الكامات والتاميمات الخاصة
بالمسرحية العامة . كنت على يقين أن هذه الأم رفضت في قاهها أن تتخاضى
اطلاقاً عن ابنها . كان ذلك شيئاً أكبر من حداد « راحيل » (١) الذي
لا ساوان له . كان شيئاً أعمق وأكثر تعذراً على الباوغ في هدوئه المخيف .
كانت الصورة الجانبية البيضاء المنحنية في ضياعها ضمن الكومة غير

(١) راحيل هي زوجة يعقوب وأم يوسف الصديق . (المترجم)

المحددة للكعبة ذات الظهر العالي ، توحى بأنها تتأمل في شيء في حضنها ،
وكان هناك رأساً محبوباً ترتاح هناك .

اختلطت تلك اللمحة مما وراء الكواليس ، ثم أغلقت الأنسة هالدين ،
وهي تمر بالشباب ، الباب . لم تفعل ذلك دون تردد . ولبرهة فكرت
أنها ستذهب إلى أمها ، ولكنها أرسلت نظرة قائمة إلى الداخل فحسب .
ربما لو تحركت السيدة هالدين . . . ولكن . . . لا . كان في سكون ذلك
الوجه الشاحب العزلة المخيفة للمعاناة التي لا دواء لها .

في هذه الأثناء أبقى الشاب عينيه مثبتتين على الأرض . وكانت
فكرة أنه سيضطر إلى تكرار الحكاية التي سبق له وحكاها ، كانت
تلك فكرة لا يستطيع احتمالها . كان قد توقع أن يجد المرأتين معاً . ثم ،
كان قد قال لنفسه ان المسألة ستنتهي مرة وإلى الأبد . . . إلى الأبد : كان
قد فكر بتهكم : « من حسن حظي أني لا أؤمن بالعالم الآخر . »

كان وحيداً في غرفته بعد أن أرسل الرسالة السرية بالبريد ، فاستعاد
بعض الهدوء النسبي بأن راح يكتب في دفتر مذكراته السرية . كان مدركاً
لخطر هذا التساهل مع الذات . وهو يشير إلى ذلك بنفسه ، ولكنه لم
يستطع أن يمتنع عن الكتابة . كان ذلك يمنحه الهدوء . . . كانت تجعده
في انسجام مع وجوده . جالس هناك وهو يكتب في نور الشمعة الوحيدة ،
حتى خطر له أنه بعد أن سمع تفسير عمالية القبض على هالدين ، كما
طرسها صوفياً أنتونوفنا ، فقد كان ينبغي عليه أن يحكي ذلك للسيدات
بنفسه . كانتا ستسمعان الحكاية بكل تأكيد من مصدر آخر ، وعندها
سيبدو امتناعه عن ابلاغهما أمراً غريباً ، ليس بالنسبة إلى الأم والأخت ،
ولكن إلى الناس الآخرين أيضاً . وبعد أن وصل إلى هذه النتيجة لم يكتشف

في نفسه أي تردد ما حوِّظ في مواجهة الضرورة ، وسرعان ما بدأ التآهف على الانتهاء من ذلك يعدّبه . نظر إلى ساعته . لا ، لم يكن الوقت متأخر آجداً .

كانت الدقائق الخمس عشرة مع السيدة هالدين أشبه بالثأر من المجهول : ذاك الوجه الأبيض الشاحب ، ذلك الصوت الضعيف الواضح الذبرات ، تلك الرأس التي التفتت إليه أولاً باهتة ثم انحنت بعد فترة من جديد بقيت ساكنة - في الضوء الخافت الكثيب للغرفة التي رنّت فيها كإماتته التي حاول تخفيف وقعها ، رنّت عالياً - . كل ذلك أثار فيه الاضطراب كأنه اكتشاف غريب . وقد بدا له وجود عناد سرّي في ذلك الأسي ، كان شيئاً لم يستطع أن يفهمه وعلى أية حال كان شيئاً لم يتوقعه . هل كان ذلك عدائياً ؟ ولكن ذلك لا يهم . لا شيء يمكنه أن يناله الآن . ففي نظر الثوريين لم يكن هناك الآن شيء ظل ماقى على ماضيه . كان شبح هالدين قد تم تخطّيه بالفعل ، لقد ترك هناك ممدداً دون حول ولا قوة على الرصيف المغطى بالشاح . وكانت هذه هي أم الشبح الذي أنهكها الحزن شاحبة كالاشباح . كان قد أحس بدهشة مريعة بالشفقة . ولكن كانت تلك غير ذات أهمية طبعاً . الأهميات لا شأن لها . لم يستطع أن يبعد عن نفسه الانطباع اللاذع الذي تركته المرأة الصامتة الهادئة ذات الشعر الأبيض ، ولكن نوعاً من الصرامة زحف إلى أنكاره ، كانت تلك هي العواقب . حسناً ، وما يعني ذلك ؟ « وهل أنا على سرير من الزهور ؟ » هذا ما كان قد قاله لنفسه ، وهو جالس بعيداً وعيناه مثبتتان على ذلك الجسم المجسّد الحزن . كان قد قال كل ما لديه ، وحين انتهى لم تكن قد تأنفت بكامة واحدة . كانت قد أشاحت برأسها بعيداً وهو يتكلم . وكان الصمت الذي سقط على آخر كإماتته قد دام

خمسة دقائق أو أكثر . ما كان معنى ذلك ؟ أمام صفته غير المفهومة هذه أصبح مدركاً لغضب في مزاجه الصارم ، الغضب القديم ضد هالدين عاد ليستيقظ بسبب تأمله لأم هالدين . أو لم يكن شيئاً أشبه بالحسد هو الذي يتشبث بقبابه ، كأنما هو ميزة أنكرت عاياه هو وحده بين كل الناس الذين عاشوا في هذا العالم ؟ كان الآخر هو الذي استطاع أن يرتاح ومع ذلك فقد استطاع أن يستمر في الوجود في عاطفة تلك المرأة العجوز الحزينة ، في أفكار كل هؤلاء الناس الذين يدعون حب الانسانية . كان مستحيلاً للتخاطب منه . فكر رازوموف : « انها نفسي تلك التي سلمتها للدمار . . . لقد دفعني إلى ذلك . لا أستطيع أن أتخاطب منه » .

نهض منزعجاً من هذا الاكتشاف وخرج من الغرفة الخرساء خافته الاضاءة بامرأتها العجوز الصامتة في الكرسي ، تلك الأم ! لم ينظر إلى الخلف أبداً . كان ذلك هروباً صريحاً . ولكنه حين فتح الباب رأى أن تراجع قد قوطع . كانت هناك الأخت . لم يكن قد نسي الأخت ، ولكنه لم يكن يتوقع رؤيتها آنذاك ، أو كان يتوقع ألا يراها بعد الآن أبداً ، ربما . كان وجودها في الغرفة الجانبية مسألة لم يستطع التنبؤ بها ، كما كان شبح أخيها . أجفل رازوموف وكأنه اكتشف أنه قد وقع في الفخ بخداقة . حاول أن يتسم ، فلم يستطع ، فأخفض نظره . سأل نفسه : « هل عليّ أن أكرر تلك القصة الغبية مرة أخرى ؟ » انتابه شعور أشبه بشعور الغريق . لم يكن قد تناول طعاماً منذ اليوم السابق ، ولكنه لم يكن في حالة تسمح له بتحايل أسباب ضعفه . كان ينوي أن يأخذ قبعته ويغادر بأقل ما يمكن من الكلمات ، ولكن حركة الآنسة هالدين السريعة التي أغامت بها الباب فاجأته . التفت إليها نصف التفاتة دون أن يرفع عينيه ،

بحركة سابية ، كما قد تتحرك ريشة في الريح . وفي اللحظة التالية كانت قد عادت إلى المكان الذي انطلقت منه ، فما كان منه سوى أن التفت نصف التفاتة أخرى ، بحيث عادا إلى وضعيهما السابقيين .

قالت باهجة عاجلة :

— أجل ، أجل . أنا ممتنة لك جداً يا كبير يا سيدوروفيتش لقدوماك على الغور . . . هكذا . . . ولكني كنت أتمنى لو . . . هل قالت لك أمي ؟

قال كأنما لنفسه ولكن على نحو مسموع :

— لا أعرف ما كانت تستطيع أن تقوله لي ولا أعرفه من قبل .

ثم أضاف بصوت أعلى ولكن كأنما في يأس :

— لأنني كنت أعرف ذلك بالفعل وعلى الدوام .

ترك رأسه مدلاة . كان لديه احساس قوي جداً بحضور ناتاليا هالدين بحيث أنه كان يشعر أنه سيرتاح لو نظر إليها . انها هي التي تسكنه الآن . وهو يعاني من هذه الملاحظة منذ أن ظهرت أمامه فجأة في حديقة « قصر بوريل » بيد ممدودة واسم أخيها على شفثيها . . . كان في الغرفة الملحقة صف من الكتب على الجدار أقرب إلى الباب الخارجي ، بينما كان على الجدار المقابل طاولة واطئة داكنة اللون وكروسي واحد . كان ورق الجدران الذي يحمل رسمة باهتة أبيض اللون تقريباً . كما كان نور المصباح الكهربائي العالي تحت السقف مباشرة يضئ بشدة ذلك الصندوق المربع بزواياه الأربع الفارغة ، ببساطة ، دون ظلال . . . وبالها من خشبة مسرح غريبة للدراما مغمورة .

سألته الآنسة هالدين :

— ما الذي تعنيه ؟ ما هذا الذي كنت تعرفه على الدوام ؟

رفع وجهه الشاحب المترع بالمعاناة غير المعبر عنها . ولكن تلك النظرة في عينيهِ ، نظرة العناد الكئيب الغائب ، والتي كانت تصعق وتدهش كل شخص كان يخاطبه ، بدأت تزول . كأنما كان يعود إلى نفسه في ذلك الإدراك المستيقظ بذلك التناسق الرائع في الملامح والخطوط والنظرات والصوت التي كانت تجعل الفتاة أمامه كائناً نادراً جداً ، خارج وفوق الفكرة المعتادة للجمال . نظر إليها طويلاً جداً حتى احمر وجهها قليلاً .

كررت باهجة غامضة :

— ما الذي كنت تعرفه ؟

في هذه المرة نجح في الابتسام .

— لولا كلمة تحية أو كلمتين لكنت سأشاك في أن أمك كانت مدركة

لوجودي . هل فهمت ما أعنيه ؟

أومأت ناتاليا هالدين برأسها . تحركت يداها بخفة إلى جانبيها .

— أجل . أليس في ذلك ما يحطم القلب ؟ لم تذرف دمعة واحدة حتى

الآن . . . ولا دمعة واحدة .

— ولا دمعة واحدة ! وأنت يا ناتاليا فيكتوروفنا ؟ هل كنت قادرة

على البكاء ؟

— أجل . وعلى أية حال فأنا شابة بما فيه الكفاية يا كبير ياو

سيدوروفيتش حتى أؤمن بالمستقبل . ولكنني حين أرى أمي خزينة إلى

هذا الحد ، أكاد أنسى كل شيء . أسأل نفسي ان كان علي أن أشعر بالفخر . . . أو بالاستسلام . لقد جاء الكثير من الناس لزيارتنا . كان هناك أناس غرباء تماماً كتبوا إلينا يطلبون زيارتنا ليقدموا تعازيمهم . كان مستحيلاً علينا اغلاق بابنا إلى الأبد . أنت تعرف أن بيتر ايفانوفيتش نفسه . . . أجل ، كان هناك الكثير من التعاطف ، ولكن كان هناك أيضاً أشخاص كانوا يعبرون بصراحة عن ابتهاجهم بموته : ثم ، حين تركت وحيدة مع أمي المسكينة ، بدا هذا كانه ذا روح خاطئة ، شيئاً لا يستحق الثمن الذي تدفعه أمي لقاءه . ولكني ما أن سمعت أنك هنا في جنيف ، يا كيرياو سيدوروفيتش ، حتى أحسست أنك الشخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتي . . .

– في التخفيف عن أم ثكلى ؟ أجل !

هكذا قاطعها بأسلوب جمعها تفتح عينيها الرائعتين البريتين . ثم استأنف قائلاً :

– ولكن هناك مسألة الملاعة . هل خطر لك هذا السؤال ؟

كان في كلامه نوع من اللاهث الذي كان يتباين مع التامبج الفظيع إلى السخرية في مغزاه .

همست ناتاليا هالدين بانفعال :

– عجباً ! ومن هو أكثر منك ملاعة ؟

قام بحركة تشنجية تدل على اليأس ، ولكنه سيقطر على نفسه .

– بالفعل ! ما أن سمعت أني هنا في جنيف وقبل أن تريني ؟ هذا

برهان آخر على تارك الثقة التي . . .

تغيرت لهجة فوراً وأصبحت أكثر حدة وحيادية .

– الرجال مخلوقات بائسة يا ناتاليا فيكتوروفنا . انهم لا يتمتعون
بجدس العاطنة . وحتى يستطيع شخص ما التحدث على نحو ملائم مع أم
تكلى عن ابنها الذي فقده فلا بد أن لهذا الشخص أن يكون قد جرب
علاقة الابن بالأم . وليست هذه حالي ان كان عليك أن تعرفي الحقيقة
كلها . على آمالك أن تتعامل هنا مع « صابر لم تدفنه أبة عاطنة » كما يقول
الشاعر . . . وهذا لا يعني أنه صابر دون احساس .

هذا ما أضافه بصوت أخفض .

قالت الآنسة هالدين بلطف :

– أنا واثقة من أن قلبك لا يخلو من الشعور .

– لا . ليس قاسياً بالحجر .

هذا ما قاله بالصوت الاستبطاني نفسه ، وهو يبدو وكأن قلبه كان
يقبع ثقيلاً كصخرة في ذلك الصابر غير المدفأ الذي كان يتحدث عنه .
ثم استأنف قائلاً :

– لا ، ليس قاسياً إلى هنا الحد . ولكن كيف أثبت ما تمنحيني
الثقة من أجله . . . ؟ ! آه ! هذا سؤال آخر . لم يكن هناك من توقع
مني مثل هذا الأمر سابقاً . لا أحد كان يمكن لرقتي أن تكون ذات فائدة
له . وها أنت تأتين الآن . أنت ! الآن ! لا يا ناتاليا فيكتوروفنا . لقد
فات الأوان . لقد حضرت بعد أن فات الأوان . عليك ألا تتوقعي مني
أي شيء .

تراجعت قايلاً مبتعدة عنه ، رغم أنه لم يقم بأية حركة ، وكأنها
رأت في وجهه تديلاً ما ، وهو يشحن كلماته بمغزى عاطفة سرية ما كانا

يشتركان بها معاً . بالنسبة اليّ أنا المشاهد الصامت ، كانا يبدوان لي كشخصين أصبحا يدركان لعنة كانت قد حلتّ بهما منذ أن تقابلا لأول مرة . ولو أن أياً منهما نظّر باتجاهي في تلك اللحظة ، لكنك سأفتح الباب بهدوء وأخرج . ولكن لم يفعل أي منهما ذلك . وبقيت وقد فقدت كل خوف من ارتكابي لعمل طائش وذلك بسبب بعدي المائل عن عبوديتهما ضمن الأفق الكئيب للمشاكل الروسية ، ضمن حدود أعينهما ومشاعرهما سهجن روحيهما .

سيطرت الأنسة هالدين على صوتها بصراحتها وشجاعتها في خضم ورطتها .

سألته وكأنها تخاطب نفسها :

— ما معنى هذا ؟

— قد تعني أنك قد استسلمت لتخيّلات عميقة بينما استطعت أنا أن أبقى بين حقيقة الأمور وحقائق الحياة ، حياتنا الروسية ، كما هي فعلاً .

غمضت :

— انها القاسية .

— وبشعة . لا تنسي ذلك وبشعة. انظري أنتي تشائين . انظري إلى القرب منك ، هنا في الخارج حيث أنت ، ثم انظري إلى الوطن من حيث أتيت . . .

— على المرء أن ينظر إلى ما بعد الحاضر .

كانت للهجتها قناعة صادقة .

– يمكن للعميان أن يفعلوا ذلك على أفضل وجه . لقد كان من سوء حظي أن ولدت بعينين صافيتي الرؤية . ولو أنك تعرفين فحسب الأمور الغريبة التي رأيتها ! يا لها من أشباح مدهشة غير متوقعة ! . . . ولكن لماذا نتحدث عن ذلك كله ؟

– على العكس ، أريد أن أتحدث عن هذا كله معك .

هكذا احتجت الآنسة هالدين بجديّة صادقة . لم تكن الروح التهكمية الكثيرة لصديق أخيها قد أثرت فيها ، كأنما كانت تلك المرارة ، وذلك الغضب المكبوت ، أمارات على صحة رأي ساخط . لقد عرفت أنه شخص غير عادي ، وربما لم تكن تريد منه أن يكون سوى ما كان يبدو لعينيهما الواثقتين .

ألتحت :

– أجل ، معك خصيصاً . معك أنت من بين كل الروس في هذا العالم . . .

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفثيها لبرهة ثم تابعت :

– أنا كأمي المسكينة نوعاً ما . أنا أيضاً أبدو غير قادرة على التخلي عن المتوفي الحبيب الذي ، وعليك ألا تنسى ، كان كل ما لدينا في هذا العالم . لا أريد استغلال تعاطفك ، ولكن عليك أن تتفهم أننا نستطيع أن نجد فيك كل ما تبقى من روحه الكريمة .

سند ، أنظر إليه ؛ لم تختلج عضلة واحدة في وجهه . ومع ذلك ، وحتى في ذلك الحين ، لم أكن لأشكّ في أنه عديم الحساسية . كان ذلك نوعاً من التأمل السابع في عالم آخر . ثم تحرك قليلاً .

سألته .

— أنت راحل يا كيرياو سيدوروفيتش ؟

— أنا ! راحل ؟ إلى أين ؟ أوه ، أجل ، ولكن عليّ أن أحكي لك
أولاً . . .

كان صوته مكبوتاً وأجبر نفسه على أن يتكلم باشمئزاز واضح ،
كأنما كان الكلام شيئاً مثيراً للاشمئزاز أو مميتاً .

— تلك الحكاية ، أنت تعرفين . . . الحكاية التي سمعتها عصر هذا

اليوم . . .

قالت بحزن .

— أعرف هذه الحكاية .

— أنت تعرفينها ! هل لديك مراسلون في سانت بطرسبورغ أنت

أيضاً ؟

— لا ، انها صوفيا أنتونوفنا . لقد رأيتها للتو . وهي ترسل لك

تحياتها . انها راحلة غداً .

كان قد أخفض أخيراً نظرتة المأخوذة . وكانت هي تنظر إلى

الأسفل ، وهكذا كانا يقفان الواحد منهما أمام الآخر تحت النور الشديد ،

بين الجدران الأربعة العارية ، فيظهران وكأنهما قد جُلدا شخصيهما من

تلك الضبخامة المشوشة للحدود الشرقية ليعرضا بقسوة تحت أنظاري

الغريبة . وكنت أراقبهما . لم يكن هناك ما أفعله سوى ذلك . بدا وجودي

منسياً تماماً من قبل هذين حتى أنني لم أجرو على القيام بحركة واحدة . ثم

فكرت بيني وبين نفسي أنهما لابد أن يتحددا معاً بالطبع ، أخذت ذلك

الرجل الميت وصديقه . فالأفكار والآمال والطموحات وقضية الحرية المعبر عنها في عاطفتها المشتركة تجاه فيكتور هالدين ، الضحية الأخلاقية للحكم الفردي الاستبدادي . . . كل هذا من شأنه أن يجمعهما متآ على نحو لا يقاوم . كانت قلة خبرتها ووحده التي أشار إليها على نحو غريب جداً ستؤديان إلى تلك النهاية حتماً . وقد رأيت أن ذلك سبق له وتم بالفعل . طبعاً . كان واضحاً أنهما يفكران واحدهما بالآخر منذ فترة طويلة قبل أن يلتقيا . كانت معها تلك الرسالة من أخيها الحبيب التي كانت تقدم تخيلاتنا بذلك المديح الشديد لذلك الاسم الوحيد ، وبالنسبة إليه كان يكفي مجرد رؤية تلك الفتاة الرائعة . وكان السبب الوحيد هو هذا التحفظ الكئيب أمام ترحيبها المعبر عنه بصراحة . ولكنه كان شاباً ، ومهما يكن متمتاً ومكرساً نفسه لمثالياته الثورية ، فهو لم يكن أعشى . لقد انقضت فترة التحفظ . انه يتقدم بأسلوبه الخاص . لم أستطع أن أخطيء في فهم مغزى زيارته الأخيرة ، فلم يكن فيما يريد قوله أي الحاح . اتضح لي السبب الحقيقي لقدمه : لقد اكتشف أنه في حاجة إليها . . . وكان يدفعها هذا الشعور نفسه . كانت تلك هي المرة الثانية التي أراهما فيها معاً ، وكنت أعرف أن المرة التالية التي سيتقابلان فيها ستكون بدون وجودي ، سأكون إما متذكراً أو منسياً . سأكون قد توقفت عن الوجود بالنسبة إلى هذين الشابين كليهما .

وقد قمت بهذا الاكتشاف خلال لحظات قليلة . وفي هذه الأثناء كانت ناتاليا هالدين تحكي لرازوموف باختصار عن رحلاتنا من أول جنيف إلى آخرها . وخلال حديثها كانت قد رفعت يديها إلى ما فوق رأسها لتحلّ وشاحها ، وقد كشنت تلك الحركة في لمحة خاطئة الرشاقة

المخوية لجسدها الشاب ، المرتدي أبسط ملابس الحداد . وفي الظلّ الشفاف الذي كانت حافة القبعة تلقيه على وجهها كان لعينيها الرماديتين بريق جذاب . كان صوتها بمادته غير الأنثوية ، وان تكن فاتنة ، ثابتاً ، وكانت تتكلم بعجلة وصراحة ودون اضطراب . وبينما كانت تهرر تصرفها بالحالة العقلية لأمها ، شوّهت نوبة من الألم التناسق الواثق المعطاء للملحمة . لقد أدركتُ أنه بعينيهِ الناظرين إلى أسفل كان يبدو كرجل يصغي إلى لحن موسيقي وليس إلى كلام منطوق . وبالطريقة نفسها ، وبعد أن توقفتُ عن الكلام ، بدا وكأنه لا يزال يصغي إليها ، دون حراك ، وكأنه لا يزال تحت تأثير الصوت الموحى . ثم عاد إلى طبيعته وغمغم :

– أجل ، أجل . لم تذرف دمعة واحدة . لم يبدا عليها أنها كانت تسمع ما كنت أقوله . كان يمكنني أن أقول لها أي شيء . بدأت وكأنها لم تعد تنتمي إلى هذا العالم .

أومأت الأنسة هالدين بإشارات تدلّ على الحزن العميق . تعثّر صوتها :

– أنت لا تعرف إلى أي حد ساءت الأمور . إنها تتوقع « أن تراه ! »

سقط الوشاح من أصابعها فشبكت يديها في ألم . ثم صاحت :

– سيتهي الأمر بأن تراه .

رفع رازوموف رأسه بحدة ورمى إليها بنظرة مطوّلة متأملّة ، ثم

غمغم بلهجة غريبة كأنه يبدي رأيه في أمر واقع :

– هم . . . م . . . هذا ممكن جداً . أتساءل ان . . .

ثم كبح نفسه .

— ستكون تلك هي النهاية . سيكون عقابها قد ولّى ومتاحق روحها

به .

فكّت الأنسة هالدين يديها المتشابكتين وتركتهما تسقطان جانباً .

سألها بعيني :

— أو تظنين ذلك ؟

كانت شفتا الأنسة هالدين قد افترتا قليلاً ، فقد كان قد فتنها شيء غير متوقع وغير ممكن فهمه في شخصية ذلك الشاب منذ البداية . أضاف بعد فترة توقّف ثقيلاً :

— لا ، لا الحقيقة ولا المساوان يمكن الحصول عليهما من أشباح الموتى . كان يمكنني أن أحكي لها شيئاً صادقاً ، مثلاً أن أخاك كان يريد انقاذ حياته . . . أن ينجو بجأده . لا شكّ في ذلك . ولكنني لم أكن أريد :

— لم تكن تريد ! لماذا ؟

— لا أعرف . دخلت أفكار أخرى إلى رأسي .

بدا لي وكأنه يراقب نفسه داخلياً ، وكأنه يحاول أن يعدّ دقائق قلبه ، بينما لم تغادر عيناه ولو للحظة واحدة وجه الفتاة . استأنف يقول :

— لم تكوني هناك . كنت قد قرّرت ألاّ أراك مرة أخرى .

بدا هذا وكأنه قطع أنفاسها للحظة .

— أنت ، . . . وكيف يمكنك ذلك ؟

— بحقّ لك أن تسألني . . . وعلى أية حال ، أعتقد أنني تجنّبت أن

أخبر أمك من باب الخلد . كان يمكنني أن أؤكد لها أنه في آخر محادثة له كرجل حرّ تذكّر كما كنتيكما

قالت بصوت عميق مؤثر :

- . . . تلك المحادثة الأخيرة كانت معك . يوماً ما سيكون عايبك . . .
- كانت معي . قال عنك ان لك عينين مترعتين بالثقة . لا أعرف لماذا لم أستطع أن أنسى تلك العبارة . كان ذلك يعني أنه لا مكر فيك ولا خداع ولا زيف ولا شك . . . لا شيء في قلبك يمكنه أن يمنحك فكرة عن كذبة حيّة فعالة ناطقة ، هذا اذا ما صادفتها في طريقك . أنت ضحية محكومة بالقلل . . . ها ! يا لها من فكرة شيطانية !

كانت اللهجة التشجّية غير المسيطر عايبها للكلمات الأخيرة قد كشفت عن مدى لا تحكّمه في نفسه . كان أشبه برجل يتحدّى الدوار الذي يصيبه في المناطق الشاهقة ويترنّح فجأة على حافة الهاوية . ضغطت الآنسة هالدين بيدها على صدرها . كان الوشاح قد سقط من يديها على الأرض بينهما . جعلته حركتها يستعيد توازنه . نظر بتمعّن إلى تلك اليد حتى هبطت ببطء ، ثم رفع عينيه مرة أخرى إلى وجهها . ولكنه لم يمنحها الفرصة للتكلم .

- لا ؟ أنت لا تفهمين ؟ حسناً .

كان قد استعاد هدوءه ، بمعجزة قامت بها ارادته .

- اذن فقد تحدثت مع صوفيا أنتونوفنا ؟

- أجل . قالت لي صوفيا أنتونوفنا . . .

وهنا توقفت الآنسة هالدين عن ، والتعجّب يكبر في عينيهما

الواسعتين .

غمغم كأنه لوحده :

— هم . . . م . . . هذا هو العدو المحترم .

قالت الآنسة هالدين بعد أن انتظرت لفترة قصيرة :

— كانت لهجة كلامها عنك ودية جداً .

— وهل كان ذلك هو انطبعاك ؟ وهي أكثرهن ذكاء أيضاً .

الأمر تسير على ما يرام . كل شيء يتأمر على . . . آه ! هؤلاء المتآمرون :

ثم استأنف بلهجة الاحتقار نفسها وبيطء :

— سيسيطرون عليك في أقرب فرصة ! أتعرفين يا ناتاليا أنني ألقى

أشد الصعوبات لإنقاذ نفسي من الخوف المجهول من حكم ربّاني

ناشط . هذا أمر لا يقاوم . . . والبديل هو بالطبع الشيطان الشخصي لأجدادنا

البسطاء . ولكن ، ان كان الأمر كذلك ، فقد بالغ بالأمر كثيراً . . .

ذلك الأب العجوز للأكاذيب — راعينا الوطني — إلهنا المحلي ، الذي

تأخذه معنا حين نسافر إلى الخارج . لقد بالغ في الأمر . ويبدو أنني لست

ساذجاً بما فيه الكفاية . . . هذا كل ما في الأمر ، وكان عليّ أن أعرف

ذلك . . . ولقد عرفته .

هذا ما أضافه بلهجة بؤس لاذعة طغت على دهشتي .

قلت في نفسي وأنا أشعر بخوف شديد : « هذا الرجل محبّل . »

وفي اللحظة التالية تأقيت منه انطباعاً خاصاً جداً يتجاوز كل التعاريف

العادية . كأنه كان قد طعن نفسه في الخارج ثم جاء ليعرض ذلك ، بل

وأكثر من ذلك . . . كأنما كان يقابب الخنجر في الجرح ويراقب تأثير

ذلك . كان ذلك هو الانطباع اذا ما عبرنا عنه بأغة الماديات . لم يكن في

وسع المرء أن يمنع عن نفسه كمية معينة من الشفقة . ولكنني كنت أشعر

بالقائ الجدي على الآنسة هالدين الّتي امتُحنت في أعمق عواطفها . كان موقفها ، ووجهها وتعاطفها الواضح يتصارع مع الشاك على حافة الرعب .

— ما الأمر يا كيرياو سيدوروفيتش ؟

كان هناك ايجاء بالرقّة في تناك الصرخة . ولكنه حدق إليها في ذلك الاستسلام الكامل لكل قواه الّتي نسميها « النشوة » لدى العشاق السعداء .
— لم تنظر إليّ هكذا يا كيرياو سيدوروفيتش ؟ لقد عاتبناك بصراحة . وأحتاج في هذه اللحظة إلى أن أرى نفسي بوضوح . . .

توقفت عن الكلام للتحظة كأنما لتمنحه الفرصة ليألفظ أخيراً كلمة تستحقها ثقتها السامية في صديق أخيها . ولكن صمته أصبح مشيراً للخشية ، بل وأشبهه بدليل على قرار خطير .

وأخيراً استأنفت الآنسة هالدين كلامها باهجة متوساة :

— لقد انتظرتك باهفة . ولكنك ما أن قدمت الآن بافئة كرم منك ، حتى أقتني . أنت تتكلم على نحو غامض . يبدو عايناك كأنك تخفي شيئاً ما عني .

وأخيراً نطق بصوت غريب لا رنة فيه :

— قولي لي يا ناتاليا فيكتوروفنا ، من رأيت في ذلك المكان ؟

أجفلات ، كأنما خدعت في توقعاتها .

— أين ؟ في غرفة بيتر ايمانوفيتش ؟ كان هناك السيد لاسبارا وثلاثة أشخاص آخرين .

— ها هه ! الطليعة . . . الأمل اليائس للمؤامرة الكبرى . حاماو شرارة البدء بانفجار سيغير جوهرها حيوات ملايين كثيرة حتى يكون بيتر ايمانوفيتش رئيس دولة .

قالت :

- أنت تغيظني . لقد قال لي ذلك العزيز عاينا مرة ان عليّ أن أتذكر أن الأشخاص يخدمون دائماً شيئاً ما أكبر من أنفسهم . . . الفكرة ، كرّر ببطء :

- العزيز عاينا .

كان الجهد الذي بذله ليبدو غير منفعّل قد امتصّ قوة روحها كلها ، وقف أمامها ككائن لا نفس فيه ، كانت عيناه ، حتى تحت ضغط المعاناة الجسدية ، قد فقدتا كل ما فيهما من نار .

- آه ! أخوك . . . ولكن على شفتيك ، بصوتك ، يبدو . . . وبالفعل فان كل شيء فيك سماويّ . . . أتمنى لو أستطيع أن أعرف أعماق أفكارك ، ومشاعرك .
صاحت منزوعة من هذه الكلمات الخارجة من شفيتين لا حياة فيها :

- ولكن لماذا يا كيري او سيدوروفيتش ؟

- لا تخافي . لن أخونك . اذن ، ذهبت إلى هناك ؟ . . . و صوفيا أنتونوفنا ، ما الذي قالت لك ؟

- قالت القليل جداً . كانت تعرف أنني سأسمع كل شيء منك . لم يكن لديها من الوقت ما يكفي سوى لكلمات قايّة .

وهنا خفت صوت الآنسة هالدين وصمتت للحظة .

ثم استأنفت بجزن :

- يبدو أن ذلك الرجل قد انتحر .

سألها بعد فترة صمت :

– قولي لي يا ناتاليا فيكتوروفنا ، هل تؤمنين بالندم ؟

– ياله من سؤال !

غمغم بصوت أجش :

– وما يمكنك أن تعرفي عنه ؟ انه ليس لأمثالك . . . كنت أنوي

أن أسألك إن كنت تؤمنين بفعالية الندم ؟

ترددت كأنما لم تفهم ، ثم أشرق وجهها .

قالت بحزم :

– أجل .

– اذن فهو مغفور له . وعلاوة على ذلك فان زيمميانيتش ذلك

كان فظاً وسكيراً .

ارتجفت ناتاليا هالدين .

استأنف رازوموف :

– ولكنه رجل من الشعب الذي يقصّ عايه أولئك الثوريون

حكاية الآمال السامية . حسناً ، يجب أن نغفر للشعب . . . وأنت عايلك

ألا تصدقي كل ما سمعته من ذلك المصدر أيضاً .

هذا ما أضافه بنوع من التردد الغريب .

صاحت :

– أنت تخفي عني شيئاً ما .

– اسمع يا كيرياو سيدوروفيتش . أنا أو من بأن المستقبل سيكون

رحيماً بنا جميعاً : ثوريين ورجعيين ، ضحايا وجلاّدين ، خائنين ومخوذين ،

سيشفق عليهم ويغفر لهم ، فبدون ذلك لا يمكن ان تكون وحدة ولا حبّ .

— أنا أسمعك . لا تأثر لك اذن ؟ أبدأ ؟ ولا القابل منه ؟

ابتسم بمرارة بشفتيه الشاحبتين . ثم استأنف قائلاً :

— أنت نفسك أشبه بروح ذلك المستقبل الرحيم نفسه . غريب أنه لا يسهل الأمور . . . لا ! ولكن لنفترض أن الخائن الحقيقي لأخيك . . . كان لزييميانيتش دور في ذلك أيضاً ، ولكنه دور غير هام وغير طوعي . . . افترضني أنه كان شاباً ، عاملاً مثقفاً وذكياً ، مفكراً ، شاباً قد يكون أخوك قد وثق به عن خفة ، ربما ، لكن مع ذلك . . . افترضني . . . ولكن هناك حكاية بكاماهما .

— وأنت تعرف الحكاية ! ولكن حجباً ، اذن . . .

— لقد سمعتها . هناك درّج فيها أيضاً . بل وأشباح حتى ، ولكن ذلك لا يهمّ ان كان المرء يخدم شيئاً ما أعظم من نفسه . . . الفكرة . أنساعل من هو يا ترى أعظم ضحية في تلك الحكاية ؟

كررت الآنسة هالدين :

— في تلك الحكاية !

بدت وكأنها قد تحوّلت إلى حجر .

— هل تعرفين لم أتيت إليك ؟ لأنه ببساطة لا يوجد لديّ في هذا العالم العظيم الواسع أحد آخر أذهب إليه . هل تفهمين ما أقواه ؟ لا أحد لديّ أذهب إليه . هل تدركين مدى يأس الفكرة . . . لا أحد — أذهب — إليه ؟

وبما أنها كانت مضلّلة تماماً بسبب تفسيرها الحماسي لسطرين في رسالة من شخص مثالي حالم ، وكانت تحت لعنة خوفها من أيام الوحدة ،

في عالمهم المكسوف ، عالم الكفاح الغاضب ، فقد كانت غير قادرة على أن ترى الحقيقة التي كانت تناضل على شفثيه . كانت واعية بالشكل الغامض لمعاناته فحسب . كانت على وشك أن تمتد يدها إليه بتهور حين نطق مرة أخرى :

— بعد ساعة من مشاهدتي لك للمرة الأولى عرفت كيف سيكون مجرى الأمور . ان أهوال الندم والانتقام والاعتراف والغضب والحمد والخوف لا شيء بالمقارنة مع الاغراء الرهيب الذي وضعته في طريقي يوم ظهرت أمامي بصوتك ووجهك في حديقة تلك الفيلا اللعينة . بدت مرتبكة تماماً للحظة ، ثم وبنوع من البصيرة اليائسة تكلمت على نحو واضح ومباشر :

— الحكاية يا كيريلو سيدوروفيتس ، الحكاية !

— لم يعد هناك ما يحكى .

تقدّم بجرأة نحو الأمام ووضعت يدها على كتفه لتدفعه بعيداً ، ولكن قوتها خانتها ، وبقي هو في مكانه ، رغم أنه راح يرتجف في كل عضو من أعضائه .

— انها تنتهي هنا . . . في هذه البقعة بالذات .

ضغط اصبعاً محدرة على صدره بقوة ، وأصبح ساكناً تماماً .

أسرعت نحو الأمام وأنا أختطف الكرسي ، ووصلت في الوقت الملائم لأمسك بالآنسة هالدين ، أجلسها عليه . وحين سقطت في الكرسي التفتت مستندة إلى ذراعي وبقيت مشيخة وجهها عنّا كلينا ، وهي تنهاوى على ظهر الكرسي . نظر إليها بهوء مقزع نحال من التعبير . لقد حرمني

عدم التصديق المتنازع مع الدهشة والغضب والاشمئزاز من القدرة على الكلام لفترة . ثم التفت إليه وأنا أهمس غاضباً :

— هذا رهيب . لم تبقى اذن ؟ لا تدعها تراك مرة أخرى . ابتعد من

هنا . . .

لم يتحرك .

— ألا تفهم أن وجودك أمر لا يطاق . . . حتى بالنسبة اليّ ؟ ان

كان هناك أيّ حسّ بالخجل فيك . . .

تحركت عيناه الكئيبتان ببطء باتجاهي . غمغم مصعوقاً :

— كيف أتى هذا العجوز إلى هنا ؟

وفجأة نهضت الأنسة هالدين من على الكرسي ، وسارت بضع خطوات وترنّحت . فاندفعت لمساعدتها ناسياً سخطي وحتى وجود ذلك الرجل نفسه . أمسكت بها من ذراعها ، وتركتني أقودها إلى غرفة الاستقبال . وهناك بعيداً عن المصباح في العممة الأعمق في النهاية البعيدة للغرفة كانت الصورة الجانبية للسيدة هالدين . وكان ليديها وجسمها كله ساكون لوحه كثيبة . توقفت الأنسة هالدين وأشارت بحزن إلى الساكون التراجيدي لأمها التي بدت كأنها تراقب رأساً محبوبة في حضنها .

كان لتلك الايماءة قوة تعبير لا مثيل لها ، بعيدة الأثر في بؤسها الانساني بحيث أن المرء ما كان ليصدق أنها كانت توضح فحسب عمل المؤسسات السياسية الذي لا هوادة فيه . وبعد أن ساعدت الأنسة هالدين حتى الأريكة ، التفت لأعود وأغلق الباب . وقد سقطت عيناي على رازوموف . مؤطراً في الباب المفتوح ، في النور المتوهج للغرفة الجانبية البيضاء ، كان لا يزال هناك . واقفاً أمام الكرسي الفارغ ، وكأنه قد

تستمر هناك إلى الأبد في بقعة اعترافه الرهيب . طغت عليّ الدهشة بأن
القوة الغامضة التي انتزعت من قلبه لم تقتله وتحطّم جسده . كانت هناك
مجرّدة من غمدها . حدّقت إلى الخط اعريض لمنكبيه ، ورأسه الداكنة
اللون ، والسكون المدهش لأعضائه . عند قدميه كان الوشاح الذي
أسقطته الأنسة هالدين يبدو شديد السواد تحت وهج النور الأبيض .
كان يحدّق إليه كأنه مسحور . وفي اللحظة التالية انحنى بسرعة وحشية
لا تصدّق ، فاخطفته وضمته إلى وجهه بكلتا يديه . غشّى شيء ما ،
ربما الدهشة الشديدة ، على بصري بحيث أنه قد تلاشى قبل أن يتحرك .
أعاد صوت اغلاق الباب الخارجي البصر إليّ ، ورحت أتأمل
الكرسي الفارغ في الغرفة الجانبية الفارغة . كان معنى ما شاهدته قد
وصل إلى ذهني بصورة صاعقة . أمسكت بناتاليا هالدين من كتفها .
صحت بصوت خائف هامد ، صوت يدلّ على اكتشاف مخيف :

— لقد سرق ذلك الحقيير البائس وشاحك ! لقد . . .

بقي الباقي دون أن أنطقه . خطوط مترجعاً ونظرت إليها في رعب
صامت . كانت يداها قابعتين دون حياة والكفّان إلى الأعلى على حجرها .
رفعت عينيها الرماديتين ببطء . بدت الظلال تروح وتأتي فيهما كأن
شعلة روحها الراسخة قد راحت تنوس أخيراً ضمن التيارات المتقاطعة
للهواء المسمّم الآتي من هول العتمة الفاسدة المطالبة بما هو مُسلّكها ،
حيث الفضائل أنفسها تتفتح متحوّلة إلى جرائم في سخرية الكبت والتمرد .

— من المستحيل أن يكون المرء أنعمس من هذا . . .
صعقتني همسة صوتها الواهنة حتى الخوف .
— مستحيل . . . أشعر أن قلبي يصبح كالثلج .

- رابعا -

سار رازوموف إلى البيت مباشرة فوق الرصيف الرطب اللامع . هطل المطر غزيراً عليه ، وأضاء برق بعيد على نحو خافت الأجزاء الأمامية من منازل صامته والدكاكين المغلقة مصاريعها على امتداد « شارع دو كاروج » . وبين الحين والآخر ، بعد الالتماع الخافت كان هناك هدير خفيض ناعس ، ولكن القوى الأساسية للعاصفة الرعدية بقيت متجمعة في وادي الرن كأنما هي كارهة أن تهاجم المأوى المحترم بارد العواطف للحرية الديموقراطية ، المدينة ذات العقلية الجدية والفنادق الكنيبية ، والتي تقدم الضيافة الحيادية نفسها إلى السواح من كل الأمم وإلى المتأمرين الدوليين من كل لون .

كان صاحب الدكان ي تعدّ للاغلاق حين دخل رازوموف ومدّ يده دون كلمة واحدة ليأخذ مفتاح غرفته . وبينما كان الرجل يمدّ يده إلى الرف ليعطيه إياه ، كاد أن يحكي نكتة صغيرة تتعلق بشمّ الهواء في عاصفة رعدية ، ولكنه بعد أن نظر إلى وجه المستأجر قال لمجرد أن يتنمّوه بشيء ما :

- أنت مبتل جداً .

غمغم رازوموف الذي كان المطر ينقط منه من رأسه إلى قدميه :

- أجلّ لقد غُسلتُ تماماً .

ثم مرّ عبر الباب الداخلي نحو الدرج المؤدي إلى غرفته .
لم يبدل ملابسه ، ولكنه خلع ساعته وساسلتها بعد أن أشعل شمعة ،
ثم وضعها على الطاولة وجلس ليكتب على الفور . كان دفتر مذكراته
المعرض للشبهات في درج مقفول ، وقد أخرجه بعنف ولم يزعج نفسه
بإعادته إلى مكانه لاحقاً .

في تحديق العجيب كرجل طالع وفكر وعاش والقلم في يده ، كان
هناك صدق محاولة الامساك ، بالوسيلة نفسها ، بمعرفة أخرى أشد عمقاً .
فبعد بعض المقاطع التي سبق استخدامها في بناء حكايته ، أو إضافة شيء
جديد إلى الجانب السيكولوجي من افشائه لما يعرف (هناك تلميح آخر
إلى الميدالية النضمية في آخر جزء من مذكراته) ، تأتي صفحة ونصف من
الكتابة المشوشة حيث تترك تعبيره جدّة وغموض ذلك الجانب من حياتنا
العاطفية الذي كان وجوده الوحيداني غريباً عنه تماماً . عندها فحسب يقوم
بمخاطبة القارئ الذي في ذهنه مباشرة ، محاولاً أن يعبر بجمل مكسرة ،
مليئة بالتساؤل والرعب ، عن الساطة المطلقة (هو يستعمل هذه الكلمة
بالذات) لشخصها (يقصد شخص الآنسة هالدين) على مخيلته التي هجعت
فيها البندرة النائمة لكلمات أخيها .

« . . . » « أكثر العيون في العالم يحاء بالثقة » . . . هذا ما قاله أخوك
عناك حين كان سيف الموت قد سبق له وأصبح مسلطاً عليه . وحين وقنت
أمامي بيد ممدودة ، تذكرت نبرة صوته ، ونظرت إلى عيني . . . وكان
ذلك كافياً . عرفت أن شيئاً ما قد حدث . ولكني لم أعرف عندها ما
هو . . . لا تنخدعي يا ناتاليا فيكتوروفنا . كنت أعتقد أن لا شيء في
صدري سوى ذخر لا ينضب من الحقد لكما كليكما . تذكرت أنه

كان يتأمل منك أن تقومي بجعل روحه الحاملة خالدة . هو ، ذاك الرجل الذي سرق مني وجودي الكادح الهادف . وأنا أيضاً كانت لديّ فكرتي الهادية ؛ وتذكّري أنه ، فيما بيننا ، لأصعب على المرء أن يعيش حياة الكدح وانكار الذات على أن يخرج إلى الشارع ويقتل عن قناعة . ولكن يكفيننا هذا . الكره أو اللاكره ! فقد شعرت لدى تجنبي لرؤيتك أنه من المستحيل عليّ أن أبعث صورتك . سأقول مخاطباً الرجل الميت : « أهذه هي الطريقة التي ستسكنني بها ؟ » ولكني لم أفهم سوى لاحقاً . . . اليوم فحسب ، ومنذ ساعات قليلة فقط . ما كان يمكنني أن أعرفه عما كان يمزقني إلى أشلاء ويخرج السر إلى الأبد من شفتيّ؟ كنت أنت هو الشخص الذي عيّن لي بطل الشر بأن يجعلني أخون نفسي لأعود إلى الحقيقة والسلام . أنت وقد فعلت ذلك بالطريقة نفسها التي دمرتني بها أيضاً بأن تقحمي عليّ نقتك . كان ما كرهته لأجله هو ما انتهى عندهك نبيلاً وسامياً . ولكن ، وأكرّر هنا ، لا تنخدعي . لقد كنت مستسلماً للشر . كنت أنتشي بكوني قد أغويت ذلك الأحمق البريء المغفل ليسرق مال أبيه . كان أحمق ، وان لم يكن لصاً . لقد جعلته يتحول إلى لص . كان ذلك ضرورياً . كان عليّ أن أؤكد نفسي في احتقاري وكرهي لما خنت . لقد عانيت من كثير من مصاصي الدماء في قلبي ، بقدر ما عانى أي ديموقراطي اجتماعي منهم جميعاً . . . النفاق ، الطموحات ، الحسد ، الرغبات المخجلة والعواطف الشريرة ، عواطف الحسد والثأر . لقد سرق مني أمني ، سنوات من العمل المتواصل الجاد ، أفضل آمالي . اسمعي . . . الآن يأتي الاعتراف الحقيقي . كان الآخر لا شيء . لتنقذيني ، كان على عينيك المترعتين بالثقة أن تغوي فكري حتى الوصول

إلى حافة أشد أنواع الخيانة سواداً . كنت أستطيع أن أراها بما باستمرار
وهما تنظران إلي بثقة قلبك الطاهر الذي لم تلمسه الأشياء الشريرة . لقد
سرق فيكتور هالدين حقيقة حياتي مني ، أنا الذي لم يكن عنده شيء
آخر في هذا العالم ، وكان يتفاخر بأنه سيعيش من خلالك على هذه الأرض
التي لا مكان لي فيها أتكىء عليه برأسي . ستتزوج يوماً ما . . . هذا
ما قاله لي . . . وقال ان عينيك مترعتين بالثقة . وهل ته. فبن ما قلته
لنفسني ؟ سأسرق روح أخته منها . حين تقابلنا المرة الأولى في ذلك
الصباح الأول في الحديقة ، وتحدثت إليّ بثقة من خلال كرم روحك ،
كنت أفكر : « أجل ، هو نفسه بحديثه عن عينها المترعتين بالثقة قد
سلمها اليّ . » لو استطعت آنئذ أن تنظري إلى ما بقلبي . لكنت
ستصرخين بحدة من الفزع والاشمئزاز .

« ربما لن يصدق أحد أن وضاعة مثل هذه النية قد تكون ممكنة .
ومن المؤكد أنه حين افترقنا ذلك الصباح ، كنت أشعر بارتياح الظافر
لخبيث . رحّت أفكرك في أنسب طريقة . لقد أصرّ الرجل العجوز الذي
قدمتني إليه ، أن يسير معي . لا أعرف من هو . لقد تحدثت عنك ، عن
حالتك الوجدانية البائسة ، وكل كلمة كان يقولها صديقك ذاك كانت
تحتّتي على ارتكاب تلك الخطيئة التي لا تغتفر ، خطيئة سرقة روح . هل
كان هو الشيطان نفسه في شكل رجل انكليزي عجوز ؟ يا ناتاليا
فيكتوروفنا ، لقد كنت ممسوساً ! لقد عدت لأنظر إليك في يوم
وأشرب في حضورك سمّ نيتي الشائنة . ولكنني تنبأت بالصعوبات .
ثم ظهرت صوفيا أنتونوفنا ، التي لم أفكر بها - بل نسيت وجودها -
ظهرت فجأة بتلك الحكاية من سانت بطرسبورغ . . . الشيء الوحيد
الذي كنت في حاجة إليه ليجعلني في مأمن . . . ثورياً موثقاً إلى الأبد .

« بدا الأمر وكأنّ زيميانيش قد شققت نفسه ليساعدني على ارتكاب جريمة أخرى . بدت قوة الكذب والزيف أمراً تصعب مقاومته . هؤلاء الناس كانوا محكومين بالحماقة والوهم اللذين هما فيهم . . . فهم أنفسهم عبيد للأكاذيب . يا ناتاليا فيكتوروفنا ، لقد عانقت قوة الكذب والزيف ، لقد انتشيت بها . . . لقد سلمتها نفسي لفترة من الزمان . ومن ذا الذي يستطيع مقاومتها ! كنت أنت نفسك جائزتي مقابلها . جلست وحيداً في غرفتي ، أخطط لحياة بأكملها ؛ ولكن مجرد تفكيري بذلك الآن يثّ الرجفة في جسدي ، كمؤمن أغوي على ارتكاب تدنيس للمقدسات . ولكني كنت أتأمل بحماسة في صورها . انما الشيء الوحيد أنه لم يكن يبدو أن هناك هواء فيها . كما كنت أخشى أمك . لم أعرف أمي أبداً . لم يسبق لي أن عرفت أي نوع من أنواع الحب . هناك شيء ما في هذه الكلمة المجردة . . . منك لم أكن خائفاً . . . واغضري لي أني أقول لك هذا . لا ، لم أكن خائفاً منك . كنت الحقيقة نفسها . ما كان يمكنك أن تشكّي بي . أما نيما يمحّصّ أمك ، فأنت نفسك كنت تخشين أن تكون قد فقدت عقلها من الحزن . من سيصدق أي شيء يقال ضدي ؟ أو لم يشق زيميانيش نفسه ندماً ؟ قلت في نفسي : « لنختبر الأمر وتسنه منه وإلى الأبد . » وقد ارتجفت حين دخلت ، ولكن أمك لم تصغ إلا بالكاد إلى ما كنت أقوله لها ؛ وخلال فترة قصيرة ، بدت وكأنها قد نسيت وجودي بالذات . جلست أنظر إليها . لم يكن قد بقي بينك وبينني أي مانع . كنت عزلاء تماماً . . . وسرعان ما سوف تكونين وحيدة . . . فكثرت بك . عزلاء تماماً . كنت منذ أيام تحادثيني وتفتحين لي قلبك . تذكرت ظل أهدابك على عينيك الرماديتين المترعتين بالثقة . وجبينك الطاهر ! انه منخفض كجبين التماثيل . . . هادىء ونقي . بدا الأمر

وكان جبينك الطاهر كان يحمل النور الذي سقط عليّ وبحث في قلبي
وأنتقذني من الخزي ، من الدمار المطلق . وقد أنقذك ذلك أنت أيضاً .
سامعيني علي وقاحتي . ولكن كان في نظراتك شيء بدا وكأنه يقول لي
انك . . . نورك ! حقيقتك ! أحسست أن عليّ أن أقول لك اني قد
انتهيت إلى أن أحبك . ولكن حتى أقول لك ذلك فان عليّ أولاً أن
أعترف . أعترف ، وأخرج وأهلك .

« وفجأة وقفت أمامي ! أنت الوحيدة في هذا العالم الذي عليّ أن
أعترف لها . لقد فتنتني . . . لقد حررتني من عمى الغضب والحقد . .
الحقيقة التي التمعت فيك جذبت الحقيقة مني . والآآن بعد أن اعترفت ؛
وبينما أكتب هنا ، فأنا في أعماق الألم ، ولكن هناك هواء أنتنفسه
أخيراً . . . هواء ! وبالمناسبة فان الرجل العجوز قفز من مكان ما وأنا
أكلّمك ، وثار عليّ كشيطان خائب الرجاء . أنا أعاني علي نحو رهيب ،
ولكني لست يائساً . هناك أمر واحد آخر عليّ أن أفعله . بعد ذلك - اذا
سمحوا لي - سأبتعد وأدفن نفسي في بؤس في مكان ناء . في تسليمي
لفيكتور هالدين ، خنت نفسي في أحط شكل ممكن برغم كل شيء .
عليك أن تصدق ما أقوله الآن ، ولا يمكنك أن ترفض تصديق هذا .
في أحط شكل ممكن . ومن خلالك استطعت أن أشعر على هذا النحو
العميق . وعلى أية حال ، فهم وليس أنا من يقف الحق إلى جانبه !
قوتهم هي قوة السلطات غير المرئية . فليكن . ولكن لا تنخدعي يا ناتاليا
فيكتوروفنا ، فأنا لم أعتنق المذهب الجديد . هل لي اذن روح الرفيق ؟
لا ! أنا استقلالي . . . ولذا فان الفناء هو قدرتي . »

وعند هذه الكلمات ، توقف عن الكتابة وأغلق دفتر ولفّه
بالوشاح الأسود الذي كان قد حمّله من بيت الأتسة هالدين . ثم فتش

الأدراج بحثاً عن ورق وخيط ، وحزم الدفتر والوشاح على شكل طرد
وكتب عليه عنوان الآنسة هالدين ، شارع الفلاسفة ، ثم رمى بالقلم
بعيداً إلى زاوية نائية .

وبعد أن فعل ذلك جلس والساعة أمامه . كان يستطيع الخروج
فوراً ، ولكن الساعة لم تكن قد حانت بعد . سيكون ذلك في منتصف
الليل . لم يكن هناك أي سبب في اختيار ذلك باستثناء حقائق وكلمات
أمنية معينة في ماضيه كانت توقّت له سلوكه في الحاضر . لقد عزا
السلطة المفاجئة التي أحرزتها ناتاليا هالدين إلى السبب نفسه . سمع نفسه
يغمغم : « أنت لا تمشي دون عقوبة فوق صدر شبح . » ثم فكر فجأة :
« وهكذا ينقذني . هو نفسه ذلك الرجل المخون . » بدت الصورة الحية
للآنسة هالدين وكأنها تقف إلى القرب منه ، تراقبه دون هوادة . لم تكن
مزعجة . كان قد انتهى من حياته ، وحتى فكره . كان يحاول في
حضورها أن يكون حيادياً . والآن ها هو احتقاره قد امتد ليطاله هو
بالذات . « لم تكن لدي البساطة ولا الشجاعة ولا رباطة الجأش لأكون
وغداً ، أو شخصاً ذات قدرات استثنائية . فمن يستطيع في روسيا أن
يعرف الوغد من الشخص ذي القدرات الاستثنائية ؟ . . . »

كان العوبة ماضيه ، لأنه عندما أصبحت الساعة الثانية عشرة ،
قفز ونزل الدرج مسرعاً كأنه واثق أن باب البناء سيفتح ، بقوة القدر ،
أمام الضرورة المطلقة لمهمته ، وكحقيقة ، فانه ما أن وصل إلى أسفل
الدرج ، فقد فتح الباب له من قبل بعض سكان البناء العائدين متأخرين
إلى البيت : رجلان وامرأة . خرج متسللاً عبرهم إلى الشارع ، وكانت
رييح قوية تجتاحه في ذلك الوقت . وقد أجفلوا تماماً بالطبع . وقد مكثتهم

السماعة برق من أن يروه وهو يسير مبتعداً بسرعة . صرخ أحد الرجلين ،
وكاد ينطلق وراءه ليطارده إلا أن المرأة ميمزته فقالت :

– حسناً . انه ذلك الروسي الشاب من الطابق الثالث .

عادت الظلمة مع قصفة رعد واحدة ، كمدفع أطلق التحذير من
هربه من سجن الأكاذيب .

لابد أنه كان قد سمع في أحد الأوقات وتذكر الآن دون وعي أنه
سيكون هناك اجتماع للثوار في منزل جوليوس لاسبارا في ذلك المساء .
وعلى أية حال ، فقد سار مباشرة إلى منزل لاسبارا ، ووجد نفسه دونما
دهشة يقرع على الباب الخارجي الذي كان مقفلاً بالطبع . في ذلك الحين
كانت العاصفة الرعدية قد شنت هجومها العنيف . كان الماء يتدفق
نازلاً على امتداد الشارع ذي الانحدار الحاد ، وكان سقوط المطر
الكثيف قد طوقه كوشاح مضيء تحت نور البرق المتلاعب . كان هادئاً
تماماً ، وبين كل قصفة وأخرى من الرعد راح يصغي بانتباه إلى رنين
جرس الباب اللطيف في مكان ما داخل المنزل .

واجه بعض الصعوبات قبل أن سمح له بالدخول . لم يكن معروفاً
لدى أحد الضيوف الذي تطوع لينزل إلى الباب الخارجي ليرى ما الحكاية .
تجادل رازوموف معه بصبر . لم يكن هناك من ضرر في إدخال زائر .
كان لديه شيء ما يقوله للمجتمعين في الطابق العلوي .

– شيء ذو أهمية ؟

– هذا ما سنترك الحكم عليه للسامعين .

– هل هو أمر ملتح ؟

– لا يتحمل أي تأخير .

في هذه الأثناء كانت إحدى ابنتي لاسبارا قد نزلت وهي تحمل مصباحاً صغيراً في يدها ، وترتدي ثوباً متسخاً مجعداً ، بدا كأنه معلق عليها بمعجزة ، وتبدو أكثر من أي وقت مضى كدمية ذات شعر مستعار بني أغبر سحبت من تحت أريكة . وقد ميّزت رازوموف في الحال .

– كيف حالك ؟ طبعاً يمكنك الدخول .

تبع رازوموف نور مصباحها صاعداً مجموعتي الأدرج من العتمة . وبعد أن تركت المصباح على رف على منبسط الدرج ، فتحت باباً ، ثم دخلت يصحبها الضيف المرتاب . دخل رازوموف أخيراً . أغلق الباب من خلفه ، ثم خطا خطوة واحدة جانبية جاعلاً ظهره إلى الجدار .

كانت الغرف الثلاث الصغيرة المتتالية ذات السقف الواطيء المدخن والمضاءة بمصابيح الكاز مزدحمة بالناس . وكان الكلام المرتفع يجري في الغرف الثلاث كلها ، وكؤوس الشاي ، الممتلئة منها ونصف الممتلئة والفارغة ، متواجدة في كل مكان ، وحتى على الأرض . أما بنت لاسبارا الأخرى فكانت تجلس شعشاء واهنة خلف ساموفار ضخمة . في المدخل الجوّاني لمح رازوموف بروز كرش ضخمة ميّزه على الفور . وعلى بعد أقدام قليلة فحسب منه كان جوليوس لاسبارا ينزل مسرعاً من على كرسيه العالي .

سبب ظهور زائر منتصف الليل ضجة كبيرة . هذا وقد كان لاسبارا لاحقاً شديد التلخيص في وصفه لحوادث تلك الليلة . وبعد بضع كلمات ترحيب تجاهلها رازوموف ، فان لاسبارا (الذي تجاهل عن عمد وضع ضيفه الذي كان مبتلاً من الرأس إلى القدم وكذلك أسلوبه الغريب في

تقديم نفسه) ذكر شيئاً ما حول كتابة مقال . بدأ القلق يتصاعد في نفسه ،
وبدا رازوموف غائب الذهن . قال أخيراً بضحكة صغيرة :

– لقد سبق لي وكتبت كل ما عليّ أن أكتبه .

تركز اهتمام المجموعة كلها على القادم الجليدي الذي كان ماء
المطر يقطر منه ، الشاحب كالأموات ويحافظ على وضعه والحدار إلى
ظهره . أزاح رازوموف لاسبارا جانباً بلطف ، كأنما يريد أن يراه الجميع
من الرأس حتى القدم . كان أزيز الحوارات قد توقف آنثذ تماماً ، حتى
في أقصى الغرف الثلاث . وكان المدخل المواجه لرازوموف قد أصبح
مسدوداً بالرجال والنساء الذين مدتوا أعناقهم وبدوا بكل تأكيد وكأنهم
يتوقعون حدوث شيء مذهل .

سمع تصریح وقع من أحد أفراد تلك المجموعة بصوت كالصرير :

– أعرف هذا الشخص المغرور على نحو مضحك .

سأل رازوموف وهو يرفع رأسه المطأطئة ويفتش بعينه كل العيون
المثبتة عايه :

– أي شخص ؟

دام صمت كثيف مندهش بعض الوقت .

– ان كنت تعني أنا . . .

توقف ، وهو يفكر في شكل الاعتراف الذي سيدلي به ، ووجده
فجأة ، اذ أوحى له على نحو يتعذر تجنبه من قبل تلك الليلة المصيرية من
ليالي حياته .

شرع يقول بصوت واضح :

– لقد جئت إلى هنا لأتحدث عن شخص يدعى زيمميانيتش .
فلقد أخبرني صوفيا أنتونوفنا أنها تريد أن تعلن على الملأ محتويات رسالة
وصلتها من سانت بطرسبورغ . . .

قال لاسبارا :

– لقد غادرتنا صوفيا أنتونوفنا في المساء . هذا صحيح تماماً .
لقد سمع الجميع هنا . . .

قاطعها رازوموف بنوع من نفاذ الصبر ، فقد كان قلبه يدق بقوة :
– حسناً جداً .

ثم عاد فسيطر على صوته إلى حد أنه استطاع أن يضع لمسة من
التهكم في بيانه الواضح القوي :

– حتى لا يُظلم ذلك الشخص ، ذلك الفلاح المُساء إليه ،
زيمميانيتش ، فاني أعلن هنا على رؤوس الأشهاد أن استنتاجات تلك
الرسالة تدين رجلاً من الشعب . . . روحاً روسية لامعة . لا علاقة
لزيمميانيتش بمحادثة القبض على فيكتور هالدين .

لفظ رازوموف الاسم بثقل ، ثم انتظر حتى هدأت المهمة الضعيفة
الحزينة التي حيّت هذا الاسم .

شرح يقول من جديد :

– لقد التجأ فيكتور فيكتوروفيتش هالدين عن طيش نبيل ، إلى
بيت طالب لم يكن هو يعرف شيئاً عن آرائه سرى ما كانت أوهامه توحيه
إلى قلبه الكريم . وكان ذلك عملاً غير حكيم . ولكنني لست هنا لأقيّم
أعمال فيكتور هالدين . هل لي أن أحكي لكم عن شاعر ذلك الطالب

الذي التجيء إليه في عزلة المعتمة ، والذي أحسّ بالاساءة لاقحامه
بالمشاركة في تلك الجريمة ؟ هل أحكي لكم ما فعاه ؟ أنها بالأحرى حكاية
معقدة . في النهاية ذهب الطالب إلى « الجنرال ت . . . » نفسه وقال له :
« عندي الرجل الذي قتل « دو ب . . . » ، وهو في غرفتي وقد أقفلت
عاليه الباب ، واسمه فيكتور هالدين . . . طالب مثلي : »

صدرت ضجعة عالية رفع رازوموف صوته ضمنها :

– لاحظوا أن ذلك الرجل كانت له بعض المثاليات الصادقة :
ولكني لم أحضر إلى هنا لأحذاته .

خاطبه أحدهم باهجة جدية :

– لا ، ولكن عليك أن تشرح لنا كيف وصات إليك هذه
المعلومات :

– جبان قذر !

رنّت هذه الصرخة باحتقار . وصرخت أصوات أخرى :

– قل لنا اسمه .

قال رازوموف باحتقار ضمن الصمت الذي حلّ مع رفعه ليدّه :

– لماذا تصرخون ؟ ألم تفهموا جميعكم أنني أنا هو ذلك الرجل ؟

ابتعد لاسبارا بفظاظة من جانبه وعاد ليتساق كرسية . وفي أول
موجة من الناس اندفعت نحوه ، توقع رازوموف أن يُمزق أرباباً ،
ولكنهم تراجعوا دون أن يلمسوه ، ولم يبلمر عنهم سوى الضجيج :
كان ذلك محيراً . كانت رأسه تؤلمه بشدة . وضمن الضججة المشوشة
سمع مرات عديدة اسم بيتر ايفانوفيتش ، وكلمة « حكم » وعبارة

« ولكن هذا اعتراف » نطقها أحدهم في صرخة يائسة : وفي وسط هذا الغموض ، اقترب منه أحد الشباب ، وكان أصغر منه سنًا ، بعينين متوهجتين .

قال بلطف سام :

– أرجو أن تتلطّف فلا تتحرّك من هنا حتى يقال لك ما عليك أن تفعله .

هزّ رازوموف كتفيه :

– لقد جئت طوعاً .

ردّ الآخر :

– ربما ، ولكنك لن تخرج قبل أن يُسمح لك بذلك .

أشار بيده منادياً :

– لويزا ، لويزا ! تعالي إلى هنا من فضلك .

وعلى الفور قامت إحدى بنتي لاسبارا (كانتا جالستين تحدقان إلى رازوموف من خلف الساموفار) وهي تجر وراءها ذيلًا متسخًا هو حاشية ثوبها القلدة ، وكرسیاً وضعته أمام الباب وجاست عايه ووضعت ساقاً فوق ساق . شكرها الشاب بأسراف ، ثم انضمّ إلى مجموعة كانت تتنافش بحدّة وبأصوات خفية : أضع رازوموف نفسه للحظة .

صاح صوت ذو صريف :

– اعتراف أو لا اعتراف ، أنت جاسوس للشرطة .

كان الثوريّ نيكيتا قد اندفع نحو رازوموف وواجهه بوجنتيه الكبيرتين الشاحبتين وكرشه الثقيل وعنقه الأشبه بعنق الثور وبيديه

الضخمتين : نظر رازوموف إلى قاتل رجال الدرك الشهير في اشمتراز صامت :

قال بصوت خفيض :

– وما تكون أنت ؟

ثم أغلق عينيه وأراح مؤخرة رأسه على الجدار .

سمع رازوموف صوتاً رقيقاً حزيناً يقول :

– سيكون من الأجدر بك أن تغادر الآن .

ففتح عينيه . كان المتحدث اللطيف رجلاً عجوزاً ، له شعر كثيف ناعم يشكل هالة فضية من حول وجهه الذكي حاد التقاطيع .

– سيتمّ ابلاغ بيتر ايفانوفيش باعترا فلك . . . وسيتّم توجيهك . . .

وعندها التفت إلى نيكيتا ، الملقّب بنيكاتور ، الواقف إلى القرب

منهما ، وناشده مغمغماً :

– ما الذي يمكننا أن نفعله سوى ذلك؟ بعد أن أعلن كل ذلك بصدق

فلا يمكنه أن يكون خطيراً بعد الآن .

همهم الآخر :

– الأفضل أن نتأكد من ذلك قبل أن ندعه يفلت منّا . اترك ذلك

لي . أعرف كيف أتعامل مع مثل هؤلاء السادة .

تبادل نظرات ذات معنى مع رجلين أو ثلاثة أومؤوا له برؤوسهم

بخفة ، ثم التفت بخشونة نحو رازوموف :

– هل سمعت ؟ أنت غير مرغوب فيك هنا . لم لا تخرج ؟

نهضت ابنة لاسبارا الجالسة عند الباب كخفير ، وسحبت الكرسي من الطريق دون أي انفعال . وقد حدقت بعينين ناعستين إلى رازوموف الذي نظر فيما حوله في أرجاء الغرفة ثم مرّ ببطء إلى جانبها كأنما لديه فكرة جديدة .

قال وقد أصبح عند منبسط الدرج :

— أرجو أن تلاحظوا أن ما كان عليّ فعله هو أن أمسك بلساني عن الكلام . اليوم ، بين كل الأيام التي قضيتها هنا منذ أن وصلت إليكم ، كنت في أمان ، واليوم جعلت نفسي متحرراً من الزيف ومن الندم . . . مستقلاً عن كل كائن بشريّ فرد على هذه الأرض .

التفت بظهره إلى الباب وسار نحو الدرج ، ولكن ما أن أغلق الباب بعنف من خلفه ، حتى نظر من فوق كتفه فرأى أن نيكيتا قد لحق به مع ثلاثة آخرين . فكّر : « سيقتلونني على أية حال . »

وقبل أن تسنح له الفرصة للالتفات ومواجهتهم تماماً اندفعوا نحوه وجروه نحو الجدار . أكمل تفكيره : « أتساءل كيف ؟ » صاح نيكيتا بضحكة حادة في وجهه مباشرة :

— سنجعلك غير قادر على الأبداء . انتظر للحظة .

لم يقاومهم رازوموف . أمسك به الرجال الثلاثة وسمّروه إلى الجدار ، بينما قام نيكيتا الذي اتخذ وضعاً إلى الجانب قليلاً ، بالتلويح بذراعه الضخمة . راح رازوموف يبحث عن سكين في يده ولكنه رآها مفتوحة دون سلاح ، ثم تلقى صفة هائلة على جانب رأسه وفوق أذنه . وفي الوقت نفسه سمع صوت تفجير ضعيف مكتوم كأنما أطلق شخص

ما مساساً على الجانب الآخر من الجدار . استيقظ فيه غضب هائل بسبب هذه الوحشية . وقد راح الأشخاص المتواجدين في بيت لاسبارا ، والذين كانوا قد حبسوا أنفاسهم ، يصفون إلى العراك اليائس لأربعة رجال على منبسط الدرج ؛ وسمعوا ارتطامات على الجدار ثم صوت اصطدام رهيب بالبواب نفسه ، ثم سقط الأربعة جميعاً بعنف بدا أنه يهز البناء كله . ورأى رازوموف الذي تكاثروا عليه فغلبوه ، وهو مبهور الأنتناس ، والمسحوق تحت ثقل أجساد مهاجميه ، رأى نيكيثا الهائل يجلس على كاحليه قرب رأسه ، بينما كان الآخرون يمسكون به ويركعون فوق صدره ، وقد أمسكوا بخصاه وجلسوا فوق ساقيه .

قال الارهابي ذو الكرش الضخم بصوت جذل وأشبه ما يكون بالصريف :

— أديروا وجهه إلى الطرف الآخر .

لم يعد رازوموف قادراً على المقاومة . كان منهكاً ، وقد راقبه بسلبية اليد الثقيلة المتوحشة للشخص المتوحش وهي تنزل بضربة قصاصمة على أذنه الأخرى . بدا له أنها شطرت رأسه إلى شطرين . وفجأة أصبح الرجال المسكون به صامتين تماماً . . . ساكتين كالأشباح . وقد أوقفوه في صمت ووحشية على قدميه ونزأوا به الدرج دون ضجيج ، ثم فتحوا الباب ورموا به إلى الشارع .

سقط نحو الأمام وراح يتسحرج عاجزاً نازلاً بالمنحدر القصير مع تدفق ماء المطر الجاري . استقرّ عند مدخل الشارع في الأسفل ، ممدداً على ظهره ، ومضة برق هائلة فوق وجهه . . . لمعة قوية صامتة من البرق أعمته تماماً . تحامل على نفسه حتى نهض ووضع ذراعيه فوق عينيه

ليسترجع بصره . لم يصله صوت واحد من أي مكان ، ثم بدأ يمشي ، مترنحاً ، على امتداد شارع طويل فارغ . كان البرق يتموج ويرمي عليه بتوهجاته الصامتة ، وماء المطر الغامر يسقط ويجري ويقفز ويندفع . . . دون ضججة ، كاندفاع السديم . في هذا الصمت الخارق للطبيعة كان وقع خطواته صامتاً على الرصيف ، بينما راحت ريح خرساء تدفع به وتحتّه نحو الأمام وباستمرار ، كميّت ضائع في عالم شبحي تنهيه عاصفة رعديّة صامتة . الرب وحده كان يعرف أين كانت قدماء الصامتان ستأخذانه في تلك الليلة ، هنا وهناك ، وعودة مرة أخرى دون توقّف أو راحة . ولكننا سمعنا على أية حال لاحقاً عن مكان قادته قدماء إليه . فني الصباح رأى سائق أول حافلة تعمل على خط الشاطئ الجنوبي ، وهو يقرع جرسه يائساً، شاباً مبتلاً ملطّخاً بانوحل ودون قبة، يسير في الشارع مترنحاً ورأسه مطأطئة، ويخطو أمام حافله ثم يسقط تحتها .

حين رفعوه بعضوين مكسورين وناصرة مسحوقة ، لم يكن رازوموف قد فقد الوعي بعد . بدا وكأنه قد تعثر فحطّم نفسه في عالم من الأشياء البكماء . رفعه رجال صامتون ، يتحركون دون أن يسمعونهم ، ووضعوه على الرصيف ، وهم يومنون ويكشّرون من حوله معبّرين عن انزعاجهم وتعاطفهم . انحنى رجل ذو وجه أحمر وشاربين فوقه وشفته انزعاجاً وعيناه تنقلبان . بذل رازوموف قصارى جهده ليفهم سبب هذا الاستعراض الأبكم . بالنسبة إلى أولئك الذين وقفوا من حوله ، فقد كانت ملامح ذلك الغريب ، المصاب على نحو خطير جداً ، تبدو هادئة . وبعد ذلك أرسلت عيناه نحوهم نظرة وجل ثم أغمضت ببطء . ثم أقبلوا إليه . بذل رازوموف جهداً ليتذكر بعض الكلمات الفرنسية .

قال بصعوبة وبصوت واهن قبل أن يغشى عليه وبالفرنسية :
- أنا أصم .

تبادلوا الكلام فيما بينهم :

- انه أصم . لهذا لم يسمع صوت الحافلة .

حملوه في تلك الحافلة نفسها . وقبل أن تنطلق في رحلتها ، تسلقت امرأة في ثوب أسود بال كانت قد خرجت تعدو من باب حديقة منزل خاص على الطريق ، تسلقت إلى المنصة الخلفية للحافلة وأبت أن تنزل منها .

قالت بفرنسية ركيكة وبالبحاح :

- أنا قريبته . هذا الشاب روسي وأنا قريبته .

ولدى سماعهم هذه الحجة تركوها تتصرف وفق هواها . جلست بهدوء وأخذت رأسه ووضعتها على حضنها ، بينما عينها الخائبتان الخائبتان تتجسبان النظر إلى وجهه الأشبه بوجه الأموات . عند زاوية أحد الشوارع ، على الطرف الآخر من المدينة ، كانت هناك حمالة في انتظار الحافلة . لحقت بها حتى باب المستشفى حيث سمحوا لها بالدخول حتى رأته وقد وضع على سرير . لم تدرف قريبة رازوموف الحديدية أية دمة ، ولكن الموظفين وجدوا صعوبة في اقناعها بالرحيل . وقد لاحظ البواب أنها كانت تتسكع على الرصيف المقابل لفترة طويلة . وفجأة ، وكأنما تذكرت شيئاً ما ، ركضت مبتعدة .

لقد قررت الكارثة الغيور لكل وزراء المالية وأمة « المدام دو س . . . » أن تقدم استقالتها كوصيفة لـ « ايغيريا » بئر ايفانوفيتش . فلقد وجدت عملاً تستطيع أن تبذل له كل جوارحها .

ولكن قبل ساعات من ذلك ، حين كانت العاصفة الرعدية لا تزال
تعصف خلال الليل ، جرى في شقة جوليوس لاسبارا حدث مثير جداً .
فقد رفع نيكيتا الرهيب ، العائد من الدرج ، صوته الأشبه بالصريف
متباهياً أمام المجموعة كلها :

ـ رازوموف ، السيد رازوموف ! رازوموف الرائع ! لن يكون
ذا نفع كجاسوس لأية جهة كانت . لن يتكلم لأنه لن يستطيع أن يسمع
شيئاً في حياته . . . ولا شيئاً واحداً ! لقد فجّرت له طبلتي أذنيه . أوه ،
يمكنكم أن تثقوا بي . أعرف عملي جيداً . ها ! ها ! أعرف عملي جيداً .

* * *

— خامساً —

رأيت ناتاليا هالدين للمرة الأخيرة بعد أسبوعين تقريباً من جنازة أمها .

في تلك الأيام الصامتة الكثيبة كانت أبواب الشقة في « شارع الفلاسفة » مغلقة في وجه الجميع عداي . وأعتقد أنني كنت ذا نفع في ناحية واحدة هي أنني كنت مدركاً للجزء الذي لا يصدق من الوضع . هذا وقد رعت الآنسة هالدين أمها لوحدها حتى اللحظة الأخيرة . وإذا كانت لزيارة رازوموف أية علاقة بموت السيدة هالدين (ولا أستطيع مغالبة التفكير في أنها عجلت بالأمر إلى حد كبير) ، فذلك لأن الرجل ، الذي وثق به فيكتور هالدين سيء الحظ على نحو متهور ، لم يستطع أن يكسب ثقة أم فيكتور هالدين . لا أحد يستطيع أن يعرف أية حكاية قصتها عليها . وعلى أية حال ، فأنا لا أعرف أيضاً ، ولكن بدا لي أنها ماتت من صدمة خيبة الرجاء التي تحمّلتها في صمت . لم تصدقه . ربما كانت لم تعد قادرة على أن تصدق أحداً ، لذا لم يكن لديها ما تقوله لأحد . . . ولا حتى لابنتها . وأعتقد أن الآنسة هالدين عاشت أثقل ساعات حياتها قرب ذلك السرير الصامت ، سرير الموت . وأعترف أنني كنت غاضباً من المرأة العجوز كسيرة القلب التي ماتت مصمّمة بعناد على ألا تثق بابنتها وبالتالي أن تبقى صامتة .

وحين انتهى كل شيء ، ابتعدت جانباً . كان مواطنو الآنسة هالدين

من حولها آنذاك . وقد حضر عدد كبير منهم الجنازة . وقد حضرتها أنا أيضاً ، ولكنني استطعت لاحقاً أن أبتعد عن الآنسة هالدين حتى استلمت رسالة قصيرة تكافئني على انكاري لذاتي : « الأمر كما أردته أنت . سأعود إلى روسيا فوراً . لقد صممت على ذلك . تعال لتراني . »

لا شك أنها كانت مكافأتي على حظي للأسرار . وقد ذهبت دون ابطاء لاستلام المكافأة . بدت على الشقة في « شارع الفلاسفة » أمارات كئيبية تدلّ على المهجر الوشيك . بدت لي موحشة كأنما قد سبق لها وأضحت فارغة .

تبادلا ونحن واقفان كلمات قليلة حول صحتها وصحتي ، وبعض الملاحظات حول بعض الأشخاص من الجالية الروسية ، ثم بدأت ناتاليا هالدين بعد أن أجالستني على الأريكة بالتحدث بصراحة عن عملها المقام وخططها . كان ذلك كله كما تمنيته أنا . وكان على ذلك أن يستمر مدى حياتها كلها . لن نرى بعضنا البعض مرة أخرى . أبدأ !

ضممت هذا النجاح إلى قلبي . بدت ناتاليا هالدين ناضجة بعد تجاربها العانية والسرية . وبذراعين مطويتين راحت تدرع الغرفة من أولها إلى آخرها وهي تتحدث ببطء ، بيجين غير مقطب وصورة جانبية لوجهها واضح التصميم . لقد منحتني نظرة جديدة إليها ، وتعجبت لوجود شيء ما جدّي ومدرّوس في صوتها وحركاتها وأسلوبها . كان ذلك هو كمال الاستقلال الرائق بالنفس . لقد طفت قوة طبيعتها إلى السطح بعد أن جرى تحريك الأعماق الغامضة .

قالت بعد فترة صممت وبعد أن توقفت أمامي :

– نستطيع كلانا أن نتحدث في المسألة الآن . هل ذهبت إلى
المستشفى وسألت عن الوضع ؟

– أجل .

وحين نظرت اليّ بثبات قلت مستأنفاً :

... سيعيش ، كما يقول الطبيب . ولكنني كنت أظنّ أنّ « تكلا » ...

شرحت الآنسة هالدين بسرعة :

– لم أر « تكلا » منذ أيام عدة . وبما أنّي لم أعرض عليها أبداً أنّ
أرافقها إلى المستشفى ، فإنها تظنّ أنّ لا قلب لي . لقد خاب أملها بي .
وهنا ابتسمت الآنسة هالدين ابتسامة خفيفة .

قلت :

– أجل ، انها تحالسه طالما هم يسمحون لها بذلك . وتقول ان عليها
ألاّ تهجره أبداً . . . طالما هي على قيد الحياة . سيكون في حاجة إلى
شخص ما . . . فهو مقعد عاجز وأصمّ تماماً أيضاً .

غمغمت ناتاليا هالدين :

– أصمّ تماماً؟ لم أكن أعرف .

– انه كذلك . وهذا يبدو غريباً . لقد قيل لي انه لم تكن هناك
اصابات واضحة في الرأس ، ويقولون أيضاً أنه من الممكن أن يعيش
طويلاً بحيث لن تعيش « تكلا » لتعتني به حتى نهاية حياته .

هزت الآنسة هالدين رأسها .

– طالما كان هناك مسافرون مستعدون للسقوط على الطريق فإن
« تكلا » لن تكون عاطلة عن العمل . انها « سامرية » جيدة بمهنة لا

تستطيع مقاومتها . لم يفهمها الثوريون . تصور مخلوقة كنتاك تُستخدم لتحمل وثائق مخاطة بثوبها ، أو جعلها تدون ما يتلى عليها .

— ليس هناك كثير من حدة الدهن في هذا العالم .

ولكني ما أن لفظت هذه الملاحظة حتى ندمت عليها . فقد قامت ناتاليا هالدين التي كانت تنظر إلي مباشرة في الوجه ، بإشارة برأسها تدل على موافقتها . لم تكن قد أحست بأساءة ، ولكنها التفتت ثم راحت تذرع الغرفة من جديد . بدت بالنسبة إلى غيني الغربيتين أنها كانت تتعد شيئاً فشيئاً غني ، وأضحت بعيدة عن متناولي الآن ، ولكن دون أن تصغر رغم المسافة المتزايدة . بقيت صامتة كأنه كان الكلام دون جدوى . ولكن صوتها القريب مني جداً جعلني أجفل قليلاً .

— لقد رأته تكلا وهم ينتشارونه بعد الحادث . وهذه الانساعة الطيبة لم تشرح لي فعلاً كيف حدث ذلك . ولكنها تؤكّد أنه كان بينهما تفاهم — نوع من الاتفاق — أنه في حالة الحاجة الماسة أو المصيبة أو صعوبة أو ألم ، فإن عليه أن يأتي إليها .

قلت :

— هل كان هناك مثل هذا الاتفاق حقاً ؟ انه لمحظوظ اذن . سيحتاج إلى كل تفاني المرأة السامرية الطيبة .

وكانت تلك حقيقية ، فان « تكلا » التي كانت تتطلع من نافذتها في الخامسة صباحاً ، لسبب ما أو لآخر ، قد رأت رازوموف في الأرض المحيطة بقصر بوريل ، واقفاً هناك في حالة من الجمود الكامل ، حاسر الرأس تحت المطر ، عند سفح الشرفة . وقد صرخت فيه منادية باسمه لتعرف ما الحكاية . ولكنه لم يرفع رأسه حين . وما أن ارتدت من الملابس

ما يكفي لتنزل إلى الطابق السفلي كان قد رحل . وقد لحقت به واندفعت نحو الطريق ولكنها وصلت عندما كانت الحافلة قد توقفت وراحت لمجموعة الصغيرة من الناس تنتشل رازوموف . هذا ما قالت لي « تكلا » شخصياً في عصر أحد الأيام حين التتينا عند باب المستشفى ، ودون أي تعاقب كان . ولكني لم أكن راغباً في التأمل كثيراً في جوهر هذه الحادثة الغريبة .

— أجل يا ناتاليا فيكتوروفنا ، سيكون في حاجة إلى شخص ما حين يخرجونه من المستشفى على العكاكيز وفي حالة من الصمم الكامل . ولكني ؟ أظن أنه حين اندفع كمنجنون هارب من المصح إلى داخل الأرض المحيطة بقصر بوريل كان يفعل ذلك ليطلب مساعدة من « تكلا » الطيبة . قالت ناتاليا وهي تتوقف أمامي .

— لا ، ربما لا .

ثم جلست وأراحت رأسها على يدها متأملة . دام الصمت دقائق عدة . وخلال تلك الفترة تذكرت أمسية الاعتراف الرهيب . . . التفجع الذي لم يكن فيها من الحياة ما يكفي لتنطقه : « من المستحيل أن يكون المرء أكثر تعاسة من ذلك . . . » وكان من شأن هذه الذكرى أن تجعلني أرنبجف لو لم أكن مستغرقاً في التعجب من قوتها وهبوطها . لم تعد ناتاليا هالدين موجودة فهي قد توقفت عن التفكير في نفسها . كان ذلك انتصاراً هائلاً ، انجازاً روسياً مميزاً في كبح الذات .

وقد أعادتني إلى نفسي بأن نهضت فجأة كشخص وصل إلى قرار . سارت إلى طاولة الكتابة المجردة الآن من كل الأدوات الصغيرة المتعلقة بها للاستخدام اليومي . . . وأصبحت مجرد قطعة ميتة من الأثاث ، ولكنها

كانت تحوي شيئاً جياً حتى الآن ، منذ أن أخرجت منها طرفاً مسطحاً
جلبته لي .

قالت على نحو مفاجيء :

- انه دفتر . لقد أرسل لي ملفوفاً بوشاحي . ولم أخبرك به في ذلك
الحين ، ولكنني قررت الآن أن أتركه معك . لي الحق في فعل ذلك .
لقد أرسل اليّ ، انه يخصني . قد تحتفظ به أو تتلفه بعد أن تقرأه .
وبينما أنت تقرأه أرجو أن تتذكر أنني كنت فعلاً عزلاء . وأنه كان . . .
كررت مندهشاً وأنا أنظر إليها بشدة :

- عزلاء !

همست :

- ستجد هذه الكلمة بالذات مدوّنة في الدفتر . حسناً ، هذا
صحيح ! لقد كنت فعلاً عزلاء . . . ولكن ربما كنت قادراً على أن
ترى ذلك بنفسك .

احمرّ وجهها ثم شحب شحوباً شديداً واستأنفت تقول :

- وحتى لا نظلم الرجل ، فاني أريدك أن تتذكر أنني كنت عزلاء
فعلاً . أوه ! لقد كنت !

نهضت مترنحاً بعض الشيء .

- ليس من المحتمل أن أنسى أي شيء تقولينه في لقائنا الأخير هذا .
سقطت يدها في يدي .

- من الصعب التصديق بأن على هذا أن يكون وداعنا الأخير .

وقد ضغطت على يدي كما ضغطت على يدها ثم انفصلت يدانا .
- أجل . سأرحل غداً . عيناى مفتوحتان أخيراً ويديا حرتان
الآن . أمام بالنسبة إلى البقية . . . فمن منا يستطيع ألاّ يسمع الصرخة
المكتومة لمحتننا الكبرى ؟ قد لا تكون لها أية قيمة في هذا العالم .

قلت :

- العالم أكثر إدراكاً لأصواتكم المتعارضة المتنافرة . هكذا هو
العالم .

أومات برأسها موافقة وهي تقول :

- أجل .

ثم ترددت لحظة قبل أن تستأنف :

- عليّ أن أعترف لك أنى لن أتخلى على الشوّف إلى ذلك اليوم
الذي لا يبقى فيه أى تنافر . حاول أن تتصور فجر ذلك اليوم ! حين
تكون عاصفة الضربات واللعات قد انتهت ، وقد ساد الهدوء . الشمس
الجديدة آخذة بالشروق ، والرجال المنهكون موحدون أخيراً ، وقد
راحوا يدرسون بضمائرهم الصراع المنتهى ، ويشعرون بالحزن على
انتصارهم ، لأن الكثير من الأفكار قد قتلت لتحيا فكرة واحدة ،
وكثيراً من المعتقدات قد تركتهم دون سند أو مؤيد . سيشعرون بالوحدة
على هذه الأرض فيتآزرون . أجل ، لا شك أنه ستمر ساعات مريرة
كثيرة ! ولكن ألم القلوب سيطفئه أخيراً الحب .

وبهذه الكلمة الأخيرة من كلمات الحكمة ، الكلمة الندية جداً ،
والمرّة جداً ، والقاسية أحياناً ، ودّعتُ ناتاليا هالدين . من الصعب عليّ

أن أفكر في أنني لن أنظر مرة أخرى إلى تينك العينين المترعتين بالثقة . . .
المشودوتين بإيمان لا يقهر بقدم الوفاق الحبي النابع كزهرة سماوية من
تربة أرض البشر ، المسة بالدم والممزقة بالنزاعات والمروية بالدموع .

* * *

يجب أن يعرف القارئ أنني لم أكن أعرف في ذلك الحين أي شيء
يتعلق باعتراف رازوموف للثوار المجتمعين . قد تكون ناتاليا هالدين قد
خمنت ذلك « الشيء الآخر » الذي بقي عليه أن يفعله ، ولكن عيني
الغريبتين فشلت في رؤيته .

لقد بقيت « تكلا » ، الوصيصة السابقة لـ « المدام دوس . . . » ملازمة
لسريره في المستشفى . وقد تقابلنا مرة أو مرتين عند باب تلك المؤسسة ،
ولكنها لم تكن في تلك المناسبات ميالة إلى الحديث . وكانت تعطيني
أخبار السيد رازوموف بأكبر إيجاز ممكن . كان رازوموف يتحسن
ببطء ، ولكنه سيبقى مُقْعِداً طوال عمره . شخصياً ، لم أقرب منه أبداً ،
ولم أراه مرة أخرى ، بعد تلك الأمسية الرهيبة حين كنت أقف جانباً ،
كشاهد يقظ إنما متجاهل لذلك المشهد مع الآنسة هالدين . وقد تم اخراجه
من المستشفى وقامت « قريبتة » - كما قيل لي - بنقله إلى مكان ما .

وقد اكتملت معلوماتي بعد عامين تقريباً . لم أحاول أنا أن أبحث عن
تلك المعلومات ولكن حدث صدفة أن قابلت امرأة ثورية موثوقة جداً في
منزل شخص روسي بارز ذي قناعات ليبرالية أنى ليعيش في جنيف
لفترة معينة .

كانت شهرته تختلف عن شهرة بيتر ايفانوفيتش . . . وكان شخصاً
ذا شعر داكن وعينين لطيفتين وإباء وتهذيب ، وفي أسلوبه شيء من

الحذر والاحتراس . وقد اقترب هذا مني وقد اختار لحظة لم يكن أحد إلى
القرب منا ، وتبعته سيدة حيوية ذات شعر رمادي في قميص أحمر ،
ثم خاطبني بصوته الحذر :

– تريد صوفيا أنتونوفنا أن تتعرف عليك . لذا سأترككما معاً
لتبادلا بعض الحديث .

بدأت المرأة رمادية الشعر تقول على الفور :

– ما كنت لأتطفل عليك لو لم أكلف بتبليغك رسالة .

وكانت تلك رسالة من بضع كلمات ودية من ناتاليا هالدين . كانت
صوفيا أنتونوفنا قد عادت للتو من رحلة سرية إلى روسيا وقابلت الآنسة
هالدين التي كانت تعيش في إحدى المدن في وسط روسيا موزعة جهودها
الرحيمة بين أهوال السجون المكتظة وبؤس المنازل المفجوعة الذي يحطم
القلب . لقد أكدت لي صوفيا أنتونوفنا أنها كانت تبذل قصارى جهدها في
تقديم الخدمات الطيبة .

نلخصت المرأة الثورية الموضوع كله وبللمسة من الحماسة :

– لديها روح مخلص ، روح شجاعة ، وجسد لا يعرف التعب .

ان حوار كهذا ما كان لينتهي بسرعة خاصة وأن اهتمامي لم يكن
قليلاً . وقد ذهبنا لنجلس لوحدها في زاوية لا يقاطعنا فيها أحد . وخلال
حديثنا عن الآنسة هالدين قالت صوفيا أنتونوفنا فجأة :

– أعتقد أنك تتذكر أنك رأيتني سابقاً ! في ذلك المساء الذي جاءت

فيه ناتاليا لتسأل بيتر ايفانوفيتش عن عنوان شخص اسمه رازوموف ،
ذلك الشاب الذي . . .

قلت :

— أتذكر تماماً .

وحين علمت صوفيا أنتونوفنا أن مذكرات ذلك الشاب كانت في حوزتي بعد أن أعطتني اياها الأتسة هالدين ، فقد ازداد اهتمامها إلى حد بعيد . ولم تحف فصولها لترى المذكرات .

وقد عرضت عليها أن أريها اياها ، وقد أبدت استعدادها لزيارتي في اليوم التالي لهذا الغرض .

وقد قامت بتقليب الصفحات بلهفة مدة ساعة أو أكثر ، ثم أعادت الدفتر إليّ بتنهيدة ضعيفة . فخلال تنقلها في روسيا قابلت رازوموف أيضاً . لم يكن يعيش في وسط روسيا بل في الجنوب . وقد وصفت لي كونه خشياً ذا غرفتين في ضاحية مدينة صغيرة ، مختفياً وراء حاجز خشبي لفاء نمت فيه نباتات الشوك على نحو مفرط . كان مقعداً ومريضاً وصحته آخذة بالتدهور يوماً ، وكانت « تكلا » السامرية تعني به دون كلل بكل ما في التفاني والايثار من متعة خالصة ، لم يكن في تلك المهمة ما يمكن أن يخدع المرء .

لم أخف عن صوفيا أنتونوفنا دهشتي بأنها قد قامت بزيارة رازوموف . لم أفهم حتى الدافع وراء ذلك . ولكنها أعلمتني أنها لم تكن الوحيدة التي فعلت ذلك .

— البعض « منا » يذهب دائماً ليراه في طريقه . انه ذكي . لديه أفكار . . . ويتحدث على نحو جيد أيضاً .

وهنا علمت للمرة الأولى عن الاعتراف العلني لرازوموف في منزل

لا سبارا . وقد حكمت لي صوفيا أنتونوفنا بالتفصيل ما حدث هناك . لقد
حكى لها رازوموف عن ذلك كله وبكل دقة .

ثم نظرت إلي بشدة بعينيها السوداوين اللامعتين وقالت :

— هناك لحظات شريرة في كل حياة . قد تدخل فكرة مزيفة في عقل
شخص ما ، ثم يولد الخوف . . . الخوف من الذات ، والخوف على
الذات . أو هي شجاعة مزيفة . . . من يلدي ؟ حسناً ، سمّها ما تشاء ،
ولكن قل لي كم منهم مستعد أن يسلم نفسه طوعاً للفناء (كما يقول هو
في مذكراته) على أن يتابع العيش وهو يحتقر نفسه سراً ؟ . . . وأرجوك
أن تلاحظ أنه كان في مأمن حين فعل ما فعله . لقد حدث عندما وثق من
أنه في أمان ، بل وعلاوة على ذلك . . . وعندما اتضح له امكانية أن
تجبه تلك الفتاة المثيرة للاعجاب لأول مرة ، عندها اكتشف أن أكثر
احتجاجاته مرارة ، أسوأ شروره ، والعمل الشيطاني لحقده وكبرياته
لا يمكن أن تغطي على عار ذلك الوجود الذي أمامه . وهناك شخصية
متميزة في مثل هذا الاكتشاف .

قبلت استنتاجها في صمت . من ذا الذي يهتم في أن يجادل في أسس
الغفران أو التعاطف ؟ وعلى أية حال ، فقد ظهر لاحقاً أنه كان بعض
من وخز الضمير أيضاً في الاحسان الذي قدمه الثوريون لرازوموف
الخائن . وهنا استأنفت صوفيا أنتونوفنا الكلام بصعوبة :

— وأنت تعرف أنه كان ضحية اعتداء وحشي . ولم يكن ذلك
حسب أوامر . لم يكن هناك أي قرار فيما يتعلق بما عليهم أن يفعلوه به .
لقد اعترف طوعاً . ولكن نيكيتا ذاك فجر له طبلي أذنيه عن عمد ،

على منبسط الدرج ، كما تعرف ، كأنما دفعه السخبط إلى ذلك . . .
حسناً ، وقد تبين أنه وغد من أسوأ نوع . . . وأنه خائن هو نفسه ، بل
وجاسوس . وقد قال لي رازوموف انه اتهمه بالخيانة بنوع من الوعي . . .
قلت :

— لقد لمحت ذلك الشخص المتوحش . كيف كان ممكناً لأي منكم
أن يخدع به لمدة نصف يوم؟ هذا ما لا أستطيع أن أفهمه !
قاطعتني قائلة :

— حسناً ، حسناً ، لاتذكر ذلك . في أول مرة رأيته فيها ، شعرت
أنا بالرعب أيضاً ، ولكنهم أحرصوني . لقد كنا نقول واحدا للآخر :
« عليك ألا تهم بمظهره . » وكان دائماً مستعداً للقتل . لم يكن هناك شك في
ذلك . لقد مارس القتل . . . أجل ، لدى كلا المعسكرين . الشيطان . . .

ثم حكيت لي صوفيا أنتونوفنا بعد أن سيطرت على الارتجاف الغاضب
لشفتيها حكاية عجيبة جداً . لقد حدث أن التقى المستشار ميكولين الذي
كان يسافر في ألمانيا (بعد اختفاء رازوموف من جنيف بفترة قصيرة)
ببيتر ايفانوفيتش في عربة قطار ، وبما أنهما كانا لوحدهما في المقصورة
فقد تبادلوا الحديث نصف ليلة بكاملها ، وعندها أعطى ميكولين رئيس
الشرطة لمحة لقائد الثوريين عن الشخصية الحقيقية لأكبر قاتل للدرك .
تذان يبدو وكأن ميكولين كان راغباً في التخلص من عميله ذاك بالذات !
ربما كان قد تعب عنه أو كان خائفاً منه . ولا بد من القول ان ميكولين
تورث نيكييتا المشؤوم من سلفه في المنصب .

وهذه الحكاية سمعتها أيضاً دون تعليق حيث أني شاهد صامت على

الأمور الروسية التي كانت تكشف عن منطقتها الشرقي تحت نظري الغربي .
ولكنني سمحت لنفسني بطرح سؤال واحد :

– قولي لي يا صوفيا أنتونوفنا : هل تركت « المدام دو س . . . »
كل ثروتها لبيتر ايفانوفيتش ؟

هزت المرأة الثورية كتفيها باشمئزاز :

– ولا قرشاً واحداً منها . لقد ماتت دون أن تكتب وصيتها . وقد
وصل العديد من أولاد وبنات الأخوة والأخوات من سانت بطرسبورغ
كسرب من الطيور الجارحة ، وتقاتلوا على أموالها . كل أولئك الوجيهون
من عائلة « كامر هامر » ووصيقات الشرف . . . خدم البلاط الكريهون
أولئك ! تفوا !

قلت بعد فترة صمت :

– لم نعد نسمع الكثير عن بيتر ايفانوفيتش في هذه الأيام .

قالت صوفيا أنتونوفنا :

– بيتر ايفانوفيتش تزوج من فلاحه .

دهشت تماماً .

– ماذا ؟ على الريفير ؟

– يا للهراء ! طبعاً لا .

كانت لهجة صوفيا أنتونوفنا لاذعة .

صرخت :

-- هل يعيش اذن في روسيا ؟ هذه مخاطرة هائلة ، أليس كذلك ؟
وكل ذلك من أجل فلاحه . ألا تعتقدن أنه يرتكب خطأ فظيلاً ؟
حافظت صوفيا أنتونوفنا على صمت غامض لفترة ، ثم قالت :
-- انه وبكل بساطة يعبدها .
-- حقاً ؟ حسناً اذن ، أامل أنها لن تتردد في ضربه .
نهضت صوفيا أنتونوفنا وودعتني وكأنها لم تسمع كلمة واحدة من
أمنيتي غير اللطيفة ؛ ولكنها التفت للحظة عند الباب ، حيث رافقتها إلى
هناك ، وقالت بصوت حازم :
-- بيتر أيفانوفيتش رجل مساهم .

* * *

الفهرس

٥	جوزيف كونراد
٨	أعمال جوزيف كونراد
	سأخذ الحرية من أية يد
١١	كما يختطف الجائع كرة من الخبز
١٣	ملاحظة بقلم المؤلف
١٧	الجزء الأول
١٩	تمهيد
١٣٩	الجزء الثاني
٢٦٥	الجزء الثالث
٣٨٩	الجزء الرابع



Section of the Board of
Education

1911

روسيا على ليالي الثورة فالسؤال المطروح اسئلة:
ما ستكون عليه امبرطورية القياصرة ستتقلص أم
تتسع؟ وفي أي اتجاه ستتسع اذا اتسعت؟ ما سيكون
شكل الحكم؟ ونوع علائق الناس ببعضهم. هذه
الاسئلة هي التي يطرحها جوزيف كونراد في روايته
هذه عام ١٩١٢ بالاحزى يحاول الاجابة عنها بلسان
استاذ سويسري عجوز خبرته اتسعت وعقله امتد
بحيث صار الحاضر عنده مستقبلا.

الاجوبة والاسئلة شرقية - غربية اذ ان المؤلف
وهو بولوني الاصل يكتب من موقع بريطاني فنظور
الرؤية مزدوج. وهو يعرف ان كل تبديل في روسيا
يرتكس لتوه على وطنه سلبيا أو ايجابيا وربما على
امم اخرى مجاورة لروسيا ومن المعروف ان حلم
القيصرة كان الامتداد نحو المياه الدافئة أي نحو
البحر الابيض المتوسط.

هل تحققت نبؤات كونراد؟ اترك لقارئ الرواية
البحث عن الجواب على الخصوص في كلام الاستاذ
السويسري، ما من شك ان المستقبل حاضر في الماضي
ومن حق الروائي ان يستشرف المستقبل في قراءة
دقيقة للحاضر وللماضي كما يستشرفه العلماء اليوم
بوسائل اخرى. الاعتراض الوحيد على الروائي
وعلى علماء المستقبل هو أن التاريخ لا يعيد ذاته ومع
ذلك فبدور الأتي الآفل. وسيكون المستقبل غير
الماضي وياه. وتلك مشكلة النبؤات.

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٠

في الاقطار العربية ما يعادل

١٣٠٠ ص

سعر النسخة داخل المطبع

١٥٠ ص